A.U.B. LIBRARY

956.9
Z21aA
V.1

عشائر الشام

الجزء الأول } يبحث في جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها والاخلاق والعادات والشرائع في المجتمع البدوي

الجزء الثاني } وانساب العشائر المتبدية والمتحضرة واوصافها واخبارها في كل محافظة وقضاء

الجزء الأول

بقلم

أحمد وصفي زكريا

69317

دمشق ١٣٦٣ — ١٩٤٥

مطبعة دار الهلال بدمشق

١٩٤٥/٩/١٠٩

Cat. July 1955

S.A.A
1994-1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

موضوع « البادية » وما فيها من الاوصاف والاحوال وما للاعراب او « البدو » من الاخبار والاقوال ... كل ذلك من الموضوعات التي اهتم بها ادباء العربية فيما مضى كثيراً وشدوا الرحال إلى مواطنها ومصادرها واطالوا البحث والكتابة عنها . وقد جرى رواد الأفرنج ومستشرقوهم في عهدنا على مثالهم . لكن هؤلاء بذوا اولئك الادباء في النواحي الطبغرافية والأثرية والاجتماعية والأتنوغرافية وغيرها مما اوجدته مكتشفات العلوم الحديثة في العصور الاخيرة واقتضته غاياتها الاقتصادية والاستعمارية . اما ادباء العربية المعاصرون فقد قصروا في ذلك واهملوا كما اهملوا كثيراً مما يتعلق بجغرافية بلادهم وتاريخها ووصف خططها وآثارها وعمرانها في عهدنا ومزايا سكانها وعاداتهم وأخبارهم في زمننا ، ومنها موضوع «البادية» و « العشائر». أجل ؛ قام بعض الفضلاء في العراق ومصر وجنوبي الشام «فلسطين وشرقي الاردن» ممن سنذكر اسماءهم بقسط محمود في هذا الموضوع ، إلا ان بحث كل منهم ظل منحصراً في بلاده . اما شمالي الشام وأخص بالذكر المدن المجاورة للبادية والمتعاملة مع البدو كدمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور، فقد اعرض ادباؤها وكتابها عن هذه الابحاث إعراضاً طويلاً فظلت مجهولة كأن البدو من غير ملة ولغة وسابقة عهد ، وقد كان حرياً بهؤلاء الادباء والكتاب ان يعنوا بهذا الموضوع الهام ولا يهملونه ، وان يأتوا بدراسات مبتكرة عما غمض من شؤون بلادنا وامتنا الحاضرة التي عددناها ، لا ان يقصروا عنايتهم على تكرار ما طفحت به الاسفار القديمة .

* * *

يؤلف البدو بين ظهرانينا نحو (٣٠٠٠٠٠ نسمة) وهم جديرون بكل دراسة وعناية لان لهم خطراً وشأناً كبيرين في مجتمعنا ومعاشنا من قبل ومن بعد . فكل

السمون واكثر اللحوم التي نأكلها والأصواف التي ننسجها والمطايا التي نركبها منهم ، وقسم كبير من سكان المدن الشامية التي عددناها يعتمد في تجارته ومرتزقه من الماشية ومنتوجها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو ، كما ان مقداراً غير يسير من وارد بيت مال الدولة يتألف مما يدفعه البدو من ضرائب الاغنام والابل. هذا الى ان لهم ممثلين معتبرين في مجلسنا النيابي الشامي ورؤساء اجلاء يتقاضون منحاً سنوية من خزانة الدولة تراهم في سياراتهم ذاهبين آيبين لاينقطعون عن غشيان العواصم والحواضر ومراجعة المقامات والدوائر لحل مسائلهم ومشاكلهم العشائرية التي لايعرف أكثرنا شيئاً عنها ، ثم بيننا وإياهم مالا يخفى من صلات العرق والدم وروابط اللغة والدين وتاريخ الماضي وألم الحاضر وأمل المستقبل. وقد أوصى سيدنا عمر بن الخطاب (رضه) بهم فقال للخليفة من بعده : اوصيك بأهل البادية خيراً ،فانهم أصل العرب ومادة الاسلام أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم» (١) وقد آن الأوان لأن نرفع ماوضعته عوادي الأزمان أمام هذه الصلات من الحواجز والفواصل ولأن نزيدها تقريباً وتنظيماً ليجتمع الشمل بين حضرنا وبدونا وتقوى الألفة ويشتد الاخاء فننتفع بسواعدهم ونواتجهم وننفعهم بمعارفنا ومواهبنا ، ونزداد بهم اقتداراً واعتزازاً في سبيل الاهداف الوطنية والاماني القومية .

* * *

لم تعد العربية ترى — للأسف — بين أبنائها الحاضرين امثال ابي عبيدة والأصمعي وخلف الاحمر وأبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية والمفضل الضبي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ممن كانوا في صدر الاسلام يتجشمون مشاق السفر إلى البادية ويختلفون إلى المضارب ويحادثون البدو ويتتبعون منظوم كلامهم ومنثوره ويلتقطون أخبارهم ووقائعهم ونوادرهم ويدونونها ويؤلفون فيها كتباً ورسائل حفظ الدهر بعضها إلى عهدنا لولاها لضاع كثير من لغات العرب الاقدمين وتاريخهم.

اجل؛ عندنا كثير ممن يعرفون البدو ويعاشرونهم ويستسيغون مر عيشهم وحلوه وكثير ممن يشاركونهم في تربية الخيل والشياه ونواتج الزرع والضرع وجل هؤلاء

(١) البيان والتبيين للجاحظ . ج ٢ صفحة ٤٨

من اهل الاحياء المتطرفة في مدننا الشامية كالميدان في دمشق والحاضر في حماة وباب النيرب في حلب وباب الدريب في حمص واكثر احياء دير الزور وغيرهم . وبعض هؤلاء المشاركين والمعاشرين للبدو ومثلهم بعض المتعلمين والمتأدبين في احياء اخرى من تلك المدن قد يحفظ قليلاً او كثيراً من قصائد البدو وقصصهم ونوادرهم . لكن هذا البعض يغلب عليه التهاون في تعميق البحث والزهد في النشر والبث ، لا يأبه لتدوين ما يعرفه واذاعة ما يسمعه . ناهيك ان احداً من هؤلاء لم يفكر بتوسيع ما التقطه بالنقل او الشرح ولا بمقايسته بما روي عن الاعراب السابقين في الجاهلية وصدر الاسلام وبما درج من اشباهه في كتب الادب العربي ونخص بالذكر كتاب (الاغاني) لابي الفرج الاصبهاني . فقد جمع هذا السفر مايعجب ويطرب من الاخبار والسير والاشعار والنوادر المتصلة بايام الاعراب المذكورين واخبارهم المأثورة . وهو قد انتقاها من عيونها واخذها من مظانها بجهد واتقان عجيبين . فهل لنا بابي فرج لزمننا الحاضر يأتينا بمثال مصغر لكتاب الاغاني المذكور يدون فيه اخبار الاعراب المعاصرين وسيرهم واشعارهم وملحهم واخبارهم قبل ان يطويها النسيان ويضيع ما لدى بدو زمننا من خبر او اثر وما في ادبهم وشعرهم من معنى مبتكر . وهل لنا على الاقل بمن يحذو حذو المستشرق الافرنسي المسيو مونتاني الذي سوف يرد ذكره وذكر عمله.

قد صرنا الان حتى في هذه الموضوعات المتعلقة بنا عالة على رواد الافرنج ومستشرقيهم. لأن هؤلاء ما برحوا يتجشمون ويختلفون ويحادثون ويتتبعون هذه الاخبار والوقائع والنوادر ناهيك الابحاث الطبغرافية والأثرية والاجتماعية والاتنوغرافية وغيرها التي برعوا بها أي براعة . فهم لم يغادروا بادية من بوادينا إلا اخترقوها ولا عشيرة من عشائرنا إلا وزاروها ولا خربة من خربنا إلا ورادوها ولا علوماً وأخباراً ولا قصائد وأشعاراً عن البداوة والبداة إلا التقطوها وفسروها وشرحوها ، كل ذلك بنشاط واهتمام يثيران الاعجاب والاكبار. وهم كما لا يخفى ولوعون بالبحث والتدقيق ، حريصون على التأليف والتدوين ، اسخياء بالبث والنشر والافادة الغير . فقد دون اولئك الرواد والمستشرقون كتباً عديدة في مختلف اللغات الأوربية سنذكر أسماءها في حينه نقرأها بكثير من التفكير والتقدير . ولو جئت أعدد أسماء هؤلاء الافاضل وأذكر الأماكن التي ولجوها

وجاسوها في فيافي الجزيرة العربية وقد أتوها من أقصاها إلى أقصاها حتى الربع الخالي ، وأنقل المشاق والأخطار التي قاسوهـا في الأوعار والرمال والحر والقر والجوع والعطش والمؤلفات التي وضعوها مزينة بالرسوم والخرائط والارقام ناهيك جودة الوصف ودقة الشرح اللذين يجعلانك تلمس الموصوف والمشروح لمساً ؛قلت لو جئت أعدد ذلك لضاق بي مجال هذا الكتاب .

وحسبي أن أذكر من هؤلاء السيدة الفـاضلة اللادي آن بلونت الانكليزية ؛ فقد جاءت هذه في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م) حينما لم يكن سيارات ولا سهولة في المواصلات وركبت هي وزوجها الهمام ويلفرد بلونت الخيل والابل من دمشق وتحملت المشـاق في أوعار حرة الراجل وأحجار وادي السرحان ورمال النفود وتعرضت لغـارة غزاة من الأرولة كادوا يفتكون بها وبزوجها إلى أن بلغت حائل عاصمة نجد بسلام وضافت الامير محمـد بن الرشيد المتوفي سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) وقد كان حينما ضافتـه في أوج سطوته وعزته وزارت ديوانه وايوانه ونساءه وخيله وأحاطت علماً بحالته وحالة البـلاد النجدية في ذلك الحين . ثم عادت مع ركب الحج العراقي عن طريق النجف وبغداد . وهذا غير رحلاتها إلى بادية الشام وضفاف الفرات وبحثها عن عشـائر هذه الانحاء واصدارها بعد رجوعها الى بلادها كتباً قيمة عما رأته وسمعته سنذكر اسماءها . ومثلها في الحرب الماضية وقبلها وبعدها الآنسة الانكليزية (ميس كرترودبل) سنة ١٢٨٥ — ١٣٤٤ هـ (١٨٦٨ — ١٩٢٦ م) الخارقة في ذكائها ونشاطها وادارتها وقوة ارادتها ، فقد رحلت هذه وبحثت كثيراً وقطعت الفيافي والقفار على ظهور الابل والخيل وابلت احسن بلاء في خدمة بلادها وامتها في العراق وفي معاونة العراق على عهد المرحوم الملك فيصل والفت عدة كتب (١) . هذان مثالان من نسائهم . اما رجالهم فحدث عن كثرتهم ولا حرج . حسبك منهم موزيل الشيكوسلوفاكي الملقب بالشيخ موسى الرويلي . فقد ظل هذا بين بدو الارولة عدة سنوات ينزل ويرحل معهم ويتحمل خشونة عيشهم ، بينما هو يجوس ويحث ويؤلف كتباً ويرسم خرائط ويصور مناظر في جغرافية البوادي العربية

(١) من كتبها (العامر والناضر) و (من مراد إلى مراد) و(الف بيعة وبيعة) وغيرها .

وارضها وسمائها وسكانها واحوالها وفي عوائد اصدقائه الارولة وتقاليدهم واخبارهم. وحسبك منهم المسيو مونتاني احد اساتذة المعهد الاثرى الافرنسي في دمشق فقد ذهب هذا الى مضارب شمر الجزيرة وتجول اسابيع واشهر وتسقط منهم طائفة من القصص والقصائد الحربية والحماسية والغرامية وغيرها مما يتداولونه ويترنم به شعراؤهم ، وقد كتبها بنصها وفصها وترجم كلماتها وجملها الى الافرنسية ترجمة دقيقة وشرحها . وبعد هذا التعب خرج بمقالة ضافية غاية في الجودة والمتعة درجها في (مجلة الدراسات الشرقية) للمعهد المذكور (ج ٥ سنة ١٩٣٥) ، وحسبك منهم البارون فون اوبنهايم الالماني الذي جاء في سني ١٩٣٦ و ١٩٣٧ وتجول في بلاد الشام وبحث عن عشائرها بحثاً غاية في التدقيق والتفصيل. وقد طبع ونشر في سنة ١٩٣٩ مؤلفاً قيماً بالالمانية صدره برسم المرحوم عجيل الياور شيخ مشايخ شمر العراق . وهذا غير مؤلفه القديم الذي ضمنه رحلته قبل نصف قرن في العراق والشام وابحاثه عن عشائر تلك الحقبة ، وغير مؤلفاته الباحثة عما حفره ونقبه في (تل حلف) في قضاء رأس العين (محافظة الجزيرة) وعما كشفه هناك من آثار الحثيين ، وقد اودع نماذج من هذه الآثار الضخمة في متحف حلب . وحسبك منهم بعض الضباط الافرنسيين الذين كانوا مكلفين بمراقبة البدو ومداورتهم امثال المقدم مولر والرئيس رينو والملازم بوشمان وغيرهم . ولم يقصر الرهبان في الايغال في البيداء والبحث عن آثار البادية ومعالمها وعن احوال البدو في نواحي الاجتماع والانساب . وقد برز في ذلك الراهبان جوسن وسافينياق الدومينيكيان والراهبان بواديبار وهنري شارل اليسوعيان ممن سنذكر في الفصل التالي مساعيهم واسماء كتبهم . فاعظم بهمة هؤلاء العلماء العاملين الذين يكشفون مجاهيلنا ويحيون آثارنا وينشرون منظوم باديتنا ومنثورها ويسجلون للاجيال القادمة توالدها وطرائفها ، ونحن عن ذلك غافلون .

* * *

كتب لي ان امكث في سلمية سبع سنوات لما اسست قبل ربع قرن مدرستها الزراعية وادرتها وانشئت خريجيها المنتشرين الآن في وظائف واعمال زراعية وغير زراعية في مختلف الاقطار العربية . وقضاء سلمية مركزهام

للعشائر امثال الاسبعة والموالي والحديديين والعقيدات وبني خالد والخراشيم والبشاكم والجملان وبني عز والمشارفة وغيرهم . فكان يكثر ترددهم عليها وتجوالهم في قراها وتقيظهم في مروجها واقتتالهم من حين الى آخر في براريها الشرقية اخص بالذكر الموالي والحديديين اللذين نشبت معاركهما منذ سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨م) واستفحلت شرورهما فخربت قرى ونهبت عروض وسفكت دماء وعقدت مؤتمرات لاجلهم ولاجل غيرهم في سلمية وفي عقيربات شرقي سلمية مراراً . فكنت وقتئذ ارى واسمع ويدفعني ابتلائي بالبحث والاستطلاع الى السوآل عن البواعث والباعثين لما يجري . ثم كتب لي ايضاً بعد سلمية ان اتجول تسع سنوات في (املاك دولة الشام) وقراها العديدة لما كنت مفتشها . وهذه الاملاك الشاسعة هي على تخوم البادية وكثير من فلاحيها وكل الضاربين في براريها هم من البدو او انصاف البدو . فتيسر لي خلالها ان ازور بعض هؤلاء فانظر واستقصي عوائدهم وتقاليدهم واسماء عشائرهم وفرقهم واحاديث معائشهم ومعاركهم وما الى ذلك . واذا فاتني شيء استعلم عنه من ذوي المعرفة بالبدو والبادية بالمحادثة او المراسلة حتى اجتمع لي قدر غير يسير من هذا البحث العسير . وكنت ازيد ما علمته بما اجده بعد التنقيب والجهد في المؤلفات العربية والافرنجية الباحثة عن الغابرين من البدو والحاضرين وفي بعض التقارير الرسمية والخصوصية حتى حسبت ان تدوين هذه المعلومات ونشرها في كتاب كهذا صار ممكناً ونافعاً . لان لهذه البحوث في ظني مكانة غير يسيرة في تاريخ الشام الحديث وتسجيلها واجب قبل ان يطويها الاهمال والنسيان ، ويظل هذا التاريخ ناقصاً تلقاء ما عمله الاسلاف في هذا المضمار وما يعمله الآن الغربيون الولوعون بالاطلاع على امورنا الاجتماعية في حاضرتنا وباديتنا بينما نحن لا نعرف عن اوطاننا ومواطنينا معشار ما يعرفونه .

* * *

وقد خطر لي قبل الاقدام على طبع هذا الكتاب ان اجرب حظ موضوعاته فنشرت بعض فصول منه في مجلة المجمع العلمي عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤٢) فاذا بها تلاقي استحسان من قرأوها من ذوي الفضل العارفين بما للعشائر من المكانة في مجتمعنا ، فكان ذلك مدعاة للاقدام . خاصة وقد جاء دور الاستقلال الزاهر

واحتضنت الحكومة السورية (ادارة العشائر) واصابت في اسناد هذه الادارة الى (السيد نوري ايبش) الرجل الممتاز باخلاقه وكفاءته . فانعقد الرجاء بحصول الاهتمام بامر هذه العشائر وابحاثها وبنوالها في عهد هذا المدير الهمام كل خير وصلاح مرتقب .

* * *

وقد قصرت هذا الكتاب في قسمه الاول على ذكر مقدمات وجيزة عن البادية وجغرافيتها وجوها ومائها وسهولها وجبالها ونباتها وحيوانها ونعيمها وشقائها وآثارها وعمرانها الغابر والحاضر ، ثم عن تاريخ البدو القديم والحديث وهجراتهم وافاعيلهم في بلاد الشام ، ثم عن اوصاف البدو واحوالهم الاجتماعية واخلاقهم ومزاياهم في الماضي والحاضر وما قاله مادحوهم وقادحوهم ، ثم عن عادات البدو في المعيشة والغزو والملبس والمسكن واللهو والزواج والاعراس والضيافة ، ثم عن التشريع البدوي وكيفية التقاضي والمرافعة واصول الصلح بين الافراد والعشائر . ثم قفيت على آثار ذلك في القسم الثاني بتعداد العشائر وتعريف انسابها واحسابها ومنازلها وفرقها واخبارها الماضية واحوالها الحاضرة . كل ذلك حسب المناطق الجغرافية التي لكل منها من جنوبي حوران الى اقصى شمالي الجزيرة الفراتية . وجرني سياق البحث الى ذكر التركمان والكرد والشركس ايضاً المتوطنين في بعض المحافظات والاقضية لما لهم من الصفة والمعيشة العشائرية .

وقد سميت كتابي هذا (عشائر الشام) وخصصته ببلاد الشام الشمالية . لوجود كتب باحثة عن عشائر بلاد الشام الجنوبية « فلسطين وشرقي الاردن » ، وعنيت بالشام البلاد التي تعرف الآن بسورية . بينما كلمة الشام هي الافصح والارجح ، وهي الكلمة العربية الاصلية الواجب علينا حفظها وتداولها كما حفظها وتداولها أسلافنا فقالوا : بادية الشام ودمشق الشام وطرابلس الشام وغيره ، وكما يحفظها ويتداولها حتى الآن اخواننا المصريون والحجازيون وهم على صواب فيما يقولونه ، ويدخل في هذا الواجب ايضاً ترويج كلمة (دمشق) لعاصمتنا كما روج اخواننا المصريون كلمة (القاهرة) لعاصمتهم .

على انني لاادعي الاستيعاب وبلوغ الغاية في هذه البحوث والدراسات الكثيرة التضارب والشرود ، لان التجوال في البادية والاتصال بالبدو او النبهاء من البدو في كل زمان ومكان امر غير يسير ، والتقاط الاخبار واستقراء الحقائق منهم دونهما مشقة وكلفة . لأن الامية منتشرة لديهم واهتمامهم بهذه الابحاث وحفظهم وذكرهم لها نادر جداً . والذين يحفظون ويذكرون قلما تتفق رواياتهم واسناداتهم وتصفو وقلما تخلو من الغلو ودعوى السبق والارجحية على الغير. هذا الى ان هذه المساعي متوقفة على الصدف واتهاز الفرص لمن كان بعيداً مثلي عن التأثير الرسمي في هذا الشأن ، مما يسهل ويتيسر اكثر لرواد الافرنج ومستشرقيهم وموظفيهم المدنيين وضباطهم العسكريين المجهزين بكل وسائل التجوال والاستطلاع . لذلك قد يكون ثمت بعض عوائد وتقاليد بدوية مختلفة بين عشيرة واخرى عما ذكرته او تكون اسماء اشخاص وشيوخ ورؤساء وفرق وعشائر واعداد رجال وماشية لم ادونها اودونتها على غير الضبط وحسبما نقل لي او يكون في الاخبار والوقائع التاريخية التي سردتها زيادة او نقص ... كل ذلك جدير باسدال المعذرة عليه اذا عرف القاري المنصف وعورة هذه الموضوعات وعسرة نوال الكمال فيها ، وان مراد القول فيها رحب ومجال البحث مستفيض . وحسبي ان اكون بكتابي الاوحد هذا قد اثرتها ونشرتها وسددت فراغاً في المكتبة العربية ومهدت السبيل لمن اراد التوسع فيها والزيادة ، ومن الله التوفيق .

دمشق — احمد وصفي زكريا

مكتبة البدو

ما الف عن البدو

من الباحثين عن انساب البدو واوصافهم واخبارهم بين ادباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفي في سنة ٣٢٨ هـ في كتابه « العقد الفريد » ، وأبي الفرج الاصبهاني المتوفي في سنة ٣٥٦ في كتابه « الاغاني » ، وأبي عبيد البكري المتوفي في سنة ٤٨٧ في مقدمة كتابه «معجم ما استعجم» ، وابن خلدون المتوفي في سنة ٨٥٨ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى « العبر » ، والقلقشندي احمد بن علي المتوفي في سنة ٨٢١ في الجلد الرابع من كتابه الاول المسمى « صبح الاعشى » وفي كتابه الثاني المسمى « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب » المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه . وقيل ان في أحد الاجزاء التي لم تطبع بعد من «مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري المتوفي في سنة ٧٤٨ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده . وقيل ايضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفي في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه « جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية . ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وان كانت تشمل العصور والاماكن البعيدة عن موضوعي وبحثي .

ومن الباحثين المتأخرين الشيخ محمد البسام التميمي المتوفي في سنة ١٢٤٦ هـ في رسالته « الدرر والمفاخر في أخبار العرب الاواخر » وهي مخطوطة في المتحف البريطاني رأيت نسخةً مصورة منها في بغداد في مكتبة المؤرخ السيد يعقوب سركيس يتكلم فيها عن عشائر الجزيرة العربية بايجاز زائد لا يفيد سوى التيقن من وجود بعض العشائر ووصفها ، ثم ابو الفوز السويدي البغدادي في رسالته « سبائك

على انني لاادعي الاستيعاب وبلوغ الغاية في هذه البحوث والدراسات الكثيرة التضارب والشرود ، لان التجوال في البادية والاتصال بالبدو او النبهاء من البدو في كل زمان ومكان امر غير يسير ، والتقاط الاخبار واستقراء الحقائق منهم دونهما مشقة وكلفة . لأن الامية منتشرة لديهم واهتمامهم بهذه الابحاث وحفظهم وذكرهم لها نادر جداً . والذين يحفظون ويذكرون قلما تتفق رواياتهم واسناداتهم وتصفو وقلما تخلو من الغلو ودعوى السبق والارجحية على الغير. هذا الى ان هذه المساعي متوقفة على الصدف واتهاز الفرص لمن كان بعيداً مثلي عن التأثير الرسمي في هذا الشأن ، مما يسهل ويتيسر اكثر لرواد الافرنج ومستشرقيهم وموظفيهم المدنيين وضباطهم العسكريين المجهزين بكل وسائل التجوال والاستطلاع . لذلك قد يكون ثمت بعض عوائد وتقاليد بدوية مختلفة بين عشيرة واخرى عما ذكرته او تكون اسماء اشخاص وشيوخ ورؤساء وفرق وعشائر واعداد رجال وماشية لم ادونها اودونتها على غير الضبط وحسبما نقل لي او يكون في الاخبار والوقائع التاريخية التي سردتها زيادة او نقص ... كل ذلك جدير باسدال المعذرة عليه اذا عرف القاري المنصف وعورة هذه الموضوعات وعسرة نوال الكمال فيها ، وان مراد القول فيها رحب ومجال البحث مستفيض . وحسبي ان اكون بكتابي الاوحد هذا قد اثرتها ونشرتها وسددت فراغاً في المكتبة العربية ومهدت السبيل لمن اراد التوسع فيها والزيادة ، ومن الله التوفيق .

دمشق — احمد وصفي زكريا

مكتبة البدو

ما الف عن البدو

من الباحثين عن انساب البدو واوصافهم واخبارهم بين ادباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفي في سنة ٣٢٨ هـ في كتابه « العقد الفريد » ، وأبي الفرج الاصبهاني المتوفي في سنة ٣٥٦ في كتابه « الاغاني » ، وأبي عبيد البكري المتوفي في سنة ٤٨٧ في مقدمة كتابه «معجم ما استعجم» ، وابن خلدون المتوفي في سنة ٨٥٨ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى « العبر » ، والقلقشندي احمد بن علي المتوفي في سنة ٨٢١ في الجلد الرابع من كتابه الاول المسمى « صبح الاعشى » وفي كتابه الثاني المسمى « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب » المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه . وقيل ان في أحد الاجزاء التي لم تطبع بعد من «مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري المتوفي في سنة ٧٤٨ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده . وقيل ايضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفي في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه « جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية .ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وان كانت تشمل العصور والاماكن البعيدة عن موضوعي وبحثي .

ومن الباحثين المتأخرين الشيخ محمد البسام التميمي المتوفي في سنة ١٢٤٦ هـ في رسالته « الدرر والمفاخر في أخبار العرب الاواخر » وهي مخطوطة في المتحف البريطاني رأيت نسخة مصورة منها في بغداد في مكتبة المؤرخ السيد يعقوب سركيس يتكلم فيها عن عشائر الجزيرة العربية بايجاز زائد لايفيد سوى التيقن من وجود بعض العشائر ووصفها ، ثم ابو الفوز السويدي البغدادي في رسالته « سبائك

الذهب في معرفة قبائل العرب » المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ ، لكن ابحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية الارب للقلقشندي وترتيبها غير موف بالغرض ، والسيد شكري الآلوسي في كتابه « بلوغ الارب في احوال العرب » المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤ في ثلاثة مجلدات خصها بشرح اخبار عرب الجاهلية وعاداتهم وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا . . . . . وسليمان البستاني معرب الالياذة في مقالته عن البدو المندرجة في المجلد ١٢ من مجلة المقتطف سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م)، وجرجي زيدان في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » المطبوع في سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ونعوم شقير في قسم من كتابه « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » المطبوع في مصر سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦م) والمطران بولس سليمان في كتابه « خمسة أعوام في شرقي الاردن » المطبوع في حريصا (لبنان) سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦) وقد بسط فيه آداب بدو شرقي الاردن في عهدنا وقضائهم وديانتهم وعشائرهم ، وعارف العارف قائم مقام بئر السبع في فلسطين في كتابه «القضاء بين البدو» المطبوع في القدس سنة١٣٥٢ (١٩٣٣) وقد بسط فيه اخبار بدو بئر السبع في عهدنا وطبائعهم وعاداتهم ، والعقيد ج . بيك الانكليزي في كتابه « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » وقد عربه بهاء الدين طوقان من ادباء عمان وطبعه في القدس في سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥) وعودة القسوس من رجال القانون في شرقي الاردن المتوفي في سنة ١٣٦٢ (١٩٤٣) في مقالاته «القضاء البدوي » المنشورة في (المجلة القضائية) للحكومة الاردنية في سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦) وفؤاد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » المطبوع في مصر في سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥) والمحامي عباس العزاوي في كتابه «عشائر العراق» المطبوع في بغداد في سنة ١٣٥٦(١٩٣٧)، وعز الدين علم الدين في مقاله الابتو عن « بادية الشام » المندرج في المجلد ٥١ من مجلة المقتطف في سنة ١٣٣٤ (١٩١٦) ، وخير الدين الزركلي في قسم من كتابه « ما رأيت وما سمعت » المطبوع في مصر سنة ١٣٤٢ (١٩٢٣) وحافظ وهبه في قسم من كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » المطبوع في مصر سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥) ، والاب انستاس الكرملي في قسم من كتابه « خلاصة تاريخ العراق » المطبوع في البصرة في سنة ١٣٣٥ (١٩١٧) ، ومحمد الكرد علي

في قسم من كتابه خطط الشام (ج ٦) المطبوع في دمشق في سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦)، هذه هي الكتب والرسائل والمقالات العربية التي عثرت عليها وراجعتها وكلها قيم وجميل وهي خلا الكتب الكثيرة غير المختصة بموضوعنا وحده التي يأتي بحث البدو فيها عرضاً وقد درجت اسماءها في قائمة خاصة في ذيل الكتاب .

اما الافرنج فقد وجدت بينهم من الباحثين عن البدو الرحالة بركهاردت السويسري (١) صاحب كتاب « رحلة في بلاد العرب » وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ (١٨٠٩) ووصف في كتابه المحرر بالانكليزية ما صادفه في تلك الحقبة من عشائر البدو في الشام والحجاز واحصى نفوسها وذكر اطوارها واساليب معيشتها وكل ما يتعلق بها بتدقيق واف . والمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي (٢) الذي بحثنا عنه في المقدمة كتب بالالمانية ترجمت إلى الانكليزية في عدة مجلدات منها « بلاد العرب الصحراوية » طبعت في سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧) وكتاب خاص عن عشيرة الاروله طبع في سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨) ، وكان قد لبث بين الاروله بضع سنوات وسلك سبيلهم في خشونة العيش وقام بعدة رحلات للدرس والبحث والتدوين . وللسائحة الانكليزية الليدي آن بلونت (٣) التي بحثنا عنها في المقدمة ايضاً كتاب في مجلدين عن « عشائر الفرات » طبع في لندن سنة ١٢٩٧ (١٨٧٩) كما أن لها كتاباً آخر عن رحلتها في سنة ١٢٩٧ (١٨٧٩) هي وزوجها المستر والفريد بلونت الى حائل عن طريق دمشق ووادي السرحان والجوف اسمه « رحلة إلى نجد » ترجم إلى الافرنسية وكان دليلها في هذه الرحلة محمد العبد الله العروك من اهل تدمر . وللرئيس رينو والطبيب مارتينه الافرنسيين (٤) ـ رسالة صغيرة عن « البدو في مقاطعة دمشق »

«1» Jean - Louis Burckhardt , voyages en Arabie .

«2» Aloes Musil ,Arabia deserta ,1927 - The manners estoms of the Rawala . 1928

«3» Lady Anne Blunt , The Bédouin tribe of the Euphrates, Murray, 1879 London, Pèligrinage to Nejd .

«4» Capitaine Raynaud et Médicin - Major Martinet, les Bédouins de la Mouvence de Damas 1922 .

طبعت في سنة ١٣٤١ (١٩٢٢) وللمقدم مولر الافرنسي (٥) كتاب كبير اسمه « في بلاد الشام مع البدو » طبع في سنة ١٣٥٠ (١٩٣١) . وهؤلاء الضباط الثلاثة كانوا من عمال الادارة الافرنسية بمراقبة البدو . ولمصلحة الاستعلامات في الشرق التابعة للمفوضية العليا الافرنسية كتاب خاص دعته «العشائر الرحالة والنصف رحالة في دول الشرق التي تحت الانتداب الافرنسي » (٦) طبع في بيروت في سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠) ، وللمستشرق مونتاني الافرنسي (٧) مقال قيم في مجلة الدراسات الشرقية التي يصدرها المعهد الاثري الافرنسي في دمشق (ج ٥ سنة ١٣٥٦ (١٩٣٥) عنوانه « قصص شعرية بدوية ملتقطة من شمر الجزيرة » . وللراهبين جوسن وسافينياق الدومينيكيين (٨) كتابان بالافرنسية طبعا في سنة ١٩٣٩ (١٩٢٠) احدهما عن عادات البدو في بلاد موآب « جنوبي بلاد الاردن » وثانيهما عن عشيرة الفقراء احدى العشائر الكبيرة في شمالي الحجاز . وللملازم آلبربوشمان (٩) من ضباط مراقبة العشائر الفرنسيين وقد قتل في حروب مرجعيون التي دارت بين الفيشيين والانكليز في صيف سنة ١٣٦٠ (١٩٤١) كتاب اسمه « امتعة المعيشة البدوية » وصف فيه البسة البدو وفرشهم واوانيهم ومضاربهم ، وقد جمع ذلك من عشيرة الاسبعة العنزية بعد ان اقام بينها مدة . وللراهب اليسوعي الاب هنري شارل كتاب كبير اسمه « العشائر الغنامة في الفرات الأوسط » (١٠) طبع في بيروت سنة ١٣٥٤ (١٩٣٦) خصه بوصف عشيرة العقيدات وتاريخها وفرقها وقراها وعاداتها ، وذلك بعد ان ظل بضعة اشهر يجوس مضارب هذه العشيرة ويعاشر كبارها وصغارها ويستقصي ويدون ، وله

«5» Commandant Victor Muller, en syrie avec les Bédouins 1931, Paris

«6» Les tribues nomades et semi - nomades des états du Levant placés Sous mandat Francais 1930 · Beyrouth

(7) M. Montagne, contes Poétiques bedouins recuillies chez les Schammar de Gezire 1935

(8) P . Jaussen et Savignac, Coutumes des Arabes en pays de Moabe 1908, cotumes de Fuquaras , 1920 .

(9) Alber Bouchement , les materiels de la vie bédouine .

(10) Le père H . Charles S. J . Tribus moutonnières du moyen Euphrate . Beyrouth 1936 .

رسالة اخرى صغيرة عن (التحضير بين الفرات والبليخ) طبع في بيروت سنة ١٣٦١ (١٩٤٢) وفيها بحث اجتماعي انساني عن عشائر قضاء الرقة (١١)، ولراهب آخر اسمه الاب بوادبيار كتاب اسمه « اثر روما في بادية الشام »(١٢) وصف فيه هذه البادية وذكر الارصفة والمعاقل والمخافر الرومانية التي اكتشفها من الطائرات في سني ١٣٤٣ — ١٣٥١ (١٩٢٥ — ١٩٣٢). وخص المجلد الاول من كتابه هذا للوصف المذكور وخص المجلد الثاني للصور الشمسية والخرائط والمخططات البديعة الترتيب والتصوير . واحدث الكتب الافرنجية عن عشائر الشام هو ما نشره اخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم (١٣) المطبوع في ليبزيغ سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩) وهو غير كتابه القديم المطبوع في برلين سنة ١٣١٧ (١٨٩٩) (١٣) . وللملازم الافرنسي آلبير بوشمان الذي تقدم ذكره مقال طويل في مجلة الدراسات الاسلامية التي تصدر في باريس مجلد ١ ص ٢٢ عن الخلاف بين عشيرتين غنامتين في الشام « يعني الموالي والحديديين » (١٤) كما له ايضاً رسالة عن قرية السخنة (١٥) . ولعل هنالك كتباً ورسائل اخرى لم اطلع عليها فاكتفيت بذكر ما علمت وما رجعت اليه .

---

11 - La sédentaristion entre Euphrate et baliK . note d'Ethno - sociologie, 1942 .

12 - Le père poidebard . S . J . La trace de rome dans le desert de syrie. paris 1934 .

13 - Max von oppenheim. von mittelmer Fun persichen Berlin1899 - Die Beduinen, Leipzig 1939 .

14- Alber Bouchement , Note Sur La rivalité de deux tribus moutonnières de syrie, les Mavalis et les Hadediyins,revue des Etudes islamiques 1934, t.I p .22 .

15 - Une petite cité caravanière, Suhné.

جغرافية ديار البدو

ان البراري البعيدة المترامية الاطراف والاكناف الممتدة في شرقي بلاد الشام تنقسم الى قسمين ، المعمورة والبادية :

(فالمعمورة) هو القسم العامر بالقرى الآهل بالسكان الحضر المزروع عذياً او سقياً ، ويقابله في مصر والعراق الريف الممتد على شواطئ النيل والرافدين . والريف في اللغة ما قارب الماء والخضرة من الارض ، ومن هنا كان استعمال هذه الكلمة منحصراً بمصر والعراق دون الشام لتفوقها عليه بالماء والخضرة . و(البادية) او (الصحراء) هو القسم الغامر البائر الواقع في شرقي المعمورة المذكورة الخلاء القواء القليل الكلأ والماء غير الصالح الا لرعي الماشية الممعن في الامتداد والبعد حتى العراق الاسفل . وحد هذه البادية في بلاد الشام يبدأ في الجنوب في امارة شرقي الاردن من انحاء معان ومن شرقي جبال الشراة وجبال موآب وجبال عجلون ويسير مع السكة الحديدية الحجازية الممتدة على سيف البادية حتى يبلغ محطة المفرق . ومن ثم ينعطف نحو شرقي جبل حوران ووعرة اللجا ثم شرقي قرى الضمير والقريتين والفركلس وجبل الشومرية وعقيربات والاندرين وبالس « مسكنة » وشمس الدين على الفرات . وبعد عمران الجزيرة الحديث وامتداد الحرث والزرع صار الحد فيها ينعطف من شمس الدين نحو تل السمن على البليخ ومنه الى جبل عبد العزيز فبحيرة الخاتونية فوادي الثرثار فوادي الدجلة . (١) واذا استمر عمران الجزيرة الحديث في سيره الحالي الذي بدء منذ ان استقرت الحدود الدولية الاخيرة بين الشام والعراق وتركية ومنذ ان استتب الامن فان جل الجزيرة ان لم نقل كلها سوف يصبح من (المعمورة) وتبقى الشامية وحدها هي المقصود بكلمة (بادية الشام) وبوصفها كما انها هي المقصودة غالباً في كلامنا ووصفنا الآتيين .

---

(١) درجنا في آخر الكتاب الملحق رقم ٢ للقرار رقم ١٣٢ ، فيه شرح الخط الفاصل رسمياً بين منطقة المعمورة ومنطقة البادية . وهو يختلف عما ذكرناه لانه تحديد اداري وتحديدنا جغرافي .

وفي هذه البادية سهوب شاسعة وصحراوات واسعة ، مستوية كل الاستواء سهلة اي سهولة في الغالب متشابهة المناظر مطردة المشاهد تتخللها في بعض الاماكن تلعات وهضبات ترابية منفردة او متموجة وأكمات حجرية متقطعة او متسلسلة بركانية بازلتية اورسوبية طباشيرية (كريتاسه). وبين هذه التلعات والاكمات بعض اودية ومسايل جافة في معظم ايام السنة وبعض اوعار وحرات بركانية صغيرة او كبيرة . وفي كل ذلك افق رحيب وفراغ رهيب وسكون مريب وتراب غير خصيب تتوهج وقدات الشمس في الصيف وتهب نوافح القر في فصل الشتاء وتبرز ارض الجوع والعطش وتظهر قيعان القحل والجدب الا من بعض نباتات ودويبات واغنام واباعر وبيوت من الشعر تخفق الارياح فيها مبعثرة هنا وهناك .

وهذه البادية لاتصلح للحرث والزرع عذياً ؛ذلك لقلة امطارها وجفاف جوها وملوحة تربتها في بعض الاماكن او لصفرة هذه التربة او بياضها ولفقدان الينابيع السارية او ندرتها . اذ ان الماء اما في آبار بعيدة الغور ويكاد لايكفي الشفة ، او هو رديء مالح لايستساغ . ولا تحرث وتزرع هذه البادية إلا سقياً في بعض الاماكن السعيدة بوجود الينابيع والانهار السارية كما هو الحال في تدمر وأرك والسخنة والطيبة وفي ضفاف الفرات والبليخ والخابور ، والسعيدة بوجود القنوات المندثرة كالتي في ناحية القريتين وفي جهة كديم .

ولا ريب في ان هذه البادية على حالتها كانت اسعد حالاً فيما مضى تشهد على ذلك اطلال المعاقل والمخافر والتلال الصناعية والآبار والقنوات والسدود والارصفة والآثار الارامية والنبطية والتدمرية والرومانية والقصور العربية الاموية .. المشيدة حول ينابيع ومسايل وخزانات مياه قد غاضت ورقدت حولها اطلال وخرائب ورسوم تندب مجدها الدائر مما سيأتي وصفه .

وهذه البادية كانت منذ اقدم العصور ومابرحت ديار البدو ومنتجعهم ومسارح غدواتهم وروحاتهم ومطارح حروبهم وغزواتهم يتجولون في ارجائها الشاسعة وينجعون سعياً وراء الكلاء والماء والدفء لماشيتهم حسب تقاليد معروفة واتفاقات محدودة بينهم كل منهم في بقعة منها قد تآلفوا عليها وتقاسموا ، وهم قد اكتسبوا حق التجوال والنجعة في البقعة التي اختصوا بها اما عقيب حروب طويلة مع الذين

كانوا يحتلونها من قبلهم فتوصلوا في النهاية الى ابتلاعهم او افنائهم ، واما نتيجة الحلول والدخول بين عشيرتين كانتا موجودتين سابقاً فدفعوهما وافسحوا لانفسهم منزلاً بينهما . ومن ثم حدث من جراء هذا الدفع والتوسيع عداوات وحزازات توارثها جيل عن جيل فأدت إلى انقسام هذه العشائر وتعددها والى معاناتها حياة مضطربة بالشقاق والعراك الدائمين ، ناهيك الجهد وشظف العيش ومشاق الارعاء والاسقاء والغدو والرواح وراء الماشية الجرارة .

والبادية تنقسم بادئ ذي بدء إلى قسمين ؛ وذلك بحسب قربها الى المعمورة او بعدها وكثرة امطارها وبقاء اعشابها او قلة ذلك . فالقسم الاول القريب وهو قسم السهوب ؛ ذو امطار سنوية يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ و ٢٠٠ ميليمتر ، ومن ثم كان هذا القسم اغزر امطاراً واوفر اعشاباً ومراعيه اطول بقاءً ، وهو ذو آبار وينابيع في كثير من الاماكن ، جعلته اصلح للارتياد وجولان العشائر من القسم الثاني ، وفيه منطقتان يفصلها سقي الفرات ؛ الشامية التي على يمين هذا السقي والجزيرة التي على يساره . وهذا القسم يشبه السهوب المعشوشبة في جنوبي روسية مما يدعوه الافرنج steppe . وتقدر مساحة هذا القسم في بلاد الشام بنحو ٦٧٣٩٠٠٠ هكتار (١) . والقسم الثاني البعيد ؛ وهو البادية الحقة ويدعى (الحماد) ، ذو امطار سنوية لاتزيد عن مئة ميليمتر ، ومن ثم كان فقيراً بالامطار واعشابه ومياهه قصيرة العمر سريعة الزوال عقب انتهاء فصل الشتاء ، وتقدر مساحة هذا القسم الداخل في خريطة الجمهورية السورية بـ ٣٨٦٣١٠٠ هكتار اي ان مجموع القسمين يبلغ ٢٠ر٦٠٢ر٢٠٠ هكتار . والى القارئ اوصاف كل من هذين القسمين ومناطقهما الجغرافية التي اصطلح عليها سكان البادية :

الجزيرة. — هي البراري الممتدة على ضفة الفرات اليسرى بينه وبين الدجلة. وقد كانت في العصور الجيولوجية فيما يظهر من شكلها وتركيب تربتها بحيرة واسعة معمورة بمياه هذين النهرين . والجزيرة تقسم إلى ثلاثة اقسام :

(١) عن دراسة دائرة المساحة المطبوعة في سنة ١٩٤٥

الجزيرة العليا وتشمل كل القسم الجبلي الشمالي منها ، والجزيرة الوسطى والجزيرة السفلى ، فالجزيرة الوسطى في عهدنا هي داخل الحدود الشامية كما ان الجزيرة السفلى داخل الحدود العراقية ومنتهاها في تكريت على الدجلة ، اما الجزيرة العليا فهي داخل الحدود التركية . قال ياقوت في معجمه « الجزيرة هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر . سميت الجزيرة لانها بين دجلة والفرات ، وقال « وهي صحيحة الهواء جيدة الربع والنماء واسعة الخيرات بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة .ومن امهات مدنها حران والرها والرقة ورأس العين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك . . . وقد صنف لاهلها تواريخ وخرج منها ائمة في كل فن غزاها عياض بن غنم في سنة ١٧ وفتحها .

قلت، والجزيرة على خلاف الشامية ذات سهول شاسعة مستوية احسن استواء وتربة ذكية اي ذكاء واعشاب ومراع نامية كل النماء مع امطار غزيرة (١) وانعام وزروع وفيرة وانهار وجداول كثيرة ناهيك منها الخابور والبابيخ والجغجع (هرماس قديماً) والرد والجراح وخنيس وغيرها .

وقد كانت ضفاف الخابور تتفجر منها الترع والقنوات العديدة عليها السدود المحكمة الجميلة . وناهيك بسد السبع سكور والسد الواقع ما بين عجاجة ومشنقة وسد تل الرمان التحتاني وترعة دورين التي تنشأ من الخابور عند الصور وتنتهي في الفرات ازاء ابي كمال ونهر الجام ونهر الشمساني ونهر التف وغيرها . وكل من هذه السدود والترع يتفرع في قنوات كانت تمتد عشرات الكيلو مترات وتروي الوف الهكتارات المزروعة . وفي شجر الخابور تقول الفارعة اخت الوليد بن طريف الشيباني احد الخوارج في مرثيتها لاخيها المذكور :

ايا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

---

(١) معدل كمياتها السنوية في قضاء الحسجة ٢٧٢ وفي قضاء القامشلية ٣٥٨ وفي قضاء ديريك المجاورة للجزيرة العليا ٥٠٠ ميليمتر .وهذا المعدل الاخير يشبه ما يكون في السواحل .

وفي رثاء الخابور يقول الربيع بن ابي الحقيق اليهودي من ابيات :

دور عفت بقرى الخابور غيرها بعد الانيس سوافي الريح والمطر
ان تمس دارك ممن كان يسكنها وحشاً فذاك صروف الدهر والغير

اجل، كانت الجزيرة في العصور القديمة والمتوسطة وحتى اواخر العصر العباسي وخلال غارات الصليبيين والمغول عامرةً بالمدن والقرى زاخرةً بالحقول والسكور «البيدور» والترع التي تدل عليها الانهار المندثرة والتلال الصناعية والاطلال الاثرية المنتشرة بكثرة كيفما جلت وهي من بقايا عهود الحثيين والآشوريين والبابليين والسلوقيين والرومانيين والعرب خربتها غارات المغول والصليبيين وفوضى عهد العثمانيين . ومن دواعي السرور ان العمران القديم بدأ يعود من عهد قريب رويداً رويداً . فقد كثر تهافت النازحين اليها بعد الحرب العامة الماضية وتقسيم الحدود الحالية واستقرار الامن منذ سنة ١٣٤٧ هـ . وهؤلاء النازحين هم من مختلف الطوائف والاديان واللغات كالكرد والسريان والنزيدية والارمن والنسطوريين اللاجئين من بلاد الترك والعراق ويسمونهم الآن الآشوريين ، كما اقبل على الجزيرة الطامحون باستغلالها من ابناء المدن الشامية . هذا عدا ما كان فيها من مهاجري الشاشان القوقازي الاصل وعدا عشائرها العربية الرحل امثال شمر وطيء وجبور وبقارة وشرابين وفدعان ولد وفدعان خرصة ومشهور وعفادلة وولدة وابي جرادة ، ثم الكرد والتركمان اشباه البدو ممن سيأتي ذكرهم في القسم الثاني من كتابنا هذا .

وقد انطلقت المحاريث الحديدية الحديثة والسواحب والحصادات والدراسات الآلية تشق براريها الشاسعة الخصبة وتبعث الحركة والنضرة وتقضي على السكون والبوار المستمرين منذ قرون . وبدئ بفتح قناة عظيمة على الخابور من تل مغاص جنوبي رأس العين الى شرقي بلدة الحسكة ، وسيكون طولها نحو ثمانين كيلومتراً ، وستروى ما يقدر بعشرة آلاف هكتار . فاذا تمت هذه القناة ووجد لها ايد عاملة عارفة وعملت فيها الزراعات المسقوية الصالحة كان منها ريع ورزق عظيمان ... وانتشرت الآن زراعة الرز في ضفاف نهري الجغجغ والبليخ ، وقد انشأ في الجزيرة

داخل الحدود الشامية وجنوبي سكة حديد حلب — الموصل عدة باليدات منها القامشلية ازاء نصيبين عاصمة الجزيرة قديماً، وقد ظلت نصيبين داخل الحدود التركية رغم وقوعها جنوبي الخط الحديدي، وبليدة عمودة ازاء دارا القديمة والدرباسية ازاء مثيلتها وسميها وتل ابيض ازاء آقجة قلعة وغيرها مما اقتضته دواعي التحديد بين دولتي الشام وتركية. وانشأت وسط الجزيرة بليدة الحسكة التي اتخذت قاعدة للمحافظة، هذا إلى مئات من الضياع والضبيعات المستحدثة المنتشرة اخصها قبور البيض وتل براق وتل التمر ودريك وغيرها. ومن هنا كانت أوصاف الخلاء والقواء والقحل والجدب تنطبق على (الشامية) الغامرة القفراء اكثر من الجزيرة التي ستصبح عما قريب عامرة خضراء جلها ان لم يكن كلها.

وفي براري الجزيرة ولا سيما في ضفات الفرات والخابور والبليخ مئات من التلال الترابية الصناعية الأثرية التي لانظير لها في البراري الشامية. وقد كانت هذه التلال قرىً عامرة في العصور القديمة ايام عمران الجزيرة وازدهارها في عهود الدول التي ذكرناها فخربت بالفتن والحروب ولاسيما بغارات المغول والصليبيين وتراكم عمران فوق عمران وقديم فوق اقدم منه، بدليل وجود الاطلال والعاديات من جدران وآبار واواني خزفية ونقود أموية وعباسية يعثرون عليها. واشهر هذه التلال غراسة وشرموخ وخزف وابو خضر وبراق واحمدي وابطخان والنواعمة وهذلول ورميلان وبدر وطرطب والعيد وسلندر وجاغرباز ار. وفي براري الجزيرة ايضاً تلال اخرى طبيعية حدثت من قضم السيول الارض التي حولها في عهود ما قبل التاريخ وبعده. وكانت نصيبين عاصمة سيف الدولة بن حمدان قبل ان يتولى حلب. وكان في الجزيرة في عهد ياقوت (القرن السابع) من المدن التي صارت الآن اثراً بعد عين (برقعيد) التي قال انها في شرقي نصيبين بينهما عشرة فراسخ اي نحو ٥٠ كيلومتراً ولعلها كانت مكان تل رميلان الحالي الذي يخيم فيه الشيخ باشا العاصي من رؤساء شمر، و(باشزي) مقابل برقعيد و(عربان) ولعلها كانت مكان تل عجاج على الخابور و(دارا) في لجف جبل ماردين، وهي الآن معروفة داخل الحدود التركية

تجاه عامودة و(سكير العباس) في الخابور كانت مكان تل شدادي . وفي غربي الجزيرة حيث كانت ديار مضر كان من المدن الرقة قصبة ديارمضر والرافقةوحصن مسلمة وترعوز وحران وسروج وكفر سيرين والدوسرية (قلعة جعبر) وحصن هرقلة وبرطوبة مقابل رحبة مالك بن طوق من اعمال الخابور قرب قرقيسياء (البصيرة الحالية) . . . الخ مما يحتاج تعداده ووصفه لمؤلف خاص بالجزيرة وحدها

قال الآلوسي في كتابه « بلوغ الارب في احوال العرب » عن الجزيرة مايلي : وصحاري هذه الديار مملوءة كلأ وازهاراً ، ولذا اتخذها آل بكر بن وائل من بين الديار ديارا . . . ثم قال : ولم يبق فيها اليوم ممن كان في الاعصر الخالية من اولئك القوم بل سكنها اناس مختلفو الملل والاجناس ، ليس فيهم مزايا من سلف ولا وضاحة من مضى وانصرف ، وسبحان من اخلى ديار بكر ممن يرعى زهر الآداب وربيعة وجعلها بلاقع لاتجد فيها من يتخذ لفهم كلام العرب ذريعه ، وكم كان فيها من اديب حلا نظمه ونثره واريب رمى عن قسي الاصابة لا مثل عشره ، فنثرهم ريب المنون من كنانته نثر السهام ونظمهم على الرغم منهم في ديوان القبور تحت اطباق الرغام سقى الله ثراهم ما يوجب في دار الاقامة ثراهم » . .

الشامية . — هي السهوب الممتدة على ضفة الفرات اليمنى بين هذا النهر وبين خط وهمي يمتد من دمشق الى بلدة عانة على الفرات داخل الحدود العراقية . وكلمة الشامية في اصطلاح الحضر والبدو من عرب انحاء الفرات هي الضفة اليمنى للفرات كما ان الجزيرة هي الضفة اليسرى . فهم لايقولون ضفة يمنى وضفة يسرى بل جزيرة وشامية حتى انهم في شأن نهر الخابور احد روافد الفرات في الجزيرة يطلقون كلمة شامية ايضاً على البقاع التي في غربيه بينه وبين الفرات . ومن الغريب ان لاتعرف بادية الشامية قديماً بهذا الاسم . بل باسم (بادية السماوة) هكذا ذكرها المؤرخون والجغرافيون العرب ومنهم ياقوت . قال انما سميت السماوة لانها ارض مستوية لاحجر فيها . وقال ايضاً : بادية السماوة التي هي بين الكوفة والشام قفرى اظنها

مسماة بهذا الاسم . قلت ان السماوة في عهدنا اسم بلدة في شرقي بغداد على الفرات وهي من مراكز اقضية لواء الديوانية وتشرف على البادية الممعنة في البعد غرباً نحو الشام وجنوباً نحو نجد . فكيف نسبوا البادية كلها اليها دون غيرها من البلدان الواقعة في غربيها والتي هي اقرب الى الشام منها ؟ أم قصدوا قسم الحماد منها فقط ، ها هنا الغرابة .

والشامية تنقسم ايضاً إلى عدة مناطق جغرافية لها اسماء واوصاف خاصة منها الزور والمناظر والوديان والقعرة والشنبل والدو .

فالزور او سقي الفرات هو الوادي الطويل المقفل الممتد على ضفتي الفرات من بالس « مسكنة » حتى الحدود العراقية . وفيه من المدن المعروفة (دير الزور) عروسة الصحراء في عهدنا واكبر مدنها وقاعدة محافظة الفرات . وفيه من البليدات بالس الحديثة « مسكنة » و السبخة والميادين والعشارة وابي كمال ، ومن الخرب والقلاع القديمة الاثرية بالس القديمة « باربالیسو » ومدينة الفار وقلعة جعبر وقلعتا حلبية وزلبية المتناوحتان وارض صفين التي جرت فيها المعركة المشئومة بين علي ومعاوية وبرج الدبسي وابراج ابي هريرة وخربة سورية (تفساح القديمة) وقلعة الرحبة « رحبة طوق بن مالك » والمسجد المنسوب للامام علي قرب العشارة ودورا اوروبس « الصالحية » ، هذا عدا الضيعات العديدة المؤلفة من بيوت الشعر في الشتاء او من الصبابيط المصنوعة من اغصان الطرفاء والغرب في الصيف يقطنها اعراب من انصاف الحضر اهل الزرع والضرع اخصهم العقيدات ذوو الفرق والاعداد الكثيرة والولدة والسبخة وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في القسم الثاني من كتابنا هذا .

ووادي الفرات ذو تربة مترسبة خصبة واقليم حار واستعداد تام للمشروعات الزراعية الكبيرة لايحتاج ارجاع عمرانه القديم الا لتبديل وسائط الري الحالية السقيمة المسماة بالكرود (جمع كرد) بالمحركات والمضخات الميكانيكية ، ثم تبديل آلات الحرث والزرع والحصد بما هو حديث منها . فلو كثرت على الاقل وسائط

الري الميكانيكية فوق ما هو موجود منها الآن على قلة في بعض الاماكن لاتسع نطاق الري وتضاعفت الفائدة من هذا الوادي الخصب الاغنّ الذي كانت فيه حضارة قديمة مشهورة بآثارها الوفيرة . والزور في الاصطلاح هو الاشجار والاعشاب والاشواك النامية من نفسها التي تغطي الضفاف الواطئة من الاودية والانهار في البادية ، ثم توسعوا في ذلك واطلقوه على اودية الفرات وروافده وعلى بعض غياض الحور الملتفة في غوطة دمشق . ولم يرد الزور في كتب اللغة بهذا المعنى ولا بهذا اللفظ فمن أين ومتى نشأ ومتى سميت دير الزور بهذا الاسم ؟ وقد كان اسمها قديماً (اوزارا) او (آزورا) وسماها ياقوت (دير الرمان) قال عنها مدينة كبيرة ذات اسواق للبادية بين الرقة والخابور تنزلها القوافل القاصدة من العراق الى الشام . قلت وليس غيرها ينطبق عليه هذا الوصف .

واما **المناظر** وهي الواحات او القرى المسكونة وسط البادية الشامية كتدمر وأرك والسخنة والقريتين ولواحق السخنة كالطيبة (٢٥ كيلو متراً عن السخنة الى الشمال) والكوم (١٥ كيلو متراً إلى شمال الطيبة) . وهذه القرى كأنها جزائر منثورة وسط بحر ضخم او كأنها غيطان خضراء وسط بوادي قفراء. وقد ذكرها ياقوت في معجمه باسم المناظر ايضاً ، مما يدل على ان هذه التسمية قديمة ، مردها فيما زعموا الى ان هذه القرى ينظر بعضها الى بعض او يكاد ، وفي كتب اللغة المناظر اشراف الارض اي ما اشرف منها وارتفع . وقد اعتاد اهل الحواضر الشامية ان يسموا سكان قرى المناظر بالسخانة نسبة الى السخنة احدى القرى المذكورة . ففي كل من دمشق وحماة وحلب وسفيرة ودير الزور احياء خاصة يقطنها جوالي من هؤلاء ويسمون بالسخانة ولو كانوا من اهل تدمر والقريتين ، كما اعتاد البدو ان يسموا كل الجمالة الذين ينقلون السلع التجارية في البوادي بالسخانة ، ذلك لما لاهل السخنة من المقدرة والمعرفة باختراق البوادي واجادة النقل والمهارة وحسن الوساطة في البيع والشراء بين البدو والحضر ، كما اعتادوا ان يسموا عقيلياً (عكيلياً) كل جندي هجان نشأ من قرى مقاطعة القصيم في

نجد ولو كان من غيرها ، لما للعقيل من التفوق والمقدرة على الجندية ، كما اعتادوا ان يسموا (كبيسياً) كل بائع يلحقهم في حلهم وترحالهم ولو لم يكن من اهل الكبيسة المشهورين بحذقهم في التجارة ، والكبيسة قرية في العراق على سيف البادية وغربي الهيت .

وبعد ان قضت السكة الحجازية على نقل الحجاج على الابل ومنذ ان ظهرت السيارات واخترقت مسالك الصحراء وحملت المسافرين والسلع التجارية وأغنت عن الابل والمرتزقين بالابل انصرف (السخانة) الى العمل والتكسب بنواتج الصحراء ، كالقلي الذي يستخرجونه من حرق نبات الشنان وكالزيت الذي يستخرجونه والزيتون الذي يقطفونه من اشجار الزيتون حول قريتهم ، ومثلهم في قطف الزيتون اهل تدمر ايضاً ، والكمأة التي تنمو في البادية في سني الخصب ، وعرق السوس الذي يقلعونه في انحاء دير الزور وعين الكوم ، والسراس الذي يجدونه في الجزيرة في انحاء ثرية الجمرة وثرية الملح ، والعاديات (الانتيكة) التي ينبشونها ويستخرجونها من الاطلال والمدافن حول تدمر والسخنة والطيبة والكوم والندويات والكديم والرصافة وقصر الحير ، ومن جلود الحيوانات البرية وعظام الجمال ، هذا الى قليل من الزراعة المسقية حول قراهم ، ومن تربية الغنم والمعز ومما تصنعه نساؤهم من البسط الملونة المشهورة بجودتها وما يقوم به رجالهم من قص صوف الغنم ووبر الابل ومداواة الابل المصابة بالجرب لدى العشائر ، ومن تربية الصقور واستخراج صغارها من أعشاشها في جبل الضاحك وقد كانوا يبيعون الصقر بنحو عشرين ليرة ذهبية .

واما **الشنبل** فهو البراري الممتدة شرقي حمص وحماه وجنوبي حلب وغربي طريق تدمر والرقة ، وقد اخذوا هذه الكلمة من مكيال الحبوب المسمى شنبلاً المستعمل في انحاء حلب وحماة وحمص وهو بحجم حمل او نصف حمل بعير وهو يزن ٢٢٠ كيلو غراماً في حمص ونحو نصف ذلك في حلب ، ولم نعثر على هذه التسمية في الكتب العربية القديمة ، فمن اين جاءت ومتى استعملت ؟ هذا وبراري الشنبل

منزل عشائر حمص وحماه وحلب الذين سنتحدث عنهم في حينه . وفيها من المدن والاماكن الاثرية مدينة الفارقرب (بالس) ومدينة الرصافة (سرجيوبولس) وتدمر وخناصرة والاندرين واسرية وقصر ابن وردان وقصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وسد الخربقة وغيرها .

واما **الدو** بفتح الدال فهو سهل واسع مستطيل الشكل كأنه وادعظيم محصور بين سلسلة جبال (الشومرية والشفا وشاعر والابيض) في غربه وشماله وسلسلة الجبل الشرقي وجبل الرواق في جنوبه، وذرعه نحو ٩٠ في ٣٠ كيلومتراً ، ويقع بين القريتين وتدمر ، ويخترقه طريقان للسيارات الاول من تدمر الى دمشق والثاني من تدمر الى حمص ، كما تخترقه انابيب النفط العراقية الذاهبة إلى طرابلس . وفي وسطه احدى محطات هذه الانابيب واسمها تيفور (ت ٤ — طرابلس ٤) . والدو والدوية في اللغة المفازة ، وسهلنا هذا هو مفازة بحق لوحشته واقفراره ، وفي غربه الاقصى من العيون والآبار التي تردها الاعراب عين القمقوم وعين الجباة وبئر روضة وفي وسطه بئر قصر الحير وفي شرقه الاقصى عين البيضاء وبئر طواله وفي شماله بئر مران وبئر مسرب .

واما **الوديان** فهي البراري الممتدة على يمين ويسار الحدود التي بين العراق والشام في شرقي تدمر والرطبة وجنوبي ابي كمال ، تسيل فيها بعض الاودية المنحدرة من هضبة الحماد ولا سيما من حول جبل عنازة للانصباب في الفرات كوادي عامج ووادي حوران ووادي الرتقة ووادي عكاش ووادي الصواب ووادي المياه ووادي علي وغيرها ، تنجع اليها عشائر عنزة لوفرة كلاءها ومائها .

واما **القعرة** او الجمارة فهي وهدة عظيمة مرتفعة الحروف والاكناف ذرعها نحو ٦٠ في ٣٠ كيلو متراً ، تقع داخل الحدود العراقية بين الرطبة وابي كمال تنجع اليها عشائر عنزة وخاصة الاسبعة والعمارات لوفرة كلاءها وتعدد مسايلها وآبارها كبئر الراح وبئر ملوصة وبئر الاغرى . وللقعرة اودية تصب فيها تأتي من جبل عنازة يسمونها (العفايف) يخشى البدو دخولها ليلاً خوفاً من الجن

الساكنين فيها فيما زعموا ، حتى في النهار لا يدخلها احدهم منفرداً بل مع جمع . . . وللقعرة مدخل في الشمال يدعى الحلقوم وهو واد متصل بوادي علي الذي يصب في الفرات شرقي بلدة ابي كمال . وفي الاكمات المشرفة على الحلقوم حصن اثري يدعى قصر حلقوم كان يحرس الدخول والخروج .

واما **الحماد** وزان سحاب فهو القفار الموحشة والفدافد المعطشة التي تمتد في جنوبي تدمر حتى النفود وتشترك فيه دول الشام والعراق والاردن والمملكة السعودية . وهو (الصحراء) الاصلية في عرف من لايعرفون جغرافية البادية ولا يميزون بين اقسامها . وتخترقه طريق السيارات الذاهبة من دمشق الى بغداد والاخرى القادمة من حيفا الى بغداد . والحماد صميم البادية ولبها اقساها مدخلاً وابعدها منتجعاً واروعها منظراً . ومن الغريب ان لايرد اسم الحماد في معجم البلدان لياقوت ولا في غيره من الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية العربية ، فهل هذا الاسم حديث في لسان البدو ؟ . . وماذا كانوا يسمون الحماد قديماً ؟ . . وهل هو لجمدة ارضه بالنظر الى ان ادنى مطر يسقط عليه ينبته كلأً وافراً ترعاه ماشية الاعراب؟

واما **الحرة** اوحرة الراجل نسبة الى واد فيها اسمه وادي الراجل المنحدر من صبب جبل الدروز الشرقي الجنوبي في قضاء صلخد ؛ فهي وعرة عظيمة تمتد داخل الحدود الاردنية في الجنوب الشرقي من الجبل المذكور ، بين محطتي اجفايف (حيفا ٥) واجفور (حيفا ٤) لانابيب النفط العراقية . وهي مؤلفة من صخور بركانية صغيرة لماعة سوداء كالفحم الحجري مصفوفة كصف ارصفة الطرق قذفتها قمم جبل الدروز كما قذفت حرتي اللجا والصفا . وتشتي في هذه الحرة بعض عشائر جبل الدروز كالمساعيد والشرفات والعظامات وتسرح قطعانهم ، فاذا جاء الصيف وجفت غدران وادي الراجل صعدوا الى جبلهم . وكانت هذه الحرة في عصور التاريخ الاولى شبه مأهولة تدل على ذلك اطلال المباني الحجرية والادوات الظرانية التي وجدت فيها ، ثم آثار المخافر والرصيف الروماني المتجه من صلخد شرقاً ، ثم الكتابات

الصفوية الكثيرة . وفي وسط هذه الحرة انشأت في عهدنا احدى محطات انابيب النفط العراقية ورقمها (حيفا ٥) = اجفايف، كما انشي طريق معبد بالزفت احسن تعبيد وامتنه ممتدين حيفا والرطبة. قال ياقوت في معجم البلدان : الحرة ذات حجارة سود نخرة كأنها احرقت بالنار والجمع الحرات . والحرات بين دمشق والمدينة كثيرة عد منها ياقوت ثماني وعشرين ، منها حرة الراجل هذه . قال النابغة :

يؤم بربعيّ كأن زهاءه اذا هبط الصحراء حرة راجل

واما **وادي السرحان** فهو واد طويل عظيم يعد جغرافياً من بلاد الشام وان كان الآن في اقصى الشمال الغربي من الحدود السعودية وفي جنوبي حرة الراجل ، وهو كثير الآبار لايظمأ مرتاده وكثير الملح في مماحله المعروفة بالقريات . وهو ينسب الى عشيرة السرحان التي كانت اقوى عشائر حوران في القرن العاشر الهجري ثم اضمحلت الابقية باقية منها في شرقي اربد من اعمال شرقي الاردن . ويقال ان اسمه كان قبلاً وادي الازرق وانما اكتسب هذا الاسم بعد ان احتلته السرحان ، واكثر اراضيه سوداء مثل حلك الغراب ، بركانية الاصل والتركيب وكلها اوعار وحرار ، وقد نسب الى السرحان وهو الذئب ، لان الاعراب يتوهمون ان الذئاب تكثر فيه . وفي وادي السرحان ناحيتان يتبعهما عدد من القرى ، الاولى ناحية القريات (قريات الملح) في شمالي وادي السرحان ، وهي تصغير قرية واضيفت إلى الملح ، لان فيها في قرية كاف ملاحات طبيعية ، وهي عدة واحات من النخيل في كل منها عدة بيوت قروية من اللبن . واجل هذه الواحات كاف فائرة فمنوة . وفي كاف ما يزيد على عشرين الف نخلة يرتزق اهل القريات منها ومن الملح الذي يستخرجونه من ملاحاتها وينقلونه الى حوران وشرقي الاردن على متون الزوامل ويبادلونه بالقمح وغيره.

والثانية ناحية الجوف ؛ وهي : ناحية في اقصى جنوبي وادي السرحان ، كان اسمها في صدر الاسلام دومة الجندل وهي تقع في غور من الارض تحدق بها الهضاب والآكام ، ومن هنا كان تسمية البدو لها بالجوف ، واهم قراها

سكاكة وهي المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة واقعة الى شمالي النفود على رأس وادي السرحان . وموقعها الجغرافي مهم لوقوعها على الطريق المباشر ما بين بلاد الشام ومنتصف الجزيرة العربية وهي ممر القوافل والقبائل الى الشام منذ اقدم العصور .

والانكليز والافرنسيون حينما تقاسموا النفوذ في هذه البادية جعلوها قسمين ومدوا بينهما خطاً وهمياً يبدأ من قرب دير الكهف في جنوبي جبل الدروز ويسير نحو الشمال الشرقي في خط سويّ حتى بلدة ابي كمال على الفرات ، فما كان في شمالي هذا الخط وغربيه فهو للشام وما كان في شرقيه فهو للعراق ، ويتفرع من هذا الخط خط سوى آخر نحو الجنوب الشرقي من نقطة قرب جبل التنف (على طريق سيارات دمشق ـ بغداد) الى ان يبلغ جبل عنازة ، فما كان شرقي هذا الخط فهو للعراق وما كان في غربيه فهو لشرقي الاردن . اما ما امتد في جنوبي جبل عنازة حتى النفود وما بعدها فهو للمملكة السعودية . هذا في الشامية ، اما في الجزيرة فالحد بين الشام والعراق يسير من ابي كمال شمالاً على خط سويّ فيخترق ممالح الروضة فوادي العجيج فتل صفوق فتل خليل فتل رحولي ، وهذه التلال غربي جبل سنجار ، ثم ينعطف نحو الشرق الشمالي الى محطة تل كوشك ومنها الى فشخابور فجزيرة ابن عمر على الدجلة حيث يلتقي بالحدود التركية الذاهبة غرباً نحو نصيبين ورأس العين وجرابلس . الا ان هذا التحديد والتقسيم لم يكن متعادلاً ، ولم تسمع فيه كلمة العشائر وتراعَ حقوقهم وما تعارفوا عليه .

وليس في هذه البادية اثر للرمل ؛ اللهم الا شيء قليل في غربي تدمر قرب عين البيضاء في وادي الرمل ، وفي شرقي تدمر حول بعض الاودية والسباخ كملحة تدمر التي ذرعها ١٢ كيلو متراً في مثله وكسبخة التليلي وسبخة المنبطح . واما تربتها فرملية كلسية بيضاء او صفراء دمثة مختلطة بقسم غير يسير من التراب النباتي فاذا نالها نصيب من المطر اهتزت وربت وانبتت كثيراً من الاعشاب والجنبات التي تستسيغها الغنم والابل وترعاها . لاجل هذا يخطيء من يظن ان بادية الشام

مُدادات رملية كصحراء نجد أو تهامة ... إليه بل هي كما قدمنا

أشبه بالسهوب الحصاوية Steppes

فلوات رملية كدهناء نجد او تهامة الحجاز واليمن ، بل هي كما قدمنا اشبه بالسهوب المعاشيب التي في انحاء روسية الجنوبية مما يدعوه الاوربيون «استب steppe».

الاقليم

يسود هذه البادية اقليم صحراوي عبوس قاس . ففيه موسمان ؛ الصيف ذو الحر الشديد والشتاء ذو البرد الشديد، يفصل بينهما موسمان قصيرا الاجل هما الخريف والربيع . فالشتاء يبدأ من كانون الاول وينتهي في آذار بحرارة درجتها العظمى بين ١٦ و ٢٠ والصغرى بين — ٢ و — ٧ ، وفي بعض السنين يقرس البرد جداً وتزداد قسوة الشتاء على البدو فينالهم منه العناء العظيم ، وقد يهطل الثلج قليلاً في بعض السنين ، وفي ماندر منها يهطل بشدة . ففي سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) وكانت سنة عصيبة في البادية والحاضرة بقي الثلج الغزير غامراً البادية كلها نحو اسبوعين واهلك وقتئذ كثيراً من الابل والغنم رغم اسنمتها وألاياها . وفي سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) ظلت محطة الرطبة التي هي في وسط الحماد مغمورة بالثلج بضعة ايام . اما الامطار فتهطل من تشرين الاول وتشرين الثاني الى نيسان بكميات قليلة لاتزيد عن المئتي ميليمتر في القسم الاول الغربي من البادية (الشامية) ولاعن المئة ميليمتر في القسم الثاني الشرقي (الحماد) . وربما جاوزت هذه الارقام في ماندر من السنين .(١)

وعند هطول المطر سرعان ما تبتلعه تربة البادية الرخاء العطشى وتجذبه الشقوق البعيدة التي في اجوافها . وتهطال المطر غير مطرد . فهو اما ان يقع فجأة وبغزارة وروعة تدومان بضعة ايام ، واما ان ينقطع عدة اسابيع . وقد يكون له دورتان ؛ الاولى في اواخر تشرين الثاني واوائل كانون الاول ، والثانية في

---

١) معدل كميات الامطار في دمشق ٢١٧ وفي سلمية ٣٨٠ وفي حلب ٤٢٣ وفي السويدا ٣٢٥ وفي دير الزور ١٤٤ وفي تدمر ١١٦ وفي محطة تي ترى ١٥٧ وفي محطة تي فور ١٢٣ وفي حرابلس ٢٤٤ وفي الرقة ١٦٧ وفي الحسجة ٢٨٢ وفي القامشلية ٣٢٤ ميليمتراً .

كانون الثاني حتى اوائل آذار ، وبينهما فاصلة ، واذا ولى نيسان لايعد لسلانواء أثر .

والظاهرة الجوية الوحيدة في اطرادها هي (الرياح) . والغالبة منها في الشتاء هي الشرقية وفي الربيع الغربية . والرياح الشرقية الجنوبية هي التي تجلب الغيث في فصل الشتاء . واذا مالت نحو الشمال الغربي تتبدد الغيوم ويعود الصحو بسرعة . والرياح الشرقية الجنوبية حارة ، والغربية والشمالية باردة وقارسة . والضباب يقل حدوثه في دير الزور ويكثر في الحسكه ، وكذلك الصقيع الذي يفترش الارض صباحاً . والخريف معتدل الا انه قصير الامد فيحل الشتاء فجأة دون حالة انتقالية . ومثله الربيع الذي يفاجيؤه الصيف .

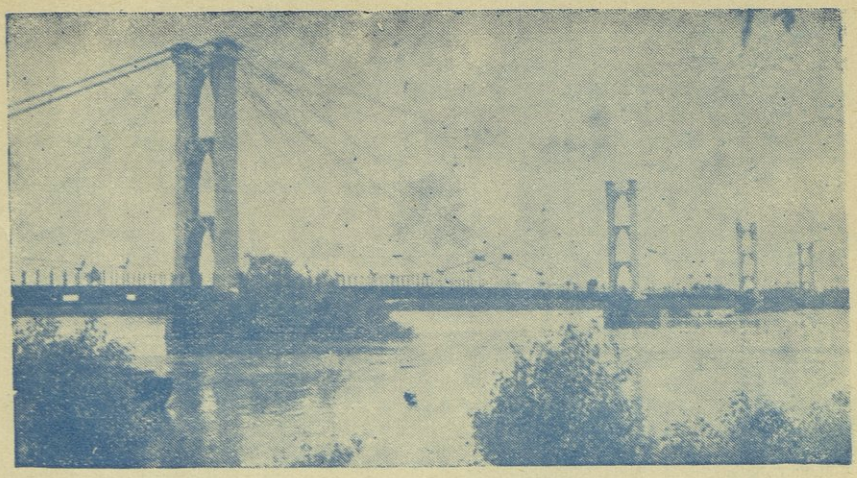
واقليم البادية شديد الحر في الصيف . وهذا الفصل يبدأ من ايار وينتهي في ايلول بحرارة درجتها العظمى في شهر تموز وآب في دير الزور ٤٦° - ٤٨° ، على ان معدلها خلال عشر سنوات ٤٣ ، اما عند البدو وتحت بيوت الشعر فتصل الى ٥٥ ، واذا سكن الريح يصبح المكوث في هذه البيوت مزهقاً للانفس . واذا الريح اشتد يثير الغبار ويزعج المقام ، فهو قلما يكون رهواً عليلا . فالطبيعة في البادية دائماً اما في افراط واما في تفريط شأن اهلها .

والفرق بين حر النهار وبرد الليل في الصيف والشتاء لايكون ذا بال ، بينما هذا الفرق في فصلي الربيع والخريف يكون كبيراً ومخيفاً يبلغ احياناً ٣٠° درجة ، ومن هنا كان هذان الفصلان اسوأ الفصول في البادية من الناحية الصحية وتؤدي الامراض الحادثة من جرائه الى وفيات عظيمة في اطفال البدو .

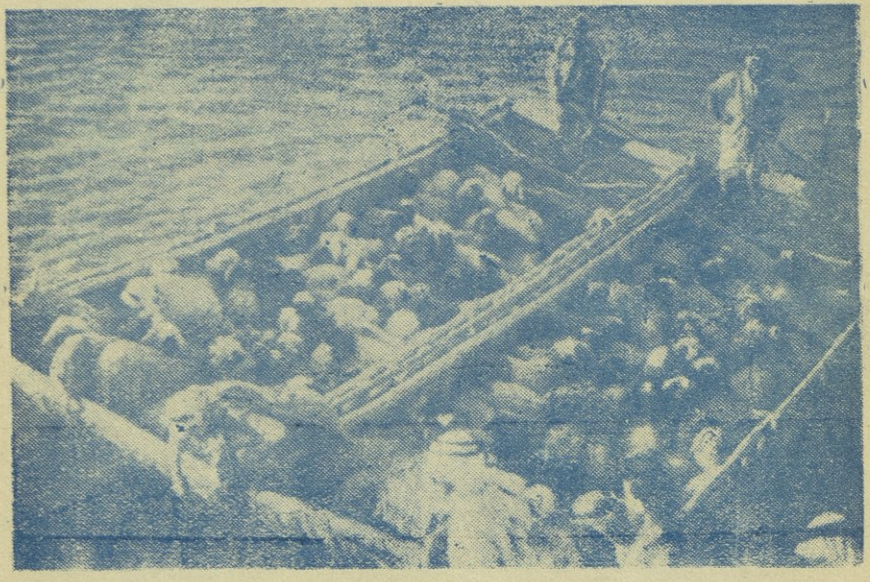
اما الاعصار والزوابع الرملية التي تثور في البادية بين السماء والارض وتستدير كأنها عمود شاهق الارتفاع وتهيج الغبار والتراب فهي حقاً ظاهرة جوية مزعجة ومن اروع مشاهد الطبيعة التي تقض المضاجع . تراها مقبلة من جوف الصحراء او قلب الوادي وتكاد تشبه بادئ ذي بدء الخط المرسوم في الافق ثم ترتفع في الجو وتتضخم ويشتد دفعها فتعصف ما مرت به من تراب وغبار وتديره في الارض

وتصعده في الهواء وتلتوي في هبوبها فتحمل حلزونات عظيمة تختلف الوانها حسب لون التراب والبقاع التي صدرت عنها . وهي تحصبها وترفعها من عشرات الكيلو مترات وتظهر كأنها الجدار السامي الى عنان السماء تعلو وتتحرك وتتقدم وبعد برهة وفجأة تكتنفك وتغرقك في سحابة سوداء حمراء قتماء مكفهرة مضيئة لاحيلة لك وانت في ذلك العراء ان تجتنب هولها وويلها ، وتسمع وقتئذ خشخشة حبات الرمل وصدى احتكاكها باستمرار وهياج ، وتبصر ذرات التراب الناعمة يناطح بعضها بعضاً ويموج ، وتلطم هذه الحبات والذرات الوجوه لطم السياط وتجفف الحلوق وتزهق النفوس ويعمي الغبار المتصاعد العيون وتهيم الحيوانات على وجوهها . . . فما عليك وقتئذ سوى الانبطاح وراء مطيتك والتدثر بالعباءة ولف الرأس بالكوفية والدعاء بان يتداركك ربك بلطف من رحمته ، فاذا انقضت هذه الداهية الدهماء وانقشع قتامها وغبارها وعاد الى العقول صوابها تخال نفسك قد خرجت من الظلمات الى النور بينما انت لاتزال وسط السهل الذي يعود الى اشراقه وعمقه ، وتلمح في الافق القصي المصفر المغبر كيف تدبر تلك العاصفة الهوجاء وتبعد وتضمحل .

ومن اقام في دير الزور وامثالها من بلدان الفرات يعرف قدر هذه الزوابع والعواصف بعلائمها وافاعيلها ؛ فهنالك بينما ترى السوق مفتوحاً والناس في بيعهم وشرائهم اذ يخفون سراعاً لاغلاق الحوانيت فيقبعون فيها او في دورهم ويغلقون الابواب والنوافذ وتقفر الشوارع من المارة . فاذا هبت الزوبعة تنحجب الشمس ويتلون الجو بلون اسود قاتم واحمر متأجج ثم بلون اصفر ولا يبرح في هذه الالوان والظلام حتى تخف الوطأة بعد ساعة او ساعتين او اكثر او اقل ويعود الى لونه الطبيعي فيخرج الناس من ملاجئهم كأنهم انقلبوا من الظلمات الى النور او كأنهم اصيبوا بغارة جوية شنعاء فيرون ارض الدور والغرف قد ملئت بالغبار والرمل الناعم مهما احكموا اغلاقها ، لان الغبار يدخل من كوى المدافئ وثقوب المفاتيح ، وهم يسمون هذه الزوبعة (عجة) تصغير كلمة عجاجة الفصحى . اما



جسر الفرات في دير الزور



نقل الغنم في سفن الفرات

عواصف الغبار العادية فهي كثيرة في البادية ، وهي ترفع كل شيء وتغمره ، حتى انها تدخل في الطعام والاثاث والخياشيم وتحرم لذة الطعام والنظافة وحتى النوم في بعض الليالي . فالبادية على الجملة لاتصلح للاقامة الا في شهري الخريف (تشرين الثاني وكانون الاول) والربيع (آذار ونيسان) ، لان الاقليم شديد وقاس والماء قليل ورديء ، ومرارة الحياة غير يسيرة لمن لم يعتادها من ابناء الحواضر ، لايعيش فيها الا كل اخي عزمات صابر على النكبات ، ومن كان حليف الجوع والعطش ذا صحة لاتختل وعزيمة لاتفتر ، واذا توغلت فيها فهناك المشاق والمصاعب بعضها ينسيك بعضاً (١) ويلزمك بعضها لزام الظل فيوماً ترتشف الماء العكر من الموحلات في قعور الآبار والخباري ويوماً تكاد تهلك من الظمأ تحرقك في النهار شمس الهاجرة وتتألم في الليل من شدة البرد ، واذا كان الامن مختلاً لاتأذن ربعك بشب النار خوف ان يهتدي اليكم اللصوص . . . وهكذا .

النجعة

اذا حل فصل الخريف يغادر البدو منازلهم في المعمورة ويشرعون بنجعتهم نحو البادية طلباً لكلائها فيظعنون رويداً رويداً وزرافات زرافات وينتقلون من بئر الى بئر ومن مرعى الى مرعى ويمعنون كلما توالى المطر الوسمي واهتزت الارض وأعشبت . واذا جاء فصل الشتاء وهطلت الامطار في ابانها وتتابعت على المحمود من انوائها ولم تشذ عما يطاق من قرها وبردها تخضر البادية اخضراراً جميلا وتغدو بقعة اريضة بهجة وتكتسي بانواع النباتات والاعشاب فترتع فيها الابل والغنم وتلد بكثرة وتمتلىء الغدران (جمع غدير) والخبارى (جمع خبرة) والخرايج (جمع

---

(١) قيل لاعرابي كيف تصنع بالبادية اذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله . . . فقال وهل العيش الا ذاك . يمشي احدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في ايوان كسرى (عن المحاسن والاضداد)

خريجة)وهي شبه المستنقع والعقلات(جمع عقلة)وهي بئر قليلة العمق يمكن حفرها بابسط الادوات حتى بالصاج المعد لخبز الخبز . واذا جاء فصل الربيع وحسن وروده وازدهت رياحينه وورده يعلو ثغاء الحملان ويدوي صوت مخض الالبان وينساب البدو ويوغلون في نجعتهم الى (قلب الحماد) يتتبعون مساقط الغيث ومخاوض الخباري ومنابت الكلأ وملاجيء الدفء ويطيلون أمد النجعة كلما اخصبوا وامرعوا وارتووا من الماء وطاب المقام والعيش الرخي وكثرت الكماءة وقلعتها نساؤهم وطبختها .

وكلما تتابعت امطار الشتاء والربيع وزخر الماء في الخباري و (الوديان) عم الفرح مضارب البدو وطفح البشر والاغتباط على وجوههم فيشبعون ويسمنون هم وماشيتهم وتكثر الاعراس والولائم عندهم ويعكف بعضهم على الصيد والقنص بقصد اللهو والانس . وهم كلما امعنوا في التشريق او النجعة متعوا نواظرهم بهيج المناظر المتعددة المتجددة واستنشقوا الهواء النقي الفياح باريج العرار والخزامى والشيح والقيصوم وغيرها من زهور البادية وعطورها مما جعلهم يؤثرون ربيع البادية على ملاهي الحاضرة . وهم لهذا كله ولتبدل المناظر امامهم كل حين عديمو الحاجة لمسارح الحواضر ومباهجها . ذكر المقدم مولر في كتابه (في الشام مع البدو) ان مزيد بن قعيشيش شيخ ضنأ ماجد (الخرصة) من الفدعان وعقيدها المغوار في الحرب المتوفي في سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) كان قد اتى مرة الى حلب في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) فدعاه احد ضباط مراقبة البدو الفرنسيين ذات ليلة الى سهرة حافلة في احد بساتين حلب وزين البستان بالانوار والازهار والاطعمة والاثمار وكل وسائل اللهو والطرب . وبعد ان مكثوا مدة واخذوا من الحظ عدة سئل الضابط الشيخ مزيد ، وقد وجده ساهماً في الجلسة كلها غير آبه لشيء كأنهم في واد وهو في واد « كيف وجدت ليالي حلب ياشيخ مزيد » فاجابه « كلها زين وماعملتموه الليلة زين ولكن بريتنا في الربيع اكثر زينة ومتعة » .

ورحم الله الامير عبد القادر الجزائري المتوفي في سنة ١٣٠٠ (١٨٨٣) فهو

لما كان في فرنسا جرى بين طائفة من ادبائها مناظرة في اي المعيشتين افضل معيشة البدو ام معيشة الحضر، ثم طلبوا رأي الامير في ذلك، فنظم لهم قصيدة غراء جديرة بالاقتباس هنا، اذ لم اجد في شعرنا القديم والحديث ابدع منها تمثيلاً لحياة البادية ومحاسنها ووصفاً لشغف البدو وتفضيلهم اياها على حياة الحضر ومساويها، قال:

يا عاذراً لامرئ قد هام في الحضر ... وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خف محملها ... وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
او كنت اصبحت في الصحراء مرتقياً ... بساط رمل به الحصباء كالدرر
او جلت في روضة قد راق منظرها ... بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقاً ... يزيد في الروح لم يمرر على قذر
او كنت في صبح ليل هاج هاتنه ... علوت في مرقب او جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها ... سرباً من الوحش يرعى اطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حزن ... في قلب مغنى ولا كد لذى ضجر
نباكر الصيد احياناً فنبغته ... فالصيد منا مدى الاوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً مع نعامته ... وان يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل اذا شدت هوادجنا ... شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى ... مرقعات باحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل ... اشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها ... شليلها زينة الاكفال والخصر
تطارد الوحش والغزلان نلحقها ... على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلاً بعد ما نزلوا ... منازلاً ملبها لطخ من الوعر
ترا بها المسك بل انقى وجاد بها ... صوب الغمائم بالآصال والبكر
تلقى الخيام وقد صغت بها فغدت ... مثل السماء زهت بالانجم الزهر

قال الاولى قد مضوا قولاً يصدقه نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشعر او بيت من الشعر
انعامنا ان اتت عند العشى تخل اصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل انجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها بها وبالخيل ذللنا كل مفتخر
فخيلنا دائماً للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفر
لانحمل الضيم ممن جار تركه وارضه وجميع العز في السفر
وان اساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدونا ماله ملجأ ولا وزر وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من حليب لايخالطه ماء وليس حليب النوق كالبقر
اموال اعدائنا في كل آونة نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مداً فنحن اطول خلق الله في العمر

ورحم الله امير الشعراء شوقي حيث يقول :

أكنت من الدور او القصور ترى هذه القبة الصافية ؟
كأن النجوم على صدرها قلائد ماس على غانية
فما (البيت) الا ديار الكرام ومنزلة الذمم الوافية
لها قبلة الشمس عند البزوغ وللحضر القبلة الثانية

ولكن ما ان ينتهي فصل الربيع وتنقطع الامطار ولا سيما اذا لم تبلغ الكميات السنوية التي ذكرناها (٢٠٠ مم في الشامية و ١٠٠ مم في الحماد) ، حتى يذوي

العشب ويقل المرعى وتجف مياه الخبارى والاودية ، وما ان يشتد الحر في شهر ايار حتى يكلح بسيط البادية وينقلب كثيباً يبعث الانقباض وتبرز ارض الجوع والعطش التي لايعد فيها اخضرار ولاينبض ماء ولا يحلو العيش .لهذا يشرع البدومنذ اواخر نيسان واوائل ايار بالرحيل والرجوع نحو المعمورة رويداً رويداً يسيرون زرافات زرافات الى حيث يجدون مجالاً للعل والنهل من الآبار فيقيمون حول كل بئر مدة ثم ينتقلون الى غيره . فاذا اقتربوا من المعمورة وقفوا عند حدودها وخيموا في الاماكن الكافية لرعي مواشيهم وشربها وترقبوا انتهاء موسم الحصاد في القرى . ومن ثم يقصدون منازلهم التي اعتادوا ان يقيظوا فيها ويستقروا فيقون خمسة او ستة اشهر ثم يعودوا للنجعة وهكذا دواليك في كل عام . اما إذا جاءتهم اعوام ماحلة فاجدبت الارض وشحت السماء ونضب معين الماء او كلب البرد ومات الحلال من الجوع والعطش حينئذ يركبهم الجهد اي ركوب ويخيم عليهم البؤس وضنك العيش اي اخناء كما ادركنا بعضه في سني (١٩٣٢ — ١٩٣٥ م) . وفي كتاب المحاسن والمساوئ (ج ٢ ص ٩٩ طبعة ليبزيغ) وصف لهذه الحالة ما برح ينطبق على أعراب البادية في سني القحط والشدة رأينا من المناسب درجه هنا .

قال زياد لغيلان بن خرشة : احب ان تحدثني عن العرب وجهدها وضنك عيشها ، ، لنحمد الله على النعمة التي اصبحنا بها . فقال غيلان ؛ حدثني عمي قال : توالت على العرب سنون تسع في الجاهلية حطمت كل شيء ، فخرجت على بكر لي في العرب ، فمكثت سبعاً لااطعم الا ما ينال منه بعيري او من حشرات الارض فشددت على بطني حجراً من الجوع ، حتى دفعت في اليوم السابع الى حواء (١) عظيم ، فاذا بيت حجش (٢) عن الحي فملت اليه ، فخرجت الي امرأة طوالة حسانة (٣) فقالت من ، قلت طارق ليل يلتمس القرى قالت لو كان عندنا شيء لآثرناك والدال على الخير كفاعله ، حس (٤) هذه البيوت ثم انظر الى اعظمها

---

(١) الحواء : جماعة البيوت المتدانية وجمعها حوية (٢) حجش : تنحى وابعد عن البيوت (٣) حسانة : حسناء (٤) حس : تعرف احوالها

فان يك في شيء منها خير ففيه . ففعلت حتى دفعت اليه فرحب بي صاحبه وقال من قلت طارق ليل يلتمس القرى . فقال يا فلان فاجابه فقال هل عندك طعام ؟ فقال لا فوالله ما وقر في اذني(١)شيء كان اشد على منه . قال هل عندك شراب ؟ قال لا ثم تأوه فقال ، قد بقينا في ضرع الفلانة (٢) شيئاً لطارق ان طرق قال فأت بـه فاتي العطن (٣) فابتعثها فما سمعت شيئاً قط كان اشد من شخب تيك الناقة في تلك العلبة ، حتى اذا ملأها وفاضت من جوانبها وارتفعت عليها رغوة كجمة الشيخ ، اقبل بها يهوي نحوي ، فعثر بعود او حجر فسقطت العلبة من يده فما اصبت بمصيبة افزع لقلبي ولا اعظم موقعاً عندي من انكفاء تلك العلبة على مثل تلك الحال التي كنت فيها . فلما رأى ذلك رب البيت خرج شاهراً سيفه فبعث الابل ثم نظر الى اعظمها سناماً ودفع اليه مدية وقال ياعبد الله اصطل واحتمل . فجعلت اهوى بالبضعة (٤) الى النار فاذا بلغت إناها (٥) اكلتها ثم مسحت ما في يدي من اهالتها (٦) على جلدي ، وقد كان قحل (٧) على عظمي حتى كأنه شن (٨) ثم شربت شربة ماء وخررت مغشياً علي ، فما افقت الى السحر . وقطع زياد الحديث وقال لا عليك الا تخبرنا باكثر من هذا فمن المنزول به قلت : عامر بن الطفيل .

الحيوان والنبات

اما الحيوان في البادية فقليل . منـه بعض انواع الحجل الارقش والاحمر ، والكدري (٩) والدراج (١٠) وهي تكون في ضفاف الاودية . وثمة في بعض الهضبات العالية القطا الشديد الطيران (١١) والحبارى الكبيرة

---

(١) وقر : ثقل (٢) الفلانة والفلان بالتعريف كناية عن غير الآدميين (٣) العطن : مناخ الابل حول وردها (٤) البضعة القطعة من اللحم (٥) بلغ إناه : نضجه وادركه (٦) الاهالة : الشحم وما اذيب منه (٧) قحل : يبس (٨) الشن : القربة الخلق الصغيرة .

(٩) ـ الكدري ضرب من القطا غير الالوان رقش الظهور صفر الحلوق والضربان الآخران من القطا هما الجوني والغطاط . (١٠) ـ الدراج طائر يطلق على الذكر والانثى جميل المنظر ملون الريش . (١١) ـ القطا طائر في حجم الحمام صوته قطاقطا شديد الطيران ، ومن امثال العرب « هو اهدى من القطا » .

(٤) المتوحة الطويلة العنق والذنب والتي تنشد في الصيد كثيراً. وثمة الطيور الجوارح كالنسور والعقبان والصقور والبزاة والرخمة والحدأة ، وهذه الطيور الجوارح تتعارك مع بنات آوى والذئاب وتنازعهما الجيف واشلاء الحيوانات الماثتة. وفي البادية حول سقي الفرات والخابور والبليخ كثير من طيور الماء وكثير من الدراج والحجل والسماني والاوز والبط والطير المسمى صياد السمك . وفي البادية اسراب الغزلان السارحة التي تختلف قليلاً بين الجزيرة والشامية ، وفيها الوعول (٥) في جبل الرواق غربي تدمر ، وبنات آوى والثعالب قرب الاودية ، والارانب في موقع الخور جنوبي الدير ، والخنازير البرية في الجزيرة في بحيرة الخاتونية وفي وادي الفرات وجبل البلعاس وجبل عبد العزيز . وفي هذا الجبل ايضاً الاروية (٦) وفي البادية انواع عديدة من الضباب ذات الاذناب المعقدة واليرابيع القصيرة اليدين والطويلة الرجلين ، والسوام ابرص ذات الاطوال المختلفة التي تتراوح من خاتم سليمان الى الاوزاع التي طولها ٦٠ — ٧٠ سنتيمتراً والعقارب ذات السم القليل والعظاء والحرباء وام حبين وغيرها . وفي البادية من الحيوانات الضارية بعض الفهود والسنانير البرية والوشق وعدد ضئيل من عناق الارض الذي يقول البدو انه يأكل الموتى . وكل هذه

---

(٤) — الحبارى ويضرب به المثل في البلاهة والحمق يقال هو ابله من الحبارى وكل شيء يحب ولده حتى الحبارى قيل لها ذلك لانها اذا غيرت عشها ذهلته وحضنت بيض غيرها . وهو طائر كبير اغبر اللون بقدر الاوز او اكبر لذيذ اللحم . (٥) — الوعل هو تيس الجبل والجمع وعول له قرنان قويان منحنيان إلى الوراء . (٦) — الاروية بضم الاول وكسره تقع على الذكر والانثى جمعه اراوي واروى على غير قياس . وفي معجم الحيوان لامين المعلوف ان الاروية هي من الضأن الجبلية . لان لها صوف متدلى من اعناقها بينما الوعول ليس لها مثل هذا الصوف .

الحيوانات مع بعض الذئاب الشهب تقترب من الاودية وتهجر الهضاب . وتكثر الذئاب في الجزيرة وقد تسير كالقطعان وتهاجم اذا جاعت . وليس في الهضاب سوى عدد ضئيل ومبعثر من الحبارى والثعالب والقطا والغزلان . وفي اقصى جنوبي الحماد قرب النفود يعثر على قليل من طير النعام وهو يكاد ينقرض كانقراض الغزلان من كثرة مطاردتها بالسيارات دون شفقة ولا رحمة . وقد انقرض قبلها الاسد من سقي الفرات ، قيل متذسنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) بعد ان كان يأوي في الاكثر الى غابات الطرفاء بين الدير والسبخة .

وجو البادية جاف وامطارها قليلة كما قدمنا ، وهذا ما جعل لها اعشاب خاصة بها ، جلها غث وقصير القامة . اما الشجر العظام فلا ترى لها اثراً الا في غيطان قرى المناظر كتدمر والسخنة والقريتين ، ففيها تنمو كل الاشجار المثمرة التي تعيش في بقية المدن الشامية حتى الزيتون . والشجر غير المثمر ينمو ايضاً في جبال البادية التي غربي تدمر وشماليها ويؤلف غابات لو تركت وحفظت لصارت كثيفة كما هو الحال في جبل الباماس وجبل شاعر وجبل ابي الظهور وغيرها . وهذا الشجر هو البطم الذي يستخرج اهل السخنة من ثمره زيتاً شهياً ويقطعون حطبه ويحرقون فحمه ، وهم بذلك يكادون يبيدونه . اما النباتات الغثة القصيرة القامة فمنها بعض النباتات المعمرة يصادفها السائر في التلال وفي قعور الاودية والبدو يدعونها شجراً فكل نبت معمر عندهم شجر نذكر منها الروثة والحمض التي تحبها الابل حباً جماً في الخريف ، اما في الربيع فتفضل عليها الفليفلة (وهي غير الفليفلة المعروفة في المدن) مازالت هذه خضراء . ثم يأتي بعدها القصقاص والشعران والشيح والقيصوم والرمث والعجرم والغسلة والعبيرة والنتل وغيرها . فالروثة حامضة تقوم للابل مقام التوابل وهي والرمث (١) وكذلك الشيح والقيصوم اللذان لهما عرف

---

(١) وفي المخصص لابن سيده ، الحمض من النبات ما كانت فيه ملوحة والخلة ما سوى ذلك . وقيل الخلة ما كانت فيه حلاوة ، والعرب تقول الخلة خبز الابل

شذي تعبق منه البادية احب المرعى للابل لانها تسمن وتغني من جوع . اما النباتات السنوية التي تسمى (العشب) فهي القبا الذي يحبه الغنم كثيراً والصمة والخافور والعادان والبخاتري والعظم والكريطة والشكارة والخمصان والديدحان والمحروت والشلوة والخميمة والحربق والقورب والربيان والنصي والجرجير وغيرها مما يطول شرحه . وهذه النباتات العشبية تنشأ في كانون او شباط وتجف في نيسان وهي تنمو في منحدرات الآكام وسفوح الجبال وتعد من اجود مراعي الغنم . والبدوي اذا ارتاد او وصف ارضاً مخصبة لا يبدأ إلا بذكر الاعشاب الطيبة كما كان يفعل البدوي الجاهلي . فقد روي ان اعرابياً وصف ارضاً احمدها فقال خلع شيحها وابقل رمثها وخضب عرفجها واتسق نبتها ومعنى قوله خلع شيحها اي أورق وخضب عرفجها اي اسود لخضرته واتسق نبتها اي تتام . ومن الاعشاب

تابع شرح الصفحة السابقة

والحمض لحمها او فاكهتها وانما تحول الى الحمض اذا ملت الخلة وليس شيء من الشجر العظام بحمض ولا خلة ، وعن ابي حنيفة كل ما ملح من الشجر كله وكانت ورقته حية اذا غمزتها انفقأت ماء وكان ذفر الريح ينقي الثوب اذا غسل به واليد فهي حمض والمرعى كله عشباً كان او شجر خلة وحمض . وقال كل بلد لا يكون فيه حمض فهو عذى والابل العواذي التي لا ترعى الحمض . قلت ومن الغريب ان يعد المخصص كثيراً من نباتات الحمض ولا يذكر الروثة الشهيرة بحب الابل لها ولم يتعين لنا الاسم الذي قد يكون اطلقه عليها . ولم نعثر بين ما ذكرناه آنفاً وذكره هو الاعلى القصقاص والشعران والرمث والنصي . وفي اقرب الموارد القصقاص ضرب من الحمض ضعيف دقيق اصفر اللون ، والشعران رمث اخضر يضرب الى الغبرة . والرمث مرعى للابل من الحمض وهو شجر يشبه الغضا . قال المتنبي يصف ناقته ؛ تركت دخان الرمث في اوطانه . والنصي نبت سبط من افضل المراعي مادام رطباً فاذا ابيض فهو الطريفة فاذا اضخم ويبس فهو الحلى الواحدة نصية ،

التي تهيم بها الابل النصي ، فمما جاء في البيان والتبيين للجاحظ ان الاخوص بن جعفر بعد ما كبر وعمي وبنوه يسوقون به الاباعر قال لهم « اي شيء ترتعي الابل » قالوا الثمام والضغة . قال « سوقوا » ثم عادت فارتعت بمكان آخر فقال « اي شيء ترتعي الابل » قالوا نصياً وصلياناً . قال مكفية لرعائها ، مطولة لذواها ارعوا واشبعوا . ثم سألهم « أي شيء ترتعي الابل » قالوا الرمث قال خلقت منه وخلق منها . وفي البادية من الازهار الخزامى والعرار والاقحوان والحوذان والخربق وشقائق النعمان . ومن نباتها الاشنان الذي يجمع البدوي منه مايقوم مقام الصابون . وفي المخصص لابن سيده (ج ١٠ ص ١٧٧) عن لسان بدوي يصف بهجة الارض اذا اخذت زخرفها وازينت : رأيت ببطن فلج منظراً من الكلأ لا انساه وجدت الصفراء والخزامى تضربان نحور الابل وتحتها قفعاء وحربث قد اطاع وامشك بافواه الابل وتركت الحوران ناقمة في الارجاع . (الصفراء والخزامى والقفعاء والحربث اسماء نباتات) (واما) اطاع فمعناه بلغ غاية ما يراد منه ، واما امسك بافواه الابل فمعناه اغناها عن كل شيء ، واذا انقعت الحوران جمع حوار (ولد الناقة) في الاجارع فذلك غاية ري الارض لان الاجارع (الاباطح) اشرب للماء . قال وبعث قوم رائداً فقالوا ما وراءك قال عشب تأد مأد مولي عهد متدارك جعد كافخاذ نساء بني سعد تشبع منه الناب وهي تعدو المتدارك قد لحق آخره باوله . (التأد : الرطب ، والمأد : الذي ينثني من نعمته .)

وفي سقي الفرات وفي كل مكان قريب من الماء تكثر الاعشاب والاشجار . ومنها غابات كثيفة من شجر الدفلي والطرفاء ، وقد كانت الطرفاء فيما مضى اكثر عدداً والتفافاً من الان ، وقد ادركت ذلك خلال الحرب العامة الماضية ما بين قريتي السبخة ومعدان . وفي الحوائج وهي الجزر الناشئة وسط الفرات اشجار الغرب بفتح الغين والراء ، وفي ضفاف الفرات وحول عين الكوم نبات العرقسوس الذي يستخرج ويرسل لخارج بلاد الشام ، ونبات الينبوت الشائك ذو الجذور العمودية الطويلة وهو كثير وينفع للوقد .

التضاريس والجبال

بادية الشام هضبة مرتفعة عن سطح البحر من ٥٠٠ — ١٠٠٠ متر ،وذلك في البراري الممتدة في شرقي دمشق وفي الحماد حتى الحدود العراقية وما يليها ومرتفعة اقل من ذلك اي من ١٠٠ — ٥٠٠ متر في البراري الشامية اذا جزت تدمر تريد ضفتي الفرات ، وفي براري الجزيرة اذا اردت ضفاف الخابور والبليخ والجغجغ. وبراري الشامية في انحاء دير الزور تؤلف نشزاً مرتفعاً ينحدر من الجنوب الى الشمال نحو سقي الفرات المعروف (بالحاوي) ويقف هناك بروز فجائي علوه عن مستوى الفرات ٨٠ — ١٠٠ متر ، ويكون هذا البروز احياناً صخرياً واحياناً منطقة مسايل متمعجة تمعجاً بليغاً .

وفي هذه البادية سلسلة من الاكمات والمرتفعات الجبلية ذات الصخور الكلسية الطباشيرية (الكريتاسه) تنشأ من قرب دمشق وتمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . لكن ليس لها اسم عام جامع بل اسماء لجبال فرعية منها كالجبل الشرقي الذي يبدأ من شرقي النبك والناصرية وكجبل النصراني الذي في جنوبي القريتين ومثله جبل حفير وجبل قطوس وجبل الباردة وجبل بصيري وجبل خنيزير وجبل الرواق وجبل ام جرن ، وربما شمل الجميع اسم (جبل الرواق) وهو اشهر الاسماء . كما ان في وسط هذه السلسلة عيوناً كعين الباردة وعين الوعول وعين الخنازير وفيها بئر بصيرى وسد اثري عظيم اسمه سد الخربقة وسيأتي ذكره. وفيها وادي الباردة الذي تنفذ منه عشائر حمص وحماة في طريقها الى الحماد وهو بين جبل الباردة وجبل بصيرى .

وفي شمالي هذه السلسلة الاولى (سهل الدو) العظيم الذي قدمنا ذكره ، وفي شمالي سهل الدو سلسلة ثانية تمتد من شرقي قرية عقيربات في قضاء سلمية وتنتهي في تدمر والسخنة. وليس لهذه السلسلة ايضاً اسم عام جامع بل اسماء لجبال فرعية منها . وهذه الجبال الفرعية كانت في العصور الماضية ملآنة باشجار البطم وحراجه . والبطم

ينفع بحطبه وعصير ثمره المشابه لزيت الزيتون وباستعداده للتطعيم بالفستق . ولا يزال في بعضها آثار من بقايا هذه الحراج كما هو الحال في جبل البلعاس (١٠٩٨م) وهو اشهر تلك الجبال واقربها لقرية عقيربات من قضاء سلمية ، وفي جبل ابو الضهور وجبل شاعر (١٢٧٩ م) وجبل معدبة وجبل المرا وجبل خشبية فردة وجبل خشبية تنيان وهما شمالي جبل شاعر الى الشرق وفي جبل ابي رجمين وجبل الضلعان وجبل لابدة وجبل معيرة وجبل منشب وجبل الضاحك (٧٨٠ م) والضويحك القريبان من السخنة . اما الجبال التي تجردت يالاسف من حراج البطم بحكم القطع والتخريب المتواليين منذ نصف قرن او اقل ولا سيما خلال الحرب العامة الاولى فهي جبل الشومرية وجبل ابوشنداخ وجبل التياس وجبل الابيض (١٣٢٧ م) وجبل الطاروجبل صفرا (٩٥١م) وجبل شعرة (١٣٣٦م) وغيرها ، وهذه الجبال في شمالي تدمر وغربها وشرقها ، ومثلها جبل ابو النتل وجبل اسرية ، وهما في شمالي البلعاس على طريق تدمر ـ حلب .

وما برح اهل سلمية وعقيربات والسخنة وتدمر يقطعون احطاب هذه الجبال وينقلونها على عجلاتهم وجمالهم ويبيعونها في حمص وحماة وسلمية وتدمر، ناهيك مايحرقه الاعراب الذين ينزلون فيها في فصل الشتاء او يمرون اثناء التشريق والتغريب ، وما فعله عمال شركة النفط العراقية حينما كانت تمد انابيبها في سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٠ م) وبعدها وترسل سياراتها ومناشيرها الميكانيكية تفتك بتلك الاشجار العظيمة التاريخية فتكاً زريعاً . وقد خلت اكثر تلك الجبال وما بينها من الاودية من اشجارها بسبب هذا القطع المستمر ولا رادع ولا وازع كما ينبغي . وسوف لايمضي على ما رأيت عشرون سنة أخرى حتى تتجرد هذه الجبال الجميلة من اشجارها بالكلية كما تجرد جبل حرمون وجبل قاسيون وغيرهما من جبال الشام .

وفي شمالي هذه السلسلة الثانية الى الشرق جبل يدعى البشري (٨٦٥ م) مؤلف من سلسلة من الآكام المتعاقبة وهو على مقربة من دير الزور الى غربها

الجنوبي . وطرفه الشمالي المحصور بين بئر سجري وبئر غانة ذو تأليف بركاني بازلتي ، وفيه واد اسمه وادي القير يضارع اودية جهنم بحره وقت الهاجرة ، وواد آخر يدعى وادي الحرامية يمتد من الجنوب الى الشمال ويصل حتى التبني غربي دير الزور . وكان الامل عظيماً بوجود النفط في جبل البشري ، لكن عمليات السبر التي اجريت لم تثمر بعد . وقد ذكر ياقوت جبل البشري في معجمه وقال ان فيه (اربعة معادن القار والمغرة والطين الذي يعمل منه البواتق التي يسبك فيها الحديد والرمل الذي في حلب يعمل منه الزجاج وهو رمل ابيض كالاسفيداج وهو من منازل بني تغلب بن وائل) .وذكر ابو الفرج الاصبهاني في كتابه الاغاني هذا الجبل باسم (البشر) في صدد غارة الجحاف بن حكيم السلمي على بني تغلب المذكورين ثأراً من هجو الشاعر الاخطل له في سنة ٧٣هـ ،وسميت هذه الغارة النكراء بيوم بشر .

وفي الاغاني ايضاً اسماء اماكن في شمالي البشر كالرصافة وصهين وهي في قبلي الرصافة وعاجنة الرحوب وهي في قبلي صهين ومحاشن وهو جنب الى جبل البشر . ولم احقق ما اذا كانت هذه الاسماء لاتزال معروفة لدى اعراب تلك الديار سوى الراهون الذي يشبه (الراحوب) . وفي جبل البشري مغرة تستعمل لوسم الغنم بالعلامة الحمراء . وفيه ولا سيما في جهته الغربية كثير من الكلس المزوج بالحمر على سطح الارض تتخذه العشائر للتدفئة . وبين جبل البشري وجبل الضاحك منفذ الطيبة وواد اسمه وادي الكبير يصلان بين السخنة والرصافة ثم الرقة .

اما الجزيرة ففي وسطها جبل كبير اسمه جبل عبد العزيز مستطيل من الشرق الى الغرب ، ذرعه على التقريب ٧٠ في ٣٠ كيلو متراً ، وعبد العزيز الذي نسب اليه هذا الجبل هو فيما زعموا ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ. هذا وفي موقع الغرة وسط هذا الجبل من الشمال ضريح ينسب لعبد العزيز المذكور ،وقد جعل الضريح ضمن مسجد بناه مهاجرو الشاشان في سنة ١٣١٣هـ على مارأيت مزبوراً في عتبة بابه لما زرته في خريف سنة ٣٦٣هـ(١٩٤٣م) وقد

روى لي يومئذ البدو القاطنون حول هذا الجبل وهم من عشيرة البقارة (بقارة الجبل)ان اسم هذا الجبل قبلاً كان جبل المبارك . ومن الغريب ان ياقوت لم يذكر هذا الجبل في معجمه بهذا الاسم بل ذكر اسم جبل دعاه طورزيتا وقال انه قرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زيتون عذى يسقيه المطر ولذلك سمي طورزيتا . قلت وأنا لم أر زيتوناً بل بطماً في الاكثر ولوزاً وزعروراً في الاقل ، فهل هذا الجبل الذي وصفه هو جبل عبد العزيز والمحققون من الفرنج واخصهم دوسو في كتابه « الطبغرافية التاريخية لبلاد الشام » لم يذكروا لنا اسمه القديم في عهد الرومان ولو عرفوه لذكروه . ولما سألت الشيخ سعيد العرفي مفتي دير الزور وعلامتها نفى نسبة عبد العزيز الى الشيخ عبد القادر الكيلاني . لكنه لم يعين سبب التسمية ومن هو عبد العزيز هذا بل دلني على ما ذكره ياقوت عن طورزيتا . وجبل عبد العزيز يشبه جبل البلعاس بصخوره البيضاء الكلسية وباشجار البطم النامية فيه . وقد كانت هذه الاشجار كثيرة شبه الغابات لمضي ربع قرن او ثلثه ، وهي تكاد تنقرض هنا ايضاً من فقدان الحماية وتوالي القطع والفتك ومنذ ان صار موطناً لعشيرة البقارة المذكورة ومشتى لعشائر الجبور والشرايين والعدوان . وفي جبل عبد العزيز على ما قيل لي معدن للنحاس ، وفيه من حيوان الصيد الأروى ومن القصور الاثرية قصر عربي اسمه قصر سكرة . وفي براري الجزيرة عدة براكين منطفئة منتشرة كأنها فقاقيع لماعة وسط بحر لجيّ منها الجويف (وفيه ثلاثة براكين) والمناخير التي شرقي الرقة (وهي بركانان الشرقي والغربي وعلوهما ٤٠٢ م) وجبل المعزى (٣٧٥ م) ذو المنحدرات الصخرية المشرفة على الخابور غربي الفدغمي ، ومنها تل مرقدة وتل كوكب (٥٣٤ م) الذي يدعى سلطان التلول ويظهر عن بعد ٥٠ — ٦٠ كيلو متراً عن الحسجة اذ هو على مقربة منها في شمالها الشرقي .

وفي منطقة الحماد من بادية الشام جبلان يستحقان الذكر ، الاول يدعى (جبل الغراب) يمتد عن تدمر الى الجنوب نحو ثمانين كيلو متراً ، وله حلمتان

توآمتان من الصخر البازلتي الاسود ، والثاني يدعى (جبل التنف) قرب ملتقى الحدود الشامية والعراقية والاردنية على طريق سيارات دمشق ـ بغداد في الكيلو متر ٢٥٠ عن دمشق ، وليس لجبل التنف سوى حلمة واحدة ذات قاعدة متبسطة . ولا يزيد علو هذين الجبلين او الاكمتين عما حولهما من الارض اكثر من ١٠٠ — ١٥٠ متراً . ومزيتهما الوحيدة هي امكان رؤيتهما من مسافة ١٠٠ كيلو متر من اطرافهما الاربعة بحكم وقوعهما وبروزهما وسط برية شاسعة منبسطة مطردة المناظر ، ومن هنا صارا علمين للاستدلال جليلي القدر والنفع يميز البدوي التائه في مهامه الحماد خيالهما عن بعد تمييزاً حسناً . والبدو يحسبون مسافة كل محل في الحماد بالنسبة لبعده عن الغراب او عن التنف . وجبل التنف ذو تأليف بركاني ولون اسود ، ويقع في منتصف وعرة مفروشة باحجار الصوان الصغيرة المتلعة المتموجة ، وقد يزداد هذا التموج وتحدث فيما بينه قعرات وبطائح تؤلف الخبرات والمراعي التي يتهافت عليها البدو اي تهافت لمائها وعشبها .

ومنطقة جبل الغراب تشبه منطقة جبل التنف ، وهي تبعد عنها الى الشمال الشرقي نحو ١٥ ساعة على الماشي (نحو ٧٥ كيلو متراً) وهي سهل اجرد اقفر ذو تلعات متموجة تسد الافق عن بعد وتحدده ، وهي تحمل احياناً ركاماً من الاحجار تدعى (رجوماً) يتخذها البدو اعلاماً للاستدلال على المنازل والمنتجعات .

وفي غربي جبل الغراب وجنوبه الغربي وفي منتصف الطريق الذاهبة من نقطة السبع آبار (شرقي دمشق بنحو ١٥٦ كيلو متراً) سلسلة من الآكام تتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي تسمى (آكام العليانية) و (طرق العلب) وهي مؤلفة من قباب مدورة متتالية ومن تلال وتليلات مخروطية الشكل او بشكل المائدة بينها مسايل صغيرة ذات اميال لطيفة تارة وعمودية تارة اخرى . وقعور هذه المسايل حجرية ، لكن ينمو فيها العشب . وبعض هذه المسايل يؤلف اودية مجاريها صعبة التحديد واتجاهاتها عسيرة التعقيب وما منها فيه ماء في اي موسم كان . اما في شرقي جبل الغراب فالامر يختلف . لان الاودية

العديدة هناك لها مجار واضحة تماماً وهي تارة تتسع وتنبسط لرافد جديد يصب فيها وتارة تضيق بين سلسلتين متداديتين من الآكام ، اشكالها كالقباب المتطاولة مغطاة بالحصى والجلاميد وعلى ذرواتها رجوم بارزة . والى هذه الاودية تهفو افئدة البدو ويشدوا الركاب ؛ اشهرها وادي عامج ووادي حوران ووادي الصواب ووادي المياه ووادي عكاش وفي الجزيرة شعيب عجيج ، وسنأتي على وصف هذه الاودية في بحث (منطقة الوديان) . ونذكر ايضاً في صدد التضاريس (السباخ) او (المالح) التي يستخرج الملح منها بعد جفافها ، واجلها قدراً مملحة تدمر التي ذرعها ١٢ كيلومتراً في مثله ، وهي تبعد عن تدمر نحو ساعة الى الجنوب ويستخرج منها كميات عظيمة ترسل الى دمشق وحمص .

المياه في البادية — ان حياة البدو وحياة ماشيتهم مرتبطة بامر المياه والامطار ارتباطاً قوياً . فالمياه والامطار هي التي تحدد امر التبدي والنجعة . وكل اسم مكان في البادية وربما كل ملقى للسبل وكل علم للاستدلال يدل على نبع او منهل ، والمياه في البادية لاتكون الا في الآبار او في الخبارى ، ولكل من هذه الآبار والخبارى مناطق نذكرها ونصفها كما يلي :

منطقة الآبار

ان براري الشامية وهي منطقة السهوب التي في شمالي الخط الوهمي الممتد من دمشق الى ابي كمال ذات طبيعة صحراوية من حيث التربة . والاقليم كما وصفناه . لكن آبارها كثيرة ، وبعض هذه الآبار قريب من بعض بنحو بضعة كيلو مترات تارة و ٣٠ — ٥٠ كيلو متراً تارة اخرى . ومن هنا دعيت الشامية «منطقة الآبار» كما دعي الحماد « منطقة الخبارى » ، والخبارى جمع خبرة ، هي وهدات منخفضة مملوءة بماء المطر ينهل منها البدو وماشيتهم . والآبار صناعية ولكن الخبارى طبيعية ، والآبار تحتوي على الماء في اغلب الايام بينما الخبارى لاتحتويه الا في بعض الايام . وقرب الآبار يسهل للبدو امر الانتقال من بئر إلى آخر ، وهم يوردون الغنم ليلاً

او قبيل المسير، ثم في اليوم التالي وخلال مرحلة واحدة يبلغون البئر القريب .

قلنا ان الآبار صناعية ، وهي من حفر الانسان فيما مضى من العصور، عدا القليل منها الذي ليس له من العمق سوى بضعة أمتار . وحينئذ يكفي ان تحفر التراب قليلاً وتبعد الاحجار حتى ينبض الماء . وعمق الآبار الصناعية يتراوح بين ١٥ و ٢٠ متراً وقد يبلغ بعضها ضعفي ذلك او ثلاثة أضعافه ، وقسمها الاعلى مبني بالحجارة والطين . وخرزة البئر مكشوفة ابداً وهي لاتعلو عن مستوى الارض كثيراً ، وترى احجارها منقورة ومحززة بخطوط عميقة من دلك الحبال الساحبة للماء وحفرها منذ قرون لاتحصى . وقد يكون عدد الآبار في نقطة واحدة كثيراً يظهر من حولها التراب المستخرج منها حينما حفرت . ويكون حول كل منها حفرة صغيرة العمق والعرض تملأ بالماء المهيأ لشرب الماشية . ومما يجدر ذكره انه مامن شيء يدل السائح العطشان على وجود الآبار الا العلو الخفيف الذي لخرزاتها او فتحاتها او شبكة الدعوس التي تتجه نحوها او الارض المجاورة لها . . . تلك علائم تجعل السائح التائه يشتبه بها حينما يقترب بضع مئات من الامتار . ولا يدل ماء هذه الآبار على انه من مجرى او ينبوع ارضي ذو منسوب دائم ، بل يدل على أنه نتيجة ترشح . لان منسوبه يهبط اذا نضح نضحاً زائداً وقوامه يصبح عكراً . وبعض هذه الآبار عذب وبعضها اجاج وقد يكون شديد الملوحة والمرارة من وفرة المغنزيا ، او يكون كبريتياً . وقد يعثر على آبار جافة بالمرة .

اسماء الآبار

(حول تدمر) — القطار ، الوشل ، جزل ، حفاير ، الهبية ، ملوحي ، خوينيقة ، النجرة ، بازورية ، الهبا ، العليانية ، ابو فوارس ، بيرمرّان ، (حول السخنة) . — أرك ، الكوم ، الطية ، الكديم ، المنبطح ، بيوض ، نقيب ، بير الجديد ، ندويات ، خدير ، سبيخة ، ام قبيبة ، عونية ، مريسم ، رحوم ، ابو فياض ، ابو النيتل ، اسرية ، مراغة ، زرقا ، الرصافة ، الطرفاوي ، عظيمان ، خديخان ،

(حول القريتين) جباة ، قمقوم ، غنثر ، رأس العين ، حفير ، محسة ، عين الباردة ، عين الوعول ، عين الخنازير ، بصيري (منطقة الحماد) قريطة ، قرض ، الماء ، جب دخينة ، تختة ، الهميل ، المربع ، الورد ، سجرى ، ام ميليت ، طيارية ، ورقة ، وريق ، حجيل ، الملات .

وكمية الماء في هذه الآبار قليلة لا تكفي حاجات البدو ولا تروي غليلهم كما ينبغي . ومن ثم كان من اجل السبل لاصلاح البادية وافادة البدو ايجاد الآبار العذبة وتكثير عددها وتركيب الآلات الرافعة الميكانيكية عليها ليسهل الانتفاع منها ويتمكن البدو من المراعي الواسعة التي لاينالونها كما ينبغي لحرمانها من الآبار او لقلة مائها . لهذا فقد قامت (مصلحة الري) في حكومة الشام الحاضرة منذ عشرة أعوام بحفر كثير من الآبار الحديثة على طريق نجعة العشائر في براري الشامية والجزيرة وبنت جدرانها بالحجر والاسمنت بناءً يظن انه متقن وفي جدرانها سلالم حديدية للنزول وفي جوانبها مناهل لشرب الغنم ، كما انها اعتزمت ان تبني في بعض المواقع مستودعات لخزن العشب المجفف او التبن لاطعام مواشي البدو منه حين الحاجة ولقاء اثمان ، وان تشيد ملاجيء او مزارب للغنم حفظاً لها في ايام كلب البرد وتراكم الثلج وهبوب الرياح الشمالية القارسة . وقد عملت حتى الآن ملجأين احدهما في تل حداد شرقي الحسجة والثاني في الراهون غربي جبل البشري ، اما المستودعات فلم تبن بعد . ويحسن ان نذكر هنا اسماء الآبار التي حفرتها مصلحة الري المذكورة تسجيلاً لهذه الحسنة وخدمةً لمن يردها في اختراقه البادية :

الآبار التي في طريق دمشق ـ تدمر = الناصرية ـ القريتين ـ الروضة ـ قصر الحير ـ عين البيضاء ـ الطريفاوي .

تدمر ـ الرقة = منسف ـ حليحلة ـ الطيبة ـ الراهون ـ الرصافة (عمقه ٤٩ متراً)

تدمر ـ دير الزور = قباقب ـ « وفي شمالي هذا البئر بينه وبين جبل البشري آبار البغلية وديدي وخديان وعظمان وقصبة ». وفي وسط البشري الغياث والسجري.

حلب ـ تدمر = سفيرة ـ خناصرة ـ الحمام ـ اسرية ـ ثريا ـ ديليب ـ الحسلة ـ سليم ـ ابو فياض ـ نيتل ـ كديم ـ قطنة ـ عين شراد ـ (عمقه ٢٥ متراً).

تدمر ـ ابو كمال = الحميمة ـ وتنوى المصلحة حفر بئري مجتل ومربع .

مسكنة ـ الرصافة = تل مهدوم ـ تل فضة ـ مدينة الفار ـ (عمقه ٧٨ متراً) ـ متياهات ـ (عمقه ٩٣ متراً) انباج ـ (عمقه ٦٣ متراً) .

الرقة ـ الحسجة = الطرفاوي ـ ماينه ـ بطيمان ـ ثم حول جبل عبد العزيز آبار البيضا ـ الشلال ـ والغرة ـ المغلوجة ـ ام مرفع ـ وفي غربي بئر الطرفاوي على بعد ٢٥ كيلو متراً بئر خربة هولة .

الآبار التي في طريق تل ابيض ـ جبل عبد العزيز = القنطارى ـ الشمندور.

وتنوي (مصلحة الري) حفر آبار اخرى في براري الجزيرة والشامية ، من هذه في جنوبي تدمر وحدها في موقع بيوض وعليانية وخان المشقوق وسجرى والطيارية وورقة وويرب وفي شرقي دمشق في جبل سيس وبئر الأفاعي، وفي شرقي حمص الرهاوية والمعلق وحنورة، وفي شرقي حماة وادي العذيب .، هذا عدا عما اتمته في جنوبي طريق سيارات بغداد كآبار الصيقل وبئر سري وتل مخلوف والجويف، وتنوي هذه المصلحة أيضاً ان تتخذ محركات ومضخات محمولة على سيارات تنضح بها المياه من الآبار المذكورة وتجمعها في خزانات كبيرة ثم تنتقل إلى غيرها . فلو تمت هذه التدابير باحضار الماء والكلأ المخزونين لاوقات الشدة لانقذت ماشية العشائر من التلف وسلم اصحابها من البؤس والشقاء اللذين ينتابهما من حين الى آخر كما جرى في سني ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥

منطقة الحماد والخبرات

من الناس من يسمي البراري الممتدة شرقي حمص وحماه (حماداً) وهو خطأ . فالحماد في الحقيقة هو ابعد من ذلك الى الجنوب وأشد وحشةً واقفراراً . وحده الشمالي منطقة الآبار التي في جنوبي تدمر وامتداده من الغرب الى الشرق من وراء ديرة التلول وجبل حوران وحرة الراجل الى اطراف العراق الاسفل وحده الجنوبي

واحة الجوف والنفود . وتخترقه في طرفه الشمالي طريق السيارات بين دمشق وبغداد . وقد استحدثت لهذه السيارات في وسط الحماد وضمن الحدود العراقية محطة كبيرة تدعى (الرطبة) تبعد عن دمشق نحو ٤٠٩ كيلو مترات وعن بغداد ٤٧١ ، وهي تكاد تصبح عاصمة الحماد بدورها وحوانيتها وآبارها ومقاهيها وحصنها وفندقها ومركزها اللاسلكي ومستودعات النفط وغيرها . والحماد من الناحية الجئولوجية من الاراضي النومولوتيكية الا ماكان في الشمال حول محطة (ايج تو) فانه من الاراضي الحوراسية وما كان في جنوب الرطبة حول جبل الطيارات فانه من الطباشيرية (الكريتاسه) . والحماد نجد منبسط يرتفع عن سطح البحر ٥٠٠ — ١٠٠٠ متر ، ومن ثم كان المنحدرون من مرتفعاته يهبطون الى كل الانحاء . فمن النفود التي في اقصى جنوبه ينحدرون الى نجد ومن وادي السرحان الذي في غربيه الى شرقي الاردن ومن منطقة الخبرات التي في شماله الغربي نحو تدمر والضمير ودمشق ومن منطقة الوديان التي في شماله الشرقي نحو دير الزور وسقي الفرات ومن آبار الرطبة وبرية الطليحة التي في شرقه نحو الرمادي وبغداد . والقسم الداخل في الحدود الشامية صغير جداً بالقياس لما هو داخل في الحدود الاردنية والعراقية والسعودية ، وقد قدمنا انه يقدر بـ ٣٨٦٣٢ كيلو متراً مربعاً .

والحماد كما قلنا سابقاً هو النجد العظيم والقلب الصميم للبادية . وهو (الصحراء العارية) أو (بادية البادية) لانه فلوات ومهامه لا ماء بها في فصل الصيف ولا انيس ، تضل سالكها وتميت من الظمأ عابرها . اذ ليس في الحماد آبار كما في براري الشامية الا القليل ، ولا تغشاه العشائر الا في فصل الشتاء غشياناً يقل أو يكثر حسب وجود الماء والكلأ . وهي تنفذ اليه من الوديان الكبيرة الهابطة منه ، ولا يمكن ان تتوغل فيه إلا الكتائب الكبيرة من الغزاة . لكن هذه الكتائب كم تركت في الحماد من رجالها ومطاياها بحكم الجهد والظمأ ... ومن الغريب أن لايعيش فيه في الصيف الا بدو (الصليب) الذين ذكرنا في بحثهم حالتهم

وقشافتهم .(١)

ومن خصائص الحماد انه « منطقة الخبرات » كما ان براري الشامية « منطقة الآبار » . والخبرات أحواض أو وهدات منخفضة مسدودة ينفصل بعضها عن بعض بمرتفعات بركانيـة . وهذه الاحواض المسدودة تجمع مياه الاوديـة والبطائح السائلة نحوها ،لأن مجاري هذه الاودية والبطائح لا ميل لها الا بالقدر اليسير جداً . وهي عقيب الامطار التي معدلها السنوي كما قدمنا اقل من مائة ميليمتر ـ تكوّن بحيرات ضحلة موقته تبلغ مساحتها عشرات الدونمات واحياناً اكثر . وماء الخبرات يرقد على الطين وتخضخضه ارجل الغنم والابل فيظل على الدوام عكراً بلون (القهوة بالحليب) وطعمه مقززاً . ومع ذلك يتهافت عليه البدو اي تهافت فينهلون منه ويعلون هم وماشيتهم . والماشية مهما بلغ عددها وجاوز الالوف تنهل منه في برهة وجيزة وتروي غليلها ، بينما نهلها من الآبار يقتضي جهوداً وايامـاً وتعبا عظيماً في الرفع والنزح . ومن هنـا كان البدو لايتحولون في نجعتهم من المعمورة الى الحماد ابان فصل الخريف الا حينما تمتلئ هذه الخبرات بالماء وتفيض وهم لايفارقونها ابان فصل الربيع ما زالت المراعي تمدهم بالكلأ وما زالت الخبرات ذات مياه لم تنضب او تجف بعد . والخبرات كثيرة عد الرئيس رينو في كتابه « بدو مقاطعة دمشق » ثلاثاً وخمسين،منها تسع حول جبل الغراب على بعد٢ـ٣ـ٤ـ٥ ـ ساعات عنه الى الجنوب الشرقي والغربي اسماؤها الحمدة والمشاقيق وام سكاكة والصايد وام مويل ولقطة وكبد وحويمات ، ومنها خمس وعشرون حول جبل التنف على ابعاد تتراوح بين ٥ ـ ٨ ـ ١٢ ـ ١٥ ـ ١٨ ـ ساعة وهي كبئر الحلو

---

(١) بنوا في نقطة الحدود الفاصلة بين بلاد الشام والعراق هرمين حجريين بيضوهما بالكلس ليظهرا عن بعد شاسع . وهذه النقطة تقع قرب جبل التنف ، وهي تبعد عن دمشق شرقاً نحو ٢٤٩ كيلو متراً وعن السبع آبار ١٠٠ وعن الرطبة غرباً ١٦٠ وعن الرمادي ٤٩٠ وعن الزلف شمالاً ١٨٥

والرمانين وملحم والزرقاء والزويري وخبرة التنف وابو بخيت ومعايد وصلابية وختيوى ومرفية ابن سمير والصيب والخرجة والبستانة وام طرفات والمداري وقطية والطابات وزينات الماء والشهيات والحوب وقرة الملاصي ومرفية الجويف وخبرة مها الياس وام رجيم . ومنها ثلاث حول الرويشد (جنوبي جبل التنف) وهي الضباضب والصوفا والدوارا ، ومنها سبع عشرة في اكناف الحارة وهي ابو الحصين والبرغو في وادي المقاط وخبرات الدريهات وبحر الصيقل والطرفاوي والبظلي والقراونشات والمريفات وعضيان وام طرفة والزبيدات والدغارا والصاحلية والمغنة وغدر الماء والزلاقة والصفية قرب البردويل والبردويل قرب ام اوعال على بعد يومين عن البرغو

فمنطقة الخبرات تنتهي في الشمال حيث تبدأ منطقة الآبار . فهي تصل هناك الى طرق العلب وفي الشرق الى منتصف وادي الصواب والى غربي القعرة وفي الغرب الى ديرة التلول واكناف الحارة (حرة الراجل) . والحماد في الصيف والخريف يظهر كفيفاء ملتهبة كالحة صفراء او سمراء اللون مترامية الاطراف مطردة المناظر رهيبة كئيبة صلعاء جرداء الوجه بتاتاً الا من لطخات ارض الخبرات الذهبية او من السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا ورده لم يجده شيئاً . والحماد خواء يباب قد يسير المرء فيه على المطايا او في السيارات نحو ٣٠٠ ـ ٤٠٠ كيلو متر دون ان يصادف نافخ ضرمة ولا معلق وزمة كما يعرف ذلك المسافرون بين دمشق وبغداد . ففقدان الماء يقفر الحماد من نزلائه البدو بالمرة . وقد يلاقي المرء نفراً من الصليب راكبي الحمير او عصبة من البدو راكبي النوق . فالصليب صيادو غزلان من التي تنتهز اسرابها ظلام الليل فتفر الى بعض الوهدات لتروي غليلها بما ينبت فيها من الاعشاب المبتلة بالندى ، والبدو غزاة ورواد غنائم . وبادية (الحماد) تختلف عن بادية (الشامية) وبقية بوادي جزيرة العرب . ففي (الشامية) وفي تلك البقية مناظر متباينة واراض مختلفة فيها الجبل وفيها السهل وفيها الوعر وفيها الرمل

وما في الحماد هذا الا شيء واحد لا يكاد يختلف او يتغير ، ارض منبسطة ترابية قاحلة تمتد الى الافق البعيد الممعن في البعد كأنها بحر ليس فيه ماء . وراكب السيارة بين دمشق وبغداد يقرأ ويتحدث ليقطع (الحماد) بحديثه فيقطع (الحماد) حديث الراكب بصمته وجلاله ، وينام الراكب ويفيق ، و (الحماد) هو هو لا يتبدل ولا يتغير ولا تقصر سفرته ولا تقل رهبته .

اما في فصل الشتاء اذا أروت امطار كانون الاول وكانون الثاني الارض وزخر الماء في الخبرات يتبدل بسيط الحماد ويراه راكب السيارة وخاصة راكب الطائرة حينئذ قد انبت واخضرّ وصار بقعةً اريضةً بعثرت فيها الخبرات ذات السطوح اللامعة بأشعة الشمس، وامتدت بين هذه الخبرات اودية وبطائح معشوشبة انتشر فيها البدو بابلهم وغنمهم يرعون ويشبعون ، وما اقبال هؤلاء البدو على الحماد وتوغلهم فيه الا بقصد هذه الخبرات وما حولها من المراعي . ويقول بعض العارفين ان ماء الخبرات يدوم من نصف تشرين الثاني الى اواخر شباط على الاقل وذلك في السنين المتوسطة الامطار . ولكن ما ان يقبل شهر نيسان ويدفأ الجو حتى تبخر الشمس ماء الخبرات الضحل الذي لا يزيد عمقه عن متر او نصف متر ، ولا يمضي اسبوعان او ثلاثة وقبل ان يجف الكلأ تنقلب الخبرات حمأة واسعة متلألئة لما في قعرها من (الغرين) او الرمل الطيني الجاف ، وتعود ارض العطش للبروز وتلحقها بعد حين قليل ارض الجوع والحرمان والكآبة .

والاودية المنحدرة من الحماد تأتي من حول جبل عنازة جامع الرياح والامطار ومنبع الاودية الشبيهة بالأنهار . لكنها لا تحتوي على الماء الا في فصل الشتاء . واذا كانت مسايل هذه الاودية قليلة الانحدار فانها تؤلف في قعورها من حين إلى آخر حفراً طبيعية يدعونها غدراناً (جمع غدير) تخزن مياه الامطار في اجوافها بنسبة ما لها من العمق والضيق وصغر سطح التبخر . وقد اختصت الغدران بالمناطق والاوعار

البركانية الموجودة في جوف الحماد او في اكنافه ، وخاصة في كنفه المجاور لحرة الراجل .

وقد كان الجيش الروماني ينتفع بهذه الخبرات والغدران ويجعل المسالك الكبيرة والطرق المعبدة التي تخترق الحماد قائمةً عليها . وبعض هذه الغدران صناعي صنع باشادة السدود حوله كما هو الحال في حصن جاوا على وادي الراجل وفي قلعة البرقع على وادي المقاط وغيرهما . وبعض هذه الغدران الصناعية كان يبلغ ضخامة خزان كبير لري الزرع واسقاء الضرع كما هو الحال في سد أرينبة العظيم الماثل حتى الآن في جنوبي قرية الضمير ، وقد كان يروي السهول الواسعة المنحدرة في غربيه نحو بحيرة العتيبة . وكانوا يحفظون ماء الخبرات من التبخر والضياع في برك او في محافير (جمع محفرة) وهي أحواض مربعة الشكل حفرت في وسط الخبرة ورفع التراب منها وكوم في جانبها . وقد ثبت الاب بواديبار اليسوعي الذي سيأتي ذكره ان هذه المحافير كثيرة في الحماد بين جبل سيس وبئر سجري وانها من عهد الرومان وصنعهم ، وانها كانت في بادئ امرها اعمق من الآن وكان الماء يمتح منها بالحبال ويبقى فيها حتى اوائل حزيران . وبفضل هذه الغدران والمحافير المتلاحقة في طول طرق المواصلات الكبيرة كان المقام في الحماد ممكناً للدوريات الراكبة من المخافر الرومانية . وكان هنالك من المناهل التي تطيل أمد البقاء في الحماد اكثر من المحافير تلك الآبار العديدة التي كانت تجمع فيها مياه الخبرات كما هو الحال في الخبرات التي بين جبل سيس وجبل التنف وآبار الجويف وبير سري وآبار وادي الهيل وخبرة رمانة .

منطقة الوديان

وفي شمالي البادية الشامية اودية عديدة ، ولكن لا يرى المرء فيها اثراً للماء إلا في بعض ايام السنة وعقيب المطر فقط . فيحتار ويتساءل كيف ومتى

حفرت مسايل هذه الاودية وخددت وكيف حدثت في بعض اماكنها مضائق وفجاج ذات جوانب صخرية واسعة . ولا يبرح في هذه الحيرة حتى يأتي يوم يفاجئه فيه على حين غرة سيل عظيم متدفق يدفع بعضه بعضاً حاملا مياه الامطار الهاطلة من غيوم متلبدة او أعصار متكاثفة همت وانهلت دفعةً واحدةً عن بعد بضعة كيلو مترات من المكان الذي هو فيه . وحينئذ يرى كيف ان هذه المياه الجارفة العكرة تقبل وترمي الزبد والقذر والغثاء بقبقبة وقرقرة وتملئ جوانب الوادي ويرى كيف تفعل فيها قضماً وحتاً وجرفاً وكيف تضغط على جلاميده وحصاه المدلصة وتدحرجها . ان هذه الاودية تنحدر من شمالي هضبة الحماد من حول جبل عنازة الذي قدمنا انه جامع الرياح والامطار ومنبع الاودية الشبيهة بالانهار وهي تتجه شمالاً الى الشرق لتنصب في الفرات . وهي متقطعة الجريان لاتسيل كما قلنا الا حين هطول الامطار الغزيرة فتنظم حركة مياه البادية وسيولها وتصرفها نحو الفرات . واذا انقطعت تحدث غدراناً واذا فاضت تحدث بعد انصرافها غيطاناً خضراء تسر العيون في تلك الفيافي القفراء . وأشهر هذه الاودية على الترتيب من الشرق الى الغرب (وادي عامج) داخل الحدود العراقية وشرقي الرطبة وغربي هيت وهو يضمحل في البراري ولا يصل الى الفرات. ووادى (حوران) داخل الحدود العراقية ايضاً وهو يوازي خط انابيب النفط الذاهب إلى حيفا على انه يعاكسه في الجريان وهو يمر من شرقي الرطبة ومن قربها وتخترقه طريق السيارات الى بغداد ويصب قرب قرية آلوس . وبعض الاودية هي داخل الحدود الشامية منها (وادي الصواب) الذي يصب في الفرات شمالي الصالحية بين الميادين وأبي كمال ويجري ملتوياً منثنياً ، وهو واد عريض أريض منقطع الجريان في الغالب وافر العشب والمرعى ، ولكن يكفي ان يحفر المرء قليلاً في الحصى والرمل فينبض الماء فوراً ويحدث حوضاً يكفي الانسان والحيوان . وعلى ضفة هذا الوادي اطلال

قصر الصواب الذي كان من جملة مخافر البادية وحدودها بين الفرس والرومان . ولوادي الصواب كثير من الروافد منها وادي الرتيميات ووادي الوغر ووادي حوريان ، ومنها (وادي المياه) الذي ينشأ من زقف ويجرى بادئ بدىء نحو الشمال حتى يبلغ الطيارية ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي حتى يبلغ الورقة ثم يعود للاتجاه نحو الشمال حتى يضمحل في الفلوات بين بئر الحميمة وبئر غدر الماء في بقعة مشوشة تحيرك في ادراك اين ذهبت مياهه .وقد بعثرت في هذه البقعة أحواض كبيرة كهذه المسماة (فيضة قباقب) أو (الفيضات) ، وفي مجرى وادي المياه كله عدة آبار عذبة كسجري والطيارية وورقة والحميمة ، وفي قرب بئر الحميمة يمر خط النفط الذاهب الى طرابلس ،ان وادي المياه هذا غني بمياهه واعشابه التي تهوي إليها أفئدة الابل والغنم على السواء ، ثم هو جذاب بغرائبه خلاّب في قسمه الواقع جنوبي سجري يستحق الذهاب اليه على متون الزوامل شريطة ان يتزود السائح بزمزميات الماء العذب ، وفي تلاله البارزة كثير من المقابر المغطاة بالاحجار والرجوم ، وهي مدافن البدو الذين يلاقون حتفهم في الربيع في قربه.ومنها (وادي عكاش) ذى المسيل الضيق العميق بين جدارين صخريين عمقهما ثمانون متراً، وفيه اسراب من طير ابي منجل الاسود ، ومجرى هذا الوادي واضح ومراعيه وفيرة وهو يصب في الفرات قرب ابي كمال ، حيث يسمى وادي علي . ومنها (وادي الرتقة) الذي يصب ايضاً في الفرات جنوبي ابي كمال . وفي بادية الجزيرة واد يقال له (شعيب عجيج) يسيل من جبل سنجار نحو الجنوب ، وقد جعلوه حداً فاصلاً بين شمر العراق وشمر الشام . وهذا الوادي موطن الغزاة ومكمن اللصوص . وفي مجراه بعد بئر أم غريبة سباخ وممالح كبيرة كسبخة الروضة وسبخة البرهوت وسبخة الشملان وسبخة البعارة يفدون اليها من انحاء سنجار والموصل ويمتارون الملح منها .

الارصفة والقصور والحصون والسدود

بعد ان اكتسح الرومان بلاد الشام في سنة ٦٤ م رأوا أن لابد لهم من تحصين حدود البادية في وجه اعدائهم الفرس الذين ما كانوا يتوانون عن مراوحتهم القتال وفي وجه البدو الذين كانوا ايضاً يسطون على المعمور او على القوافل التجارية القادمة من جنوبي الجزيرة العربية او شرقيها. فمدوا هم والتدمريون في البادية (الشامية منها والجزيرة) شبكة ارصفة حجرية وطرق معبدة وجعلوا في كل مرتفع ومكمن وعلى كل ينبوع ومنهل مخافر عسكرية وابراج مراقبة وفنادق وخانات للمسافرين محصنة بالاسوار والآطام وانبطوا الآبار وحفروا الصهاريج وشادوا السدود لحصر ماء المطر وخزنه وخددوا قنوات وجداول لري الزرع وسقيا الضرع. وكانت تقيم في تلك المخافر والابراج حاميات من الخيالة والهجانة رماة النبال تتصل دورياتهم وتتلاقى وتترصد مجيء جيوش الفرس وعصابات البدو وتحمي قوافل التجار حاملي الاقمشة والافاويه والطيوب والمعادن والاحجار الكريمة من اليمن والهند والصين. وقد كانت هذه القوافل تلتقي في تدمر عاصمة الصحراء وعروستها وتتوزع من ثم الى القسطنطينية ورومية او الى بلاد الشام ومصر وغيرها. وقد ظل هذا الترتيب والاتقان زاهرين في كثرة او قلة تارةً وتارةً الى ان زالت الدولة التدمرية في القرن الثالث وضعفت الدولة البيزنطية في القرن السادس واختل عمران البلاد الشامية بذلك الضعف وبتوالي غارات الفرس وحروبهم مع الروم البيزنطيين.

ولما بزغ فجر الاسلام وجاء الخلفاء الامويون صاروا اسياد امبراطورية عظيمة كانت من اوسع الامبراطوريات المعروفة في التاريخ، وكانوا مغرمين بالعمران والبنيان فاعادوا زهو البادية وانسها ببناء المساكن والقصور الفخمة في وسطها وفي اكنافها وتبعهم في ذلك اقاربهم واتباعهم، كانوا ينفرون اليها في بعض الفصول ولا سيما في الربيع لقرب عهدهم بحياة البداوة وبعيش الحجاز وترويحاً عن النفس بالصيد والقنص وهرباً من وباء او طاعون، وتقرباً للبادية والبداة لادامة

الصلة بلغاتهم ولهجاتهم ولتصفية النفس بعاداتهم المستحسنة الخالية من شوائب الحضارة ، وكانوا يدعون هذا تبدياً ، وفي كتب التاريخ والادب ذكر متكرر لخروج الخلفاء إلى التبدي ورجوعهم منه . فكانوا ينصبون المضارب الواسعة ويستقبلون الوفود والضيوف والشعراء (١) فيزيد بن معاوية كان يقيم في حوارين ويصطاد في جبال قلمون وسهوله الشرقية وعمر بن عبد العزيز والوليد بن عبد الملك في خناصرة (جنوبي جبل الاحص) وهشام بن عبد الملك في الرصافة (سرجيوبولس) ثم بنى قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي ، ويزيد بن عبد الملك رمم وزين قصر الموقر في براري شرقي الاردن ، وورد ذكر منازل الامويين في الزيزاء والفدين والابيض والقسطل والزيتونة والصنبر وسيس . وقد ثبت ان قصري الحير المذكورين من بناء هشام بن عبد الملك وان قصر جبل سيس وقصر الخرانة وقصر طوبى وقصر المشتى وقصر الازرق وغيرها من قصور براري شرقي الاردن عليها مظاهر القصور الاموية .

وقد ظلت آثار الرومانيين والتدمريين وقصور الامويين سالمة في الجملة او ماثلة للعيان على الاقل تشهد ببراعة من شادوها ورفعوها وعبقريتهم الى ان دالت دولة الامويين وجاء العباسيون يعملون يد التهديم والتخريب في قصورهم ومنازلهم وقبورهم فلحق ما كان منها في البادية النصيب الكافي من ذلك ، تدل عليه الالوف المؤلفة من قطع الزخارف الجصية المكسرة التي وجدت مطمورة ومبعثرة في داخل

---

(١) لايزال ملوك العرب وامراؤهم في الجزيرة دائبين على هذا المنحى في كل عام ، فقد كان الامراء آل الرشيد حكام نجد قبلاً يتبدون في ربيع كل سنة شهراً او شهرين . ومثلهم في عهدنا جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، اما سمو الامير عبد الله بن الحسين في شرقي الاردن فهو يتبدى في شتاء كل سنة في الغور شرقي اريحا ، ينصب فيه مضاربه هو وحاشيته على النحو الذى كان يعمله معاوية بن ابي سفيان في قضاء فصل الشتاء في موقع الصنبرة على شاطئ بحيرة طبرية .

قصر الحير الغربي ، وقد نقلت هذه القطع من عهد قريب الى متحف دمشق الاثري ويعمل على جبرها ولحمها وتركيبها في مثال القصر المذكور الذي يبنى في جوار المتحف . واذا سلم وقتئذ من يد العباسيين بعض تلك الآثار والقصور لبعده عن متناول الايدي فقد اجهزت عليه من بعد في عهد العباسيين ايضاً جيوش القرامطة والمغول الذين كانوا يأتون من انحاء العراق وفارس عبر البادية ويغيرون على بلاد الشام ويفحشون ، ناهيك الزلازل وفعل السيول والامطار على كر الدهور واختلال الامن في عصور العثمانيين الاخيرة وضعف الوازع .

وقد ظل معظم الارصفة والطرق والمباني العسكرية في زماننا الحاضر مجهولاً او غير مرئي ، واذا كان بعضه مرئياً ظل غير معروف الغاية والاوصاف الى ان كشفها الاب بوادبيار اليسوعي من الطائرات بمعونة سلاح الطيران الفرنسي وقوة هجانة البادية . وقد ظل هذا الراهب البحاثة مدة سبع سنوات من ١٣٤٣ (١٩٢٥) الى ١٣٥٠ (١٩٣٢) يطير ويكشف ويرى في الصحراء من عل مالا يراه الماشي ولا يشعر به الى ان خرج من اتعابه الجزيلة بمؤلف قيم جداً ذى مجلدين دعاه (اثر روما في بادية الشام) صور فيه ما اكتشفه ورسم خرائطه وحدد مواقعه وابعاده وشرح اوصافه . ويستفاد مما جاء في هذا المؤلف ان الرومان في عهد تراجان (٩٨ - ١١٧ م) وديوكلتيانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) عمدوا الى البادية من اقصى جنوبها الى اقصى شمالها حتى الحدود التى كانت لهم في ضفاف الدجلة فمدوا شبكة من الارصفة الحجرية والطرق المعبدة متوازية ومتقاطعة على طول الوف الكيلومترات مثلما عملوا في كل ما افتتحوه من بلاد العالم وربطوه ببعضه . فقد مدوا من دمشق الى بصرى رصيفاً يجتاز وعرة اللجا ويسير نحو جرش وعمان والبتراء والعقبة على ساحل البحر الاحمر . ومدوا من دمشق إلى تدمر ثلاثة ارصفة الاول المار بالقريتين وقصر الحير الغربي والثاني المار بخان ابي الشامات والخانات التي بعده والثالث المار بتلة الساعي وطرق العلب . ثم انهم مدوا من تدمر عدة ارصفة احدها الذاهب الى صورية على الفرات (غربي الرقة) والى الشدادى (على الخابور) ومنها الى

بلد سنجار وما بعدها في الجزيرة . وكان يتفرع من هذا الرصيف اثنان الاول من قصر الحير الشرقي إلى البصيرة على الخابور ، والثاني من السخنة الى قلعة الرحبة على الفرات . ومدوا من تدمر ايضاً نحو الشرق رصيفين الاول المتجه نحو الصالحية (دورا اوروبس) على الفرات والثاني المتجه شرقاً إلى الجنوب نحو هيت ماراً بقصر الصواب . وكان من تدمر ايضاً نحو الغرب رصيفان الاول الذاهب الى عقيربات وافامية وانطاكية والثاني الذاهب الى الفركلس وحمص ماراً بسهل الدو. وكان يتفرع من نقطة تل الساعي « شرقي خان ابي الشامات » رصيف يتجه جنوباً نحو وادي السرحان والجوف ماراً بقلعة البرقع وآخر مواز له كان يتفرع من البصيري في جبل الرواق ماراً بالسبع آبار وخربة مرفية السمير وخربة الرياشي. ومدوا في شرقي دمشق عدة أرصفة الاول من الدير الجنوبي « شرقي بحيرة العتيبة » الى جبل سيس ليلتقي برصيف خربة مرفية السمير ، والثاني من قرية الهيجانة الى بير قصاب وخربة ام السعدالى الزلف ليلتقي برصيف قلعة البرقع والثالث من براق في لحف اللجا الشمالي الى شقا والسمنة ودير الكهف وقصر الازرق حتى وادي السرحان . ومدوا في الجزيرة شبكة ارصفة ، نذكر منها الرصيف المتجه من الرقة شرقاً على استواء نحو المالحة فالشدادي فالفدغمي فبلد سنجار . والرصيف المتجه من الشدادي الى الجنوب نحو البصيرة والآخر المتجه منها الى الشمال نحو الحسكة فماردين . وكان هنالك رصيف من الحسكة يمتد إلى تل براق وتل حميدي فنصيبين ، وآخر من تل حميدي شرقاً نحو تل غراسة وما بعده في الشرق ، وآخر من نصيبين شرقاً نحو جزيرة ابن عمر ومن تل حميدي غربا نحو رأس العين، وآخر من خربة الموزّر في جنوبي جبل عبد العزيز الى قصر سكرة في الجبل المذكور ومنه شمالاً نحو خربة ثعلبة على الخابور ، وآخر من خربة الموزّر غربا لشمال نحو حران فاورفة فسميساط وآخر من حران جنوبا نحو الرقة وآخر من حران ايضاً غرباً نحو سروج ومن سروج رصيفان الاول المتجه جنوباً نحو باليس والثاني المتجه جنوبا للغرب نحو منبج فحلب فانطاكية. وهكذا كانت البادية في شاميتها وجزيرتها

وكذا قسم المعمور من بلاد الشام ملأى بشبكة من الارصفة والطرق المعبدة المتوازية والمتقاطعة ، وعلى الجميع اميال واعلام لهداية القوافل والمسافرين ، وقد حصنوها بالمخافر والابراج وسهلوا السير والمبيت فيها بالفنادق والخانات ووفروا العمل والنهل بالآبار والاحواض .

وكان من مشروعات الرومان العظيمة في البادية في استنباط المياه وتوفيره للمخافر والحصون والخانات المذكورة انهم حفروا آباراً عديدة في مختلف انحاء البادية ويبدو انهم كانوا بارعين في هندسة الري يعرفون عدم كفائة الماء في أعماق ارض البادية فعمدوا الى جعل الآبار في وسط الوهدات والبطيحات لترشح اليها مياه السيول والامطار . وجل هذه الآبار مدور الشكل وبعضها مربع وقد بنوا جدرانها باحجار منحوته ومصفوفة بانتظام تام وحفظوا افمامها بخرزات . وكانت هذه الآبار محروسة ابراج مراقبة أو بمخافر أو مبنية وسط باحات الحصون نفسها . مثالها آبار وادي المياه ، وآبار الجويف الذي في شرقي جبل سيس، وآبار خربة البطمية التي في شرقي شمالي خان ابي الشامات ،وبئر الضبعة الذى اكتشفه ونظفه سلطان الطيار من مشايخ عشيرة الولد علي ، وآبار جبل سيس التي حفرت وسط خبرة هذا الجبل الواقع على نحو ١٥٠ كيلو متراً شرقي دمشق . وهي متقطعة غير دائمة النبع، ويظهر في جوار هذه الآبار انقاض ابنية واسعة مؤلفة من قصر كبير وجامع وحمام ودار ضيافة وعدد من بيوت السكن وغير ذلك، اثبت المستشرق المسيو سوفاجه انها من جملة الآثار العربية الاموية التي كانت في البادية ، وآبار السبع بيار التي على طريق دمشق – بغداد على بعد ١٤٢ كيلو متراً عن دمشق ، وفي قربها اكمة عالية (٨٣٠ م) بنى الفرنسيون فوقها مخفراً لجنود الهجانة ، وآبار الملكة في جنوبي تدمر على بعد ٤٥ كيلو متراً .

وفي الاماكن التي لاتسمح بحفر الآبار حفر الرومان حياضاً أو صهاريج يجتمع

فيها الماء مبنية باتقان زائد وبعضها مغطى بسقف او قبة . كالتي في خان المنقورة وخان العنبية على طريق ابو الشامات ـ تدمر . ومن مشروعاتهم في توفير الماء للمخافر والحصون انهم كانوا يفجرون الماء بواسطة قنوات مخددة في الارض كما هو في عين الكوم بين الطيبة والرصافة وفي عين الباردة وغيرها . ومن مشروعاتهم المختصة بالزراعة وايجاد المراعي مشروع خزن مياه الامطار والسيول وحصرها وراء الاسداد التي كانوا يبنونها باحكام وتمكين غريبين . فمن هذه الاسداد (سد المنقورة) ذو الاحجار المنحوتة الضخمة ، بنوه في جبل البطم لايصال الماء الى مخفر خان المنقورة في الطريق الآخذة من ابي الشامات الى تدمر بواسطة قناة خددوها في الجبل تنتهي في برك واحواض كبيرة مبنية . ومنها (سد أرينبة) الذي في جنوبي قرية الضمير ذو الهندسة البديعة أيضاً، وطول هذا السد ٣٠٠ متر وعرضه في اعلاه ٥و٥ المتر وارتفاعه عن الأرض المجاورة له اربعة امتار . وله ثلاث فتحات في جهته الغربية لتدفق المياه .ثم ان احجار هذه الفتحات والمجاري بيضاء منحوتة يتراوح عرض بعضها بين ٥٠ ـ ٧٥ سنتيمتراً وطوله ١و٥٠ ـ ٢و٥٠ المتر. اما بقية احجار هذا السد فسوداء عادية ، وقد كان هذا السد يجمع السيول المنحدرة من انحاء خان ابو الشامات وبحيرة الصيقل وسفوح جبل الزبيدية ويحصرها ثم يوزعها بسواق منتظمه لري المزارع التي كانت تمتد في غربيه حتى سهل رمدان شرقي بحيرة العتيبة ، ومنها (سد الهربقه) الهائل البنيان في جنوبي قصر الحير الغربي على نحو ٦٠ كيلو مترا غربي تدمر . وقد بنى هذا القصر الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك في سنه ١٠٩هـ وجعله مقراً له قبل ان ينتقل الى الرصافة ويقطنها نهائياً . وكان اسم هذا القصر في المؤلفات العربية (الزيتونة) وسد الهربقة المذكور يقع على بعد ١٥ كيلو متراً عن قصر الحير الغربي بين جبلي الباردة والنقنقية بنوه وحصروا به مياه السيول التي كانت تدفق من الجبلين المذكورين ومن عين الباردة نحو سهل الدو الفسيح . وعلو هذا السد ١٨ متراً وعرضه في اسفله ١٨و٥ وفي أعلاه .

٦٣٠٠ وطوله ٣٦٥ متراً . وقد حسبوا انه كان يخزن فيه من الماء نحو ١٤٠٠٠٠ متر مكعب . وقد طمرته الآن الرواسب الجافة المتشققة شقوقاً عميقة متمعجة وكانت مياه هذا الخزان تساق بقنوات وجداول عديدة الى الارضين التي حول قصر الحير المذكور لري الحدائق والمزارع ولسقيا القصر وحماماته والمساكن التي كانت حوله . وقد ذكر العالم الاثري المسيو شلو مبرجه (١) انه يستدل من هذه الآثار ان الامويين في عهد هشام بن عبد الملك قد رمموا سد الهربقة وان اطراف قصر الحير القاحلة اليوم القائم في وسطها هذا القصر العظيم البديع كانت في العصر الاموي غوطةً وارفة الظلال زاهرةً بالزراعة آهلةً بالسكان . وجميع زخارف هذا القصر التي كانت مكسرة ومطمورة وكذلك واجهته الفخمة وفيها بابه الذي يحتوي على كتابة كوفية فيها اسم هشام بن عبد الملك وتاريخ سنة ١٠٩ هجرية نقلت الى متحف دمشق الوطني حيث يعمل الآن لاعادتها الى حالتها السابقة . وقال العالم المذكور ايضاً في (مجلة المشرق ج ٤ سنة ١٩٣٦) ان الواحة التي يقع بها البناء مدينة لوجودها لعمل السوريين في العهد الروماني وقد يكون منشئوها من التدمريين خاصة . والى هذا العهد يرقى سد الهربقة العظيم في اعالي الجبل . ولولا هذا العهد لما كان من وجود لجميع المنشآت المذكورة لان منه تستمد ماءها وحياتها . الا ان هذا السد كان قد خرب في أواخر العهد الروماني أو حين سقوط دولة تدمر (سنة ٢٧٣ م) والبيزنطيون لم يبنوا سوى البرج المنسوب اليهم القائم حتى الآن حول قصر الحير وحفروا بئراً لشرب حاميته . وقد كان هذا البرج مكلفاً بحراسة طريق حمص الى واحة الجوف الذي يمر بمضيق البصيري وحراسة طريق تدمر الى غوطة دمشق . وقال ايضاً ان الحفريات التي قام بها هو دلته على ان الامويين هم الذين رمموا سد الهربقة وعملوا له ابنية ملحقة لحماية مخرج الماء من تراكم الرسوب والوحول ، وهم الذين

1-S chumberger : Les fouilles De Qasr - El - Heir El Garbi ; Syria T .xxq, 195 Et 324

شادوا المنشئات الموجودة حول قصر الحير كالخان والبستان والقنوات المتشابكة وقصر الحير الذي كان على غاية من الزينة والزخرف وقطعاً « فسيحة من الفسيفساء الجدارية وروافد منقوشة وبلاطاً منقوشاً وزخارف ملونة ومشاهد مصورة لرجال ونساء وحيوانات ، وأشكال الزخارف هندسية ونباتية . الخ ...»

الطرق المعبدة وانابيب النفط

في عهدنا الذي قضي على قوافل الابل وقل فيه من يطوي البيد طياً على متن الرواحل صارت السيارات تجري وتغذ السير في كل بقاع البادية وحتى في صميم حمادها ونفودها وتنقل المسافرين وأمتعة التجار الى تدمر ودير الزور والرقة والحسجة وغيرها من مدن البادية في طرق لاتزال دعوساً غير معبدة. وقد مدوا للسيارات من دمشق الى بغداد طريقاً لا يزال القسم الشامي منه معبداً نصف تعبيد ، بينما القسم العراقي معبد تعبيداً جيداً وهو يخترق منطقة الخبرات في الحماد الشمالي ويمر بقرية الضمير وخان أبو الشامات والسبع بيار وجبل التنف ومن ثم يدخل الحدود العراقية ماراً بمحطة الرطبة التي صارت باليدة ذات دور ومنازل وحوانيت للباعة ومقاهي وماء نمير وكهرباء منير وحصن او مخفر كبير فيه فندق ومطعم وموظفون وجنود عراقيون ومركز للبرق اللاسلكي . ومن الرطبة بعد اجتياز وادي حوران ووادي عاج وبرية طليحة الموحشة ووادي المحمديات يصل المسافر الى الرمادي على الفرات ومنها الى بغداد . واحسن من هذا الطريق ذلك القادم من حيفا الى الرطبة والمار باربد ومحطة المفرق وارض الجبّانة وحرة الراجل ومحطتي اجفايف (حيفا ٥) واجفور (حيفا ٤) فهذا القسم الداخل ضمن حدود فلسطين وامارة شرقي الاردن من اقوى الطرق المعبدة المزفتة واكملها ، وهو رائع عند اختراقه صخور حرة الراجل واوعارها الشاقة الطويلة المدى .

وفي عهدنا ايضاً قد اخترق البادية منذ سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) خطان لانابيب النفط قادمان من البلاد العراقية اصلهما خط واحد ينبوعه من كركوك

انشأتها الشركة الانكليزية المعروفة بحروف i.p.c (شركة النفط العراقية). ففي كركوك المحطة ذات الرقم واحد (كي ون) ، ثم يجتاز هذا الخط نهر الدجلة عند قرية تدعى الفتحة بين جبلي حمرين ومكحول . وفي قربها الى الغرب ذات الرقم ٢ (كي تو) في جانب بلدة بيجي . ثم يتجه نحو الجنوب الغربي مخترقاً سهول الجزيرة الى ان يجتاز الفرات جنوبي قرية الحديثة عند المحطة ذات الرقم ٣ (كي ترى) ، وبعد محطة كي ترى يدخل الخط بادية الشام ويقسم الى قسمين = خط الى طرابلس وخط الى حيفا . فالأول يتجه نحو الغرب بانحراف قليل الى الشمال ماراً بمحطة (تي ون = طرابلس رقم ١) في شرقي جنوبي قرية القائم القريبة من الحدود الشامية، وماء هذه المحطة يمتح من الفرات عن بعد ١٤ كيلو متراً ، ثم يدخل الخط الحدود الشامية جنوبي بلدة ابي كمال ويمر بوادي الصواب ، ثم بمحطة (تي تو = طرابلس رقم ٢) وماؤها من بئر حميمة في وادي المياه يمتح بالانابيب والدافعات ، ثم يمر بوادي المياه ثم بوادي معربة ثم بمحطة (تي تري=طرابلس٣) وماؤها من أرك بالأنابيب والدافعات، ثم بجنوبي بلدة تدمر، ثم بمحطة (تي فور= طرابلس ٤) وماؤها من الفركلس بالأنابيب والمضخات عن بعد سبعين كيلو متراً ، ثم بجنوبي الفركلس وجنوبي حمص ، وبعد ان يجتاز نهر العاصي يتجه نحو تل كلخ ومنها الى مصبه في البحر عند موقع التعتور قرب طرابلس الشام .

اما الخط الثاني فيتجه نحو الغرب بانحراف كبير الى الجنوب ويسير بموازاة وادي حوران ، وبعد ٩٩ كيلو متراً عن الفرات يمر بمحطة (ايج ون = حيفا ١) وهي غربي وادي حوران ، ثم بعد المسافة نفسها يمر بمحطة (ايج تو = حيفا ٢) وهي شرقي القعرة ، ثم من قرب محطة الرطبة ، ثم بمحطة (ايج تري = حيفا ٣)، ثم بعد هذه المحطة ب ٩٠ كيلو متراً يدخل حدود امارة شرقي الأردن فيمر فيها بمحطة (ايج فور = حيفا ٤) ، ثم يخترق صخور حرة الراجل واوعارها الى ان يبلغ محطة (ايج فايف = حيفا ٥) ومن بعدها بقليل ينحرف نحو الغرب الشمالي ويمر من جنوبي خربة ام الجمال ومن محطة المفرق التي على السكة الحجازية

ثم من جنوبي قرية الحصن الى ان يهبط الغور ليجتاز نهر الشريعة جنوبي جسر المجامع ثم يصعد الى قرية كوكب الهوا في فلسطين ثم يهبط مرج ابن عامر الى ان يبلغ مصبه في البحر شمالي مدينة حيفا .وطول خط طرابلس من كركوك ٩٥٥ كيلو متراً وطول خط حيفا ١١١٢ كيلو متراً .

وكل من هذه المحطات التسع التي عددناها يضارع بليدة ، ففي كل منها ١٠٠ - ١٥٠ نفساً من الموظفين والمهندسين الانكليز والعمال والجنود العرب وعائلاتهم . وهي محصنة بالاسلاك الشائكة والمخابئ والمعدات الدفاعية ووسائط المحابرة اللاسلكية الكافية لصد غارات البدو المحتملة ، وفي داخلها دور ومكاتب جميلة حاوية كل اسباب الراحة والرفه من ماء وكهرباء وبرق وهاتف وبريد ووسائط تدفئة وتبريد وحوانيت فيها ماتشتهي وتريد من المأكول والمشروب ، وثمة حدائق واشجار تجلو العين بنضرتها في تلك الفيافي الجرداء مما جعل هذه المحطات شامات في وجنة البادية القفراء . وحينما انسحب الفيشيون وحاربوا الانكليز في تموز سنة ١٩٤١ خربوا آبار المياه وخزانات المحطات في خط طرابلس ونهب البدو المحطات بعد ان خلت من ساكنيها فتعطل هذا الخط مدة ثم اعيد لما عادت المياه الى مجاريها. وفي حادثة رشيد عالي الكيلاني في العراق في شهر ايار من تلك السنة ايضاً نهب البدو محطة الرطبة وحوانيتها ودورها ومثلها محطتي ايج تري وايج تو في خط حيفا ، لكن هذا الخط ظل سالماً وجريانه دائماً .

* * *

تاريخ البدو

تاريخ البدو هو تاريخ العرب الحضر نفسه في الجاهلية والاسلام . اذ انهم أرومة العنصر العربي ومادته شملهم ماشمل الحضر من بؤسى ونعمى من قبل ومن بعد . والعرب كما هو معلوم من اعرق الامم السامية في القدم ، عاصروا جميع الامم التي اشتهرت في التاريخ كالسومريين والاكاديين والآشوريين والبابليين والمصريين والرومان . وكل هذه الامم بادت وانقرضت ، اما هم فقد ظلو احياء اعزاء . والساميون في رأي اكثر المحققين نشأوا من جنوبي الجزيرة العربية وشرعوا منذ ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد يهجرون البادية تباعاً ويبلغون الهلال الخصب اي اطراف العراق والشام ومصر . كانوا مثل بدو هذه الايام يعيشون من تربية الماشية ويتنقلون طلباً للكلأ والماء ويغزو بعضهم بعضاً . وقد تحضر بعد قسم من هؤلاء الساميين فأنشأوا عدة دول في جنوبي الجزيرة العربية وفي شمالها . فمما انشأوه في جنوبها ؛ دول المعينيين والسبأيين والحميريين التي قامت وازدهرت في حضرموت واليمن وتركت آثاراً بارزة حتى الان من مدن وقصور ومصانع وحصون وكتابات . ومما انشأوه في شمالها ؛ دول الكلدانيين والبابليين الحموراييين في العراق ودول الكنعانيين في فلسطين والآراميين في دمشق وحمص وما حولها والفينيقيين في سواحل لبنان والثموديين واللحيانيين في شمالي الحجاز وطسم وجديس في نجد والادوميين والنبطيين في شرقي الاردن وحوران وبني السميذع في تدمر . كل هؤلاء كانوا ساميين وعرباً متحضرين بلغوا درجة غير يسيرة من التمدن والرفه

استمدوها من مصر وبابل السابقتين في هذا المضمار .

وهجرة العرب البدو من جنوبي الجزيرة العربية واواسطها الى بوادي العراق والشام ومصر وانسياحهم فيها كان يحصل على هيئة موجات تتابع ورودها منذ آلاف السنين ولا يزال حتى يومنا هذا . وتعزى هذه الهجرات الى انه في كل قرن او قرنين يزداد عدد سكان تلك الديار العربية وتضيق بوفرة مواليدها فتصير مواردها ومعاطنها غير كافية لسد الحاجة . او تتبدل الظواهر الجوية فيها وتتحول الشروط الاقليمية فلا تعد المعيشة سائغة كما جرى في مشارق اليمن وأدى الى انحطاطه وزوال دول المعينين والسبأيين والحميريين منه، او تأتي أعوام قحط جائحة او تحدث فتن شعواء بين القبائل بسبب الاختلاف على المراعي والمناهل او الخيل او النساء فتضطر موجة منها الى ان تنزح نحو الشمال وتزحف وتفتش عن بقاع أمرع وبراري اوسع ، فلا تجد ذلك الا في اطراف العراق والشام ومصر المسماة بالهلال المخصب . فالموجة القادمة منها اذا وجدت امامها عشيرة سبقتها في الهجرة تسعى لدفعها واحتلال مكانها بالقوة والغلبة او بالاتفاق والانضمام، فاذا ظفرت تضطر السابقة المغلوبة الى مزاحمة الاسبق والاضعف منها . وهكذا يزحم المتأخر المتقدم ويدفع القوي الضعيف كل في دوره وينازعه منزله ومرتعه . وحينما يحرم المغلوب مجال النجعة يترك رعي الابل ان كان من القسم الاول (اهل الابل) وينصرف الى رعي الغنم فيصير من القسم الثاني (اهل الغنم) ، ومن هذه يتدرج الى التحضر والاستقرار في القرى والمدن . وهكذا كلما فرغت البادية من موجة من سكانها البدو واحتوتهم المعمورة تأتي موجة جديدة من صميم الجزيرة العربية فتملأ الفراغ وتحل مكان من هجروا البداوة وتحضروا وهكذا دواليك ، والامثلة على ذلك كثيرة ، تراها في عشائر شمر وعنزة التي جاءت على هيئة موجات وزاحمت (عربان الديرة) في بادية الشام بعد ان كانت عربان الديرة هي السائدة المنفردة في هذه البادية ، وقد استولت عليها من عشائر اقدم منها تحولت عن البداوة وذابت في بوتقة الحضارة ، وستنصرف شمر وعنزة يوماً ما عن التبدي وسوف تتجهان نحو التحضر وتخلو البادية فتأتي موجة لتستولي على اماكنها

وهكذا الى ان يرث الله الارض ومن عليها .

يقسم المؤرخون العرب باعتبار الزمان الى ثلاثة اقسام : (بائدة) وهم الذين درست اخبارهم وطمست آثارهم فلم يسجل لهم التاريخ الا صفحات مشوهة لاتنفي ظناً ولا تثبت حقيقة . واشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس ، « فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية » الآية . واما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية . و(عاربة) وهم اليمنيون المنتمون الى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن قحطان وزعم العرب انه أصل لسانهم ومصدر بيانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً مالكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم في القفر

و(مستعربة) وهم الحجازيون المنتمون الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ولهذا يسميهم الافرنج (اسمعيليين) . واسميل نزل الحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم صاهر قبيلة جرهم فكان له بنون واعقاب ظلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق الا (عدنان) ، واليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح . ومن هذا التقسيم قال مؤرخو العرب ان العرب قبائل شتى ترجع في نسبها الى شعبين عظيمين شعب قحطان وشعب عدنان . وذكر مؤرخو الافرنج هذين الشعبين باسم عرب الشمال وعرب الجنوب ويرجعون في ذلك الى ما كان معروفاً عنهم في قديم الزمان . فان المصريين في عهد الفراعنة كانوا يسمون عرب الجنوب « فنطو » اى سكان الفنط والفنط عندهم البلاد الواقعة في جنوبي جزيرة العرب . ويسمون عرب الشمال « شاسو » تصحيف الكلمة العربية « شص » اي اللص الحاذق لكثرة سلبهم وغزوهم الناس . وقد قال العلماء المتأخرون ان لاهالي قسمي ديار العرب مميزات لاتنكر . ففي الشمال مصفحو الرؤوس وفي الجنوب الفطح . وفي الشمال اللغة العدنانية التي

نزل فيها القرآن وفي الجنوب اللغة القحطانية . والتباين بين اللغتين كان كبيراً وكان النزاع بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية (المعدية والنزارية أو القيسية كما صارت تدعى بعد) على قدم وساق منذ اقدم العصور . وقد زاد هذا النزاع شدة مع الزمان حتى صار من الامور المميزة لقوم من قوم . وتعد في يومنا عشيرتا طيء وشمر الضاربتان في الجزيرة الفراتيـة من القحطانية ومثلهم الموالي والعقيدات والابي شعبان ، وتعد عنزة وبنو خالد والسردية من العدنانيـة .

قسمت المعلمة الاسلامية في مادة (بلاد العرب) هذين الشعبين على النحو الآتي الذي نعربه . قالت : تتفرع من قبيلة كهلان اليمانيـة القحطانية الاحياء الآتي ذكرها :

(١) بنو طيء : وقد أقاموا منذ نحو الفي سنة في جوار جبليهم الشهيرين وهما اجأ وسلمى وقد سمي السريان العرب كلهم طائيين من باب تسمية الكل باسم الجزء ولأنهم كانوا متصلين بقبائل هذا الحي اكثر مما كانوا متصلين بسائر القبائل . وبنو طيء يعرفون اليوم باسم (شمر) وهو اسم احد بطونهم الذي تسلط على من بقي منهم . وكان مقام الشمريين في قرية اسمها (توران) على ماقاله ياقوت في معجمه اذ يذكر انهـا قرية في ارجاء احـد جبلي طيء لبني شمر من بني زهير ، ولا يتسمى اليوم باسم طيء الا عشيرتان في الجزيرة وقد بقيتا تابعتين لشمر لكنها لا تدفعان لهم خوة (١) ويعتبرونهما متساويتين

---

١ . — قلت ليس هنالك سوى عشيرة واحدة تدعى باسم طيء الا انهـا ذات فرق اخصها في كرم المحتد فرقتا العساف والحريث فهل هما المقصودتان بكلمة عشيرتان؟ اما عدم دفع الخوة الى شمر فصحيح ، وقد استبدلت الخوة حين دخول فارس الجرباء الجزيرة بالمصاهرة ، فقد زوج هذا ابنه صفوق عمشة ابنـة شيخ طيء . وكان ذلك في حدود سنة ١٢٢٥ هـ على ماسوف نذكره (راجع ابحاث شمر وطيء في الجزء الثاني من كتابنا هذا) .

لهم . وقد هبط الشمريون ارض الجزيرة في القرن السابع عشر للميلاد ولهم فيها السيادة الى اليوم . وكان قد دفعهم اليها عنزة وقد ساقوهم من بادية الشام (٢) قبائل همدان ومذحج ، وقد بقي معظمهم في اليمن ويتصل بمذحج بلحارث وهم يسكنون الى هذا العهد جنوبي شرقي الطائف وكان لهم يد قوية في فتح العراق في خلافة عمر (٣) بنوعاملة وجذام ، وقد أقاموا في فلسطين منذ زمن قديم ، واللخميون الذين شادوا على الفرات مملكة الحيرة ، وبنو كندة الذين لم يسودوا في بلادهم في حضر موت فحسب بل سادوا بني أسد في اليمامة ، وكان اميرهم يسمي نفسه ملكاً . وكان امرؤ القيس الشاعر المشهور من اهل هذا البيت الشريف (٤) بنو أزد ، وكانوا من احلاف القبائل وهم لم يفتحوا عمان ويقيموا في جبال السراة فقط بل كان احلافهم وهم الغساسنة قد أنشأوا مملكة في ديار الشام ، وكان الخزاعيون قد استأثروا بمكة مدة من الزمن ، وكان الاوس والخزرج (الانصار) قد اختصوا لانفسهم يثرب (اي المدينة المنورة) .

والحي الاخر النازل من صلب قحطان هو الذي يضع النساب في مقدمته بني حمير او الحميريين . ومن هذا الحي بنو قضاعة وهم مؤلفون من قبائل شتى بينها بهراء وتنوخ ، وقد نزلوا ديار الشام الشمالية منذ عهد قديم ومنهم جهينة وكان لهم الكور المجاورة لوادي أضم ، ومنهم أيضاً بنو عذرة وهم من اقارب جهينة وجيرانهم وقد اشتهروا بحبهم العذري ، ومنهم بنو كلب وكانوا نازلين في بادية الشام ومنهم بنو بلي وكانوا احتلوا شمالي الحجاز ، وفي خلافة عمر ذهبت طوائف من بلي وجهينة واقاموا في الديار المصرية .

اما قبائل شمالي بلاد العرب فهي المعروفة أيضاً بالنزارية او المعدية المسمين باسم جدهم الاعلى في زعمهم . على حين ان المعدية وردت في كتاب المؤرخ بروكوبس بمنزلة قبائل متحالفة لا اسم رجل . وكذلك كلمة نزار ، فانها وردت في كتابة مؤرخة في سنة ٣٢٨ ميلادية اكتشفها المسيو دوسسو في النمارة في جوار الصفا (شرقي حوران) يقول فيها (امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب) انه كان

يحكم على بني أسد ونزار . ثم ان قبائل الشمال انقسمت قسمين عظيمين وهما ربيعة ومضر . وقد تمزقا كل ممزق قبل الاسلام . هذا اذا تركنا على حدة حي اياذ (بالذال المعجمة وهو غير اياد بالدال المهملة) وهو حي كان عظيم الحول والطول سابقاً ، لكنه انقرض قبل ظهور الاسلام ، فقبيلتا ربيعة ومضر اللتان كانتا قد سادتا في عزهما هاجرتا شطر الجزيرة الفراتية وبقي اسمها مخلداً في كورتي ديار ربيعة على الدجلة وديار مضر على الفرات ثم نزل تلك الديار بنو تغلب ونمر .

ويتصل بحي ربيعة قبيلتا عنزة وأسد ، وكانتا متحدتين ومتجاورتين كل التجاور في شمالي وادي الرمة ، وكان طريق الحاج من البصرة الى المدينة يمر بارضهما . وكانت عنزة قد احتفظت بالسيادة بعد ان طردت قضاعة من ديار العرب في عهد سابق . وفي منتصف القرن السابع عشر (١١ هـ) احتلت عنزة بادية الشام كلها او كادت واخضعتها لامرها . وبنو سباعة في الشمال الشرقي والارولة في الغرب يرجعون اليهم . ويرى اليوم في العراق من بني أسد ، وبنو وائل متصلون بهم كل الاتصال من جهة النسب . وقد انقسموا قسمين مهمين وهما بكر وتغلب . وقد جرت الحرب بينهما بعد قتل كليب الى نتائج مشئومة . وكان كليب يسود وائلاً فانقلبت الحرب ويلاً على القبيلتين الاختين ، فذهبت كلتاهما مع بني نمر من اقاربهما الى انحاء الجزيرة الفراتية فاحتل بنو بكر شمالها ومن ذلك اسم ديار بكر للبلاد التي نزلوها . وكانت آمد حاضرتها فسميت باسمهم . اما بنو تغلب ونمر فانهم هبطوا جنوبها وكانوا على النصرانية فلما جاء الاسلام اكرهوا على اداء الجزية . ويرجع الى بني بكر بن وائل بنو حنيفة اصحاب اليمامة وكذلك جيرانهم بنو شيبان . وممن يرجع ايضاً الى ربيعة عبد القيس الذين كانوا يسكنون البحرين . واما مضر فكان في مقدمتها بنو قيس ، وقد بلغوا من القوة والمنعة منزلة حتى انه سمي قيسياً كل عربي لم يكن يمانياً . واليوم ليس من يتسمى بهذا الاسم الا قبيلة صغيرة من اهل المدر نازلة على الفرات وهي

تدفع الخوة لبني شمر (١) وفي شرقي هذه القبيلة يقطن بنو عدوان وهم يدينون لشمر ايضاً . وكانوا ينزلون سابقاً جنوبي الحجاز بجانب بني فهم وهذيل (٢) ويرجع الى حي قيس ايضاً هوازن وبني سليم . وكانوا يقيمون في غربي ديار نجد في شرقي المدينة ومكة . وفي اوائل القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) اشتد امر بني سليم ومجاوريهم بني هلال الراجعين الى هوازن وضاقت البلاد بعددهم العديد حتى خيف على المدينتين المقدستين من جهة الامن فيهما ، فاكرهوا على المهاجرة فهاجروا الى ديار مضر فهبطوا اولا دلتا النيل ، ثم اضطروا الى مغادرته قسراً فذهبوا الى الصعيد . وفي سنة ٤٤٤ رضوا بالذهاب الى شمالي افريقية على شرط ان يعطى كل منهم بعيراً ودينارا . فاغلب بدو افريقيا الشمالية يعودون في اصلهم الى بني سليم وبني هلال . وشهرة بني هلال معروفة الى هذا العهد في شعر العامة في قلب بلاد العرب نفسها (٣) وكانوا يعيدون في السابق الى احلاف قبائل عامر بن صعصعة . ومنهم كانوا ايضاً بنو كلاب وبنو قشير وبنو عقيل . وما زالت بنو عقيل الى زمننا هذا ذات شأن وخطر في بلاد نجد . وهم باعة الاباعر الى القوافل التي تظعن من ديار الشام الى بغداد وهم خفراؤها ايضاً . ومن عقيل خرج المنتفق ، وكانوا اصحاب عز ومنعة منذ القرن الرابع الهجري وهم لايزالون كذلك الى عهدنا هذا ، وديارهم جنوبي العراق .

---

(١) هذا ما كان قبل عشرين سنة ، ثم صارت قيس (وتلفظ الآن جيس) من اشر العشائر وافسدها . وبعد تحديد الحدود بين دولتي الشام وتركية ظلوا في شمالي الحد واستتركوا وانقطع اذاهم عن سكان البقاع الشامية .

(٢) هؤلاء ليسو العدوان المعروفين في بلاد شرقي الاردن ، بل هم العدوان المنضمون الى عشيرة الملي الكردية في ناحية رأس العين من محافظة الجزيرة الفراتية.

(٣) وعلى وقائعهم نظمت القصة المعروفة باسمهم والمنتشرة في ايدي العامة كثيراً .

ويشمل حي قيس بني غطفان وفيهم قبيلتان شهيرتان وهما عبس وذبيان وقد عرفتا بقتل الاخ لاخيه بسبب فرسين عرفت الحرب باسمهما اى حرب (داحس والغبراء) . واقوى بطن ذبيان كانت فزارة . ويرجع الى مضر ايضاً بنو ضبة وبنو تميم الذين احتلوا الديار التي كان فيها سابقاً بنو بكر وتغلب في نجد، وتميم قبيلة ضخمة انتشرت في كل جهة . وليس في جزيرة العرب بدو خلص بهذا الاسم اللهم الا في اسفل دجلة في جهة العمارة وما دناها (١) بيد ان معظم الحضر من سكان نجد يدعون انهم من تميم . وجميع قبائل نجد البدوية هي مضرية . وهي في عهدنا هذا في شرقي الحجاز وهم بنو حرب (مزينة) وبيدهم الطريق التي تجمع المدينتين المقدستين . وفي شرقي هؤلاء قبيلة عتيبة العظيمة البطش وبين القبيلتين وادي الرمة . وفي شرقي ارض هاتين القبيلتين بنو مطير . وممن يرجع الى مضر بنو خالد ومسكنهم في شرقي اليمامة وقد كسرت شوكة الوهابيين من غلوائهم .

وممن يعد في مضر بنو هذيل الذين اقاموا وما برحوا يقيمون في الجبال المجاورة لمكة ومنهم ايضاً بنو كنانة وكانوا في سابق العهد حياً ذا بطش وحول في جنوبي الحجاز . ومن كنانة (قريش) تلك القبيلة العريقة في القدم والكرم والنجار ومن اعظم القبائل سؤدداً (٢) واليوم تدعى قريشاً قبيلة

(١) قلت ومن بني تميم جمع في غربي بغداد وعلى مقربة منها حول نهر ابي غريب وتل عقرقوف ايضاً .

(٢) قلت ثم انقسمت قريش الى بطون منها جمح وسهم ومخزوم وتميم وعبد الدار وعبد المناف ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم ومن هاشم عبد المطلب وبنوه عشرة منهم عبد الله ابو الرسول صلى الله عليه وسلم وابو طالب ابو علي رضي الله عنهما ثم العباس ، والعلويون ينتسبون الى علي والعباسيون الى عباس عم النبي . اما الامويون فهم من بني عبد شمس اخي هاشم .

صغيرة شاوية نازلة في أرض مكة وهي القبيلة الوحيدة البدوية من قبائل ديار العرب تحسن صنع الجبن .

هذه أشهر قبائل العرب في التاريخ ومنها تتفرع فروع عديدة لا تحصى وكلها ترجع الى امهاتها هذه . فلما جاء الاسلام وامتدت فتوحاته احدث تغيراً عظيماً في عالم البداوة . فلقد امد البدو الجيوش العربية بمقاتلين كثيرين فانشئت مسالح في العراق وديار الشام شديدة البأس والبطش ، ثم انشئت مراكز جديدة في غربي تلك الديار وشرقيها وأقاموا فيها جنداً من أهل البادية فتضعضعت بذلك بعض القبائل واضطرت الى التناحر والتعاهد والتعاقد فاضاعت ماكان لها من الاستقلال في ديارها . وقد وقع من التحاسد بين قبائل ربيعة وقبائل مضر ما اكره بني ربيعة على محالفة قبائل اليمن منذ عهد بعيد في القدم لاجل مقاومة قبائل مضر .

بقي علينا ذكر من لايعتبر من صميم العرب وان كانوا يعيشون مثلهم وبين ظهرانيهم من ذلك « بنو هتيم » وهم مبثوثون في الحجاز ونجد . ويقال عنهم انهم ألأم قبيلة من العرب ، وهم ينزلون أطراف مصر (ماعدا منازلهم المذكورة) وهم مشهورون واهل غنم وماشية وفيهم حدادون كثيرون . ومن خساس البدو « الشرارات » وهم في جنوبي غربي بادية الشام وهم متصلون نسباً ببني هتيم وهم اصحاب ابل . وممن لايعد من الاعراب بتاتاً « الصلبة » فهم بمنزلة (النور) في البوادي وهم يحسنون الرماية والصيد وفيهم مبيضو قدورة ومركوبهم الحمير لاغير . ويبدو انهم لم يذكروا بهذا الاسم في كتب الادب القديمة . انتهى .

قلت = اما اخبار هذه القبائل منذ العصور الاولى الى ان ظهر الاسلام فهى غير متناسقة ولا موزونة بحكم الامية وبعد العهد وغير ذات مكانة تاريخية ولا فائدة قومية للاسف . لان كلها تنازع وتناحر على ما تقتضيه طبيعة البداوة بسبب امور قد تكون تافهة في الاصل كالاختصام على فتاة او على فرس او على منهوب

او بسبب امور قد تكون ذات بال كالاختلاف على المراعي والمناهل ومناطق النفوذ ونحو ذلك مما هو لايزال ديدنهم حتى يومنا هذا . وقد دون مؤرخو العرب وادباؤهم بعض هذه الوقائع وسموها (ايام العرب) كايام العدنانية على القحطانية وبالعكس ، وايام العدنانية فيما بينهم كالتي وقعت بين ربيعة ومضر ثم التي جرت بين قبائل ربيعة نفسها واهمها ما جرى بين عبس وذبيان وهي حرب داحس والغبراء وامثال ذلك مما لا طائل في ذكره ولا يسمه نطاق كتابنا هذا .

بيد ان مؤرخي العرب لم يذكروا لنا القبائل التي كانت قبل الميلاد بقرون عديدة تفد على هيئة موجات الى الهلال المخصب المدواعي التي ذكرناها ، ولااولئك الذين كانوا في بادية الشام في جند زنوبيا ملكة تدمر في حربها الرومان في القرن الثالث الميلادي ، ولا اولئك الذين كانوا يهاجمون قوافل التجار ويزعجون مشارف الشام وحواضره ، فعمد الرومان الى رد جماحهم باشادة الحصون والمخافر العديدة التي تقدم وصفها . وهؤلاء المؤرخون حصروا اسباب هجرة العرب في انهيار سد مارب وحصره بعض المؤرخين المتأخرين في تحول المسالك التجارية من البر الى البحر . والواقع هو ان هجرة العرب البدو ـ كما بينا ـ اقدم بكثير من هذين الحادثين على ما كان لهما من جليل الخطر في حياة بلاد العرب ومن الاثر البارز في تنقل العرب من جنوبي شبه الجزيرة الى شمالها . فهذا التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الميلاد والاسلام ومنذ اقدم العصور . فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التي تجاورهم اذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الاقصى (الهند والصين) من موانى اليمن وحضرموت الى بلاد الشام ومصر والرومان فيأتون بالمعادن والاحجار الكريمة والطيوب والافاويه والبخور ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والرومان الى الشرق الاقصى . وكانت هذه التجارة تسير على ابلهم (سفن البر) مخترقة شبه الجزيرة . وكان اهل الجنوب من اليمنيين والحضرميين (المعينيين والسبأيين والحميريين) السابقين الاولين للقيام بهذه التجارة ، ذلك بانهم كانوا اكثر من اهل الشمال حضارة لخصب ارضهم ولاتصالهم بالفرس والهند

اتصال جوار قريب . لذلك فان القبائل التي هاجرت الى العراق والشام واستقرت فيهما كانت من قبائل الجنوب. وكان يلي هؤلاء في اتقان النقل والتجارة النبطيون اصحاب مدينة البتراء والتدمريون اتباع زنوبيا (ملكة تدمر) .

هاجرت بطون من القبائل العربية البدوية منذ العصور الاولى إلى اطراف الشام الشرقية التماساً لبقاع أمرع ورزق اوسع من المعيشة الضنكة في شبه الجزيرة فكانت تتحضر اما كلياً او جزئياً وتبقى كذلك ما دام الامن مستتباً وهيبة الحكم سائدة . وكان السلطان في العراق وفي الشام متداولاً بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية . فكانت فارس تنتزع الشام من الرومان احياناً وتضمه الى العراق التابع لها . وكان الرومان ينتزعون العراق من الفرس احياناً ويضمونه الى الشام التابع لهم . وكان العرب البدو الذين نزحوا الى الشمال ينضمون في كثير من الاحيان الى جيش الرومان او الى جيش الفرس متأثرين بما في طبيعتهم البدوية من حب الغارات واستباحة حمى المعمور .

ويظهر من الكتابة التي عثر عليها المستشرق الافرنسي دوسو في سنة (١٩٠١) (١٣١٩ هـ) في النمارة شرقي جبل الدروز وجنوبي وعرة الصفا ، وهي شاهدة قبر امرئ القيس بن عمرو احد ملوك الحيرة اللاخميين انصار الفرس (٢٨٨ - ٣٢٨ م) ان القبائل العربية التي كانت في القرن الرابع الميلادي في بوادي الشام والعراق هي معد واسد ونزار ومذحج . وتدل هذه الكتابة المحررة باللغة العربية العدنانية ان امرئ القيس المذكور قد اخضع هذه القبائل وجاء الى مشارف الشام لحربها او لمهمة اخرى فلقي حتفه في نمارة المذكورة ودفن فيها فكتبوا له هذه الشاهدة التي تعد اقدم اثر عربي .

وقد كان الرومان في بدء احتلالهم الشام بعد غزوات اسكندر المقدوني رأوا البدو خطراً على الحواضر بسبب طبيعتهم البدوية التي ذكرناها، فحاولوا غير مرة كسر شوكتهم ، غير انهم عرفوا بالاختبار انهم لا يظفرون بهم ظفراً تاماً ما لم يستنجدوهم ويستعينوا ببعض عشائرهم لقطع دابر الشذاذ العاقين منهم. (والحديد لا يفله

الاالحديد) فحالف الرومان شيوخ هذه العشائر ولقبوهم بلقب رؤساء وملوك ومنحوا بعضهم قسماً من السلطة على بادية الشام (١) ، فكان هؤلاء الرؤساء او الملوك يحكمون ابناء جلدتهم العرب ويسودونهم وربما زاحموا الدولة الرومانية كلما شعروا بانتقاص حبلها او ضعف ولاتها . فترى الانباط منهم في اواسط القرن الاول للميلاد متقلدين الحكم في شرقي الاردن وفي حوران وحتى في دمشق نفسها ، وترى آل السميذع اصحاب مدينة تدمر يبسطون نفوذهم على حواضر الشام وتمتد مطامعهم حتى العراق ومصر. وقد أفاد بعض مؤرخي الرومان ان الرومان كانوا اتخذوا في مقدمة جندهم كتيبة من العرب كانوا يتقدمون الجيش في محاربة اورشليم على عهد وسبسيانوس وابنه طيطس ، وكان الرومان يدفعون الى الفرق العربية رواتب معينة ليقوموا بحراسة التخوم الرومانية من جهة البادية وليكونوا عدة لهم على اخصامهم الفرس . ويذكرون ايضاً ان بعض شيوخ العرب المتحالفة قدموا ذات يوم على القيصر يوليانوس وشكوا اليه تأخر ولاته في دفع رواتبهم فغضب يوليانوس وزجرهم بقوله انه اعد لهم حديداً (لقتالهم) لاذهباً (لاجرتهم) فخرجوا ناقمين على الرومان ولحقوا بجيش الفرس وحاربوا يوليانوس معهم فكانت الدائرة عليه .

وجل ما ذكره مؤرخو العرب ان العرب كانوا يفدون الى الشام (بلاد الخمر والخمير والامر والتأمير والديباج والحرير) منذ القرن الاول للميلاد بسبب البداوة والتكاثر مع الزمن وتقاصر مواطنهم عن كفايتهم وبسبب ما فطروا عليه من حب الغارات واستباحة حمى المعمور . وذكروا ان قضاعة اول من قدم الشام من قبائل العرب فصارت الى ملوك الروم فملكوهم على من في بلاد الشام من العرب . فكان اول الملك لتنوخ بن مالك بن فهم . ثم وردت الضجاعم وهم فخذ من سليح ، وسليح بطن من قضاعة فتغلبت على تنوخ وقامت مقامها في السيادة على بلاد الشام واعرابها حتى جاء الغساسنة من اليمن في اواخر القرن الرابع الميلادي. وقد يكون انهيار سد مارب من جملة اسباب مجيئهم ، واستظهروا على الضجاعم وعظم

(١) كما حالف الانكليز في عهدنا شيوخ العشائر العربية في المحميات التسع التابعة لمستعمرة عدن ولقبوهم بالسلاطين .

شأنهم وحالفوا الرومان وصاروا عمالهم على اخوانهم عرب الشام وخفراءهم على الحدود الغربية تجاه الفرس كما كان اللخميون المناذرة حلفاء الفرس وعمالهم على عرب العراق وخفراءهم تجاه الرومان ولقبوهم بلقب فيلارك او امير اوملك، وكان بعض العرب قبل مجيء الغساسنة يتقدم في خدمة الرومان ومناصبهم حتى ان احدهم وهو فيلبوس العربي من ابناء بصرى في حوران صار قيصراً وملك على رومية من سنة ٢٤٤ الى سنة ٢٤٩ م، وكانت ايامه محمودة في عمران المملكة الرومانية ورغدها ، وسارت هذه القبائل العربية على دين ملوكها فتنصرت وشيدت في انحاء حوران والصفا واللجا والبلقاء كثيراً من الاديرة والكنائس لا تزال آثارها ماثلة . وكانت لغة النبطيين والتدمريين الآرامية ، ومابقي من القبائل كانوا يتكلمون لغة عربية ، ولكنها بعيدة نوعاً ما عن لغة القرآن القرشية العدنانية لكثرة ما كان فيها من المفردات والتعابير الآرامية .

وضاقت فيما يبدو وقتئذ بادية الشام بهذه القبائل العربية فانساح قسم منها قبل الاسلام بقرن او قرنين الى براري الجزيرة الفراتية ذات الخصب الكثير والخير الوافر وانتشروا فيها واستقروا على نحو ما عملته قبائل بكر وربيعة ومضر وانمار واياد وشيبان وتغلب وكلهم من أعقاب نزار بن معد بن عدنان . فاحتل بنو بكر شمالها ومن ذلك اسم (ديار بكر) للبلاد التي نزلوها وكانت (آمد) حاضرتها فسميت باسمهم الى ان قلب الترك اخيراً اسمها الى ديار باقراي (ديار النحاس) محواً لصبغتها العربية . فكان في الجزيرة ديار بكر التي قال عنها ياقوت في معجمه « هي بلاد واسعة تنسب الى بكر بن وائل .... بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وحدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين الى دجلة ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين ». وقال عن ديار ربيعة « ديار ربيعة بين الموصل الى رأس عين ودنيسر والخابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرى وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ربيعة ، فانهم كلهم ربيعة . وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الا م في

بواديه واسم الجزيرة يشمل الكل . وقال عن ديار مضر « ديار مضر هي ما كان في السهل يقرب من شرقي الفرات نحو حران والرقة وشميشاط وسروج وتل موزن » . قلت يظهر من هذا التعريف ان القسم الغربي من الجزيرة الواقع ما بين الخابور والفرات وفيه في يومنا قضاءا الرقة وعين العرب كان من ديار مضر وحاضرتها الرقة، والقسم الاوسط الواقع ما بين الدجلة والخابور وفيه قضاءا القامشلية والحسكة وجبل سنجار كان من ديار ربيعة وحاضرتها الموصل ، والقسم الشمالي الذي فيه جزيرة ابن عمر وميا فارقين مما ظل داخل حدود الترك كان من ديار بكر وحاضرتها آمد . وفي هذه الجزيرة حدثت الوقائع بين قبائل ربيعة واهمها بين بكر وتغلب وهي حرب البسوس بين كليب وجساس وهي مشهورة ومذكورة في كتب التاريخ والادب دامت وقتئذ بينهما اربعين سنة ، مات في اثنائها الشيوخ وشاخ الشبان وشب الولدان وولدت طبقة من الناس لم تكن بالحسبان ، وكان الحرب سجالاً الى ان تصالحا الآخر مرة على يد عمرو بن هند احد ملوك الحيرة من آل المنذر اللخميين . وجرت واقعة بين شيبان وتغلب بقرب الفرات فاز فيها بنو شيبان ، ومن قبيلة تغلب هذه نشأ الشاعر المشهور عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي عقيد قبيلته وزعيمها وقاتل عمرو بن هند المذكور في داره . وكان ذلك في اواخر القرن السادس الميلادي ، وهو صاحب المعلقة التي مطلعها :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الا ندرينا

مما يدل على ان الاندرين انشاخصة باطلالها وآثارها (١) حتى الان في براري حلب الجنوبية كانت عامرة في عهده وتنتج خموراً جيدة وان تغلب كانت توافيها وتمتار الخمرة منها . وكانت النصرانية شائعة فيهم قبل الاسلام لمجاورتهم الروم . وقد ابلوا بلاءً حسناً مع المسلمين في فتح العراق قبل ان يفتح المسلمون الجزيرة .

---

(١) راجع وصفها في كتابنا (جولة اثرية في بعض البلاد الشامية) ص ٣٠٦ - ٣١١

ذكر الطبري ان مدداً من تغلب وهم نصارى حاربوا الفرس مع المسلمين تحت راية المثنى بن حارثة الشيباني سنة ثلاثة عشرة ، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم « نقاتل مع قومنا » . ولما فتح المسلمون الجزيرة سنة ١٨ ايام عمر (رضه) بقيادة عياض بن غنم لم يحملوا التغلبيين على الدخول في الاسلام بل دان به من دان منهم طوعاً ومن بقي منهم على النصرانية ابى ان يعطي الجزية حمية وانفة ورضي ان يعطي الصدقة مضاعفة حتى دخلوا كلهم الاسلام مع الزمن . وكانت قبيلة تغلب مشايعة لخلفاء بني امية نشأ منها الشعراء المشهورون كعب بن جعيل والاخطل والقطامي كما نشأ في القرن الرابع الهجري الملوك بنو حمدان الذين منهم سيف الدولة ممدوح الشاعر الشهير المتنبي . وفي شعر الاخطل اشارات عدة الى الايام والوقائع التي توالت في الجزيرة بين قيس وتغلب . اشهرها يوم ماكسين على الخابور ويوم الثرثار الثاني ويوم البليخ ويوم البشر الذي تقدم ذكره في الكلام عن جبل البشري .

* هذا ما كان في الجزيرة ، اما في براري الشامية فقد كان فيها قبيل الفتح الاسلامي عشائر عربية جليلة اخصها بنو كلب . قال الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص ١٢٩) : اما كلب فمساكنها السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة احد . وقد قدمنا ان بادية السماوة هي بادية الشام الحالية المشتركة بين العراق والشام . وقال الهمداني في موضع آخر : وان جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق حمص وما يليها فهي ديار غسان من آل جفنة وغيرهم . فان تياسرت من حمص عن البحر الكبير وهو بحر الروم وقعت في أرض بهراء ، ثم من ايسرهم مما يصل البحر تنوخ وقال : وما وقع في ديار كلب من القرى تدمر وسلمية وحمص وهي حميرية وخلفها حماة وشيزر وكفرطاب لكنانة من كلب الخ .

فيظهر من كلام الهمداني ان عدة قبائل عربية كانت منتشرة في براري شمالي الشام وحواضرها ، وان هذه القبائل هي لخم وابي القين وجذام وغسان وتغلب وتنوخ وعاملة وبهراء واياد وبلى وكلب كما كان من امثالهم وبني عمومتهم

في ارياف العراق . ان هذه القبائل العربية في العراق والشام كانت الطلائع الاولى في التمهيد للفتح العربي وللامبراطورية الاسلامية لان مقامهم بين رافدي العراق ومشارف الشام واحتفاظهم بخصائص حياتهم البدوية العربية واتصالهم باهليهم وبني قومهم المحيطين بهم في شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدمة لما تلاه بعد أن زحف عرب الجزيرة اليهم محاربين لتحل الامبراطورية الاسلامية محل الامبراطورية الفارسية والرومانية .

ولما جاء المسلمون من الحجاز لفتح الشام والعراق وجدوا فيهما هذه القبائل . وقد دعاها مؤرخو العرب بالقبائل العربية المتنصرة وذكروا كيف اعانت بادى بدء الفرس والروم على المسلمين في معارك القادسية واليرموك وغيرها . الا انه بعد ان ظهر المسلمون على الامبراطوريتين المذكورتين وعلت كلمتهم دخل معظم هذه القبائل في الاسلام مع الزمن واشترك في الفتوح وابلى احسن بلاء في نشر راية الاسلام .

لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واستتب الامر لخليفته ابي بكر رضي الله عنه في الجزيرة العربية بعد حروب الردة شرع يستنفر قبائل العرب للجهاد في سبيل دعوة الاسلام . فزحفت منها جحافل جرارة عملت في الفتوحات الاسلامية امجد عمل ورفعت اعظم ذكر وأثر . وقد دامت هذه الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين والامويين وضربت من الجزيرة العربية الى حدود الصين والهند شرقاً والاطلنتيك واواسط فرنسا غرباً وظل الخلفاء المذكورون يندبون قبائل العرب للغزوات ويستجيشونهم للفتوحات بدون انقطاع ، لانهم مادة الاسلام وعصبه ، فكانت القواصي تأكلهم والحروب تفني منهم الالوف المؤلفة فلم يبق لهم ذكر الا في اعقاب متفرقين في الامصار التي انتجعوها بجملتهم .

ونحن اذ كان بحثنا منحصراً في هذا الكتاب في أعراب بلاد الشام نقول،

ان قسماً من تلك القبائل قد تدير وقتئذ بعض بقاع الشام واختلط بعد بالشعوب الشامية القديمة كالسريان الارامي الاصل والروم البيزنطي الاصل والعرب المتنصرة فادمجها في قوميته وانطقها بلغته واشركها في مذهبه وقضيته ، ومن لم يتحضر من هذه القبائل وفضل عيش البداوة ظل يضرب في بوادى الشام واطرافه ويشترك في احداثه وكوارثه مسيئاً تارة ومحسناً اخرى . وقد ذكر المؤرخون اسماء بعض من كان من هؤلاء خلال القرون الثلاثة الاولى في عهد الامويين والعباسيين كبني كلاب وبني القين وبني نمير وبني عقيل وبني مخزوم كما ظلو يذكرون من حين الى آخر في سياق الاخبار اسماء بعض الرجال من القبائل التي كانت متنصرة فاسلمت بعد واشتركت في الفتوح .

الا ان العرب لما انبسطوا في الاقطار المفتوحة واستروحوا سيادتها وحضارتها صاروا فيما قاله واباي اسفه ابن خلدون يضيعون خشونة البداوة تدريجياً فينغمسون في الترف والنعيم ويهملون الامر والنهي فاستلمها غيرهم من الموالي والاعاجم وخسر العرب الرئاسة فامتهنوا وأستهين بهم . وتناوشتهم السنة السفهاء والخلعاء من شعراء الشعوبية موالي وأعاجم امثال أبي نواس وبشار بن برد وغيرهما . وانت واجد ماقالوه في الكتب الباحثة عن أدب هؤلاء او بالاخرى قلة أدبهم .

وقد كان الاسلام عفى على أثر العصبية الجاهلية وشدد النعي عليها ، لانه رأي ان حياة الامة العربية لاتستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم. لكن هذه العصبية ذر قرنها بعد في أوائل العهد الاموي بين اليمانيين ومنافسيهم من القيسيين وانتشرت معهم في الاقطار المفتوحة ولا سيما في الشام وخراسان والاندلس وكان للشعراء يد طولى في ادكاء هذه العصبية ، ومن قرأ أشعار الاخطل وجرير والفرزدق وغيرهم يتجلى له ذلك . ودامت هذه النعرات الخبيثة قروناً عديدة وحتى في بلادنا الشامية الى عهد قريب تشب نارها تارة وتخمد اخرى سالت بسببها دماء غزيرة وخربت اوطان كثيرة كانت من أكبر العوامل

في ضعف الأمة العربيـة وتغلب الاعاجم على أمرها وزوال مجدها من تلك الاقطار .

قال الامير شكيب ارسلان في تعليقه على تاريخ ابن خلدون (ملحق الجزء الاول طبع مصر سنة ١٣٥٥ (ص ٤١٠) : والمضر فروع جمع عدة قبائل وهو قيس ويقال له قيس عيلان ، ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية حتى صار في مقابل اليمن كلها ، فصاروا يقولون قيس ويمن . وفي جميع الديار الشامية انقسم العرب الى قيس ويمن . وكانت حروب القيسية واليمنية في لبنان متصلة وانتهت بوقعة عين دارة (سنة ١١٢٢ هـ) ، واما في فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة ، واما في الاندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية . وقال في ص ١٦ « والحقيقة ان هذه العادة نفسها هي التي كانت الاصل الاصيل في فقدهم الاندلس ، بل في نكوسهم عن قلب اوربة بعد ان وطئوه باقدامهم وكادوا يستولون على تلك القارة وقد كانوا كلما تم لهم الظفر في واقعة على الاجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومضري ، ففشلوا وذهبت ريحهم واضطروا ان يعودوا من حيث اتوا . ولم ينحصر ضرر هذه العصبية في الاندلس والمغرب بل افنت القبائل العربية بعضها بعضاً في الشرق ايضاً وصرفتهم عن التبسط في الفتوحات ... ثم قال : ولم يكن ليفت في هذه العصبية الغالبة سوى العقيدة الاسلامية التي جعلت الاسلام هو العروة الوثقى وجعلت اخوته فوق كل رابطة ولذلك قيل ، ان العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الايام إلا بالاسلام ، ولولا الاسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب الى يوم القيامة وبأسهم ابداً بينهم ، فلما جاء الاسلام ووحد بينهم في الدين وقال الله تعالى (كنتم اعداءً فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخواناً) لم يلبثوا ان خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ولم يقف في وجههم شيء . لكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت هي مدار العمل عند سلفهم وعادت فتجددت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية في الاسلام كما كانوا يقتتلون

قبل الاسلام ورجع بذلك زرعهم هشيماً وبدرهم عرجوناً قديماً آه .وفي تاريخ ابن خلدون ان اكثر القبائل الذي كان له الملك انقرض فلم يبق لهم ذكر ، وانتبذ بقيتهم بالقفار واقاموا احياء بادين لم يفارقوا الحلل ولا تركوا البداوة والخشونة فلم يتورطوا في مهلكة الترف ولا غرقوا في النعيم ،ولهذا انشد شاعرهم :

فمن تكن الحضارة اعجبته فاني رجل باديـــة ترانا

وقال : — واقامت هذه الاحياء ناجمة في صحاري الجنوب من المغرب والمشرق بافريقية ومصر والشام والحجاز والعراق وكرمان كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية . وانقرض الملك العربي الاسلامي وطرق الدول الهرم الذي هو شأنها واعتز بعض اهل هذا الجيل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول وولوهم الامارة على احيائهم واقطعوهم في الضاحية والأمصار ... الخ

قلت ، واكبر سبب فيما ذكره ابن خلدون هو ان الدولة في عهد الامويين كانت عربية خالصة وكان خلفاء بني امية ينظرون الى جزيرة العرب نظراً خاصاً ويجعلون لها امتيازاً على غيرها من بلاد الاسلام ، فكانت هي فيه الحاكمة وكان غيرها من البلاد محكوماً . وكان هؤلاء الخلفاء يحنون الى حياة البادية ويهرعون في كل ربيع الى عيشها الحر وهوائها الطلق وعبير ازاهيرها الفياح من عرار وشيح وقيصوم وكانوا يربون اولادهم في البادية بين القبائل ليعتادوا على الفروسية والخشونة ويحتفظوا بالاخلاق القومية واللهجة البدوية المهددة بالتغير بحكم الاتصال بالامم المغلوبة ، فكانت البادية « مدرسة الامراء »،وكان لكل خليفة اموي ولاكثر الامراء الامويين مخيماً أو منزلاً أو قصراً في اطراف بادية الشام على ما قدمناه في بحث هذه البادية . وكانت القبائل العربية البدوية مادة الخلافة الاسلامية وجندها الاحتياطي ، فلما قامت الدولة العباسية تغير كل شيء ، لان هذه الدولة شيدت كيانها على اكتاف الفرس وتدبيرهم ،وكانت دولتهم كما قال الجاحظ « اعجمية خراسانية » . فقامت خراسان مقام جزيرة العرب واصبحت هي التي تمد الدولة

بالموظفين والجند . وقد اقصى العباسيون العرب شيئاً فشيئاً عن الجيش والدواوين واهملوا شأنهم منذ عهد ابراهيم الامام الذي اوصى ابي مسلم الخراساني بان لايدع في خراسان من يتكلم العربية ، ومنذ عهد المنصور الذي استعمل مواليه وغلمانه في اعماله وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب كما قال السيوطي (١) ، فامتثلت لذلك الخلفاء من بعده ومنهم المتوكل الذي قدم الترك فسقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها حتى ان الجيش العباسي في عهد المأمون لم يكن فيه جندي عربي واحد . ولما قدم المأمون دمشق كانوا يستعطفونه بان ينظر الى عرب الشام كما نظر الى عجم خراسان فيرفض بحنق ويحتج بسخط العرب ومناوأتهم له واستعدادهم للوثوب عليه . ولما بويع المعتصم سنة ٢١٨ هـ « بعث الى عماله في الامصار ان يسقطوا من في دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم ، فشق ذلك على العرب وثاروا ، لكنهم لم ينالوا وطراً ، فانقرضت دولة العرب من ذلك الحين وصار جند الدولة العجم والموالي . وفعل الفاطميون في مصر فعل العباسيين فاستخدموا الترك والسودان ومن اليها واقصوا العرب » .

وصار العرب (البدو) من ذلك الحين يعتبرون مجرد عنصر مقلق للراحة مفسد الامن يستفاد منه ولايعطى وجه ولا سلطان . وكان قصارى ما يسند اليهم خفارة الدروب وحراسة طرق القوافل في الصحراء ونقل المتاجر والسلع بين

---

(١) والسبب في ذلك فيما قالوه لان العرب « اهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما ارادوه لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً . وهو — اي المنصور — قد ارتكب في تأسيس دولته من الغدر والفتك مما لاتصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدالة على اباءة الضيم ولو كان فيه ما يسوءه » . ومن ثم « صار يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل » فعمد الى القاء الشقاق بين القيسية واليمنية وجعلهم احزاباً متحفزين للاقتتال .

الاقطار ، وربما استخدم بعضهم كفرق مساعدة في الحملات الحربية في مصر والشام والمغرب والسودان . اما بعض القبائل التي كان يتحينها الظلم او تقاسي مرارة الجوع والفاقة فكانت تهاجر اما الى الجزيرة العربية او الى مصر والسودان والغرب . كما كانت الهجرة من الجزيرة مستمرة الى مصر والشام والمغرب او من بعض هذه الاقطار الى آخر.

ومما يذكر من احداث البدو في العهد العباسي انه في خلافة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢) شق بنو نمير عصا الطاعة في اليمامة وعاثوا وافسدوا في الارض . فارسل عليهم الخليفة القائد بغا الكبير التركي في جيش من الاتراك والمغاربة ، فجعل هذا يناشدهم ويدعوهم الى طاعة امير المؤمنين وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون الى حربه ، وحملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم امامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجنده وكاد يهلك لولا حصول امر لم يكن مقصوداً . وذلك انه كان قد وجه من اصحابه نحو سرية لتغير على خيل لهم علم بوجودها في مكان من بلادهم . فبينا جيش بغا على شرف الانكسار اذ خرجت هذه السرية منصرفة من الموضع الذي وجهت اليه في ظهور بني نمير تنفخ في صفاراتها . ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا ان قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين واسلم فرسانهم رجالتهم بعد ان كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالهم كثير احد قتلوا عن آخرهم . اما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل (الى آخر ماجاء في تاريخ لامم الاسلامية للخضرى بحث الدولة العباسية ص ٢٥١) .

ان اعراض الخلفاء العباسيين والفاطميين الغريب هذا عن بني قومهم واتكالهم على الاعاجم والاجانب في جيوشهم ومناصب دولتهم قدفت في عضد العرب عامة والبدو منهم خاصة ، وانقطعت الصلة بين شبه الجزيرة ومركز الخلافة وعادت البادية الى عزلتها وجاهليتها رويداً رويداً . وكان كلما ذهب جلال الخلافة من النفوس وزالت هيبتها من القلوب يستشرف ولاة الاطراف الى الاستقلال ويبلغ الى تأسيس

امارات بعضها عجمية كبني بويه وبعضها عربية كدولة بني حمدان التغلبيين في حلب والموصل وغيرهما (من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ) وكانت دولتهم عربية احيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، واشهر امرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه الشاعر الشهير ابو الطيب المتنبي . وقد عد ابن خلدون من القبائل التي كانت منتشرة في القرن الرابع الهجري في براري الشام والجزيرة بني طيء وبني كلاب وبني كعب وبني العجلان وبني عقيل وبني قشير . قال « كانوا كالرعايا لبني حمدان اصحاب حلب يؤدون اليهم الاتاوات وينفرون معهم في الغزوات » وقد شق بعض هؤلاء عصا الطاعة على سيف الدولة بن حمدان وعاثوا في اعماله فكان يداريهم لاشتغاله بحروب الروم وهم يتنمرون شأن البدو كلما رأو انشغال ارباب الحكم عنهم او ضعفهم . ولما عيل صبره منهم هاجمهم واوقع بهم في مروج سلمية ثم لحقهم الى الفركلس والغنثر والجباة وهن ثلاث قرى في سيف بادية حمص والى تدمر وأرك والسخنة وعرض (التي اسمها الآن الطيبة) والرصافة والرقة فبددشملهم وهتك سترهم وردم آبارهم حتى زلوا واستأمنوا وبذلوا له طاعتهم . وللمتنبي الشاعر قصيدتان رائعتان يصف هذه المواقع ويشفع بهؤلاء الثائرين المنكوبين ، مطلع الاولى

طوال قناً تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى بحار (١)

ومطلع الثانية :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق (٢)

وله قصيدة ثالثة يشفع ببني كلاب في موقعة اخرى في نواحي بالس « مسكنة » مطلعها :

---

(١) يقول ان الرماح الطويلة التي تطاعنها انت قصيرة لانها لاتفيد ، والقليل من عطائك وقتالك كثير فالقطرة منه تكون بمنزلة البحر . (٢) العذيب وبارق موضعان بظاهر الكوفة في العراق والعوالي الرماح السوابق ومجرو مجرى مصدران ميميان الاول من البحر والثاني من الجري.

بغيرك راعيـاً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضراب (١)

ومنها :

ترفق ايهـا المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتـاب (٢)
وما جهلت اياديـك البوادي ولكن ربما خفي الصواب (٣)

ولما زالت دولة بني حمدان وزالت روعة الخلفاء في العراق ومصر خلا الجو للقبـائل العربية فاستفحل امرهم وصاروا يحتجنون الحكم في بعض الاماكن والازمان ويتقاسمون مناطق النفوذ والسيطرة في بلاد الشام . فكان شمالهـا من حصة بني مرداس الكلابيين نسبةً إلى اسد الدوله صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية ، فحكمت هذه الدولة من سنة ٤١٤ — ٤٧٣ هـ ، وكان وسطها لبني عليان الكلبيين وجنوبها لبني الجراح الطائيين ، ثم جاء بنو عقيل من كعب من المضرية فورثوا ملك الشمال من بني مرداس وداموا ايضاً من سنة ٣٨٦ - ٤٨٩هـ الى ان قضى عليهم الترك السلجوقيون فانتهت بهم سيادة العرب في مدن الشام وحواضرها .

اما بقية القبائل التي ظلت متبدية فقد ضعف شأنها وخمل ذكرها كما قال ابن خلدون ، فمنها من ظل يضرب في فيافي الجزيرة العربية او البراري الشامية ، ومنها من اندمج في بني طيء لما عظم شأنهم في شمالي الشام وصاروا رؤساء البادية وامراءها. وكان في عهد الدول الايوبية ودول المماليك رئاسة عليا على بادية الشام باسم (امير عرب الشام) ونالها بعضهم باسم (ملك العرب) ، وكانت هذه الوظيفة وكذلك امارات بقية العشائر توجه بمراسيم شريفة ، ذكر القلقشندي في صبح الاعشى

---

(١) يقول غيرك من الرعاة تسطو عليه الذئاب فتفسد في رعيته وغيرك من السيوف ينثلم على المضاربة واراد بالذئاب الثائرين . (٢) يقول لاتقسو عليهم وارحمهم لان الرحمة للمذنب كعتاب له (٣) وان مكارمك ونعمك لاتجهل اهل البوادي وطيشهم وجهلهم وذهولهم عن الصواب احياناً .

عدة نماذج منها ، وكان يطلب من اصحابها ان يقوموا بحفظ السابلة ايام السلم ويمنعوا اعرابهم من العيث والنهب وان يتأهبوا للجهاد ويعاونوا العساكر السلطانية ايام الحرب وان لايفارقوا البلاد ولا ينجعوا (حتى يعبس في وجهها السحاب ، ولا يعودوا حتى تؤذن زروعها المخيمة بالذهاب) إلى آخر ما هنالك من الاوامر والقيود وهذا يدل على ان العشائر البدوية في تلك العهود كانت مقيدة بتقاليد ومكلفة بواجبات ادارية وحربية تكافأ اذا برت بها وتعاقب اذا خترت .

ومما يذكر عن احداث البدو في عهد المماليك ان بدو الجهات القبلية في القطر المصري نموا وطغوا في سنة ٧٠١ هـ (١٣١٢م) في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون واقلقوا البلاد وآذوا العباد فجهزت الحكومة عليهم حملة اخذتهم من كل جانب واعملت فيهم السيف بدون رحمة فهلك كل مقاتلة البدو وسبيت نساؤهم ونهبت مواشيهم وعروضهم . قالوا « وكانوا اذا امسكوا شخصاً منهم وادعى انه حضري يقولون له قل « دقيق » ليجربوا صدقه بنطقه فان تبين انه حضري تركوه والا قتلوه . (عن كتاب السلوك في اخبار دول الملوك للمقريزي) قلت ، ومثل ذلك ما كان يجري في زمن السلطان عبد الحميد العثماني مع جند البغالة المخصص لمطاردة البدو الثائرين . كان يقال للشخص المدعي بأنه غير بدوي ، قل « بصلة » فاذا لفظها باللهجة البدوية فسكن الباء وفتح الصاد حكم بانه بدوي فالقي القبض عليه وعوقب .

هذا وقد صارت الرئاسة في طيء الى ابناء رجل طائي اسمه ربيعة . قالوا :

وكان ربيعة امير عرب الشام في القرن السادس في عهد الاتابك طغتكين ، ثم خلفه في الامارة ابنه مراء بن ربيعة الذي ذكر له ابو الفداء (ج ٢ ص٢٤٣) معركة مع الصليبيين انتصر عليهم فيها . ثم انقسم آل ربيعة الى ثلاثة أقسام او افخاذ ، ولكل من الثلاثة امير مختص به وهم آل فضل بن ربيعة وآل مراء بن ربيعة وهو أخو فضل وآل علي بن حديثة بن عقبة بن فضل . وكانت منازل آل فضل في الشمال من حمص الى وادي الفرات واطراف العراق ، ومنازل آل مراء في حوران والجولان

ومنازل آل علي في مرج دمشق وغوطتها . ولكل من الثلاثة لواحق من أفاريق الاعراب في تلك الازمان . اما المنزلة الكبرى والرئاسة العليا فقد كانت في يد آل فضل وهم كما قال القلقشندي (اتصلوا برجال السلطنة فولوهم على احياء العرب واقطعوهم على اصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظهروا برياستهم على آل مراء وغلبوهم على المشاتي).

وما زال هؤلاء آل فضل امراء بادية الشام من حمص الى وادي الفرات واطراف العراق وولاة الامر على عشائر تلك البراري كلها طيلة القرون الأخيرة الى عهد قريب . الا ان اسماءهم قد تبدلت بعد بانقسامهم وتغير رؤسائهم فصاروا يسمون آل مهنا بن عيسى ، ثم برز من بين هؤلاء آل حيار ، وهو حيار بن مهنا بن عيسى ، ثم برز من الحياريين آل ابي ريشة رؤساء عشيرة الموالي المعروفون المستقرون في زماننا في شرقي قضاء المعرة ذوو المجد المؤثل والبأس والبطش . ولم يحتفظ باسم الجد الاعلى الا ابناء عمهم آل فضل الذين فارقوهم منذ اربعة قرون واستقروا في الجولان (قضاء القنيطرة) .

هذا وبمناسبة ما كان لآل فضل المذكورين قديماً من المكانة وما للادوار التي لعبها اعقابهم امراء عشيرة الموالي الملقبون بآل ابي ريشة رأيت في هذا البحث التاريخي ان اخصهم بشيء من التفصيل واسلسل اسلافهم واخلافهم واشرح الادلة التي عثرت عليها بعد الجهد واوصلتني إلى اماطة اللثام عن ماضيهم فاقول :

لما مكثت في سلمية في سني ١٣٣٨ — ١٣٤٢ هـ كنت ألحظ حالة الأعراب الذين يكثر ترددهم عليها وتجوالهم في قراها وتقيظهم في مروجها . ومما كان يسترعي انتباهي وقتئذ حالة عشيرة (الموالي) التي كانت تفد احياناً الى سلمية من مواطنها في العلا شرقي المعرة ، رأيت منتسبيها يشبهون القسم الاول من العشائر الكبيرة اهل الابل في بعض الامور بينما هم من العشائر التالية اهل الشياه والضياع ، ويختلفون عن هؤلاء واولئك بان ابلهم ليست من الوفرة بدرجة القسم الاول وان تربيتهم للشياه واستثمارهم للضياع اقل اتقاناً من اهل القسم التالي المعروفين

بالرعية . اما مشابهتهم للاولين ففي أنهم يردون النقا ويعطون الصحب اي يشهرون الحرب ويجيرون الملتجئي اليهم بحكم انهم لايصطلى لهم بنار في الجرأة والشراسة وشن الغارات وخوض الغمرات ، وان رؤساءهم يلقبون بالامراء مما ليس له وجود في بقية العشائر ويحاطون بالتجلة والاحترام لما عرفوا به منذ القديم من كرم المحتد وعلو القدر . واذا اجتمع مشايخ العشائر في المؤتمرات التي تعقد الحين بعد الحين في سلمية او تدمر وامثالها من البلاد التي على سيف البادية او وسطها لفض الفتن التي كانت تنشب في تلك الفترة بين البدو وخاصة بين اولئك الموالي وعشيرة الحديديين يحل امراء الموالي صدور المجالس مع مشائخ القسم الاول بينما مشايخ القسم التالي عليهم الوقوف في ابوابها والاصغاء لما يقرر فيها ، وتقدم اليهم القهوة قبل الغير من الكبراء حتى قبل ابن الشعلان وابن هذال ، بينما الاول اكبر مشايخ عنزة قوةً وثروةً والثاني اكبرها حسباً ونسباً والجميع يقرون بانهم اسياد البادية الشامية كابراً عن كابر وملاكوها الاصليون ، وثمة بين العشائر كلها قانون مفاده (ليس لدم الامير ثمن) اي اذا قتل احدالامراء لاتقبل عنه دية بل لابدمن غسل دمه بدماء عدة أفراد يماثلونه في نباهة القدر لدى قومهم . وكما لايأخذون ثمن دمهم لايؤدون ثمن الدماء التي يرهقونها . وبحكم هذا القانون الغريب يجتنب خصومهم توجيه الضرب نحوهم . وكنت استغرب كيف ان البدو وخاصةً عنزة بقدر ما كانوا يجلون قدر الامراء المذكورين يزدرون اتباعهم المعروفين بالموالي ، وحجتهم ان هؤلاء ليسوا من اصول معروفة ولا تجمعهم قرابة مألوفة بل هم افاريق من خشارة الاعراب ومتشرديهم ومماليكهم طوح بهم البؤس واليتم في ازمان سابقة والتفوا حول الامراء وصاروا مواليهم . ولا يخفى ان المولى عند العرب وسط بين العبد والحر والغالب فيه ان يكون معتقاً ، فكل عبد اعتق صار مولى لسيده وينسب اليه او الى قبيلته ، ويطلق المولى ايضاً على الصاحب والغريب والحليف وغير ذلك بطريق المجاز ، والمولى عند العرب احط منزلة من الحر وارفع من العبد .

ولما ادركت كل هذا وغيره مما سوف أذكره ايقنت ان لامراء الموالي وعشيرتهم شئوناً واعتبارات خاصة وانه يجب ان يكون لهم تواريخ وما جريات سابقة جديرة بالاستقصاء والاظهار ، وكنت في سني اقامتي في سلمية وجدت في احدى جولاتي على بعد بضعة كيلو مترات عنها الى الشمال مسجداً قديماً خرباً في قربه ضريح الشيخ فرج الحسيني المكنى بابي حية الذي تنتسب شيوخ عشيرة الجملان اليه وتقدم له النذور ، وحول هذا المسجد جبانة فيها قبور كثيرة منهـــا القديم والحديث عثرت بينها على قبر له شاهدة فيها اسم (محمد بن عيسى بن مهنا) وتاريخ وفاته (رجب عام ٧٢٤) . وما ان لمحت هذا الاسم حتى تذكرت انه مر على كثيراً خلال قراءتي تاريخ ابي الفداء وتاريخ حيدر الشهابي فاسرعت بعد هذه الزيارة لمراجعتها فاذا بي امام طائفة من الحوادث اجراهـا ابو هذا الرجل واخوانه مهنا وفضل واعقابهما في القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة ، واخرى مثلها اجراها قبلهم اقاربهم بنو الجراح في جنوبي الشام وشمـاليه في القرنين الرابع والخامس ادهى وامر مما اتاه الموالي والحديديون في عهدنا . وقد تبين لي منها ومن المصادر التي راجعتها بعد حين كصبح الاعشى للقلقشندي (ج ٤) والعبر لابن خلدون (ج ٦) ان آل عيسى بن مهنا فخذ من آل فضل من ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ، كانوا في زمن السلاطين الأيوبيين سيما في دولة المماليك كما قال في صبح الأعشى « رؤساء اكابر وسادات العرب ووجوههـا ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة يحلونهم فوق كيوان وينوعون لهم اجناس الاحسان » . وتبين لي أنه كان لهم مداخلة في ادارة بلاد الشام وسياستها في تلك القرون واثر عظيم في زوال عمرانها وانحطاط شأنهـا اللذين حصلا حينما اختلت الامور في اواخر دولة المماليك على النحو الذي ادركناه من اعراب زماننا عقيب زوال الدولة العثمانية .

وساقني هذا الاطلاع لاقتفاء أثر هؤلاء (آل عيسى) وخاتمتهم ومعرفة العهد الذي انقرضوا فيه وكيف تم ذلك وهل بقي منهم في زمننا اعقـاب ، فوجدت

622

الشهابي في حوادث سنة ١٠٣٥ هـ يلقب بعض أمراء البادية بآل ابي ريشة وينعتهم بالحياريين كما نعت عيسى بن مهنا وأعقابه من قبلهم . وقد استرعى نظري هذا اللقب وتذكرت ان أمراء عشيرة الموالي في زمننا مازالوا يعرفون بآل ابي ريشة فصرت افتكر في هل أن هؤلاء هم من أعقاب عيسى بن مهنا أبو صاحب القبر الذي عثرت عليه في شمالي سلمية وهل بالامكان ربط سلسلتهم بتلك الارومة. ولما سألت بعض هؤلاء الامراء وبعض شيوخ العشائر المجاورة لهم وجدتهم في غفلة عن ذلك يزعمون مزاعم لا تستند على وثيقة خطية أو رواية مدعومة ببرهان. فهم ينسبون انفسهم الى رجل من العباسيين دعوه حمد العباس لايدرون في أي قرن كان ، ويجعلون حمداً هذا من أعقاب رجل دعوه (شقير) ، ويجعلون شقيراً أحد ابناء الخليفة العباسي هرون الرشيد من أم بدوية زوجوه بها في أسطورة لاتنطبق على تاريخ ذلك الخليفة العظيم الذي لم ينجب ولداً باسم شقير ولا ذرية تركت الحضارة وأوغلت في البداوة والما خاب املي بهؤلاء رجعت انقب صحائف التاريخ الباحثة عن كوائن بلادنا في العصور المتأخرة وهي قليلة جداً فوجدت في بعضها ماينقع غلتي ، فأولها كتاب الجغرافيا الممتع المسمى جهان نما لمؤلفه العالم التركي الشهير كاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٨ صاحب كشف الظنون والمطبوع بعد وفاته سنة ١١٤٢ في الاستانة ، فقد عثرت بغتة في بحثه عن سلمية على ما تعريبه : وما برح هذا اللواء — يعني سلمية وقد كانت في أيامه مركز لواء — في حوزة امراء الموالي وهؤلاء الامراء ينسبون الى (آل حيّار) من قبائل العرب وهم ينقسمون الى فريقين آل حمد وآل محمد وتصل مناطق نفوذهم الى ضواحي حلب والرقة . وفي رواية ان حمد ابا نعير ابلى مرة بلاءً حسناً في معركة على عهد أحد سلاطين مصر وكان يضع على رأسه ريشة فدعي بابي ريشة وأنعم عليه ذلك السلطان بمبلغ عظيم من الذهب فاشترى به الف عبد ليقوى بهم على قومه فسميت أعقاب هؤلاء العبيد بالموالي وهؤلاء لايكون منهم أمراء . اه

وما ان لمحت هذه الكلمات حتى خيل لي أنني وجدت ضالتي المنشودة ، فقد استدليت مما ذكره كاتب جلبي ان اسم الموالي وصيت امرائهم كانا معروفين في

عهده اي في القرن الحادي عشر ، وقد وافق بذلك المؤرخ الشهابي الذي ذكرهم في احداث سنة ١٠٣٥ ، ووافقه ايضاً بنسبتهم لآل الحيار وبتلقيبهم بآل ابي ريشة وزاد عليه ببيان سبب هذا اللقب كما وافق المؤرخ التركي نعيما والمؤرخين الدمشقيين المحبي والمرادي كما سيأتي بيانه . ان هذا الاستدلال وبقاء لقب ابي ريشة لاحقاً بامراء الموالي المعاصرين لنا حملاني على التفكير بان هؤلاء الامراء هم من اعقاب عيسى بن مهنا آل فضل الطائيين الذين كانوا كما قال القلقشندي وغيره ملوك البادية واعظم ساداتها في عهد السلاطين الايوبيين والسلاطين المماليك . وان هذا هو السبب في كون اعراب زماننا يجلون شأن هؤلاء الامراء ويحلونهم الصدر الاول في المجالس والمؤتمرات . وقوى فكري هذا مانعرفه عن عشائر الاعراب من ان اسماءها تتبدل مهما عظمت في كل قرن او قرنين تبعاً للمتأمر عليها ، وقد تسمى العشيرة باسم اميرها او شيخها ثم باسم ابن هذا او ذاك بعد وفاته اذا انفصلت عن الارومة وتغيرت . فقد تغيرت اسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الاسلام الشام في القرن الثالث والرابع وما عرف من اسمائها في القرن السادس والسابع تبدل في التاسع والعاشر ، والامثلة على ذلك كثيرة كما سوف يأتي . والامارة والمشيخة ترجع على الاغلب لمن كان له اصل قديم من بيته او من كان اذكى قومه جناناً وابسطهم بالكرم يداً واشجعهم يوم النزال قلباً واصلبهم في الحوادث عوداً ثم تنتقل بالوراثة حتى ينقطع العقب او ينضب معين الكفاءة .

سأذكر الآن ادلتي على ان امراء الموالي الحاضرين المعروفين بآل ابي ريشة متحدرون من مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الاول الفضلي الربيعي الطائي مبتدئاً باصول آل عيسى ونازلاً نحو فروعهم مع بيان بعض احداثهم في دول الايوبيين والسلاطين المماليك والعثمانيين ، مستنداً الى المصادر التي اتيح لي الوصول اليها خدمة لهذه الناحية الغامضة من تاريخ بلاد الشام :

ذكر القلقشندي في صبح الاعشى (ج ٤) ماخلاصته بان من جملة القبائل

العربية القحطانية بنو طيء بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن ازد بن كهلان والنسبة اليهم طائي ، واليهم ينسب حاتم الطائي المشهور بالكرم وابو تمام الطائي الشاعر المشهور . وقال ابن خلدون في تاريخه : ان بني طيء نزلوا جبلي أجا وسلمى من بلاد نجد فعرفا بجبلي طيء الى الآن ثم افترقوا في اول الاسلام زمن الفتوحات في الاقطار ، ومنهم امم كثيرة ملأوا السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً .. قال وكانت الرياسة على طيء في الجاهلية لبني هناء ومن ولده اياس بن قبيصة الذي ادال به كسرى ابرويز النعمان بن المنذر حين قتله وانزل طياً بالحيرة مكان لخم قوم النعمان وولى على العرب منهم اياساً هذا فكانت له ولاعقابه الرياسة الى حين انقراض ملك الفرس . ولم تذكر التواريخ اخبار بني طيء في القرن الاول والثاني والثالث على عهد الامويين والعباسيين وربما كان ذلك لعدم ظهور مايستوجب الذكر منهم خلال غمرة الفتوحات الاسلامية والحضارة العربية التي سطعت في تلك القرون ، الى ان قالت التواريخ ان رئاسة طيء في القرنين الرابع والخامس في عهد الخلفاء الفاطميين الذين بسطوا نفوذهم على بلاد الشام ايضاً كانت لبني الجراح منهم — وعد وامن كبرائهم مفرج بن دغفل وابنه حسان ، وذكروا لهما حوادث وثورات عديدة قاما بها لما ضعف شأن الخلفاء المذكورين في الرملة وطبريا من فلسطين وفي افامية (قلعة المضيق) من شمالي الشام . وفي القرن السادس انتقلت رئاسة طيء الى بني ربيعة . قال ابن خلدون : ويزعم كثير من جهلة البادية من بني ربيعة انهم من ولد سميع بن جعفر بن يحيى البرمكي ، وان سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة اخت الرشيد من جعفر المذكور ، وكانت سبب نكبة البرامكة . زعم كاذب لا اصل له ، وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد واخته وفي بنات كبراء العرب من طيء الى موالي العجم من بني برمك وامثالهم .

قلت ان امراء الموالي الموجودين في عهدنا في قضاء المعرة ومثلهم امراء آل فضل في قضاء الجولان وشيوخ طيء في الجزيرة مابرحوا يدعون الانتساب الى

العباسيين . فلعل منشأ هذا الادعاء من ظنهم بانهم من اعقاب الولد الذي وضعته العباسة اخت الرشيد المذكور آنفاً . فلو صح هذا الزعم — وهو غير صحيح كما نفاه ابن خلدون وغيره — اذن لوجب ان يكون انتساب هؤلاء الى العباسيين من جهة الام لا من جهة الاب . بينما هم لامن هنا ولا من هناك ولا علاقة لاي منهم بالعباس وولد العباس .

ثم قالوا وكان ربيعة امير عرب الشام في عهد الاتابك طغتكين ، ثم خلفه في الامارة ابنه مراء بن ربيعة الذي ذكر له ابو الفداء حادثة خطيرة مع الصليبيين سنة ٥١٠ انتصر فيها عليهم . ثم انقسم آل ربيعة الى ثلاثة افخاذ هم المشهورون ومن عداهم اتباع لهم وداخلون في عددهم ، ولكل من الثلاثة امير مختص به ، وهم آل فضل بن ربيعة وآل مراء ابن ربيعة وهو أخو فضل وآل علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال القلقشندي في نهاية الارب : هؤلاء سادات العرب ووجوهها ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم الى رونق في بيوتهم ومنازلهم ، تقاسموا بلاد الشام فكانت منازل آل مراء بن ربيعة من بلاد الجيدور والجولان فجنوب ، ومنازل آل علي بن حديثة من دمشق وغوطتها ومنتهاهم الى الجوف . اما آل فضل فكانوا رأس الكل واعلاهم درجة ومنازلهم من حمص الى ضفتي الفرات واطراف العراق وقد تشعبوا بعد شعباً كبيراً اجلها قدراً آل عيسى . وتشعب آل عيسى بعد الى عدة بيوت اجلها قدراً بيت مهنا بن عيسى وبيت فضل بن عيسى وبيت محمد بن عيسى (الذي عثرت على قبره في سلمية) وغيرهم . قال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار: وهؤلاء آل عيسى في وقتنا (اي في القرن السابع والثامن) هم ملوك البر فيما بعد واقترب بمشارف الشام والعراق وبرية نجد وسادات الناس ولا تصلح الاعليهم العرب . واما الامرة عليهم فقد جرت العادة ان يكون لهم امير كبير منهم يولى عن الابواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ويلبس تشريفاً اطلس اسوة بالنواب ان كان حاضراً او يجهز اليه ان كان غائباً ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام

امير عليهم وتصدر اليه المكاتبات من الابواب الشريفة الا انه لايكتب له (اي للقائم مقام) تقليد ولا مرسوم .

ولم يصرح لأحد منهم بامرة على العرب بتقليد من السلطان الا من ايام الملك العادل ابي بكر اخي السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب، امر منهم ماتع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ولما توفي ماتع سنة ٦٣٠ هـ ولي عليهم ابنه مهنا وهو مهنا الاول . وحضر مهنا هذا مع الملك المظفر قطز قتال جيش التترسنة ٦٥٨ في عين جالوت (غوريسان) فاجازه قطز بسلمية ، نزعها من الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة واقطعها له (ابو الفداء ج ٣ ص ٢١٤) ثم ولى الملك الظاهر بيبرس ابنه عيسى ووفر له الاقطاعات على حفظ السابلة . وعيسى هذا على ماذكره ابن اياس في تاريخه (ج ١ ص ١٠٢) هو الذي جاء بالامام احمد العباسي بعد حادثة هولاكو في بغداد التي جرت سنة ٦٥٦ وقضى بها على الخلافة العباسية ، وكان احمد فاراً من القتال مختبئاً عند اناس من قبيلة الامير عيسى ، فاوصله الى مصر الى الملك الظاهر بيبرس وشهد هو وقومه انه من نسل العباسيين فبويع له بالخلافة ، واستمرت هذه الخلافة الصورية فيه وفي اعقابه الى ان استخلصها منهم السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ وقضى عليهم .

وذكر ابن تغري بردى في (المنهل الصافي) ان الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا امير آل فضل كان ملك العرب في وقته ، وكان له منزلة عظيمة عند الملك الظاهر بيبرس ثم تضاعف عند الملك المنصور قلاوون بحيث خاعف حرمته واقطاعه وملكه مدينة تدمر بعقد البيع والشراء واورد عنه ثمنها لبيت المال ليأمن غائلة ذلك. وكان عيسى كريم الاخلاق حسن الجوار مكفوف الشر لم يكن في العرب وامرائها من يضاهيه وعنده ديانة وصدق لهجة لا يسلك مسالك العرب في النهب وغيره وكان به نفع للمسلمين ، منها انه كان يكف العدو عن حلب ومعاملتها ، ومنها في وقعة الملك المنصور قلاوون مع التتار بحمص سنة ٦٨٠ (وقد حدثت هذه

المعركة الهائلة في السهل الذي بين حمص وتابسة وكادت الدائرة تدور على المسلمين ، لولا ثبات الملك قلاوون بنفسه) ولولا مجيء الامير عيسى بعربه من سلمية واعتراضه جيش التتار من خلفهم فتمت هزيمتهم به . هذا واكبر ظني ان عيسى المذكور هو الذي قال عنه كاتب جلبي في جغرافيته (جهان نما) انه كان في هذه المعركة حاملاً ريشة على رأسه فلقب بابي ريشة وبقي هذا اللقب في اعقابه الى يومنا ، وانه هو الذي نال من الملك المنصور قلاوون عطاءً عظيماً فاشترى به عبيداً ومماليك اعتقوا بعد حين ودعوا بالموالي وبقيت اعقابه الى يومنا ملتفة حول هؤلاء الامراء (آل ابي ريشة) وانضم اليهم بعد عدد غير يسير من شذاذ الاعراب اندرجوا في لفيفهم وحلفهم فصارت من مجموعهم عشيرة الموالي التي سوف نبحث عنها بالتفصيل في الجزء الثاني من كتابنا .

ولما توفي عيسى سنة ٦٨٠ دفنوه في جبانة الشيخ فرج شمالي سلمية على ماجاء في كتاب (شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج ٦ ص ٢٢) . واعقب عيسى عدة اولاد اخصهم مهنا وفضل وسليمان وحارثة وموسى ومحمد ، ولى الملك المنصور قلاوون منهم (مهنا) في الامارة فلقب بحسام الدين وصار كبير آل عيسى النازلين في براري سلمية وحماة وتدمر بل أمير البادية الشامية كلها . وقد ردد ابو الفداء وابن الوردي وابن حجر العسقلاني وحيدر الشهابي في تواريخهم والمقريزي في خططه وابن بطوطة في رحلته ما كان للامير مهنا الثاني بن عيسى المذكور في اواخر القرن السابع واوائل الثامن من المكانة لدى سلاطين مصر ونوابهم في بلاد الشام — وذلك يؤيد ما قاله مؤلف مسالك الابصار ايضاً — وذكروا تداخله في بعض امور الدولة وكيف ان الملك الاشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٢ بعد ان نزل ضيفاً على الامير مهنا قبض عليه وعلى اخويه محمد وفضل وارسلهم معتقلين الى مصر الى ان جلس الملك العادل كتبغا فافرج عنهم وعاد مهنا الى سلمية وكان مقره في قرية تل اعدا ، وانه في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون علت منزلته

وقويت وجاهته جداً بحيث استطاع ان يشفع في سنة ٧٠٧ بالعالم المصلح الكبير احمد بن تيمية وقد كان مسجوناً في مصر فاخرجه وان يلتمس نصب ابي الفداء ملكاً على حماة فيجاب الى طلبه . ويحدثنا المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٥) عن اسباب السعادة والوجاهة التين كانتا للامير مهنا عند الملك الناصر قلاوون بما ننقله بالحرف لطرافته ودلالته ايضاً على مبلغ عناية سلاطين ذلك العهد بالخيل وارتباطها . قال، ان الملك الناصر محمد شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم وبسببها كان يبالغ في اكرام العرب ويرغبهم في اثمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم في طلب خيول من عداهم من العربان وتتبعوا عتاق الخيل من مظانها وسمحوا بدفع الاثمان الزائدة على قيمتها حتى اتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم فتمكنت آل مهنا من السلطان وبلغوا في ايامه الرتب العلية وكان لايحب خيول برقة واذا اخذ منها شيئاً اعده للتفرقة على الامراء البرانيين ولا يسمح بخيول آل مهنا الا لاعز الامراء واقرب الخاصكية منه وكان جيد المعرفة بالخيل وشياتها وانسابها لايزال يذكر اسماء من احضرها اليه ومبلغ ثمنها فلما اشتهر عنه ذلك جلب اليه اهل البحرين والحساء والقطيف واهل الحجاز والعراق كرائم خيولهم فدفع لهم في الفرس من عشرة الاف درهم الى عشرين الى ثلاثين الف درهم عنها الف وخمسمائة مثقال من الذهب سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له ولنسائه ومن السكر ونحوه فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت اليه عتاق خيلها . وبلغ من رغبة السلطان فيها انه صرف في اثمانها دفعة واحدة الف الف درهم في يوم واحد وتكرر هذا منه غير مرة وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين الف درهم والسبعين الف درهم واشترى كثيراً من الحجور بالثمانين الفاً والتسعين الفاً واشترى بنت الكرشا بمائة الف درهم عنها خمسة الآف مثقال من الذهب ، وهذا سوى الانعامات بالضياع من بلاد الشام . وكان من عنايته بالخيل لايزال يتفقدها بنفسه فاذا اصيب منها فرس

او كبر سنه بعث به الى الجشار ، وتنزي الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها واسم الحصان والحجرة فتوالدت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب ومع ذلك لم تكن عنده في منزلة مايجلب منها وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا وكثرت اموالهم وضياعهم فعز جانبهم وكثر عددهم وهابهم من سواهم من العرب ... (ثم قال) وبعث اليه الامير مهنا فرساً شهباء على انها ان سبقت خيل مصر فهي للسلطان وان سبقتها فرس ردت اليه ولا يركبها عند السباق الا بدوي قادها فركب السلطان للسباق في امرائه على عادته ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا وارسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها وفيها فرس مهنا وقد ركبها البدوي عرياً بغير سرج فاقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى وهي عرى بغير سرج والبدوي عليها بقميص وطاقية فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدوي السعادة لك اليوم يامهنا لاشقيت فشق على السلطان ان خيله سبقت وابطل التضمير من خيله وصارت الامراء تضمر على عادتها ومات الناصر محمد عن اربعة الآف وثمانمائة فرس وترك زيادة على خمسة الآف من الهجن الاصائل والنوق المهريات والقرشيات سوى اتباعها وبطل بعده السباق . فلما كانت ايام الظاهر برقوق عني بالخيل ايضاً ومات عن سبعة الآف فرس وخمسة عشر الف جمل اه .

وقد اخطأ مهنا بعد واضاع السعادة والوجاهة اللتين كان يتمتع بهما هو وقومه ، وذلك لما قام في سنة ٧١١ واعان نائب حلب قراسنقر الثائر على الملك الناصر وفر من جيش هذا الملك الى انحاء العراق وبقي هو وعشيرته آل عيسى شريداً وبعيداً عن سلمية الى ان عفي عنه في سنة ٧٣٢ ورجع ثم مات .

قال المؤرخ اسماعيل بن كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) في حوادث سنة ٧٣٥ : وفيها مات حسام الدين مهنا امير العرب بالشام . وهم يزعمون انهم من سلالة جعفر بن يحيى البرمكي من ذرية الولد الذي جاء من العباسية اخت الرشيد .

وقد كان مهنا يحب الشيخ تقي الدين بن اتيمية حباً زائداً هو وذريته وعربه ، وله عندهم منزلة وكرامة يسمعون قوله ويمتثلونه ، وهو الذي نهاهم ان يغير بعضهم على بعض وعرفهم ان ذلك حرام ، وله في ذلك مصنف جليل . وكانت وفاة مهنا ببلاد سلمية ودفن هناك . آه ،

واعقب مهنا عدة اولاد منهم موسى وسليمان واحمد وفياض وحيار كما ان اخيه فضل جد آل فضل الذين في قضاء الجولان على مانظن أعقب سيف وعيسى ومعقل ومن ثم صارت تنتقل امارة البادية تارةً الى ابنـــاء مهنا وتارة الى ابناء عمهم فضل . فكانوا يتقاتلون عليها وتخرب من جراء معاركهم المتوالية القرى والمزارع حول المعرة وحماة وسلمية كما ذكره ابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٨ . وما زال الامر على ذلك الى ان نزح آل فضل الى الجولان والى ان تولى احد ابناء مهنا الامر في قضاء المعرة وهو حيار بن مهنـا المتوفي في سنـة ٧٧٧ .

ومن حيار هذا نشأ فيما يظهر فرع من آل مهنا بن عيسى سموا من ذلك الحين بالحياريين لانه بعد وفاة حيار خلفه في الامارة ابنه محمد الملقب بنعير الى ان قتل في سنة ٨٠٨ ثم خلف محمداً ابنه معجل وذكر اسمه (العجل بن نعير) الى ان قتل هذا ايضاً في سنة ٨١٦ وبقتله انكسرت شوكة آل مهنـا . وكان لكل من هؤلاء الامراء وقائع وثورات عديدة ذكرها مؤرخو تلك العصور منهم ابن تغرى بردى في المنهل الصافي والقلقشندي في صبح الاعشى ، كما ان السخاوي في الضوء اللامع وابن خطيب الناصرية في الدر المنتخب في تاريخ حلب والمقريزي في السلوك في دول الملوك ترجموا عدة امراء منهم ونوهوا بما كان عندهم من الشجاعة والكرم والطيش وماعملوه من قتل بعضهم بعضاً مما لا طائل في سرده ثم سكتت التواريخ عن اخبار آل الحيار ابناء مهنا بن عيسى الا نبذاً جاءت في تاريخ حيدر الشهابي في — احداث سنة ٨٨٣ و ٩٩٢ و ١٠١٧ ، على ان بعضهم كان يذكرهم تارةً باسم آل جبار وصحيحه حيار كما اثبته ابن بطوطة في رحلته وقد صادفهم سنة ٧٢٥ حين رجوعه من الحج الى العراق . ثم نبت اسم ابي ريشة وقد سماهم بذلك المؤرخ حيدر الشهابي والمؤرخ

التركي كاتب جلبي . ثم صار الشهابي يذكرهم باسم الموالي في خبر مخالفتهم الامير فخر الدين المعني وان احدهم الامير مدلج استنجد به لما نازعه ابن عمه حسين على الامارة فجاء المعني بعسكر وفير سنة ١٠٣٣ لنجدة مدلج فاضافه مدلج ضيافة عظيمة في سلمية واهداه الفرس سعدة المشهورة . وبعد سنتين انتقض مدلج وقومه على الامير المعني وتمنعوا عن تقديم الذخيرة التي طلبها فلحقهم حتى عبرهم النهرين ثم رجعوا الى ديارهم لما قضت الدولة على هذا الامير . فاسم (الموالي) لم يذكره الشهابي الا هذه المرة فهل نبتت هذه العشيرة عامئذ فجأة ، وهل كانت تذكر لو لم تكن هي التي كانت وما برحت ملتفة حول الامراء آل ابي ريشة الحياريين منذ القرن السابع الذي نشأ فيه جدهم مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الاول وافرادها لقبوا بالموالي لانهم اما عبيد معتقون من الذين ذكرهم كاتب جلبي في جغرافيته او صنائع او حلفاء منضمون اليهم . ثم ذكر هؤلاء المؤرخون من امرائهم فياضاً وابنه حسين وابن عمه سلطان وابن اخيه مدلج ، كانو امراء البادية سنين عديدة واتسعت سلطتهم حتى صارت تشمل اعراب بغداد والموصل . وفي (خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر) للمحبي ترجمة الامير حسين بن فياض الحياري ونزاعه مع ابن عمه مدلج بن ظاهر على الامارة الى ان غدر به والى حلب مراد باشا وسجنه في القلعة وخنقه . وترجمة اخرى الامير شديد بن احمد الذي قتله ابن عمه مدلج المذكور سنة ١٠١٨ ، وقد قال المحبي في هذا الصدد ان آل جبار وهو خطأ من تحريف النساخ (وصحيحه حيار) هم حكام العرب اباً عن جد يقال انهم من ذرية جعفر البرمكي ومقام هؤلاء (في بلاد سلمية وعانة والحديثة) قلت وفي هذا القول دليل آخر على ما كان لهؤلاء الامراء حتى في القرن الحادي عشر — من الشوكة واتساع السلطة ، لولا ان المحبي خبط في نسبتهم الى جعفر البرمكي بما يشبه انتساب الحاضرين منهم الى هارون الرشيد وانتساب ابناء عمهم الامراء آل فضل بن مهنا المقيمين في الجولان الى الفضل بن العباس ، على حين ان الفضل هذا لم يعقب قط . وذكر المؤرخ التركي نعيما انه لما زاد عيث الامير مدلج طارده الوزير

الاعظم خسروباشا في سنة ١٠٤٠ وكسره ونهب بلاده وقومه الى ان مات وهو فار فاقام مكانه الامير سعيد بن فياض، ثم ذكر ايضاً في اخبار سنة ١٠٥٤ حادثة جرت بين الامير عساف الذي استفحلت شروره وبين ابراهيم باشا والي حلب وحاول هذا الوالي ان يغدر بالامير خلال وليمة اديها له في براري حلب فاخفق في تلك المحاولة وانقلب شرها عليه . وهكذا كان يتوالى طغيان هؤلاء الامراء وعيثهم ويؤدي الى استمرار الخراب في براري حلب وحماة وسلمية وحمص طوال تلك الحقبة ، وظلوا على ذلك في القرن الثاني عشر ايضاً بدليل ما قاله المرادي في كتابه (سلك الدرر) في ترجمة عبد الرزاق الجندي انه في سنة ١١٨٩ اقتضى لحاكم حمص عبد الرحيم بن العظم التوجه على عرب الحياري المعروفين بالموالي المقيمين في تلك الاطراف تبعاً لولاة حلب فحاربهم ودارت الدائرة عليه وعلى المترجم . ومن مراجعة كتابنا (جولة اثرية في بعض البلاد الشامية) في بحث تاريخ سلمية يتضح ان هذه البلدة كانت عاصمة امراء الموالي منذ ان تملكها في القرن السابع (سنة ٦٥٨) جدهم الأمير مهنا آل فضل وورثها ابنه عيسى ثم حفيده مهنا الثاني ثم اعقاب هذا من بعده وانهم كانوا من جملة اسباب خرابها حينما استعرت فتنهم في القرن الثامن (سنة ٧٤٨) على ما ذكره ابن الوردي في تاريخه وظل هؤلاء ينزلونها ويرعون انعامهم بين اطلالها لانها صارت في عهد العثمانيين ايضاً اقطاعاً لهم كما جاء في مانقلناه آنفاً عن كاتب جلبي في مؤلفه الجغرافي جهان نما . وقد أيد هذا المؤلف وجودهم في سلمية خلال القرن الحادي عشر وانهم كانوا وقتئذ يفترقون الى فرقتين آل حمد وآل محمد على نحو ماهم عليه في زماننا من الانقسام الى شماليين وقبليين ، وان مناطق نفوذهم كانت تمتد الى ضواحي حلب والرقة وهو مايؤيده ايضاً الشيوخ العارفون بماضيهم الذين يوصلون هذا النفوذ الى عانة والحديثة . ويؤيده ايضاً السائح الايطالي دللاواللا الذي جاء الى هذه الديار في القرن الحادي عشر الهجري ١٠٧١ هـ (١٦٦١ م) فقد قال ان امير بلدة عانة وكل البادية يدعى الامير فياض من آل

ابي ريشة من عشيرة الموالي التي كانت سائدة في الضفة اليمنى من الفرات .

هذا وبينما كان اعراب الموالي يرتعون لوحدهم في سلمية وبراريها ويصل سوادهم من ابواب حمص وحماة الى ضواحي حلب والرقة ودير الزور والجزيرة واذا في اواسط القرن الحادي عشر تفد نحوهم عشيرة بني خالد النازحة من الاحساء طلباً لبقاع أمرع من التي كانت فيها وتحاول النفوذ الى ارياف حمص وسلمية فصدتها الموالي بعد حروب دامت مدة مديدة . وقد ذكرنا في بحث بني خالد رواية قالوا فيها ان الموالي قتلوا في احدى المعارك مائة شخص من بني خالد بينهم اربعون عريساً وقبورهم في موقع سوحة عقيربات شرقي سلمية ، ولا تزال ذكرى الثارات بين بني خالد والموالي في اذهان الفريقين ، وبعد بني خالد جاءت شمر في حدود سنة ١١١٢ نازحة من نجد وارادت النفوذ الى براري حمص وحماة فصدتها الموالي . وفي رواية ان الموالي غدروا وقتئذ في احدى مؤتمرات الصلح وذبحوا عدداً من رؤساء شمر لايزال يذكر شعراء شمر فجيعتهم .

وقد ذكر الرئيس رينو في كتابه « بدو مقاطعة دمشق » ص ٢٤ حديث اقتتال الموالي وبني خالد على الشكل الآتي ، قال ما تعريبه : ان الموالي هم اقدم من نزل واستقر من البدو في بلاد الشام . وهم بعد ان منعوا بني خالد من النفوذ الى معمورة بلاد الشام عاد الخالديون واستظهروا عليهم ودفعوهم الى انحاء دير الزور ، فظل الموالي في هذه الانحاء نحو نصف قرن مسيطرين . ثم تحالفوا مع العقيدات وتقدموا اياهم لمهاجمة الخالديين الذين كانوا نازلين في (سوحا) ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وغنموا من ماشيتهم عدداً وفيراً ورجعوا بها الى انحاء الفرات ، وما زالوا حتى وافتهم عشيرة العبيد وطردتهم منهـــا ، فانكفأوا وراحوا واستقروا في انحاء (عينتاب) ... انتهى ماقاله الرئيس رينو ، وهو لم يذكر مصدر روايته هذه ، ونحن لم نطمئن لصحتها . اذ لم يسمع ان الموالي اضطروا بضغط بني خالد الى اخلاء براري حمص وحماة كلها ، وانهم ظلوا نصف قرن بعيدين ومحرومين منها . كما لم

يسمع بذهابهم الى انحاء عينتاب بضغط عشيرة العبيد التي كانت منازلها في الجزيرة قبل ورود شمر . فمن لنا بمن يجلي هذا الغموض ؟

هذا وما ان استراحت الموالي من بني خالد وشمر حتى فوجئت في حدود سنة ١١٧١ بما هو أدهى وأمر الا وهو طلائع عشائر عنزة (الاحسنة) النازحة من نجد هرباً من ضغط الوهابيين الذين ظهروا قبيل ذلك . فصمدت الموالي لهؤلاء ايضاً ولكنها بعد تلك الصدمات المتوالية وبعد معارك طويلة اضطرت الى مصانعتها واخلاء ديار حمص لعشيرة الاحسنة منها . ثم توالت غارات بقية عنزة كالفدعان والاسبعة فضلاً عن الاحسنة فاضطرت عشيرة الموالي من بعد سنة ١٢٢٠ الى ان تخلي سلمية وتنسحب الى بقاع اكثر وعورة ومنعة في كورة العلا شرقي معرة النعمان. ومن احداث تلك الحقبة ماروا لنا الامير محجم آل مهيد والشيخ سعيد العرفي ان الموالي في احدى معاركهم مع الاحسنة قتلوا الملحم احد اسلاف آل ملحم في مكان على ضفاف الفرات سموه من بعد (تلعة الملحم) فهاجمتهم الاحسنة لاخذ الثار وفتكت بهم قرب بالس (مسكنة) الى حدان امراء الموالي اضطروا الى الاحتماء بآل مهيد رؤساء الفدعان فحموهم وردوا الاحسنة عنهم. ومن ثم نشأت العداوة بين الاحسنة والفدعان كما نشأت الصداقة بين الموالي والفدعان الى هذه الغاية. ومن الاحداث التي ذكرتها التواريخ (خطط الشام ج ٤ ص ٦) عن أفاعيل الموالي في أوائل القرن الثالث عشر ان الموالي ثاروا في سنة ١٢٠٧ في ضواحي حمص وحماة ونهبوا القرى وفتكوا ببعض اعيانها وعاثوا في تلك الجهات فامر والي دمشق متسلم حماة ان يقتص منهم فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً فقتل منهم نحو الفا انسان وانهزم الباقون . وكان من جملة أسباب هذه الحملة ان قائد قلعة دمشق الذي عصى على الوالي فر ولجأ اليهم. ومن امراء الموالي الذين اشتهروا في أواخر القرن الثاني عشر كان الامير محمد الخرفان . وقد أدركه السائح الفرنسي فولناي لما قدم الى ديار حماة في سنة ١٠٩٩ هـ وقال عنه في الجزء الثاني من رحلته الخاصة ببلاد الشام ان سطوة هذا الامير قد استفحلت في السنين الاخيرة بحيث صار يفرض اتاوات

على البلاد وانهم يقدرون مجموع قوتـــه بثلاثين الف خيال اهـ . وقد حدثني محمد الجدعان أحد شيوخ الحديديين المعمرين ان جده مرزقادة قتل محمد الحرفان هذا بضربة سيف عاجله بها وهو يتوضأ انتقاماً من عسفه وتعديه على الحديديين رغم انهم كانوا حلفاءه وانصاره . قالوا انه لما مات محمد الحرفان كانت امرأته حاملة فوضعت غلاماً سمته باسم ابيه محمد الحرفان ، وان هذا الامير محمد الحرفان الثاني لما ترعرع حاول ان يثأر من الحديديين فغزاهم مراراً ثم تشاجر مع ابن عمه الامير احمد بك بن محمد باشا الجهجاه بن محمود بن حمد الازرق بسبب فتاة كان كل منهما يريدها لنفسه وعظم الشر فاستنجد احمد بك بالحديديين وحارب محمد الحرفان واستنجد هذا بالحرافشة امراء شيعة بعلبك فلبوه ووقعت الواقعة بين الفريقين سنة ١٢٧٥ هـ (تشرين الثاني سنة ١٨٥٨ م) في سفح جبل زين العابدين شمالي حمـاة فدارت فيها الدائرة اولاً على الحديديين ثم كر هؤلاء وهزموا الموالي والبعلبكيين شر هزيمة وقتلوا محمد الحرفان ، فعلا شأن احمد بك من يومئذ وطغى وبغى ، ثم غزى الاحسنه في شرقي حمص قرب حمام ابي رباح واراد ان يغتصب منهم فتاة اسمها حربة بنت الشيخ فارس المزيد فقتلوه ـ قيل ان الذي قتله احد عبيدهم الذي انتخى لصوت الفتاة واستغاثتها ـ وهزموا جمعه . وهكذا كان هؤلاء الامراء وما برحوا يعيشون في المقارعة والمغاورة وتنتهي حياتهم بالجرح والذبح ولا يموت منهم حتف انفه الا ماندر .

رجع الى حديث بقية الاعراب في القرن التاسع وما بعده ؛ عني القلقشندي بامر اعراب زمانه وذكرهم بالتفصيل حسب البقاع التي كانوا ينزلونها ، وهو بعد ان ذكر في (بحث اعراب نيابة دمشق) آل فضل المذكورين وابناء عمومتهم آل مراء وآل علي ووصفهم انتقل الى (اعراب نيابة حلب) فقال : والمختص باعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان : ـ بنو كلاب ، قال في مسالك الابصار وهم عرب اطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لا تعد ولا تزال تباع بنات الروم وابنـــاؤهم من سبايا هم من أشد العرب بأساً واكثرهم ناساً قال :

ولافراطنكايتهم في الروم صنفت السيرة المعروفة « بدلهمة » و« البطال » (١) منسوبة اليهم بما فيها من ملح الحديث وملح الاباطيل ولكنهم لا يدينون لامير منهم يجمع كلمتهم ولو انقادوا لامير واحد لم يبق لاحد من العرب بهم طاقة ... الخ

٢ . ـ آل بشار. قال في مسالك الابصار ديارهم الجزيرة والاحص ببلاد حلب . قال والاحلاف منهم حالهم في عدم الانقياد لامير واحد حال بني كلاب ، ولو اجتمعوا لما أمن باسهم ، وبسبب جماعتهم لايزال آل فضل منهم على وجل وبينهم دماء ... الخ قلت ؛ ان بني كلاب الذين تردد ذكرهم كانوا عشيرة كبيرة فيما يظهر جاءوا من نجد الى ديار حلب في سنة ٣٥٢ هـ وقطنوا واستقروا نحو أربعة قرون . وقد رددت التواريخ احداثهم ووثباتهم العديدة واستباحتهم حمى المعمور مراراً مما هو معروف من طبائع اهل البوادي في كل عصر ومصر . ورددت ما جرى بينهم وبين سيف الدولة بن حمدان وأبنائه ملوك حلب نبغ منهم صالح بن مرداس واسس في حلب وشمالي الشام دولة بني مرداس التي دامت من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٧٢ ثم ظل ذكر هذه العشيرة يتردد الى اواخر القرن الثامن حتى انقطع مما يدل على تشتت شملهم وانطفاء خبرهم واندماج فلولهم في بقية العشائر شأن اعراب البادية التي تتغير مجتمعاتها واسماؤها في كل قرنين او ثلاثة ولا يشذ عن ذلك الا القليل . ونال آل بشار المذكورون أيضاً مانال آل كلاب ولم يعد لهم أثر ولا خبر في جبل الاحص جنوبي حلب كما نال آل مراء وآل علي الذين كانوا في أنحاء دمشق ولم يعد لهم أثر ولا خبر فيها أيضاً .

---

(١) هي السيرة المشهورة الآن بذات الهمة تقرأها العامة بلذة ، كسيرة عنتر وسيف بن ذي يزن ، وقد طبعت اخيراً في مصر وهي في بابها لا بأس بها. والبطال من أبطال الغزاة المشهورين في العصور الاسلامية المتوسطة وكان فعله في الروم عظيماً وهو معروف ومشهور عند الترك باسم (بطال غازي) وله عندهم حرمة كبيرة وسيرة مطبوعة يقرأها عامتهم في الاناضول بشغف .

ولما جاء الصليبيون في القرن السادس والسابع واجتاحوا بلاد الشام كلها ماعدا المدن الاربع (دمشق وحمص وحماة وحلب) وبلغت خيلهم شمالي الجزيرة الفراتية واواسطها ، ثم لما دخل المغول الشام في القرن السابع والثامن وتكررت غاراتهم بقيادة هولاكو وغازان وتيمور لنك خرب هؤلاء وأولئك البلاد واهلكوا العباد ثم جاءت بعدهم الاوبئة والطواعين الجائحة وازداد البلاء واستمر بفساد الحكم وسوء الادارة وضعف الوزاع في اكثر عهد المماليك والعهد العثماني ، ومن هنا تحركت نزوات البدو ومطامعهم فطفقوا فيما قاله مؤرخو تلك العهود وشكوه غير مرة يقطعون الطرق ويخيفون السبل ويعيثون فساداً فخربت القرى وجلا من سلم من أهلها وتهدمت القنوات والسدود وبارت المزارع والحقول ودرست الكروم والبساتين فاتسع المغمور وصغر المعمور ولم تعد ترى في مشارق حلب وحمص وحماة ودمشق وحوران طوال تلك العهود الا اضارب البدو واباعرهم ولاتسمع الا زئيرهم وهديرهم .

ونعيد ماقلناه عن ان اشهر من كان في شمالي الشام خلال تلك العهود من عشائر البدو واقواها وارفعها شأناً وسؤدداً آل فضل ، ثم أعقابهم آل مهنا بن عيسى ثم أعقاب آل مهنا آل حيار ثم اعقاب آل حيار آل ابو ريشة امراء عشيرة الموالي . فقد كان هؤلاء الامراء كما فصلناه في تاريخهم يبسطون نفوذهم من حمص وسلمية ـ وسلمية كانت عاصمتهم ـ الى حلب فوادي الفرات واطراف العراق. بحيث ان احدهم واسمه فيما رووه (فياض) كان نصب عاموداً وسط فيافي الحماد دعاه (عمود الحمى) حرم به على العشائر النجدية المتحفزة للقدوم نحو بادية الشام ان تتخطاه وتقترب من مناطق نفوذ الموالي في تلك البادية . وأشهر من كان في جنوبي الشام (حوران والبلقاء)وأقوى العشائر وأرفعها شأناً عشيرة السرحان ثم عشيرة السردية التي نازعت السرحان وخلفتها وبزتها وترأست حلفاً رباعياً اسمه (اهل الشمال) كان مؤلفاً من السردية والفحيلية والعيسى وبني صخر ، وكان هؤلاء كلهم مع افاريق

الاعراب الذين يجاورونهم او يحالفونهم يقومون بضروب العيث كلما اهتبلوا الغرر من ضعف الحكام وفقدان الرادع ويحولون دون العمران وامتداد الحرث والزرع خارج المدن الشامية كما سوف نشرحه في حديثهم الخاص . وقد ذكر السائح التركي الشهير اوليا جلبي انه لما مر من حماة الى حمص في القرن الحادي عشر (سنة ١٠٥٨ هـ) وجد الرستن خراباً يباباً من توالي عيث الاعراب . على حين ان الرستن قرية كبيرة ذات موقع حصين ، فاذا كانت هي على ماذكره وقتئذ فما بالك ببقية قرى حماة وحمص ؟ ... والسائح الافرنسي فولنـاي الذي تقدم ذكره مر بحماة في اواخر القرن الثاني عشر (سنة ١١٩٩ هـ) فمدح خصب سهول حماة واستعدادها ، ثم قال ان المانع لاستثمار هذه السهول هو عتو محمد الخرفان امير الموالي وعيثه وكثرة اخذه الاتاوات (الخوّة) من القرى والمزارع .

ومن الاحداث التي اوقعها البدو وخاصةً عشيرة الموالي وامراؤهم في تلك الحقبة مارواه كامل الغزي في كتابه تاريخ حلب (ج ٣ ص ٢٨٢) تحت عنوان (فساد العرب والايقاع بهم) ، وقد نقل هذا الخبر عن تاريخ نعيما التركي قال :

وفيها (في سنة ١٠٥٤) كثر فساد العرب في نواحي حلب وانقطعت السابلة . وكان امير هؤلاء العرب المتمردة الامير عساف (قلت : الغالب من تلقيبه بالامير انه من اسلاف امراء الموالي) وكان له من قبل الدولة راتب معلوم . ولما زاد طغيانهم اراد ابراهيم باشا والي حلب ان يعمل الحيلة في القبض على عساف المذكور ، وكان يريد ان يعزله عن امرة العرب ، الا انه رأى ذلك لايجديه نفعاً ، فان عسافاً لايعترف بالعزل في ذلك الحين . ثم ان ابراهيم باشا خطر له ان يرسل الى عساف رسولاً يدعوه الى ضيافة يصنعها له في حلب ، فقال له الرسول ان عرب البادية لاتأوي المدن بل ولا ما قاربها . فامر ابراهيم باشا ان تصنع وليمة حافلة في قرب حلب على بعد خمس ساعات منها تقريباً . ثم سار الباشا الى محل الضيافة بالمهمات والعساكر ومعه الهدايا ، واشاع ان هذه الوليمة مصنوعة الى سلطان البر يعنى به

عساقاً ، وكان الرسول قد سبق الى الامير عساف ودعاه الى هذه الضيافة فأجابه اليها بعد ان استوثق منه على عدم الغدر ، وعاد الرسول الى ابراهيم باشا واخبره وحذره من الغدر بالامير عساف في خصوص هذه الضيافة . وكان الامير عساف قد تجهز للقدوم ومعـــه جم غفير من العربان خوفاً من ان يغدر بـه . الباشا

ولمـا وصل الى محل الضيافـة غدر بـه البـاشا وحاول ان يقتله فاستدرك الفرط وانفلت من قبضته ، وعاد الى اشد ما كان عليـــه من الافساد وقطع الطريق . ولما سمعت الدولة بغدر ابراهيم باشا وعدم وفائه وسوء تدبيره عزلته عن حلب وولت مكانه درويش باشا المعزول عن ولاية بغداد فقدم حلب وتلافى خطر العربان الذي كان من اهم الامور في ذلك الزمان وارسل من قبله رسولا يدعو عساقاً بالرفق واللين الى طاعة السلطان وجهز معه هدايا ثمينة لعساف .... فوصل الرسول المذكور الى عساف وبسط له الـكلام وتلطف به ووبخه على عصيانه وعظم من امره وامر هذه العشيرة المعروفة بابي ريش (وصوابه ابي ريشة) وقال له لاينبغي بادني فرد من هذه العشيرة ان يشهر على السلطان العصيان فاجابه عساف بقوله : والله مالي ذنب في هذا العمل وانما الذنب فيه لابراهيم باشا ، ثم ان عساقاً استدعى بثلاثة دروع كان لبسها في يوم الضيافة وصار يرى الرسول الثقوب التي حصلت من اطلاق الرصاص ، وكانت احدى الرصاصات قد ثقبت الدرع ووصلت الى بدنه فحلف الامير عساف ان جرح هذه الرصاصة بقي ينصق منه الدم شهرين فسلاه الرسول وذكر له ان الدولة لم تعزل ابراهيم باشا الا لما اجراه معك من الغدر ، فرضي حينئذ عساف وتعهد للرسول بالامن والامان واهداه مقدار عشرة خيول وجهز معه للدولة عدة خيول واعطاه حوالة على حلب بالفي ذهب للدولة . آه

وذكر ايضاً في (ص ٢٨٨) انه في سنة ١٠٩٣ كثر فساد العرب (ولم يذكر اي عرب هؤلاء وما اسمهم) في برية دمشق وحلب وعظم ضررهم وافحشوا بالسلب والاغارة على القوافل حتى ضجت منهم الولايات ، وصدرت أوامر الدولة

الى والي حلب ودمشق وبغداد وطرابلس ان يبذلوا جهدهم بالقبض على اميرهم ملحم (اقول ايضاً ان الغالب من تلقيب هذا بالامير انه من اسلاف امراء الموالي) فعندها عزم قره محمد باشا والي حلب على ان يأخذ ملحماً بالحيلة ، فوسط حاكم المعرة اخى شريف مكة بينه وبين ملحم . فاجتهد المذكور في احضار ملحم الى حلب . وحلف له على انه يطلب له العفو من السلطان ويجعله اميراً على العربان . وكان حاكم المعرة داهية ، وكان متهماً بانه يقاسم الامير ملحم بالغنائم ويسعى له في بيع ما يلزمه منها فاراد أن ينفي الظنة عن نفسه بمكيدة ملحم وسعى في احضاره واجتهد غاية الجهد الى ان رضي معه ملحم بالحضور بعد ان استوثق منه بالايمان المغلظة ، فحضر معه الى قرية جبرين ، وكان قد ارسل الى الوالي يخبره بذلك ، فانفذ له الوالي خلعة وخيلاً ليغريه بالدخول الى حلب على انه يحلف له فيها على ما تقدم . فركب ملحم الى حلب ولحقه من عشيرته خمسون فارساً ينهونه عن الدخول الى حلب والحوا عليه بالرجوع فقبل منهم ورجع الى مخيمه ، وقال لاخي الشريف المتقدم ذكره لاسبيل الى دخولي المدينة فاني آليت على نفسي ان لاادخل بين الجدران وتحت السقوف لانها تضيق صدري ، فاذهب وقل الوالي ان كان يريد محالفتي فليأت الى هنا ، ولما لم ينجح سعي اخى الشريف في اقناع ملحم رجع الى الوالي واخبره بما جرى ، وحين رجوعه اصحبه ملحم باثنين من بني عمه وبمستشاره وهو اعرابي طاعن في السن ، فلما تمثلوا بين يدي الوالي قابلهم بالبشاشة وخلع عليهم واحسن مثواهم ، ثم ارسلهم الى بيت اخي الشريف وركب في الليل سراً ومعه خمسمائة عسكري بالعدة الكاملة وقصد مخيم ملحم في جبرين ، وكان ملحم قد رحل من مخيمه وابقى فيه خمسين من قومه فحاربهم الوالي ، وبعد ان دافعوا عن انفسهم دفاع الابطال قتل بعضهم واسر منهم ثمانية عشر وفر الباقون . ثم استدل الوالي من الفلاحين على الامير ملحم وتبع أثره الى أن دهمه بغتةً عند الصبح في وادٍ بين جبلين بحيث لم يره الامير الا عند ما وصل اليه ، وكان مع

الامير عدد يسير من جماعته فاركن الى الفرار وارادان أن يجتاز من نهر هناك فتوحلت به فرسه فتوكأ على رمحه لانتشالها من الوحل فانكسر الرمح وكان الوالي قد أدركه والبندقية في يده وأحاطت به العسكر وقبضوا عليه وساقوا اسيراً الى حلب فكبلوه بالحديد ومن اسروا معه من قومه ، ، ثم قتلوا الجميع صبراً سوى الامير ، وكانوا عندما يقتلون احدهم يخرقون أكتافه ويغرسون فيها فتائل مشعلة مصنوعة من المرخ والشمع ويطوفون به البلد ثم يقطعون رأسه ويرمون جثته في مستنقع الخندق يعني خندق (قلعة حلب) ، واتفق ان واحداً من هؤلاء الاسراء كان شاعراً عند الامير ملحم لم يغمس يده في دم ولم يشن غارة قط، فبينما كانوا يطوفون به على تلك الحالة اذ لمح ضابطاً سبقت له يد عنده فذكره بها وقال انني لم أكن لصاً ولا قاطع طريق انما كنت شاعراً عند الامير فتضرع له الضابط عند الوالي وخلصه من القتل ، ثم ان الوالي أرسل ملحماً الى ادرنه حيث كان السلطان إذ ذاك ، فبعد ان نظر السلطان الى ملحم ملياً امر بقتله ، وقد صعب ذلك على رجال الدولة لانهم كانوا يرجون خلاصه والعفو عنه ليكون كافلاً قمع غارات العرب حسب شجاعته المفرطة.

وقال في حوادث سنة (١١٣٣) : زاد طغيان العرب المعروفين بالعباسيين (قلت) ، اي عباسيين هؤلاء ؟ ألعله يقصد امراء الموالي ايضاً بحكم ادعائهم الانتساب الى العباسيين !) في صحراء حلب وكثر ضررهم على السابلة وعسر على الولاة ردعهم فعين الباب العالي قواداً وجيوشاً من بغداد والموصل وديار بكر وغيرها . وانفذت الى هؤلاء الاوامر المؤكدة بشن الغارات ومتابعتها على العربان المذكورين فتناوشتهم العساكر من كل جانب واذاقوهم انواع المعاطب والمصائب فكف ضررهم ومنع خطرهم .

وقال في حوادث سنة (١٢٣٢) ، في هذه السنة كثر فساد الاعراب في جوار حلب وجهات ريحا وأنطاكية ، وكان الامير مهنا البدوي هو الزعيم الاكبر على الاعراب (قلت ؛ اى مهنا هذا ؟ هل هو مهنا الفاضل شيخ الاحسنة ، هذا

كان في جهات حمص ولم يبلغ حلب) وقدفرض على كل داخل الى أرضه مبلغاً من النقود وضرب على القرى المجاورة مضاربه جريمة سمـــاها (الخوة) فكانت سبباً لخراب عدة قرى وجلاء اهلها عنها، وتفاقم امر هؤلاء الاعراب وتعطلت السبل وفقد الامن ثم صدر أمر الدولة لوالي حلب أن يقصد الاعراب في الصحراء ويوقع بهم وانفذ اليهم كتخداه عثمان آغا ورفقـه بمقدار وافر من العساكر . وكان العربان على ثمان عشرة ساعة عن حلب فوصل اليهم وكسرهم وظفر منهم بأربعة وثلاثين شخصاً قطع رؤوسهم وجهزها الى استانبول فسرت الدولة من ذلك وشكرت الوالي .. اه

× وكان اشد مايهم الدولة العثمانية وقتئذ ان تحمي قافلة الحج من تعدي البدو في طريقهم بحكم ان سلاطين آل عثمان كانوا خلفاء وخدام الحرمين الشريفين فكانت تكلف بعض العشائر بهذه الحماية لقاء جعل معلوم وتخصص لكل منهـا منطقة . فمن العشائر التي كانت تقوم بهذه الوظيفة بين حلب ودمشق (الموالي) وبين دمشق وحوران والبلقاء (السردية) و (بني صخر) و (الولدعلى) من عنزة . وكانت الدولة تمنح جوائز مالية (الصرة) للعشائر التي في طريق الحج بعد البلقاء حتى المدينة ومكة . ومع هذا كله فقد اساء باشات الحج التدبير في بعض السنين وقطعوا الاعطيات عن هذه العشائر وقتلوا في سنة ١١٧٠ هـ بعض رؤسائها فحقد البدو لذلك وهاجموا في سنة ١١٧٣ قافلة الحج الشامي وفتكوا بها فتكاً ذريعاً واماتوا من الحجـاج نحو عشرين الفاً من القتل والجوع والعطش وباعوا منهوباتهم في اسواق عكا . وكانت الدولة تكلف بعض الاسر الاقطاعية بحماية المسالك النائية والقرى المتطرفة . فمن هذه الاسر القديمة (آل سويدان) المستقرون في قرية حسية قرب حمص . واول العهد بهذه الاسرة وبقريتهم هو في سنة ١١٠٠ هـ حينما امتلكها جدهم الآغا ابراهيم سويدان . وهؤلاء بعد ان كانوا متسلمين في حمص على طرز العهد الاقطاعي خلال القرن الثاني عشر تولوا محافظة البـــادية وطريق حمص ـ تدمر وجبل قلمون حتى أبواب دمشق . ومثلهم الآغوات الجواردة

(آل حويشان الجندل) المستقرون في جيرود الذين كانوا مكلفين بحماية طريق دمشق ـ تدمر ، ومثلهم الآغوات الدنادشة (آل دندش) المستقرون في تلكلخ الذين كانوا مكلفين بحماية طريق حمص ـ طرابلس منذ القرن الثاني عشر .

وظل امراء الموالي اسياد البادية الشامية يمنعون اختراق عمود الحمى على العشائر القادمة حديثاً من الجنوب أو الشرق الى ان كان اول المتجاسرين على اختراقه (بنو خالد) القادمون من الاحساء للمرة الثانية في اواسط القرن الحادي عشر ، فصدتهم الموالي بادئ ذي بدء ، لكن الخالديين بعد معارك عديدة استظهروا على الموالي في معركة جب الصفا ونفذوا الى ديرة الشنبل واستقروا حتى يومنا وقد فصلنا حديثهم هذا في بحثهم الخاص . وجاء بعد بني خالد في اواخر القرن المذكور العقيدات من انحاء نجد الى انحاء دير الزور والابي شعبان من انحاء العراق الى انحاء الرقة كما جاءت الابو خميس والكيار والخزاعلة وغيرهامن العراق الى اقضية حلب .

ولما ذر فجر القرن الثاني عشر كانت الدعوة الوهابية في نجد قد استفحلت فحدثت بواعث لهجرة بدوية جديدة حركت وقتئذ قسماً من شمر فزحف ، في اوائل ذلك القرن نحو بادية الشام تخلصاً من ضغط الوهابيين وطلباً لاماكن اخصب من التي كان فيها وبلغ تدمر والسخنة ونهبها ثم تقدم نحو ديرة الشنبل يحاول النفوذ فتصدت الموالي له وحدثت معارك انتهت برد شمر وارجاعها الى نجد . لكن شمراً لم تجد مجالاً للاستقرار في نجد من ازدياد نفوذ الوهابيين فرجعت الى بادية الشام بعد حين يصعب تحديد عدد سنيه الا أن هذه المرة تحاشت مناطق الموالي فنزلت في انحاء جبل البشري وجبل العمور الى الفرات كما عملت وقتئذ اوقبلها (عشيرة العقيدات) الفراتية النجدية الاصل .

وكانت ظلائع عنزة (الاحسنة والولد علي) قد خرجت بعد شمر في حدود سنة ١١١٢ هـ من شمالي الحجاز وبلغت وادي السرحان ثم اطراف البلقاء واشتبكت مع عشائر هذه الانحاء (السرحان والسردية والفحيلية وبني صخر) الذين تحالفوا وتألبوا

عليها ودحروها . وبعد معارك دامت سنيناً عديدة تقوت عنزة وتوفقت للحلول فدخلت منها عشيرة (الولد علي) الى حوران والجولان واستقرت. اما الاحسنة فقد استمرت في سيرها نحو الشمال وبلغت أنحاء حمص وحماة في حدود سنة ١١٧١ على ما يظن ودحرت الموالي نحو منازلها الحالية في العلا (شرقي قضاء المعرة) ثم صارت تزاحم شمراً على المراعي والمناهل الشرقية في انحاء جبل البشري وجبل العمور فاضطرت شمر الى ان تعبر الفرات في عهد رئيسها فارس الجرباء وتستقر في الجزيرة على ماسوف نذكره في بحثها . ثم توالى قدوم بقية عشائر عنزة طيلة القرن الثالث عشر الى براري الشام وتوالي انسياحهم .

فهجرة بني خالد وشمر وعنزة والعقيدات في القرن ١١ و ١٢ و١٣ كانت آخر الهجرات البدوية الكبرى على ان هجرات صغيرة ما برحت تقوم بها بعض ذيول قبيلتي شمر وعنزة العظيمتين وتتوالى بين ذهاب واياب كما عملته اخيراً فرقة الولد سليمان من عشيرة الفدعان من عنزة . فقد كان هؤلاء آخر من نزح ووافى بادية الشام ، ثم على أثر حادث سوف نذكره في بحثهم رجعوا الى نجد . وكذلك عملت بعض فرق العبدة وسنجارة واسلم من قبيلة شمر . فقد كانت هذه الفرق متخلفة في نجد فجاءت تلتحق بفرقها الاصلية الضاربة في الجزيرة الفراتية .

ولم يكف براري الشام ما كانت تقاسيه من عيث (اعراب الديرة) حتى ازداد الطين بلة بالمعارك التي كانت تنشب بين شمر وعنزة وبين عشائر عنزة نفسها التي انصرفت للاقتتال والاغارة بعضهما على بعض او على اعراب الديرة المذكورين وازداد ايضاً بقدوم الوهابيين بقيادة عبد الله بن سعود وغارتهم على حوران وافحاشهم في قراه وتهديدهم دمشق في سنة ١٢٢٥ هـ وهكذا ظلت هذه البراري خالية من العمران وظلت القرى المتطرفة التي على سيف البادية مضطربة خائفة لاتنجو إلا بدفع (الخوّة) لعشيرة او لعدة عشائر معاً . وقد ادركنا قرى المناظر كتدمر والسخنة تدفع هذه الخوة الى عهد قريب جداً يتقاضاها الموالي والاحسنة

والاسبعة كل منهم في دوره ووقته ، وقد يأتي غيرهم ويطالب ويقبض بنسبة مايرى من فوضى الاحكام وضعف الوازع . هذا الى ان قرى المناظر وخاصة السخنة (الى شمالي تدمر ب ٧٥ كيلو متراً) قد هوجمت ونهبت وجلا اهلها مراراً إلى دمشق وحماة وسفيرة وحلب اخصها ماحدث في السخنة سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠)م

واستمر الحال على هذا الى ان جاء ابراهيم باشا المصري واحتل بلاد الشام ودام حكمه نحو تسع سنوات (١٢٤٨ - ١٢٥٦)، وقد وطد هذا القائد الكبير الامن في الحواضر واكره البدو على احترام سلطة الحكومة وحمى السكان من اعتداءاتهم ، فعاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة والى حرث الاراضي المهملة في حوران وحمص وحلب . وقد اكد لي بعض المعمرين في حمص انه عمرت في تلك المدة الوجيزة بعض قراهم الشرقية كالمشرفة وشنشار والزعفرانة . ولكن لم يكد ابراهيم باشا يخرج من بلاد الشام ويتقاص ظل سطوته حتى عادت فوضى الاحكام في الحواضر واستأنف اعراب البادية غاراتهم على المعمور فرجع الخراب الى القرى والمزارع المأهولة حديثاً . وظلت المدن منكمشة وراء اسوارها وابوابها مدة ربع قرن آخر (في عهد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز) فحمص مثلاً كانت تغلق ابوابها بعد الغروب لايخرج منها احد ولا يدخل . حدثني المعمرون الذين ادركوا حدود سنة ١٢٧٥ هـ ان اهالي القرى القريبة كزيدل وفيروزة كانوا اذا خرجوا لحرث ارضهم وزرعها يعودون مساء الى مساكنهم في مدينة حمص ولا يجسرون على المبيت في البرية من توالي عيث الاعراب ، وان ابواب حمص ظلت تغلق بعد الغروب الى حدود سنة ١٢٨٧ هـ ويقف وراءها الحراس وموظفو المكس . ويذكر معمرو دمشق ان امتداد الشجر في الغوطة كان لايزيد عن نصف ماهو عليه الآن خوفاً من ابل البدو وعدوانهم . ويذكر معمرو حلب ان منتهى العمران خارج باب النبرب كان في عسان وسفيرة والباب فقط ، وان اهل هذه القرى كانوا لايهبطون حلب ويعودون الا زرافات زرافات

وهم مد ججون بالسلاح . ويـذكر معمر وحمـاة ان سلمية لم تعمر بعد خرابها الذي دام قروناً إلا في حدود سنة ١٢٦٠ هـ او بعدها لما جاءها نفر من اسماعيلية جبال اللاذقية والتجأوا الى حصنها القديم الذي كان في وسطها وصاروا يردون عيث البدو بتماسكهم وتناصرهم كما عمل الدروز قبلهم لما نزحوا في القرن الحادي عشر بعد موقعة عين دارة في سنـة ١١١٢ – الى جبـل حوران وتحصنوا في قراه الخربة المنيعة وامتدوا رويداً رويداً . اي انه مامن قرية كانت تنجو وقتئذ من (الخوة) وامثال الخوة من السلب والنهب ورعي الزروع واتلاف الاشجـــار والكروم والطغيان والعدوان الا اذا امتنعت وراء قلعة او اكمة او وعرة ، وكان اهلها ذوي عصبية واحدة وشكيمة قوية يردون كرات البدو بسواعدهم لا بسواعد الدولة التي كانت وقتئذ مهملةً ضعيفة لم تستطع مثلاً ان ترد في سنة ١٢٧٥ المعركة التي نشبت في سفح جبل زين العابدين قرب حماة بين الموالي والحديديين كما بيناه في حديثهم . ولم تستطع ايضاً ان ترد نزوات جدعان بن مهيد عقيد الفدعان وغاراته في شرقي حلب فاضطرت الى ان تمنحه وتملكه في سنة ١٢٨٦ هـ عشرين قرية دائرة في جبل الشبيث لاتزال في يد حفيده الامير مجحم .

وقد سعى في تلك الحقبة بعض الولاة الصالحين في حلب لانقاذ الموقف نخص بالذكر محمد باشا القبرصي الذي كان والياً في حلب في عام ١٢٦٧ هـ ، فاوجدوا للسلطان عبد المجيد سبل امتلاك الارضين في اطراف المعمورة وتحضير العشائر البدوية واسكانهم فيها ، فانشأوا من ذلك الحين المزارع السلطانية (الجفتلكات الهمايونية) في جبل الاحص ومطخ قنسرين وقضائي الباب ومنبج واسكنوا فيها جمعاً من أفاريق الاعراب لايزالوا حتى يومنا هذا . ومنهم في جبل الاحص عشيرة اسمها (السكن) دلالة على اسكانهم وقتئذ . وذهب احد ولاة حلب واسمه ثريا باشا ملك زاده في سنة ١٢٨١ والحق لواء دير الزور بولاية حلب واخضع عشائر العقيدات وغيرها المتمردة. وفي تاريخ حلب لكامل الغزي انه في سنة ١٢٨٤ هـ كان

اخضاع الاعراب المتمردين على الدولة في صحراء حلب بعد مقاومة شديدة وكثرة القتل والاسر في رؤسائهم وقد أخذت منهم قرعة شرعية واستفلحلوا وعانو االزرع والفلح اه ولم يـذكر من أي عشيرة كان هؤلاء الاعراب وفي أي القرى استقروا واستفحلوا ولعله عني العقيدات ثم في سنة ١٢٨٥ جاء اصلان باشا المشهور بحنكته وهمته الى لواء دير الزور واخضع عشائر الجبور والعقيدات ورد بائقة شمر وعنزة عن المعمورة الى حد ما . وكان قبل ذلك عمل فى انحاء حلب ، فاسكن الموالي في ناحية العلاء واسكن الحديديين في شمالهم واسكن غيرهم من العشائر كالولدة وبني سعيد والسكن في قرى املاك الدولة في اقضية جبل سمعان والباب ومنبج ، وهم لايزالوا فيها حتى الآن . ومن هنا ظل اسم اصلان باشا الهمام ـ وقد توفي في الدير سنة ١٢٨٧ ـ يتردد على السنة المعمرين من هذه العشائر بالمحمدة والرحمة . فأمنت البراري الشرقية وقتئذ بهذه التدابير بعض الامن وعادت روح العمران تدب رويداً رويداً في شرقي ولاية حلب وجنوبها وجهة الجزيرة والفرات. ومما عملته الدولة وقتئذ (عهد السلطان عبد العزيز) انها رأت كثرة العشائر في ولاية حلب وقدرت حالاتها وحاجاتها الخاصة ، فالفت لها ادارة منفردة دعتها (قائمقامية العربان) على نهج الاقضية كان لها قائمقام ومدير مال ، وقد ورد ذكر هذه القائمقامية في (سالنامة ولاية حلب) لعام ١٢٨٧ واسماء موظفيها والمشايخ الذين كانوا فيما يبدو اعضاء في مجلس ادارتها. ثم جاء السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٤ هـ وكان ولوعاً بتوسيع الملك وتكثير الثروة ، فهو فوق ماورثه من (الجفتلكات الهمايونية) في جنوبي حلب اضاف اليها من بعد سنة ١٣٠٠ هـ كثيراً من الخرب الدائرة في شرقي حماة وسلمية وحمص تملكها بالاحياء او بالشراء وراح يسكن فيها فلاحين من طوائف النصيرية والعشائر نصف المتحضرة وغيرهم واعفاهم من الجندية والضرائب الاميرية ورتب سرايا خاصة من جند البغالة لحمايتهم ، وبنى ثكنتين الاولى في قرية جب الجراح الواقعة في سفح جبل الشومرية والثانية في قرية الحمراء الكائنة في الشمال الشرقي من حماة

واقام جنوداً في كل من قرى الفركلس وعقيربات السويد وتل الاغر والسعن وسعين . وبهذا رد عيث البادية رداً صارماً فأمنت قراه الواسعة والقرى الواقعة غربيها شر العشائر وعيث ابلهم بالاشجار والزروع وتنفست المدن الصعداء وصار العمران ينتشر في ضواحيها وباريها واضطرت العشائر من ذلك الحين الى الكف عن العتو والاذى والانصراف نحو الفلاحة والزراعة ولم تعد تشذ الا قليلاً وعند سنوح الغفلة فحسب كما جرى بعد لما خلع السلطان المذكور في سنة ١٣٢٥ هـ ودورت املاكه الى بيت المال ورفعت الحصانة والميزة عن فلاحيها ، وكما جرى اكثر واشد لما قامت الثورة العربية في الحجاز في أواخر الحرب العظمى الماضية في سنة ١٣٣٧ هـ وتضعضع حال الدولة وقلت هيبتها وقد استمرت قلة الهيبة وفورة العتو والعيث عند البداة طوال العهد الفيصلي وفي اوائل عهد الانتداب الفرنسي نخص بالذكر ماجرى خلال اقتتال عشيرتي الموالي والحديديين في براري حلب وحماة في سنة ١٣٣٩ وما بعدها فقد خربت وقتئذ عشرات القرى والمزارع ونهبت اموال وعروض كثيرة لاهل تلك القرى ولشركائهم من أهل حلب وحماة والمعرة وذهبت هدراً .

ولما كان المرحوم الملك فيصل بن الحسين في دمشق سنة ١٣٣٧ و ١٣٣٨ يشيد اركان السيادة والاستقلال في بلاد الشام والجنرال غورو الفرنسي في بيروت يشاكسه ويبدي وسائل الاستعباد والاستعمار لهذه البلاد رأت العشائر البدوية بثاقب فطنتها ان ريح الغلبة يهب مع الفرنسيين فمالت نحوهم شأنها في الميل نحو من كان اشد قوة واندى يداً . فافتى رؤساء العشائر الكبيرة بانتداب فرنسا امام اللجنة الاميركية التي جاءت في حزيران ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ) تستفتي اهل البلاد عن شكل الحكم الذي يريدونه ، وهرع بعض هؤلاء الى بيروت لمقابلة الجنرال غورو وعرضوا له ولاءهم فاجزل لهم العطاء وزاد بعضهم اوسمة جوقة الشرف او لقب أمير أو لقب باشا .

واذ كان الناس على دين كبرائهم لحقت العشائر الصغيرة العشائر الكبيرة وحذت حذوها في موالاة الفرنسيين منذ بدء احتلالهم . ولما ثار اهل الحواضر في المدن والقرى في وجه الفرنسيين الزاحفين كانت العشائر تكتفي بوقفة الحياد ونظرة المتفرج عن بعد ، بحجة ان الثوار لم يستشيروها فيما كانوا يفعلونه ولم يستنهضوها . ولم يشذ عن هذا السلوك ويناجز الفرنسيين الا بعضها امثال العقيدات في وادي الفرات والموالي في جنوبي حلب والفضل في جنوبي دمشق والدنادشة في غربي حمص . لكن هذا الشذوذ انحصر إذ ذاك في اماكن تلك العشائر الضيقة ومساعيها المنفردة وغير المنتظمة فلم يثمر سوى نكبة القائمين به .

وبعد ان استقر المقام بالفرنسيين في سنة ١٣٣٩ وبعدها وقضوا على الثورات الوطنية بسطوا شدتهم ورهبتهم في البوادي كما بسطوها في الحواضر وساقتهم قواعد الاستعمار الى ابعاد العشائر عن سلطة الحكومات المحلية التي اقاموها تحت اشرافهم في بلاد الشام والى ربط العشائر مباشرة بدوائر الانتداب وتكوين ادارة خاصة دعوها (ادارة مراقبة البدو) عهدوا بها الى ضباط عسكريين يقودون جنداً خاصاً من متطوعة الاعراب راكبي الهجن من عقيل النجديين وغيرهم . وقد الفوا من هؤلاء في سنة ١٣٤٠ سريتين احداهما في تدمر والثانية في دير الزور يعاضدها عند الحاجة مصفحات وطيارات . وقد اشتبكت هذه السرايا في معارك عديدة مع الغزاة المتجولين للسلب والنهب وفتكت بهم ، جرى ذلك في سني ١٣٤١ و ١٣٤٢ و ١٣٤٣ في بئر بصيرى والسخنة وجنوبي تدمر ، واعظمها ما عملته سرية الهجانة الاولى في آذار سنة ١٩٢٤ (١٣٤٣ هـ) بعشيرة الغياث المشهورة بشقاوتها ونزواتها ، فقد فاجأتها قبل الفجر حينما كانت مخيمة قرب جبل سيس ففتكت بها فتكاً ذريعاً وكبدتها عشرين قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى وغنمت منها ٤٠٠٠ رأس من الماشية . واجرت هذه السرايا معارك أخرى مع غزاة شمر وثوار الاكراد في الجزيرة قرب الحدود التركية وناوشت مراراً

عشائر العقيدات والموالي واولاد سليمان من الفدعان الخرصة وغيرهم . وما زالت تعمل وتقتل وتُقتل وقوادها الفرنسيون يفرضون الغرامات والعقوبات حتى تمكنت كما جاء في الكتاب الذهبي لجيش الشرق (١) من (اقرار الامن في بادية الشام رويداً رويداً ، وفي تلك الفيافي الشاسعة التي لم تألف فيما مضى من العصور غير مرور القوافل وغزوات القبائل توفقت الصناعة العصرية دون ما حائل الى تمديد انابيب النفط العظيمة التي تصب زيوت العراق في طرابلس وانشأت في محازاتها نقاطاً لتأمين العمل).

وقد عمل الانكليز في شرقي الاردن في توطيد الامن ومنع الغزو مثلهم واكثر منهم . وتولى كبر هذا الامر الجلل هناك المقدم كلوب المعروف عند البدو بابي حنيك ، وكذلك عمل العراقيون في بوادي العراق وجلالة الملك ابن سعود في بوادي نجد ، واتفقت هذه الدول على منع الغزو منعاً بتاتاً ، فاستتب الامن في طول البادية وعرضها استتباباً لم تر نظيره منذ قرون ، وانقطعت دواعي الشرور وبواعثه واخلدت العشائر الى الهدوء والاستقرار وصارت تفكر بالتحضر وتعنى بالرزق الحلال وأصبح حالها في أيامنا هذه على غير ما كان يروي عنها ، مما نرجو دوامه وثبوت قوامه في العهد الوطني الحاضر .

* * *

1) Le livre d'or des troupes du levant , 1918 - 1936 . Beyrouth .

اوصاف البدو

البدو ويقال لهم الاعراب بالفتح هم اهل البادية من العرب والواحد بدوي او اعرابي بالفتح ايضاً . ولفظة (العرب) قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية وتلك خصيصة العرب في التاريخ القديم . قال الازهري ؛ رجل عربي اذا كان نسبه في العرب ثابتاً وان لم يكن فصيحاً وجمعه العرب ، ورجل أعرابي اذا كان بدوياً صاحب نجعة وانتواء وارتياد الكلأ وتتبع مساقط الغيث وسواء كان من العرب او من مواليهم . فمن نزل البادية او جاور البادين فظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم اعراب اهل وبر ، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب اهل مدر او اهل حضر وان لم يكونوا فصحاء . وقد صار لفظ الاعرابي بعد الاسلام مما يراد به الجفاء وغلظ الطبع وكانوا يسمون ذلك في الرجل اعرابية فيقولون للجافي منهم ألم تترك أعرابيتك بعد . وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية الى معنى خاص يلازمها . قيل وجمع الاعراب اعاريب . قال المتنبي :

من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

هذا وللبدو اوصاف بدنية واشكال وملامح طبيعية وخصال واخلاق وافكار فطرية خاصة بهم يختلفون بها اي اختلاف عن العرب المتحضرين في القرى وناهيك سكان المدن . فالبدو ذووا جسام هزيلة في الغالب وقامات متوسطة وملامح منتظمة ووجوه اسيلة والوان سمراء اميل للسواد وجباه عريضة بارزة وعيون سوداء وبصاصة واسارير مقطبة واسنان منتظمة الرحي بيضاء كالثلج . هذا الى سعي حثيث وجلد غريب وطبع نزق وطور قلق وبصيرة نافذة ومزاج عصبي وذكاء حاد وصحة بدن

وصراحة جنان وطلاقة لسان ، وقناعة متناهية وسط عيش اكثره شظف ومضض وحياة جلها محفوف بالعناء والمخاطر وعدم الاطمئنان والهدوء في بوادي جرداء وبراري قفراء وحر لاهب وبرد قارس ، اعتادوا على ذلك كله والفوا اتراحه وافراحه ، لايبغون عنه حولا ولا يقبلون به من ترف الحضارة بدلا . شديدو الحرص على عرفهم وعاداتهم ، باقون على السذاجة والفطرة اللتين كانوا عليهما منذ آلاف السنين ، دائبون على اخلاقهم وخصالهم الصالحة والطالحة ، صعوبة مراس وجرأة وحماس وحفظ ذمام وكرم واقراء ضيف مع لوثة وعيث اذا قدروا يهيجون للشيء التافه ثم لايقفون في هياجهم عند حد اذا ما جرحت كرامتهم او انتهكت حرمتهم . وهم لايتكلفون في شيء من احوالهم وأعمالهم ولا يتثاقلون من الامراض والكوارث ولا يبالون بالحياة بقدر الحضر ولا يعملون ويجهدون الا اذا عضتهم الحاجة بانيابها ، وهم يهوون الخمول والكسل ويحبون الفوضى والخلل ، اذا جاعوا افترسوا واذا شبعوا تنافسوا واذا أصابهم ضيم سهروا وتربصوا ، وهم يترقبون الفرص للاخذ بالثأر ولو مضت عليه سنون ، وهم يميلون الى حرية قل ان يحدها حد ، ولكن حريتهم التي يفهمونها هي الحرية الشخصية لا الحرية الاجتماعية والوطن الذي يذكرونه وموئل الآباء والجدود الذي يعزّونه هو بيت الشعر ومخيم العشيرة السارح لا الارض الثابتة و لديار المحدودة والحيطان الممدودة ، والشعور والاعتزاز عندهم اناني فردي قبلي (عشائري) ، فالبدوي لايمدح الا نفسه وفرسه ومهنده وصارمه ، واذا اعتز وافتخر فباهله وعشيرته ، فهو يتغنى بانتصارها ويعدد محامدها ويهجو العشيرة الاخرى من اجلها .

ومن اوصاف البدو انهم ينزلون البادية ويسكنون بيوت الشعر ويرحلون من مكان الى آخر ، وهذا الترحال يدعى « انتواء » او « تبدي » وفي كتب اللغة نوى القوم بمكان وانتووه بمعنى قصدوه . واما التبدي فهو بمعنى الاقامة في البادية

ومنه تبدى الحضري وتبادى تشبه باهل البادية ومنها بدا القوم الى باديتهم اي خرجوا وفي الحديث (من بداجفا) اي من نزل البادية صار فيه جفاء الاعراب .

والتبدي يؤتي على درجات متفاوتة ، فمن الاعراب من يتبدى بلا انقطاع مهما كان الموسم ومنهم من يستقر في مكانه أغلب ايام السنة ولا يتبدى الا ضمن دائرة قصيرة المدى . وبين هؤلاء واولئك بدو تختلف بداوتهم حسب القسم الذي هم منه كما سيأتي الكلام عليـــه . وفي التبدي تشريق وتغريب حسب المواسم ، فالبدو يقطنون في الصيف (منطقة الاصطياف او التقيظ) . وفي اللغة قاظ او يقيظ القوم بمكان كذا تقيظاً وتقيظوا اقاموا به زمن القيظ . والقيظ (او القيض بلغة بدونا) شدة الحر او هو صميم الصيف من طلوع الثريا الى طلوع سهيل . والمقيظ والمقاظ الموضع الذي يقام فيه وقت القيظ . وفي موسم الشتاء يذهبون الى منطقة اخرى بعيدة جداً عن الاولى تدعى (منطقة التشتية) او (المشاتي) جمع مشتى والمشتاة . والانتقال من منطقة الى اخرى يدعى ايضاً (الظعن) او (النجعة). وظعن في اللغة بمعني سار تقول ظعنوا عن ديارهم و(الظعينة) الهودج فيه أمرأة ام لا وجمعه ظعون واظعان اما (النجعة) فهي طلب الكلأ وارتياد مساقط الغيث في مواضعها وهي اسم من النجوع يقـال خرجوا للنجعة او ينجع القوم الكلأ وانجعوا الكلأ ذهبوا لطلبه في مواضعه .

والنجعة على نوعين احداهما تتجه من الشرق الجنوبي الى الغرب الشمالي في بادية الشام وفيها انتقال من منطقة التشتية الى منطقة التقيظ وتدعى (التغريب) او نجعة الربيع وتقع في نيسان او ايار . والثانية تتجه على عكس الاولى وتنتقل من منطقة التقيظ الى منطقة التشتية وتدعى (التشريق) او (نجعة الخريف) وتقع في تشرين الاول والثاني .

و (مسلك النجعة) هو الطريق الذي تسلكه العشيرة في سيرها . (والمنتجع) هو المكان الذي تقصده العشيرة للنجعة وتحط فيه . ومسلك النجعة والمنتجع

لكل عشيرة مستقران ، الا انهما قد يتبدلا عند الضرورة وحصول المقدرة على تبديلهما .

ومزايا النجعة هي انها قبل كل شيء (محتمة) اذ ان ضرورة الحياة والعيش من وراء الماشية حتمت على البدو ان يضربوا في البراري والبوادي ويطلبوا الكلأ الذي لاينبت في كل مكان وزمان بالقدر المطلوب . ومن مزايا النجعة ايضاً انها « ممتنعة التغير والتقلب » اي ان مناطق النجعة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة وقد حصلت على هذا الثبات من وضع اليد على مكان النجعة بالسيف او بتوالي استعماله على كر السنين ومرور الزمن او بعداتفاق وتراض مع غيرها . واذا جاءت عشيرة جديدة وهمت ان تتبدى في منتجعات غيرها تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة . ومن هنا كان اكثر المداوات والحزازات بين البدو من جراء التنازع على المنتجعات وطمع القوي وتعديه على الضعيف فيها . على ان الامر قد يمكن تسويته بالتراضي ، والدراهم تلعب دورها هنا ايضاً .

اقسام البدو :

لنا ان نقسم عشائر زماننا في بلاد الشام حسب عراقتهم بالبداوة واطوارهـــا وبعدهم عن الحضارة ومنازلها الى ثلاثة اقسام :

١ القسم الاول . — العشائر الجمالة او اهل الابل ويسمون في اصطلاح الفرنج بالبدو الرحل او بالبدو الاقحاح او البدو ذوي النجعة البعيدة ويوصفون باهل الوبر ، لانهم يتخذون بيوت الشعر لسكناهم كما يتخذون الخيل لركوبهم والابل لمعاشهم . فالابل سفنهم في البر يحملون عليها احمالهم وينقلون أثقالهم ويأكلون لحومها ويقتاتون بألبانها وينسجون أروقة بيوتهم من أوبارها ويقايضون عليها في المبايعات ويعطون منها في الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات ، فهي في الجملة مصدر غناهم ، كما انهم بسبب معاشها ووجودها ، لايدرون أهي خلقت لهم

وقبلهم أم هم خلقوا لها وقبلها، وهم يدفعون للدولة عنها ضريبة تدعى الودي ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وبراري الحاضرة ، فراراً من حمارة القيظ تارة وصبارة البرد اخرى وارتياداً لمواقع القطر وانتجاعاً لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للابل ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب الكلأ وابتغاء المياه والدفء في اماكن اخرى ، فلا يزالون في حل وترحال يقطعون ٥٠٠ — ٦٠٠ كيلو متر واحياناً ٨٠٠ — ١٠٠٠ كيلو متر فيصلون في الشرق الى القعرة ومنطقة الوديان داخل الحدود العراقية وهو مايفعله ضناً بشر من عنزة كالعمارات والاسبعة والفدعان ، او يصلون في الجنوب الى الحماد حول جبل التنف وجبل عنازة وجبل اللاهة ومنطقة الخبرات داخل الحدود العراقية وقرب الحدود السعودية وهو مايفعله ضناً مسلم من عنزة كالارولة والاحسنة والاشاجعة والسوالمة والعبد الله ، وربما اوغلوا وابعدوا الى النفود قرب نجد وهو مايفعله احياناً بعض فرق الارولة .

وهوى أهل هذا القسم في البادية وصحراواتها الشاسعة وآفاقها الواسعة ووحشتها الرائعة وحريتها المطلقة ونباتاتها وحيواناتها الغريبة، ولا يزالون يذكرون البوادي وشظف عيشها في منثور كلامهم ومنظومه . قال قائلهم :

واسري بعيس كالأهلة فوقها ... نجوم من الاقمار ابهى وأنور (١)
ويعجبني نفح العرار وربما ... شممت بعرنيني وقد فاح عنبر (٢)

شرح هذه الابيات للاستاذ عبد القادر المغربي : (١) شبه العيس بالأهلة من حيث ضمورها وهزالها فكانت منحنية كالأهلة ويريد بالاقمار اخوانه ورفاقه من الفتيان او الفتيات الاشراف (٢) العرار من أزهار البادية الطيبة الرائحة والعنبر من طيب اهل الحضر فهو يقول ان رائحة العرار تعجبه اكثر مايعجبه فوحان ريح العنبر وانه يشمخ من العنبر بعرنينه اى انفه استكباراً واحتقاراً له.

ويخدش غمدي بالحمى صفحة الثرى ... اذا جر من اذياله المتحضر (٣)
فما العيش الا الضب يحرشه الفتى ... وورد بمستن اليرابيع اكدر (٤)
بحيث يلف المرء أطنـــاب بيته ... على العز والكوم المراسيل تنحر (٥)
ويغشى ثراه حين يستعتم الثرى ... ويسمو اليه الطـارق المتنور (٦)

واهل هذا القسم الاول يحتقرون اهل القسم الثاني ويدعونهم (رعية) و(شوايا) لاقتنائهم الشياه والمعز، يعدون ذلك من العار، اذ تمنعهم عن الايغال في البيداء ومناجزة الاعداء، ويمتهنون اهل الحضر والقرى ويدعونهم (فلاليح)(١) لانهم متكلون على الفلح والزرع وساكنون بيوت المدر والحجر ومعتادون على الرفه وحماية الدولة. ومن اقوالهم القديمة «الذل بالحرث والمهانة بالبقر»، ويقابلون هذه الاقوال بغيرها «العز بالابل والشجاعة بالخيل». وهم دائماً كما قال ابن خلدون يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتفردون في الصحراء وثقتهم في انفسهم كثيرة حتى

---

(٣) اي ويعجبه ايضاً ان يمشي بحمى عشيرته وحيه فيخدش رأس غمد سيفه الارض وهو يمشي مفضلاً ذلك على مشية المتحضر الذي يجرر اذياله على صعيد حاضرته (٤) ويعجبه ايضاً من عيش البادية ان يحرش اى يصطاد الضبّ وان يرد من المناهل كل أكدر عكر، تستن اي تقفز وتثب حواليه اليرابيع (٥) يريدان في سكناه البادية يعيش عزيزاً ويكون بيته مرفوع العماد على العز وأطناب بيته ممدودة على العز. والكوم جمع كوماء الكثيرة لحم السنام والمراسيل النياق السهلة السير اي وهناك بجانب بيت عزه تنحر النياق للضيفان (٦) الشطر الاول محرف ولا معنى له. ولعل صوابه (ويغشى ذراه حين يستعر الثرى) اي ان مثله كريماً في البادية يغشى ذراه اي ظله (كنفه في النهار) الضيوف في وقت اشتداد حره حتى استعر وتلهب ثراه اي ترابه الرطيب فما بالك صخوره وجلاميده، اما في الليل فالطارق المفاجئ المتنور الذي يستشرف ليرى نار الضيافة فيقبل عليها هذا الضيف يغشى ايضاً ذراه ليلاً كما يغشى ذاك نهاراً.

صار البأس لهم خلقاً . ولذلك كان اكثر البدو توغلاً في القفر اشدهم بأساً واجرأهم على تحمل المشاق . وهؤلاء البدو لا يغشون قرى المعمورة ومدنها الا للضرورة في سني المحل والظمأ او للمسابلة اي للامتيـــار وشراء حاجاتهم وبيع الذكور من ابلهم وخيلهم وبيع أصوافهم .

وهؤلاء في بلادنا — في عرف الملحق رقم ١ للقرار ١٣٢ ل . ر — الذي كان الفرنسيون اصـدروه في ٤ حزيران ١٩٤٠ هم : الاروله وتوابعهـا من اشاجعة وسوالمة وعبد الله وولد علي . ثم الاحسنة والاسبعة البطينات والاسبعة الاعبدة والفدعان ولد والفدعان خرصة وشمر الزور وشمر خرصة وبني خالد والفواعرة والموالي والحديديون والعمور والبدور والبوخميس واللهيب والكيار والوهب (ماعدا فخذ السياد) والغياث والنعيروالنجاد والصليبوالحسنوالمساعيد والشرفات والعظامات والشنابلة والسردية . وسيأتي وصف كل من هؤلاء في الجزء الثاني من كتابنا هذا .وقد قضى القرار المذكور في المـادة ١١ بوجوب خضوع الجنايات او الجنح المرتكبة بين هؤلاء الرحل بعضهم مع بعض الى قواعد العرف العشائري وبينهم وبين الحضر ونصف الحضر الى الحق العادي (المحـاكم النظامية) على انه اجاز ايضاً — اذا طلب المغدور — البت في الجنح او الجنايات المرتكبة بين الرحل

شرح يتبع "صحيفة ١٣٠

١ . — منذ ان حظرت الحكومات الغزو ودالت دولة الخيل والابل بانتشار سيارات الركوب والنقل انصرف بعض هؤلاء إلى اقتناء الشياه لحسابهم او بالاشتراك مع اهل الحواضر على نهج اعراب القسم الثاني ، كما ان بعض رؤسائهم تذوق طعم الفلح والزرع وصار من ملاكي الضياع والقرى ومن ساكني الدور والقصور ، فخفت بذلك وطأة المهانة التي ذكرناها ، وهذا من بوادر الميل نحو الحضارة واول درجاتها .

ونصف الحضر وفقاً للعرف العشائري .

القسم الثاني ـ العشائر الغنامة او اهل الغنم ويسمون في اصطلاح الفرنج نصف رحل او نصف بدو او نصف حضر او البدو ذوي النجعة المحدودة ويسمون في اصطلاح الشاميين «عربان الديرة» تمييزاً لهم عن عربان القسم الاول او يسمون «الرعية» بحكم ارتزاقهم من رعي الماشية . وهذه التسمية امالانهم انقاض العشائر القديمة الشامية وبقاياها التي تمزق صدعها وتشتت شملها، وامالانهم من عشائر متباينة ومنابت مختلفة تجمعوا حول بعض العائلات القوية او الشخصيات النافذة وتبعوها بحكم النزعات العشائرية او الحاجات الاقتصادية واستعاضوا بهذه الروابط عن رابطة الدم وصاروا (رعايا) لهم . ويسمون في انحاء دير الزور (شوايا) بحكم انهم رعاة شياه . وهؤلاء ايضاً اهل ابل وخيل وحل وارتحال وطعن وضرب . لكنهم فريقان ؛ فريق لايرتزق الا بالضرع اي بارعاء الماشية من الغنم والمعز فقط . وهذه الماشية اما ان تكون لهم وحدهم ، واما ان تكون لاهل المدن في حلب وحماه وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمنها اللذين يدران عليهم وعلى شركائهم في سني الخير ثروةً غير يسيرة . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر ويقتنون الخيل والابل بمقدار اقل من اهل القسم الاول ، وبمقدار يكفي للظعن وراء الماشية فقط . وفريق ثاني يضم الى الضرع امتلاك الضياع والارضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من ان تقضي اعوام الصقيع على الماشية او ينقض عليها غزو ينهبها او مرض يهلكها، ويظلون متعلقين باهداب الضرع ؛ اما لصغر مساحة الارض التي يملكونها او لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل وعيث اهل القسم الاول وغير ذلك ، او لانهم لم يتجردوا بعد عن اطوار البداوة وهوى الحل والترحال ورؤية ربيع البادية واستنشاق شيحها وقيصومها . وهم بعد ان ينتهوا من بذر

الزروع الشتوية يرحلون في اواخر الخريف الى البادية انتجاعاً لمرعى غنمهم ويعودون في اواخر الربيع الى منازلهم وضياعهم ليلحقوا اعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية. وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر او قباب اللبن في انحاء حلب او الضبايط المبنية من أعواد الطرفاء والغرب واغصان عرق السوس في اودية الفرات والخابور والبليخ من انهار الجزيرة. وليس للتقسيم المذكور حد محدود، فالعشيرة الواحدة قد تكون من الفريق الاول او الثاني وحدهما اومن الفريقين كليهما. وسبب تسمية اهل هذا القسم بعربان الديرة لانهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما أهل الفريق الثاني فيها ولانهم ينجعون في الشتاء الى مسافات محدودة في براري الشامية من البادية وهم لا يوغلون فيها أكثر من ٣٠٠-٤٠٠ كيلومتر مراعاة لمقدرة الغنم ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها. فاعراب ديار حمص وحماة يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور كما ان اعراب وادي الفرات يشتون حول جبل البشري واعراب انحاء دمشق يشتون في ديرة التلول واعراب الجزيرة الفراتية في شرقي نهر البليخ وجبل عبد العزيز وجبل سنجار وقرب وادي عجيج ويشذ بعض هؤلاء وخاصة من كان عنده مايكفي من الابل فيبلغ منطقة الخبرات في الحماد او منطقة الوديان في الشامية. وبعض هؤلاء لاينجعون البادية ابداً، بل انهم لضعف حولهم او قلة عددهم او ضعة ارومتهم ومكانتهم يبقون حول القرى والمدن يتنقلون حسب الفصول في الهضاب والاودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم او ضمن حدودها او حدود مواطن شركائهم. ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام من هؤلاء الاعراب الرعاة.

وأهل هذا القسم يشبهون في الجملة أهل القسم الاول في طباع البداوة والخشونة والشعوثة والميل الى انتهاك حمى فلاحي الحاضرة عند سنوح الغفلة وضعف الدولة. ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة أهل القسم الاول.

فلا يشهر عليهم الحرب ولايحفظ لهم صحب اي لايجار الملتجئ اليهم بل لما كانوا (رعية) و (شوايا) يؤكلون ولا يأكلون . فكأن القسم الاول كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الاوربيين تعامل بجميع قواعد حقوق الدول والقسم الثاني كالدول المستقلة من الشرقيين يحافظ على عهودها وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها والقسم الثالث الذي سيأتي ذكره كالدول التي لم يصادق على استقلالها او كالامارات المحمية والمنتدب عليها . ويختلفون ايضاً بان لهم استعداداً بارزاً للتحضر فقد صار بعضهم اهل مدراي اصحاب قرى وضياع يقطنون فيها ويستثمرون ارضها، ولآخرين منهم علائق جمة مع تجار الماشية او التجار السوقة في المدن والحواضر يشاركونهم في تربية الغنم او زراعة الحبوب وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الاغنام العشر عن الارضين، وهؤلاء كما حددهم الملحق رقم ٣ للقرار ١٣٢ ل في (منطقة دمشق) عشائر حرب والصياد والجلان والنعيم والفضل والسلوط ، وفي (منطقة سلمية) نعيم حمص وحماة والبشاكم والخراشين والتركي والعقيدات والطوقان الرعية والمشارفة الرعية وبنو عز الرعية وفي (منطقة حلب) النعيم والبوليل والساطية والعقيدات والبوشيخ والمشاهدة وفرقة السياد من عشيرة الوهب والولدة والبقارة . و (في منطقة دير الزور) العقيدات والابوسرايا وبقارة الزور والابو شعبان اي العفادلة والسبخة والابوعساف وابو سبيع والولدة و (في منطقة الحسجة) بقارة الجبل وبقارة الابو معيش وملّي محمود بك وطيء والجبور والشرابين .

وقد جعل القرار المذكور هؤلاء يتبعون قواعد الحق العادي (المحاكم النظامية) في دعاويهم مازالوا في المعمورة ويتبعون قواعد العرف العشائري ما زالوا في البادية .

هذا ومع وجود الفروق المذكورة بين اهل هذا القسم واهل القسم الاول يحاول هؤلاء مساواة اولئك في كل الحقوق والأمور ، وينكرون ان يكون بين القسمين اي فرق ورجحان ويرغبون ان يكونوا على قدم التعادل في اتباع (الاصول

العشائري في كل ما ينالونه من امتيازات واعطيات وحيثما كانوا . ومما يقولونه انه اذا كان لاهل القسم الاول ابل وخيل وحل وارتحال فلاهل القسم الثاني من ذلك نصيب وافر ، وان كان لاهل القسم الثاني حرث وزرع وعقار وملك فاهل القسم الاول صاروا بذلك مثلهم ، فعلام التمييز في قولهم (رحل) و (نصف رحل) ؟ ولم لايكون في الدولة قانون واحد يشمل جميع العشائر دون تفريق او تمييز ، ولم يسلح الرحل ويمنع السلاح عن نصف الرحل ويفسح المجال لطغيان جانب على آخر ، ولم يتبع الرحل (اصول العشائر) ويتبع نصف الرحل (الحق العادي) ، ولم تلحق ادارة نصف الرحل بمحافظي المحافظات والرحل لايلحقون ؟ الى آخر ما هنالك من الاعتراضات والمدعيات التي مابرحوا يقدمونهـــا الى الحكومة ويذكرونها في المجلس النيابي ، ولما تنته بعد .

القسم الثالث . — العشائر المتحضرة المستقرة اهل المدر وهم الاعراب الفلاحون (الفلاليح) الذين ايقنوا ان العيش الثابت خير من المتقلقل وان من يلجأ لحمى الدولة اهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فتركوا الاباعر والابعار والظعون والاسفار وعمروا الخرب الداثرة وهجروا بيوت الشعر الاقليلاً ، وتحضروا وصاروا اهل مدر اي انهم قطنوا بيوت الحجر والطين او القباب او الاكواخ وتوفروا على الحرث والزرع اكثر من تربية الماشية . من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في اقضية جرابلس ومنبج والباب واعزاز وادلب والمعرة وفي جبل الاحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الروج وسهل الغـــاب وفي وسط الشام وجنوبه في اقضية حمـاة وسلمية وحمص والجولان والزوية ممن تعددت اسماؤهم وصغرت انسابهم واحسابهم . واهل هذا القسم ايضاً وان كانوا يغشون دائماً المدن والقرى ويشاركون اهلها ويعاشرونهم ويتصلون بمرافقها ومراتعها وقد صاروا فلاحين وقرويين بالمرة ، لكنهم مابرحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البداوة فهم يتمسكون بالقشافة والجهالة ويتوانون عن العمل الصالح في الزرع والحرث ولا سيما في الغرس .

* * *

الحالات الاجتماعية عند البدو

اخلاقهم ومزاياهم الغابرة والحاضرة

كان العرب في الجـــاهلية في طور البداوة وحالاتهم الاجتماعية واخلاقهم ومزاياهم بدوية محضة . ومن هنا كان ماتذكره كتب التاريخ والادب عن عرب الجاهلية ينطبق جله على البدو في مختلف العصور وحتى على بدو عصرنا الحاضر . ولذا فقد رأينا استكمالاً لابحاث كتابنا هذا ان نذكر الاخلاق والمزايا لدى عرب الجاهلية او بدوها اولاً ثم بدو العصور الاسلامية المتوسطة ثانياً ثم بدو عصرنا الحالي ثالثاً ليقارن القارئ بينها ويبدي حكمه على مازال باقياً منها او غائباً عنها .

فمما قيل في وصف الحالات الاجتماعية والاخلاق والمزايا عند عرب الجاهلية ما ذكره ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) في فصل (وفود العرب على كسرى) عن الخصال التي كانت تفخر بها عرب الجاهلية ، وقد سردها النعمان بن المنذر امام كسرى حينما مدح هذا كل الامم في عصره وذم العرب ، واننا نقتطف منها مـــا يلي :

قال كسرى : لم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في امر دين ولا دنيـا ولا حزم ولا قوة ، ومما يدل على مهانتها وصغر همتها محاتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها فافضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وإن قرى احدهم ضيفاً عدها مكرمة وانى أطعم أكلة عدهـا غنيمة تنطق بذلك

اشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم .

فكان مما قاله النعمان جواباً لكسرى : العرب لم يطمع فيهم طامع ولم يناهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الارض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر .. وليس احد من العرب الا يسمى آباءه أباً فأباً حاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعي إلى غير ابيه . واما سخاؤهم فان ادناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حمولة وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزيء بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر ، ثم خيلهم افضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم افضل اللباس ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر ، واما وفاؤهم فان احدهم يلحظ اللحظة ويومىء الايماءة فهي ولث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه وان احدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وان احدهم ليبلغه ان رجلاً استجار به وعسى ان يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي اصابته اوتفنى قبيلته ، لما خفر من جواره ، وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون ماله . واما قولك ايها الملك يئدون اولادهم فانما يفعله منهم بالاناث انفة من العار وغيرة من الازواج ؛ واما قولك : ان افضل طعامهم لحوم الابل على ماوصفت منها فما تركوا ما دونها الا احتقاراً له فعمدوا الى اجلها وافضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شحوماً واطيبها لحوماً وارقها البانا واقلها غائلة واحلاها مضغة وانه لاشيء من الالحمان يعالج به لحمها الا استبان فضلها عليه ؛ واما تحاربهم واكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله

من الامم اذا انست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف ، وانه انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم وينقادون لهم بازمتهم ، واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين ... الى آخر ما قال .

وجاء في (تاريخ الامم الاسلامية ج ١) للشيخ محمد الخضري مايلي :

(الرجل في اهله — ونريد بالاهل خصوص الزوج) . —

يظلم العربي من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفاف او اهانة فانا اذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان اخبارهم نرى الامر على العكس من ذلك . فقد كان الرجل اذا أراد ان يمتدح بماله في نظر العرب من المقام السامي في الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر اوقاته الا المرأة التي ان رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العبسي شيخ الشجعان . ثم انظر الى اى شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثاً امرأة من قومه بانه المدافع عن الحريم الحامي للحقيقة ، تراه اذا عزلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما تجيب به مخالف في الرأي :

ألم تعلمي ياعمرك الله انني كريم على حين الكرام قليل ؟

أو لاترى ان جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم — لايذهبون الى شيء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون ان شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الالقاب فيقول أحدهم :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي اليك رحال القوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفوس من سمو الدرجة وما أحلى احترامه في قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجه :

سلي الطارق المعتر ياأم مالك اذا ماأتاني بين قدري ومجزري

ايسفر وجهي من أول القرى وابذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها الا بكنيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم . وبالجملة فان المتتبع لاشعار العرب لايشتم منها رائحة الصغار والاهانة للمرأة ، ويفخرون بنسبتهم الأمهاتهم كما يفخرون بنسبهم الى آباهم وكانت المرأة فيهم اذا ارادت فرقت وان شاءت جمعت فان اتجهت عواطفها للسلام سعت اليـــه ونجحت وان وجهتها ارادة الانتقام الى الشر اشعلت النار بين الاحياء .

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان — في ابان الحرب بين عبس وذبيان — أتراني اخطب الى أحد فيردني قال نعم: أوس بن حارثة بن لام الطائي ، فقال الحارث لغلامه هيئ لي مركباً ، ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة حتى اتيا اوساً فوجداه في داره . فلما رأى الحارث رحب بـه وسأله عن مجيئه ، فقال جئتك خاطباً فقال أوس ، لست هناك فانصرف ولم يكلمه . ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ، قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف ، قالت فما بالك لم تستنزله ، قال انه استحمق جاءني خاطباً قالت أفتريد أن تزوج بناتك ، قال نعم ، قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن ، قال قد كان ذلك ، قالت فتدارك ما كان منك فالحقـه وقل له انك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب الا ماسمعت فانصرف ولك عندي كل ما احببت فانه سيفعل . ففعل ذلك أوس ورد حارثة ، فلما وصلوا الى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعي لي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يابنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن ازوجك منـه ، فقالت لاتفعل لاني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يرى مني مايكره فيطلقني فيكون على في ذلك مافيه ، قال قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن ان يرى مني ما يكره

فيطلقني فيكون علي في ذلك ما تعلم ، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت انت وذاك فاخبرها باباء اختها فقالت لكني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة اباً فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير ، فزوجها الحارث وهيئت له في بيت أبيها . فلما خلا بها وأراد أن يمد يده اليها قالت مه أعند أبي واخوتي هذا والله مالا يكون ، فارتحل بها حتى اذا كان ببعض الطريق واراد قربانها ، فقالت كما يفعل بالأمة الجلبية او السبية الاخيذة لاوالله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل مايعمل لمثلي . فرحل حتى اذا وصل ديارقومه اعد لها مايعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى اهلك فلن يفوتك ، فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فاصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع أمورهم وكيف كان الرجل لايزوج بناته الا بعد ان يستشيرها ويقف عند ارادتها . ولا يمكننا ان ندعي بان هـذا كان امراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الامـة ، ولكن الذي يمكننا ان نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على السنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غيران يقابلوا بالنكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعاً من العمل .

... اما معاملتهم لابنائهم فكانت معاملة من يرى الولد ليكون له درعاً حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهـد ونمر وماشاكل ذلك وكان لهم من الحنو على الاولاد مايعبر عنه قول أحدهم :

وإنمـا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشي على الارض

... اما معاملة الرجل لاخيه وبني عمه فتستدل بهذه الجملة التي قالوها (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الاسلام . لان الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه

أما هم فكانوا ينصرون اخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله السنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من حادثة لم يقوموا فيها بنصر احدهم كما قال شاعرهم :

لو كنت من مازن لم يستبح ابلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة ان ذولوثة لانا ...الخ

واذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من احدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الاخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الافراد وقد يعقده رؤساء القبائل ، والامر واحد في الحلفين . وبينما هذه حالهم في بني ابيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراهم حين تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة ، فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الاوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم ، وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية . فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً ، ولكنها كانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة ، فكانت قوام متفانية في حروبهم . والسبب في ذلك يرجع الى أمرين :

الاول — التنافس في مادة الحياة بين بني الاب الواحد . فانا نعلم ان حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون . وهي محل نزاع دائم ، لانه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ والماء . واكثر ما يبتدئ ذلك بين رعاة الابل القائمين بشأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء اولاً او في نفس المراعي ، فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم ، فلا يجدون من الافتراق بداً . فينزح احد الاخوين عن داره مرغماً

الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به . ولا يكون ذلك الا بعد ان يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح ، وفي النفس اثر من الغضب يورثه الآباء للابناء فيتناقلون بينهم احاديث عن اسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، واذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى .

السبب الثاني . ـ تنازع الشرف والرئاسة ، واكثر مايكون ذلك اذا مات اكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع اعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم احد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الايام شدة ، وقد يفارق رئيس احد البيتين الديار مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين ، وفي هذه الحال يكون التنافر أشد ، كما كان بين الاوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وامية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة وبين دارم ويربوع من تميم . ولذلك نرى الحروب الهائلة والايام المعدودة انما كانت بين القبائل المتقاربة في الانساب المتقاربة في الامكنة .

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف وانما كانوا في بعض الاحيان يلجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وأطعام الطعام وكانت تكون المصيبة اشد اذا حكم الحكم لأحد الفريقين ، لان ذلك انما كان يزيد نار العداء ضراماً .

واذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوى بينها في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فانه قال لهما انتما كركبتي البعير ، وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يجدله شاعراً يلهبه ويزيد في نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الاعشى في هذه القضية ، فانه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم ان الحكم قضى له . ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء ، فقد كان هم الواحد منهم ان

يرفع عشيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الاخرى ، واذا زل احـــد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة باسرها ووسموها بتلك السمة حتى اذا قرأنا مجموعة من اشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلهامثالب ونقائص . لان كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيهـا البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة .

ومتى وجد النفور بين جماعتين او بين شخصين لايحتاج شبوب نار بينهما الى اسباب قوية لايمكن حلها بل ايسر لنزاع بين فردين من افراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الاطفال وتأييم النساء . لذلك كانت الجزيرة العربية دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان او مكان . واذا رجعت الى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر نراها اموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ، ولكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب كما ذكرناه .

.... من الاخلاق التي كانت للعربي (سرعة الانفعال) والاقدام على المكاره) تراه ساكناً مطمئناً فلاتحتاج في هيجه الاالى كلمة صغيرة اوفعلة حقيرة يتخيل معها انقد مس شرفه فتجده زأر كالاسد خرج من مكمنه لايتريث حتى يستطلع جلية الامر بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً . وهذا الخلق اكثر ماتراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناًولا احكاماً من جراء أفعالهم بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس اذا أحست بمـا يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فاذا لم تخش العادية اقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير في طريق الحروب بقليل من الكلمات. وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير

يا لفلان ، واذلاه ،وانصيراه ، شرف الآباء ! وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ، ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لان النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدمت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه . ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم الا في سادتهم وذوي الإسنان منهم ، ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين .

ومن أخلاقهم (التعصب) ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على اية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم . وقد سمي القرآن هذا الخلق وماقبله حمية الجاهلية لان فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت .

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم (الكرم) وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثن على غيره ، كان الواحد منهم يأتيه الضيف ـ في شدة البرد والجوع ـ وليس عنده من المال الا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم اليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الاحاديث ويقول قائلهم :

وأعلم بان الضيف يو ماً سوف يحمد أو يلوم

ومن أخلاقهم الذي كانوا يمتدحون بها ويعيبون من خالفها (الوفاء بالعهد) فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم . انظروا الى مافعله هانئ بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر واولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب اضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه ويصيب قومه من جراء ذلك . ثم انظروا الى مافعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم ادرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان اودعها عنده ففضل قتل ولده . ثم انظر الى مافعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد ان رهن على ذلك قوسه عند كسري

حتى ضرب المثل بقوس حاجب ، والقوس في الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل مايشاء ان كان من شيمته الغدر ، وانما خاف السبة على بنيه من بعده اذا هو غدر . ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الامة العربية انهم كانوا اذا زل واحد منهم زلة فغدر بذي عهد اصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها او يرفع له رأساً بين العرب.

ومن اخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء (الشجاعة) ، وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الاقدام على المكروه ، وباب الحماسة في أشعارهم اكبر من من باب الكرم ، لان الشجاعة خلق يظهر في جميع الافراد . أما الكرم فانه لايظهر اثره بجلاء الا عند أرباب الاموال الذين يمكنهم ان يعطفوا على الفقراء والمعوزين. وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على اقرانهم في شدة البأس وقوة القلب . وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت ايديهم من اعدائهم .

وقد بقيت بعد ذلك اخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ، ولكنا لا يمكننا ان نقول انها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ، ومن يطلع على كلامهم في ابواب الادب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم ان هذه الامة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش لم تخل من حكماء او دعوا اشعارهم مايفيد من بعدهم .

وقال احمد حسن الزيات في (تاريخ الادب العربي) :

ان لمناخ الاقليم اثراً طبيعياً قوياً في حياة أهله . فهو الذي ينهج لهم سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، ويكون الكثير الغالب من اخلاقهم وطباعهم . والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يجودها الغيث وتوآتيها السيول ، فهي لا تصلح للزروع الدورية ، ولا تلائم الحياة الحضرية . ومن ثم كان أهلها بدواً (١) بالفطرة يعيشون

---

(١) يدل على ان البداوة خصيصة العرب في التاريخ القديم ان لفظ العرب يراد به في اللغات السامية معنى البدو والبادية .

تحت الخيام على رعي الانعام فيطعمون من لحمها ولبنها ويكتسون بصوفها ووبرها ويبتغون بها مواقع القطر ورياض الارض ويسيمونها فيها ويرددونها بين اودية لا وفيافيها الا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام وايلافهم رحلة اليمن والشام والا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر ووفرة ما تفعله ارضوهم من الحب والثمر. فاذا اخافت السماء واحلت وجوه الارض اكل بعضهم بعضاً بالاغارة والغزو. وجريرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الامن وتشعث الالفة. ولم ينكب الجاهليون بمثل الحرب والجدب. فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة ويتبجحون باللّسن والفصاحة ويؤثرون الذكر ويئدون (١) الانثى ويتكاثرون بالنفر العديد ويعتزون بالقرابة الواشجة.

ثم كان من الفهم حياة الظعن والتجوال وتوزع همهم بين الجدال والقتال ان غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية، فلم تكن لهم مدينة اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية. وانما كان المجتمع مجتمع القبيلة والخيمة: لا مجتمع الشعب والامة، والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالارث ويحكمون بالعرف، فلم تكن الجرشيّة (٢) كحكومة الاغريق، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس. اللهم الا في الحيرة والشام، فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين، فاللخميون في الحيرة يتبعون الاكاسرة والغسانيون في الشام يتبعون القياصرة. واذن فمعاني الحضارة والرأي العام والارستقراطية والديمقراطية والاقطاع لا الفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً، والنظام العسكري حتى بعد الاسلام كان غير ثابت ولا منظم، لأن نظام المرؤسية والتجرد عن الشخصية

---

(١) لم يكن الوأد عاماً في جميع العرب وانما كان خاصاً ببعض قبائل تميم وأسد يفعله من يفعله منهم خشية الفقر.. والى ذلك أشار الكتاب في قوله: (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم) (٢) الأجرشية oligarchie حكومة يحصر السلطان فيها في يد بعض الاسر القوية.

ـ وهما الركنان الاساسيان في العسكرية ـ يضادان إعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه ، والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف ، فلم يكن للعرب ما للأغريق من تعدد الآلهة وفخامة الهياكل واقامة التماثيل ووفرة الاساطير وفلسفة العقائد ، وانما كان بقية اثرية من دين ابراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار ، فتحالت في نفوسهم الى عبادة الاصنام وتعظيم الاوثان (١) ونصبها على الكعبة تقرباً بها الى الله على زعمهم . وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب ، اما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وماجاورها من ارض خيبر وتيماء وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيء والغساسنة في الشام . (٢)

اما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها اشبه بحال المصرية الريفية اليوم . تتألف من الابوين والاولاد والاحفاد والرقيق . وكان سلطان الاب مطلقاً على أهله ، يملك عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء . فربما وأد ابنته خوف الفقر ، وانتفى من ابن أمته خوف العار . وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الاسرة ، يحلها الزوج في نفسه ، ويشركها في أمره ، ويتغنى باسمها في شعره ، ويفخر الولد بنسبته الى أمه كما يفخر بنسبته الى أبيه ، وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة ، وللرجل وحده حق الطلاق مالم يشترط عند العقد خلاف ذلك . ثم كان لهم انواع اخرى من الزواج هي اشبه شيء بالمسافحة لا يعقدها الا أولو الدعارة من الشباب . ويقرب من هذه الانواع زواج كانت تعقده السيوف والاسنة ، وذلك ان احدهم يلقى رجلاً معه ظعينة وليس من قبيلته

---

(١) الصنم ما كان على صورة انسان من حجر أو فضة اوذهب ، والوثن ماكان حجراً غفلاً من الصنعة .

(٢) ويهودية العرب ونصرانيتهم ايضاً كانت مشوهة غير تامة ، وكانوا يتبعون في النصرانية مذهب اليعاقبة على قياس ضئيل .

ولا من احلافها ، فيتقاتلان ، فاذا قهره اخذها منه سبية واستحلها بذلك . وكانوا يعددون بين الزوجات الى حد غير معروف ، ويحلون التزوج من امرأة الاب ، ويحرمون البناء بالبنت والاخت والعمة والخالة . اما علاقة ابناء الاسرة بابناء القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية : (انصر أخاك ظالماً او مظلوماً) على مابين ابناء العم من تنافس وتباغض . ولكن القبيلة للواحد والواحد للقبيلة .

واما حالهم العقلية فقد كان التبابعة باليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما اقاموه من السدود واحيوه من الارض وعمروه من المدن . ولكن درجة رقيهم وحقيقة علومهم لاتزال سراً مطويا في جوف الارض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل.

اما العدنانيون فقد اكسبتهم قوة الملاحظة وكثرة التجارب واضطرار الحاجة طائفة من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم . فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لاتصالها بالحرب ، ولاحظوا الانواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث ، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . وبرعوا في الانساب والاخبار والاشعار ، محافظة على عصبيتهم وتحدثاً بمفاخرهم وتخليداً لمآثرهم . ومهروا في الفراسة والقيافة (١) ووصف الارض لكشف الدّعيّ فيهم وطلب الهارب منهم. ثم قادهم الجانب الروحي فيهم الى الاعتقاد بالكهانة (٢) والعرافة

---

(١) الفراسة هي الاستدلال بالامور الظاهرة على الامور الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه . والقيافة قسمان قيافة الأثر وهي الاهتداء إلى الهارب بآثار قدمه وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الانسان وشكل أعضائه على نسبه

(٢) الكهانة والعرافة مطالعة الغيب والاخبار بالحوادث الماضية والآتية . وقد يخصون الكاهن بعلم المستقبل والعراف بعلم الماضي ، والزجر هو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ، فكان الرجل يعمد الى الطائر مثلاً فيرميه بحصاه او يصيح به . فان ولاه في طيرانه ميامنة تفاءل به ، وان ولاه مياسرة تشاءم منه وتطير .

والزجر ففزعوا الى الكهان في امراضهم واستفتوا العرّافين في اغراضهم حتى ذهب الاسلام بكل ذلك .

وجملة القول ان المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهة السياسية والاقتصادية واللغوية مرتبطاً من الجهة الخلقية والعقلية والادبية . ولو ساغ لنا ان نحكم على العرب بمقتضى لغتهم واديهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة واذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كوّنوا اكثرها من نتائج قرائحهم وثمار تجاربهم . فان لغتهم وهي صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والارض والسماء وما بينها الا استوعبت اسماءه ورتبت اجزاءه (١) ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه . ولعمري مايكون التمدن اللغوي الابعد تمدن اجتماعي راق في حقيقته وان لم يرق في شكله ، عام في أثره وان لم يعم في اهله.

وفي تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان في فصل (العصبية العربية قبل الاسلام) ج ٤ ص ١٠ مايلي :

العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لاهل البادية . لان الناس مفطورون على المطامع ودأبهم التخاصم والتنازع ، فاهل المدن يدفع عدوانهم الحكام وأهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً ، وهي ايضاً تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس اهل القبيلة او الحي من الوقار لهم ـ واكرام السن من سنن البدو واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام في الدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لايصدق دفاعهم الا اذا كان لهم عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم .

واهل البلد الواحد او المصلحة الواحدة لابد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم ، والجامعة تختلف في الامم باختلاف احوالهم فبعض الامم يجمعهم الوطن وآخرون

---

(١) تجد الامثلة على ذلك في كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب المخصص لابن سيده .

يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب او اللغة . وقد رأيت ان البدو لاوطن لهم وكانوا قبل الاسلام لادين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمتان خصوصاً في البداوة . ففي العرب في حفظ انسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها حتى ردوها الى الآباء الاولين .

فاقرب اسباب العصبية عندهم الاخوّة والوالدية والعمومة ، ومنها تتألف العائلة او الاسرة . ومن العائلات تتألف الفصيلة كآل ابي طالب وآل العباس مثلاً ، فان كلاً منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الفخذ مثل بني هاشم وبني أمية وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمارة مثل بني قريش وبني كنانة وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبيلة مثل ربيعة ومضر وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب وهو النسب الابعد مثل عدنان وقحطان .

عصبية النسب ؛ وبين القبائل او افخاذها او بطونها او عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض ـ الاقرب فالاقرب على الابعد فالابعد فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحد ، ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة على حد قول المثل « انا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه أوسع العصبيات . ثم ان القبائل تتعصب بعضها على بعض ، والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة او الافخاذ من بطن واحد حتى تصل الى الفصائل والعائلات فبنو العباس وبنو ابي طالب مثلاً تخاصما وكلاهما من بني هاشم . وبنو هاشم وبنو امية تخاصما وكلاهما من بني عبد مناف وقس على ذلك .

وكل من القبائل او البطون او الافخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر

مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية او اليمنية والقبائل العدنانية .

... على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم (العجم) ويفاخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم ، شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس او ان العجم مشتق من العجمة ، فالعجمي عندهم غير العربي والاعجم الاخرس ، والاخزر عندهم الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص .

... والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فان الفرس في ايام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون . وكان هذا قد تعمد اذى العرب واخراجهم من بلاده وخصوصاً من قبيلة اياد وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور اصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

... وما زالت الضغائن بين العرب والفرس الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب ، وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده على العرب ان قال « فما الذي تفخر به العرب على العجم فانما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض فرجالها موثقون في حلق الاسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل » ..

الامومة والخؤولة . — الاصل في العصبية عند العرب الابوة او الانتساب الى الاب مثل سائر الامم الراقية ، على ان الامومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيراً ما كانت المزاوجة والمصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجمال ، وانما الفضل فيه للامومة فان المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير اماً فتعلو منزلتها وقتئذ وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لان الام في اعتقاده

ابقى له من امرأته. وكانت العرب من أجل ذلك لايعزون بالمرأة الا ان تكون اماً. وقد نشأت من ذلك عصبية الخوؤلة عند العرب وهي نصرة عيرة الام شلاولادها وبعبارة أخرى لعشيرة زوجها ولو كان الاب من قبيلة يمنية والام من قبيلة عدنانية أو بالعكس .

وكان للخوؤلة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ، واقرب الشواهد عليها نصرة اهل المدينة للنبي في هجرته اليهم ؛ فان الخوؤلة كانت من اهم اسباب نصرتهم ، لان ام النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية وابوه من قريش وهي قبيلة مضرية. وظلت الخوؤلة مرعية عند العرب بعد الاسلام وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان نصره بنو كلب وهم يمنية ، لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد . ومنها ان المأمون نصرة الفرس لان امه منهم وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية فلجأ المأمون الى خراسان واقام عند اخواله فاخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً وقد جندهم فنصروه على الفرس . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقودون احزابهم بالتزاوج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم .

توابع العصبية العربية . ـ فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ثم الام على انهم كانوا يجتمعون باسباب اخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات او المعاهدات الدولية في هـــذه الايام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيبين وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية .

... ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف (الموآخاة) وقد تكون بين

القبائل او بين الافراد ، ولاتزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن ، فاذا آخيت العربي اخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك اخوه .

سياسة الدولة في الجاهلية . ـ انما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملتهم لحفظ علائقهم السياسية وآدابهم الاجتماعية مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية في الامم المتمدنة .

فالرئاسة عندهم او الامارة انما ينالها اهل العصبية والجاه ، واذا تساوت العصبية في جماعة قدموا اكبرهم سناً ولذلك كان لفظ (الشيخ) عندهم يدل على الشيخوخة والرئاسة معاً ، واذا اشكل عليهم الانتخاب لاي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً فانهم يقترعون بين أهل الرئاسة فمن خرجت عليه القرعة رأسوه ـ ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرهم في مكة فالرئاسة فيهم لسادن الكعبة . وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرئاسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس وبيت آل ذرارة بن عدي من تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان وبيت بني الريان من بني الحرث ابن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها في الرئاسة على القبيلة . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة . وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي « ول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم » .

والامير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في احكامه ، ويغلب ان يستشير اهل بطانته وخاصته على انه لم يكن ليحتجب عن أحد ولا يمتهن احداً . يجالس الناس ويخالطهم رفيعهم ووضيعهم وهم لايعرفون ألقاب التفخيم ولا نعوت التمليق فاذا خاطب البدوي اميره ناداه باسمه وطالبه بحقه بعبارات تشف عن عزة النفس

وإباء الضيم او هي أنفة البداوة ، على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان والامير يخاطب رعاياه بالقاب الوقار كالأب والعم والخال والابن او ابن الخال على ماتقتضيه الانساب والاسنان وظل ذلك شأنهم في صدر الاسلام ينادون الخليفة باسمهم — او بأمير المؤمنين — ويحاجونه في شؤونه حتى اذا تحضروا استجبوا وتكبروا فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم.

مناقب العرب في الجاهلية . — على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل الخصومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » لانه اذا تأصل في امة اغناها عن القضاء . والحكومة انما تقضي بين الذين لايعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكناً في خلق العربي ويزيد تمكناً فيه كلما بعد عن المدن واوغل في الصحراء . لان الغدر والنكث لا يعيشان الا في القصور الشماء بين الحدائق الغناء .

ونرى (الوفاء) مطبوعاً في اقوال أهل البادية واشعارهم وامثالهم يتجلى في عاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف. وحكاية حنظلة الطائي والنعمان ابن المنذر تمثل هذه الخلة أحسن تمثيل . فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ، ولم يقدم شريك على ذلك الا هو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجاء في الوقت المعين لا جند يقوده ولا ضابطة تخفره مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة . واغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) ابن عادياء، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالاً كثيراً وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة والامتعة المودعة عند السموأل فلم يسلمها . ولما ألح عليه اجابه « لاأغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا اترك الوفاء الواجب علي »، فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره

في حصنه، فوقع ابن السموأل اسيراً عند الملك فهدد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة فابى التسليم وقال « ما كنت لاخفر ذمامي وأبطل وفائي فافعل ماشئت » فذبح ولده والسموأل ينظر. فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً. واما السموأل فصبر على ماتحمله من الثكل محافظة على الوفاء ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرئ القيس . فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين واستغنوا عن الجند والضابطة وخصوصاً اذا اضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنيئة فهذه كلها من مناقب العرب لهل البادية .

الجوار ؛ ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام ايضاً (الجوار) فان البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الاصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب ،وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل « جارك القريب ولا أخوك البعيد » ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار وكلها بمعنى الحماية والحفظ مع ان اصل المادة « جار » يفيد ضد ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق فاذا خاف احدهم سوءاً جاء الى رجل يحميه ويكفي ان يقول له « اجرني » فيجيره بقدر طاقته ولا يفرط بجاره . ومن امثلة ذلك ان الاعشى امتدح الاسود العنسي فاعطاه جائزة من الحلل والعنبر فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على مامعه من المال فاتى علقمة بن علاثة فقال له « اجرني » فقال « قد اجرتك » قال « من الجن والانس » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « لا » فتركه واتى عامر بن الطفيل فقال له « اجرني » قال « قد اجرتك » قال « من الانس والجن » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « وكيف تجيرني من الموت » قال « اذا مت وانت جاري بعثت الى اهلك الدية » قال « الآن علمت انك تجيرني » . وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى جانب طنب البيت فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته المستجير به

ان يجيره وان يطلب له بظلامته . ومن قبيل تعظيم والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصاباً ميلاً في ميل على قبره لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولاماش اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياتـــه .

وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الاسلام الا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لان اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه فاذا استجار به مظلوم قالوا « انما نجير الرجل على عشيرته وأما على سلطانه فلا » خوفاً على مناصبهم . كما أصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالاحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ امير البصرة فأبى الاحنف خوف العزل وقال له « اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت » فذهب الى غيره من وجهاء العرب فابوا اجارته لنفس هذا السبب .

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري او القوة الحاكمة (الاريحية) وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية او ما يجري مجراها من أحوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة . وكان للاريحية شأن عظيم عند العرب لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم لانهم اهل خيال وذوو نفوس حساسة يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يسمعها ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهلة في المواسم والاندية مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام .

وقال الاب لامنس اليسوعي في مجلة المشرق ج ١ السنة ٢٣ في مقال له عن (الثأر عند العرب وصفته الدينية) :

« لم يقم شعب من الشعوب بما قام به البدو في سبيل تعزيز صلات القرابة

الدموية. وليس هذا الاهتمام بما وراء الحياة او لان الموت شغلتهم اسراره الغامضة فطمحوا الى معرفة الحياة الاخرى. انما كانوا يعتقدون ان في الدم المبدأ الحيوي او «النفس السائلة» كما قالوا (المسعودي: مروج الذهب ٣ : ٣٠٩) ولهذا فقد رأوا ان سفك الدم يتطلب الانتقام ضرورة. وانه اذا لم يأخذ ولي الثأر بثأره اي اذا لم ينتقم قريب القتيل لقتيله فان الدم المسفوح يقع إثمه على رأس الولي حتى آخر نقطة. ومما زاد هذا الاعتقاد رسوخاً في أذهانهم فرفعهم فوق الانانية والفردية اللتين اتصفوا بهما هو تحققهم ان ظل الدم او عدم الانتقام يفكك اواصر الاسرة وهي آخر الحلقات الاجتماعية بل الحلقة الوحيدة المعروفة في تلك الحياة الفوضوية في بلاد العرب.

ومن ثم فان مصرع النسيب والجار يزيل حالاً ما يكون من الاختلافات بين أفراد الاسرة او القبيلة فيعيد الاتفاق الظرفي ويوحد النزعات في سبيل طلب الثأر بل ان هذا الواجب طلب الثأر يفعل الافاعيل العجيبة في تلك الطبيعة البدوية الجانحة الى التواكل والكسل .... انه يحول الفتيان الضعاف بل الجبناء الى رجال اشداء لا يتراجعون امام عقبة ... ولا يخرج النساء عن هذا المظهر الذي يكاد يكون قاعدة عامة. فان أمهات القتلى واخواتهم يعادلن الرجل ... حماسةً واندفاعاً في اظهار تلك العاطفة الانتقامية باشعارهن وأناشيدهن المهوسة حتى يثرن ما كمن في صدور الرجال ويدفعنهم الى الاسراع في طلب الثأر وهو الفرض الديني كما سنرى. أو لم يجعل هذا الفرض من امريء القيس، ذاك الشاعر العابث، معاقر الخمرة ورفيق الملاهي، بطلاً ثائراً لا يرتوي ظمأه من الدماء ولا يهدأ اضطرابه إلا اذا أخذ بثأر أبيه.

ولا يخالن القارىء ان الدافع الى طلب الثأر فطرة دموية في البدوي او غريزة انتقامية هائجة. لا انما هو عاطفة برّ بالأهل تهيب به الى ارواء «صدى» القتيل بدم القاتل حتى وان كان ذاك القتيل قد نبذ ولي ثأره في حياته، فطرده من

أسرته كما فعل حجر الكندي بابنه امريء القيس . فلم يمنع هذا ابنه ان يطالب بدمه قائلاً «ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً» . هو دين الاسرة يفهمه البدوي كل الفهم ولا يناقش فروضه بل يخضع لها كل الخضوع . بيد انه لا يغفل عما تجره عليه هذه الفروض من اقتحام عقبات وتعرض للموت... فيقول :

أقول لنفس لا يجاد بمثلها اقلي العتاب ، انني غير مدبر

... ولقد أدى الامر بالبدوي في هذا النزاع بين واجب الثأر ونفور النفس من القيام به الى اختراع قيود مخلفة دخلت في «طقسيات» الثأر. الغاية منها مساعدة البدوي في تذكيره الدائم بواجبه وتقوية ارادته ودفعه الى قتل القاتل، من ذلك انه عمد الى نفسه المفطورة على الحرية بل على الفوضى فقيدها بسلسلة من التقشفات والتضحيات تضير أنانيته وشهوانيته معاً. بل تذهب الى ابعد من ذلك اذ تبدو لديه وعليها مسحة دينية من « الاحرام » ... فكان بأن يمتنع ولي الثأر عن الكحل والدهن والطيب واللحم والخمر وألفة النساء والاجتماع الى افراد أسرته ... إلا إن العادة خففت شيئاً فشيئاً من هذه التحريمات فرفعت منها هجر النساء والاسرة... ومن اوضح الحوادث دلالة على شريعة الاحرام هذه ما ذكره صاحب الاغاني عن ريحانة بنت معدي كرب من أنها قالت لدريد بن الصمة بعد حول من مقتل اخيه «يا بني، ان كنت عجزت عن طلب ثأر أخيك ، فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد.» فأنف من ذلك وحلف لا يكتحل ولا يدّهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره . فغزا هذه الغزاة وجاءها بذؤاب ابن اسماء فقتله بفنائها . وقال : هل بلغت ما في نفسك ؟ قالت نعم متعت بك »(الاغاني ٩ : ٧)

... واذا قام الولي بنذر ادائه وفى عهده وأخذ بثأره فانه يعود الى الحياة العادية فخوراً بعمله محللاً لنفسه كل ما كان قد حرمه فيقول كما قال المثلم بن عمرو الكندي مشبهاً واجب الثأر بالهم الثقيل كالجبل :

اني ابى الله إن اموت وفي صدري هم كأنه جبلُ

يمنع مني طعم الشراب وان كان رحيقاً مزاجه عسل
حتى نفضت الوتر العظيم ودا نيت بيوتاً وبينها خلل

... البدوي ليس شرساً من فطرته ولا ميالاً الى سفك الدماء على رغم ماينسب اليه الحضريون من اعمال القسوة والهمجية . ولد البدوي في بيئة قاسية محرومة فنشأ فردياً انانياً لايتكل الا على نفسه فكان انه قدر كافضل مايكون قيمة الحياة البشرية ونفر على توتر اعصابه وسرعة تأثره من التسرع في اهراق الدم . هو يكره القتل ولا يلجأ اليه الا في ماندر وفي حالة الدفاع عن النفس وحدها . وما كان (الثأر) الا من هذه الحالات تصبغه العادة بالصبغة الدينية فترتفع به الى مرتبة المؤسسات والعقائد . وليس نفوره من اهراق الدم نتيجة التأثم والندم او التوبة لا، فان البدوي اذا مادفع الى قتل مثيله لا يشعر بانه ارتكب عملاً شائناً من تلك الاعمال التي يسميها « الفواحش » او « المخزيات » ... والجميع يرون في القاتل لامذنباً بل شقياً مسكيناً ـ (حامل دم) ـ تهور في اندفاعه ولم يتمالك أعصابه او خانته الاحوال فدفع الى القتل . فيجتهدون كل على قدر استطاعته في تخليص ذاك المسكين من مأزقه وفي معاونته على تأليف الدية ـ اذا مديده مستعطياً جمعها ـ وهم معتقدون ان كلاً منهم قد يصيبه يوماً ما أصاب هذا المسكين فيصبح بحاجة الى معاونة افراد القبيلة وحلفائها في جمع نياق الدية .

... هذا النفور من اهراق الدم ينتج عند العرب من شريعة الثأر تلك الشريعة القاسية التي افهمت البدوي ان كل قاتل يقتل . فشعر بغريزته وعقله بمنفعتها الجمة وفهم انه لولاها لكانت معيشته عرضة للاخطار الدائمة في ذاك القفر ، بل لكانت حياته مستحيلة . وهو ما أقره القرآن بقوله: «ولكم في القصاص حياة » (١)

---

(١) الاستدلال بهذه الآية في موضوع اخذ الثأر فيه نظر . فالقرآن لم يطلب القصاص من الافراد على الافراد ، بل طلبه من أرباب الحكم والسلطان على ان يقاصصوا بعد بحث وتروي .

المؤلف

في القصاص حياة وفي الثأر حقن للدماء ولا سيما إبان الغزوات المستديمة في الجزيرة . ولا يخفى ما يحفها من مخاطر ومهالك يزيد هو لها ان هذه الغزوات اصبحت على قدر عهدها من العادات المألوفة في كسب المعاش عند العرب . على ان حياة البدوي تضمنها شريعة الثأر حتى في تلك الغزوات . والعرب اذا تكلموا عنها قلما يذكرون القتل . انما يلجأون اليها طريقةً للكسب ويتخذونها وسيلةً لليسر مخطرةً دون شك. ولكن قلما يصل خطرها الى الموت . وهذا حاتم الطائي اذا ما وجد نفسه عاجزاً عن إداء حقوق ضيفه صرفهم معتذراً طالباً منهم ان يعودوا اليه « بعد الغارة » .

ولينتبه الدارس اذا ما فكر بالثأر الى ما يبذله المتعاركون من جهود في اجتناب الضربات القاتلة . هم لا يقصدون في غاراتهم الا اموال المغار عليهم . اما حياتهم فليس من يرغب في الاعتداء عليها . ولا ينبغي المهاجمين ولا المدافعين إن يصلوا الى اهراق الدم . هو عراك على المواشي يقومون به بغاية ما يمكنهم من رباطة الجأش . ولنا من الامثلة العديدة ما يؤيد هذا القول . فان حوادث الجرح والقتل قليلة جداً في الغزوات حتى في ايامنا هذه ، بعد ان أخذ البدو يستعملون البنادق الحديثة . فهنالك كثير من دخان البارود ودوي الرصاص وقليل من الجرحى والقتلى . اما اذا ادتهم الحوادث الى سفك الدم فيكون الحظ قد خانهم ففقدوا السكينة اللازمة في هذه المعارك واندفعوا باندفاع اعصابهم الثائرة فنسوا صفاتهم الاصلية وتحولوا الى مقاتلين . على ان العادة الجارية حينذاك تفرض على الضارب الا يجهز على الجريح والا يسلب القتيل !

وعاطفة الثأر تسيطر وحدها على «ولي الثأر» او «الموتور» وهو صاحب الحق الشرعي بالاقتصاص من القاتل . وتكون الغاية المثلى ان يتمكن الولي من القيام بواجبه بسرعة . على ان هذه السرعة وهمية . فقد يمر على الموتور الاشهر بل السنون قبل ان يدرك ثأره ... وهو يقبل هذا الواجب كاثقل الواجبات الدينية . لانه حمل باهظ يحول بين الموتور وملذات الحياة العادية... فيتحول ذلك الاناني الفردي

الى كائن اجتماعي يدفع على الرغم منه الى التضحية بشهواته وبراحته في سبيل الاسرة والجماعة... ولهذا نراه يشجع نفسه ويحميها بكل ما لديه من وسائل شعورية فيقول لها تارة قول عمرو بن الاطنابة :

واقدامي على المكروه نفسي ، وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي او تستريحي !

... تصبح كل الوسائط التي يقوم بها البدوي في سبيل غايته صالحةً لا اثم فيها ولا حرج مهما كانت ومهما اشتملت عليه من غدر واحتيال ... يجول الولي بكل طمأنينة في احياء العرب مفتشاً عن ضحيته حتى اذا ظفر بواتره انقض عليه على حين غفلة فقتله وان نائماً خلافاً لما كان قد تقرر في عاداتهم من التأثم من قتل النائم وان عدو . .... بيد ان ولي الثأر قد يتردد في تنفيذ قصده اذا خاف ان يخالف مبدأً دينياً آخر ، كأن يخشى اذا ما قام بثأره ان يخفر ذمة الجار او ينتهك حرمة المعبد او الاشهر الحرم او حرمة قبر مكرم جعل ملجأً وملاذاً.

... هذا ولا يمكن ان يموت الثأر بمرور الزمن . فان هذه القاعدة الشرعية لا يعرفها البدو . انما يعرفون ويرددون :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

وتظل حقوق الثأر دائمة يورثها الآباء للبنين .... ولم يلبث هذا الفخر بادراك الثأر ان حور شيئاً فشيئاً نظر العرب الى الدية فاصبحوا يعتبرونها حاطة بمن يقبلها ولا يرضون الا الدم بالدم ...الخ .

* * *

هذا ما كان عليه عرب الجاهلية أو بدوها ، اما في العصور الاسلامية المتوسطة والاخيرة فقد اختلف الباحثون والمتكلمون عنهم وتضاربت أقوالهم في وصف احوالهم الاجتماعية واخلاقهم ومزاياهم فكل منهم وصفها بالعين التي نظر اليهم بها . فمن عين سخط ومن عين رضا ومن قادح ومن مادح ومن معتدل . ولكل وصف

قيمته وصحته وبراهينه . وسندرج هنا أقوال كل منهم ليختار القارئ لنفسه خلاصةً عنها .

من جملة من تكلم عن البدو ووصف احوالهم ومزاياهم في العصور المتوسطة المؤرخ الفيلسوف الشهير ابن خلدون المغربي المتوفي في سنة ٨٠٧ هـ . الا ان كلامه وان كان عن العرب عامةً ، لكنه قد قصد البدو والعريقين في جلفة البداوة فيما يظهر من وصفه ومن نظره اليهم بعين السخط . لان كلامه لا يشمل حضر العرب ولا كرام بدوهم ، فهؤلاء ليسوا في الدرك الذي رماهم فيـــه وحكم عليهم . وهو قد خاط بين العرب والاعراب وأصدر احكاماً عامة قاسية ولم يميز فيها بين عرب العصور المختلفة والطبقات المتباينة ، خاصةً وهو القائل بأن العربي كغيره من الناس يتغير بتغير الزمان والمكان .

ففي مواضع عـدة من تاريخ ابن خلدون اقوال منثورة تنطبق على البـدو الاقحاح خلاصتها فيما يلي بالفاظه :

ـ « انهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه اهل انتهاب وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر . والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم . وأما البسائط ـ متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة ـ فهي نهب لهم ، يرددون عليها الغارة والنهب الى ان يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم . وهم اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب لأنهم امـة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه اثافي للقدر ، ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه ، وليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً ، فاذا توصلوا الى ذلك اعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرياسة وقل

ان يسلم واحد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او أخاه او كبير عشيرته الا في الاقل فيتعدد الحكام منهم والامراء ، وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام ، فيفسد العمران وينتقض ، وانظر الى ماملكوه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه . فاليمن ـ قرارهم ـ خراب الا قليلاً من الامصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهـــد كذلك .

... وهم أصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع اهواؤهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او أثر عظيم من الدين على الجملة .

والمباني التي يختطونها يسرع اليها الخراب ، لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ، في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي ، فانه بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المصر ورداءته ، والعرب بمعزل عن هذا ، وانما يراعون مراعي ابلهم خاصة ، لايبالون بالمـــاء طاب او خبث ، ولاقل او كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والاهوية . وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعي ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الامم فيعمرها الناس ، فلأول وهلة ـ من انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها ـ اتى عليها الخراب والانحلال .

... وهم ابعد الناس عن الصنائع ، لانهم اعرق في البدو وابعد عن العمران الحضري وما يدعو اليـــه من الصنائع وغيرها. وهم ابعد النـــاس عن العلوم لان العلوم ذات ملكات ، محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع .

... وهم مع ذلك اسرع الناس قبولاً للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج

الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق ، الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهيء لقبول الخير .

وهم أقرب الى الشجاعة ، لأنهم قائمون بالمدافعة عن انفسهم ، لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية ، ونجد المتوحشين من العرب اهل البدو اشد بأساً ممن تأخذه الاحكام » .اه

ووصف الطبيب المشهور كلوت بك حياة البدو على عهد محمد علي وسر تعلقهم بالبداوة قال (١) :

ومن أخص صفات البدوي ولعه بالحرية والاستقلال يفاخر باصله على الدوام ويعالي الشعوب الاخرى بصراحة نسبه العربي الذي لم يعرف فيه الشوب ولم يرأم قط لمذلة . يقنع البدوي بالقليل من لبن النياق ، ولا يأكل اللحم الا في الاعياد الكبيرة وغالباً ما يقع النظر على نسائهم وهن مشتغلات على متون الهجن يدرن الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجناً ثم انضاجاً على الواح من حديد يوقدن النار تحتها كلما خطت القبيلة رحالها في مكان .

تصون معيشة الصحراء اخلاقهم من الدنس ، والبدوي بطبعه يمقت الزنا ، والفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة إغواؤها ، واحترام الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم والذين يجرؤن على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبيلة من العفة والطهر يعرضون حياتهم لخطر الموت ، وللمرأة عندهم من الحرية مثل ماللرجل ، ولها من هذه التقاليد الحارس الطبيعي الامين .

فاذا نزلت قبيلة بمكان انتظمت الخيام على خط مستقيم واحد وعادة تكون هذه

---

(١) من كتاب « لمحة عامة الى مصر ـ لكلوت بك المتوفى سنة ١٢٨٥ / ١٨٦٨ تعريب الاستاذ محمد مسعود ، طبع مصر

الخيام من الوبر الاسود والاسمر عدا خيمة الشيخ فتمتاز بالوبر الابيض (١) ولكل قبيلة راية ترفع امام خيمة شيخها . وفي هذه الخيمة يكرم مثوى الغرباء وتطرح الآراء وتدور رحى المناقشات في شؤون القبيلة لتقرير مايتفق مع مصلحتها.

ولكل قبيلة نصيب من الصحراء وحدود تنتهي اليها مراعيها الخصبة وخفارتها. وكثيراً ماتستدعي القبيلة على مراعي جارتها او خفارتها فتقع الحروب بعد الانذار دائماً . وهنا تظهر الشجاعة والاقدام على اساليب العصور الاولى، والمرأة البدوية تشترك في الحرب وتستنهض البنات هممهن خطبائهن ويعدنهم قرب الزواج مكافأة على انتصارهم المأمول وتحرض اجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة اياهم جميعاً بان تهب نفسها لمن يحرز منهم في القتال أو في قسط من المجد والفخار .

... يجهل العرب الاستعباد السياسي جهلاً تاماً ، خصوصاً اذا كانت بلادهم بعيدة عن المراكز الحكومية . اما نير الاستعباد الديني فكالأول تقريباً . اذ العرب اسلامهم على فطرته الاولى بعيد عن التعاليم الدقيقة ومذاهب أهل الكلام فهم يتخلصون من قواعد الدين بالسفسطة ، يقولون مثلاً : اذا لم نؤد فريضة الصلاة فلأن الماء ينقصنا للوضوء ! واذا لم نتصدق فلاننا فقراء احق بالزكاة من غيرنا ! واذا لم نصم رمضان فلاننا نصوم طول العام من الجوع ! واذا لم نحج بيت الله الحرام فلان بيت الله الحرام حيث يصلي الانسان .

وليس في اذهان العرب شيء من العلوم ، لان السواد الاعظم منهم اميون لايقرأون حرفاً ولا يكتبون . لكن مواهبهم العقلية بالغة اقصى مبلغ من الاتساع وكذلك مواهبهم الجسمانية التي يقويها نسيم الصحراء النقي من الشوائب ، وعلى هؤلاء العربان يعتمد السياح والمسافرون في اختراق الصحراء وهم خبراؤها منذ اقدم

---

(١) كذا ، وربما كان ذلك لدى اعراب مصر ، اما في بقية الاقطار العربية فخيمة الشيخ كغيرها تكون من الشعر الاسود، ولاتمتاز الا بكبرها ووفرة اعمدتها

العصور ، وبالنظر لحذقهم بالصيد ترى العربان انبغ الناس في اصطياد حيوان الصحراء .

ولا ريب ان العرب كقطعة النقد ، اذا سرك منها منظر وجه ، ساءك منظر الوجه الآخر ، لان مكارم الاخلاق وحميد الشيم ليست تتوافر في القبائل جميعاً فهي لا تستطيع مقاومة ميلها الفطري للنهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها ان الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها من بواعث خوف المسافرين على حياتهم ومتاعهم .

وأهل البادية يرون انفسهم في حالة حرب لايخمد ضرامها مع الحضر ، وهم يبيحون لانفسهم كل مايبيح العدو لنفسه من عدوه من ضروب التعدي والسلب والنهب . وكان هذا على الدوام شأنهم معهم ، اذ يرون ان ما يسلبونهم اياه انما هو من الغنائم الشرعية والفيوء التي لم يحرمها الله في كتابه .

وطالما ازعجوا جيش الحملة الفرنسية على مصر بما تراءى للجنرال بونابارت ان يكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة . كان كل هجين فيها يحمل رجلين قال ذلك الرجل العظيم في مذكراته : « اذا كان موقع مصر الغريب وهو البلد الذي يستمد ثروته من فيضان النيل يقتضي حسن الادارة لانتظام شؤونه واستقامة احواله ، فان ضرورة كبح جماح ٢٠— ٣٠ الفاً من اللصوص المتصحين بفسيح الصحراء حيث لاتنالهم يد العدل تدعو الى ان تكون تلك الادارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها في افئدة اولئك الاشرار فلا يعيثون فساداً في تلك الاقطار » . وقد بر الافرنسيون بقول بونابارته فما كادوا يحتلون مصر حتى كسروا شكيمة البدو وقبضوا على ناصيتهم فلم يتمادوا في باطلهم .

... وكذا حذا حذوهم محمد علي فالزمهم الوقوف عند حدهم . وكانوا قد بلغوا في عهده من الجبروت والبأس حد النهاية ، حتى كانوا يفرضون الاتاوات على سكان مصر ، وكانوا يتهددون بالزحف على القاهرة نفسها ، وكان لا يجرؤ

واحد على زيارة الاهرام بغير رضاهم وامرهم ، وكانت القوافل التي تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الباهظة من المال ، فسلك معهم مسلك المهادن اولاً وعقد معهم الاتفاقيات فهتكوا شعارها وخاسوا بعهودهم غير مبالين ولا هيابين فعول على قمعهم وتأديبهم ، وسير لقتالهم الفرسان والمشاة فأخذت عليهم الآفاق وسدت عليهم السبل حتى اضطرتهم الى التماس الصلح واستمناح العفو فاشترط في عقد الصلح معهم ؛ ان يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن ، وأجرى عليهم الارزاق والمرتبات لمعاشهم فهدأت حالهم .

ولما غامر محمد علي بحروبه في السودان وجزيرة العرب والشام عرض عليهم تشكيل فرق منهم واقترح ان يدفع لهم الاجور مقابل خدمتهم على شرط ان يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته . وقد افادت هذه الفرق المساعدة للجيش المصري من الوجهة العسكرية فكانت كفرق القوزاق غير المنظمين في جيوش الروسيا ، وكانت عليهم مهمة استطلاع العدو ومطاردته اثناء الهزيمة او معاكسته في اثناء انسحابه ، وهم من أصلح الناس لهذه المهمة . والعربان هم الذين اسروا رشيد باشا قائد الجيش العثماني في معركة قونية خلال الحملة الاولى على الشام (١)

ومما لاريب فيه ان هذه حكمة تعذرت على علي بك الكبير (٢) الذي عقد

---

(١) هؤلاء هم اعراب الهنادي الذين قدموا مع ابراهيم باشا بن محمد علي باشا وقد ابلوا وقتئذ بلاءً حسناً في الحروب التي خاض غمارها في فتح الشام والاناضول (١٢٤٨ — ١٢٥٦) كما وصف الطبيب كلوت بك . وقد ظل بعضهم في بلاد الشام الشمالية واستقر . ومن أعقابهم الآن جمع غير يسير في محافظة حلب في أقضية منبج والباب وناحية صرين من قضاء جرابلس (انظر ابحاث عشائر هذه الاقضية)

(٢) علي بك الكبير من عظماء المماليك الذين حكموا مصر في أواخر العهد العثماني . اشتهر بشجاعته ودرايته ؛ واعانته ظروف تلك الحقبة فاستولى على ادارة القطر المصري في حدود سنة ١١٨٠ وامتدت مطامعه الى جزيرة العرب والقطر الشامي ففتحهما ، وظل في الحكم سبع سنوات الى ان قتله مماليكه .

النية على ابادة العربان جميعاً للتخلص من شرهم ، ونكل ببعض القبائل وقضى عليها واضطر أكثرها الى الفرار الى الصحراء هرباً من المجزرة . فقد كان علي بك غير مصيب لما هو ثابت من فائدة وجودهم وعلى الاخص في زمنه . لان الجمل سفينة الصحراء والعرب هم ربانو هذه السفن وقادتها في هذا الاوقيانوس الارضي الذي لاأفق له . والعربان وحدهم هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز الفلوات الرملية المترامية الاطراف الى اقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية . والعربان هم الذين يقدرون دون غيرهم ان يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد على حفافها . فالاحتفاظ بهم يتم الاستفادة والمزايا المتوفرة فيهم والتي لايجاريهم فيها مجار . (١) اه

ومن الباحثين المعاصرين لنا الذين وصفوا أحوال البدو واخلاقهم ومزاياهم في عهدنا الاستاذ عباس العزاوي العراقي في كتابه المستطاب « عشائر العراق » وهو قد نظر اليهم بعين الرضا فقال :

ضيق المعيشة وضنك الرزق وقلة الموارد قد تحمل المرء في لبس من تصديق ان البدوي لا يكذب وانه صريح القول ، ينفذ ما عزم على فعله وما قطع في أمره ... وهو في هذه الحالة لايشهد كذباً ولا يحابي .. وفيه من الشمم والاباء والعفة بمعناها الصحيح واكرام الضيف وحمى الجار والنزيل مالا يوصف . شاهدنا وقائع اعترف فيها البدوي انه قتل او انه انكر القتل فلم يحالف ولم يخن امانة ووفى بعهده

---

(١) هذا الكلام كان صحيحاً ونافعاً قبل اختراع السيارات واستعمالها . اما وقد عمت السيارات وصارت تجوب الصحارى والبراري في طولها والعرض لم يعد للعربان نفع زائد في ما ذكره كلوت بك . على انهم وان فقد نفعهم هذا اوقل هم منتجوسمون الحواضر ولحومها واصوافها ومربو الخيل والغنم والابل وبعضهم مربو البغال والحمير والبقر اللازمة للعمران ، وهم رأجدو الزروع ، واذا استقروا وهدأوا منهم اليد العاملة للحرث والزرع وبهم يمتلأ فراغ الضياع والقرى ..

وهكذا ... وكم أخذتنا الحيرة في وقت لانراه يقدم على الكذب وهو في أشد المواطن خطراً وأعظمها حراجاً . نرى اوصافاً كثيرة عند البدو ولا نجدها عند غالب اخوانهم من الحضر ، فكأن البداوة ملازمة للصدق والانفة من الخديعة والكذب وكأن الحضر غير منفكين من الاوصاف الرديئة الا من عصم الله تعالى . ذلك مادعا ان يأمن الحضري معاملته مع البدو ، وان يتخوف من اهل المدن وحياهم والطرق التي يتخذونها لسلب ماعنده فهو في حذر وخوف حتى اذا اشترى بضاعة يشترط ان تكون (سالمة مسلمة للمناخ) ، وهكذا ... ونخشى في هذه الحالة ان تتطرق اليهم بعض صفات اهل المدن الرديئة وتنقل عدواها ، وان القائمين بامر اصلاح المجتمع يحتم عليهم الواجب ان يلاحظوا هذه المهمة وان يتذرعوا بوسائل مانعة من التسرب الى هؤلاء وان يسيروا بهم الى التربيـة الحقة ...

نعم ، قد تكون في البدوي بعض الصفات التي اكتسبها من حاجته ومحيطه ويهز أيمن يذمها او يلومه من اجلها امثال الغزو ولكن بالنظر الى منع حوادث الغزو والاتفاق والتكاتف بين الدول المجاورة على منعه تغيرت هذه الحالة وماتت من نفسها وصار يشربان ماله ما اقتناه من طريق مشروع .. وستقوى هذه الخصيصة ويتعود مغزاها .... ومهما كان الامر فالبدوي يغزو وينهب ويقتل ولكنه لا يكذب ولا يخدع ولا يخون الامانة ولا يقبل بذل ، يعيش بعز ولا يرضى ان يهان ، حر الضمير ، صريح القول وعفيف الذيل في غالب احواله . وهو ايضاً كريم بطبيعته شريف في نفسه أبي لا يتردد عن معونة ولا يحجم عن مساعدة ... والقلم ليعجز ان يجري في بيان كل خصاله الحميدة المقبولة .. والمرء ينجذب بل يكون مغرماً باوصافه هذه وأتمنى ان تكون هذه بصورة عامة عندنا ، وان نمضي على كثير منها . سجايا قوية ، عالية لاتفترق بوجه عن اوصاف العرب القدماء ولاتقل عنها ويعوزها ماأعوز تلك من اصلاح حقيقي وتهذيب اجتماعي لايشبه ما نحن عليه اليوم ... وهم كما نعتوا انفسهم :

حنّا حما صا في الذهب وانظف من الخام الحديـــد

ولا نريدان يزيف هذا الذهب او تنال ذلك الخام نكتة تكدر لونه او تؤدي بصفاته وجميل رونقه .. فاذا كان :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

فالاخلاق فاضلة وعزيزة لم تدخلها التطرية ، حسنها طبيعي وسالم من العذاريب الكثيرة كما يصطلحون عليها. اه .

وقال الاب انستاس الكرملي في كتابه (خلاصة تاريخ العراق) وقد اتخذ نحو البدو عيناً متوسطة معتدلة : اخلاقهم غريبة كل الغرابة ، اذ تجتمع فيها المحاسن والمساوئ معاً او المناقب والمعايب معاً ، وهذا ينشأ من انفرادهم في البراري وضرورات الازمان ومخاطر الحياة في البوادي التي احتلوها مما يجعل دمهم فواراً ومزاجهم متقلباً بتقلب اهوية الفلوات وتخيلهم ميالاً الى كل قوة طارئة ميل الكلاء الذي يأنس اليه ويعيش في وسطه ويأخذ عنه تموجه عند ادنى حركة في النسيم . فمن فضائل البدوي ومحامده انه في غاية الصبر حتى لايكاد يجاريه فيه احد فهو يحتمل الحر والقر والجوع والعطش والتعب والراحة والشغل والبطالة وكثرة الشيء وقلته بنفس واحدة بدون تبرم أو تضجر . ومع هذا الصبر العجيب قد يثور فيه الغضب العظيم ويطلب الثأر الشديد إذا اهانه احد او احتقره اوشتمه. ـ البدوي طماع وسلاب ، فاذا رأى عندك شيئاً لماعاً أو رناناً او حسن اللون مال اليه وأراد أخذه منك ، لكن عند اكرام الضيف ينسى كل شيء ويجود لك بما لديه . البدوي شديد الوطأة إذا أراد سلبك ونهبك .ولكنه لايقتلك واذا احتميت به او نزلت خيمته أعزك وأبدى لك من الظرف وحسن المعاملة مالا تجد مثيلا له في اوغل الناس في المدنية . ـ البدوي ينظر إلى السلب والنهب والغزو بغير العين التي ننظر بها اليها ، والذي يجيزله ذلك فقر الارض التي وجد فيها فهو ينظر إلى عابر السبيل بمنزلة رزق ساقه الله اليه ، إذ ان هذا العابر لابد أن يصل محلاً فيجد فيه مايستغني عما خسره في رحلته ، ولذلك يجيز لنفسه ان يسلبه ولكن لا يتعرض

لحياته البتة . وهو لا يميز بين الحرب والخدعة فما يأخذه بقوة السلاح في الشبكة التي نصبها للمسافر أو في عثوره عليه هو بمنزلة كسب أو ربح وعنده لا فرق بين سلب ابن السبيل وبين فتح مدينة أو بلاد معادية هجم عليها وأخذها ـ . والذي يميز البدوي كل التمييز ويفرقه عن سائر الخلق حبه للحرية والاستقلال ؛ فقد بلغت به هذه الشاعرة مبلغاً لا يمكن للحضري أن يتصورها فهو يفضلها على كل موجود على الارض مهما كان ، عزيزاً أو ثميناً . ومن يحاول أن يقيد البدوي بقيد من القيود كمن يحاول تقييد السنونوة في قفص فانها لا تزال تضرب جدران القفص برأسها حتى تموت مفضلة الموت على الحياة ، ولذا ترى البدوي يحتقر ابناء المدن إذ البقاء فيها هو القضاء على حريته ، تلك الحرية التي احتفظ بها منذ خلق الخلائق إلى يومنا هذا . إذ أهل البادية وحدهم بقيوا محافظين على معيشتهم بينما ترى سائر الاجيال خضعت للقيد والحصر والضيق ـ البدوي سريع الخاطر متوقد الذهن ولو لم يدرس العلوم والفنون ؛ فإن ذكائه فطري وسليقته سليمة من معايب التمدن وليس من بدوي إلا وتراه شاعراً يصف لك الامور على حقائقها ودقائقها ، إلا وتراه بليغاً إذ لا يكلمك إلا ويقنعك بسحر كلامه ، إلا وتراه خطيباً لما يسرد لك من المبادئ الصادقة المغزى والمعنى والمبنى بصوت تسكرك نغمته ونبرته ـ البدوي يصدق كل ما تقول له من الخرافات والاقاويل الصبيانية لسلامة نيته . ـ البدوي تجيش نفسه لادنى وصف او اغراء لكون خياله يضارع هواء باديته الذي يتقلب بين برد ودفء وحر وومد في النهار الواحد ـ البدوي يحب الاحاديث الخيالية والاقاصيص الملفقة أو الشبيهة بالملفقه مما يكثر فيها الاوهام والمحالات . ـ البدوي قابل لكل شيء عظيم إذا ما عرف العاقل ان يسوسه أو أقنعه بفكر ظهر له فيه منفعته . ـ البدوي يتلون بلون الحرباء ويتقلب تقلب الطفل ، تقول له شيئاً فيصدقه ثم يأتيه آخر فيخرجه من فكره بالسرعة التي دخلها ـ البدوي لا دليل له إلا سليقته الوقتية ويحكم على الامور بموجب ظواهرها

ولا يهمه بواطنها، وهو ينخدع بالبوارق وينقاد لما فيه جلبة وزخرفة — البدوي وحده لم تتغير صفاته وإن تغير الزمان . طالع ماجاء في الكتب المقدسة من وصف اخلاقه وقابلها بما هو عليه الآن لا تجد فرقاً ، والعادات والسنن التي يجري عليها اليوم هي نفس العادات والسنن التي جرى عليها أجداده في سابق الزمن وعلى طبق ما نراها مدونة في أسفار الاقدمين الذين جاوروه أو عاشروه . ولهذا تجد كثيراً من الامور التي اعضل فهمها على العلماء والمؤرخين ، زال عنها الاوهام وانهتكت أستارها عندما وقفوا بأنفسهم على أهل البادية المعاصرين لنا — البدوي يحتقر الموت ولا يعده شيئاً فهو شجاع مستبسل منذ صباه فالموت عنده شرب كأس لاغير ، ولهذا كثيراً ما يموت قتلاً وهو الموت المرغوب لكل واحد من الاعزة . وقد نعتوا الموت بنعوت منها الموت الأسود ، وهو الموت خنقاً لان لون المخنوق يكون أزرق وهو عندهم اسود ، والموت الاحمر وهو الموت قتلاً لان دمه يسفك والموت الابيض وهو الموت فجأة لان كثيراً ما يبقى لون المفاجأ بلونه الطبيعي ، وإذا مات البدوي حتف انفه يقولون عنه فطس أو هلك . — والبدوي الضعيف الدنيء خوّان أو غدّار وهو كثيراً ماينضم إلى القوي من الناس ويقتل وينتال من خفره . فاننا نقرأ في التاريخ أن بطليموس السادس انتصر على صهره اسكندر بالاس فذهب هذا والتجأ إلى أهل البادية ظناً منه أنه يجد ملجأً فيهم منيعاً . إلا ان زبدئيل غدر بآداب الضيافة وضرب عنق زائره تقرباً من بطليموس وديمتريوس ، ثم بعث برأسه إلى ملك مصر . ونرى سليمان باشا وزير بغداد القتيل احتمى في طريقه بقبيلة الدفافعة فنزل عند شيخهم ، فلما درى صاحب البيت ان المحتمي به مهزوم غدر به وقتله . واقرب مثال شاهدناه هو ما رأينا في الحرب العامة الماضية فإن اعراب باديـــة العراق كانت تقتل دائماً فلول العسكر . فان كان المكسورون اتراكاً قتلوا الاتراك وحاموا الانكليز وإن كان المقهورون انكليزاً قتلوا الأنكليز ودافعوا عن الاتراك . هذه كانت أعمالهم في مدة الحرب التي كانت تدور

في هذه الانحاء بين القومين المتقاتلين فتلك هي اخلاق البادية فهي حقيقة مجمع اضداد وملتقى محاسن ومساوئ على ما افتتحنا به كلامنا وهو من اغرب الامور قلما يخطر على بال انسان . اهـ

وقال الاستاذ اديب وهبة من شرقي الاردن في كلمة له عن البدو مندرجة في خطط الشام (ج ٦) وهو ممن نظروا اليهم بعين الرضا :

« ان سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالاخطار والمشاق وبعده عن الحامية وانتباذه الاسوار قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري منها الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة . فتوغل البدو في البادية وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال واستعداد دائم للقتال فاصبحت الشجاعة فيهم طبيعية ، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجأ الى العصبيـة ، وهي التضامن المطلق بين افراد القبيلة حتى تطلب العشيرة باجمعها بحق افرادها ، وأقرب اسبابها لديهم الاخوة والابوة والعمومة . ومنهـا تتألف الاسرة ، ومن الاسرة تتألف الفصيلة وتتدرج بهذه الصورة الى القبيلة والذى عليه عشائر شرقي الأردن انها تطلب وتطالب بحقوق افرادها الى الجـد الخامس من جدود الطالب والمطلوب ، اي كل فرد يتصل مع ابيها بالجد الاول والثاني او الثالث الى الخامس له الحق بطلب حق قريبه ، وعليه ان يخضع للحق المطلوب منه . ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثة . ثم ان ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الارض المقفرة يضطرهم الى اكرام الضيف والقاصد وحماية الضعيف والملتجئ حتى اذا وقع احد افراد قبيلتهم بمثل هذا الامر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ماأسلفه . وان مطاوي التاريخ العربي مستفيضة باقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب . والبدوي يعتقد انه لاذكر له ولا أرث افضل من سمعة الكرم والجود ، وان هذه المزية لاتزال عند بدو شرقي الاردن على ماكانت عليه في زمن اجدادهم الجاهليين فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنياً كان او معدماً الا ويسرع لتهيئة كل

مايرضيه ويسره، وان الكثيرين منهم يضطرون الى تحمل اعباء الدين الثقيلة لارضاء قاصدهم . واذا استأمنهم مستأمن على امانة فدوا لحفظها اموالهم وأولادهم وانفسهم وكذلك اذ التجأ اليهم خائف او استجار بهم مظلوم او نزل عليهم موتور مطرود» اه

وقال الاستاذ حافظ وهبة الوزير المفوض للمملكة السعودية بلندن في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) : اما البدو فهم القبائل الرحل المتنقلون من جهة الى اخرى طلباً للمرعى او الماء . والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة .وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ، ولكنه وهو متمتع باكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية اخرى . هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ،وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدوي ينظر الى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ مابيده او حرمانه من المرعى ، ان البدوي في الصحراء لايهمه الا المطر والمرعي فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج مادامت أرضه مخضرة وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحما . اما اذا انما السكان وضاقت بهم الأرض او لم تجد أراضيهم بالمرعى ، فليس هناك سبيل الا الزحف والقتال او الهجرة ان كان هنالك سبيل اليها . وكذلك القبيلة التي غلبت على امرها وحرمت من مراعيها واراضيها ليس امامها سبيل آخر سوى الهجرة ، وهذا يفسر الهجرة من وقت الى آخر الى العراق والشام ومصر واستعمار الجزء الشمالي الغربي من أفريقيا ، وتدفق شمر الى مابين النهرين وقبائل عنزة الى الحماد ،فكلها نتيجة تغلب غيرهم عليهم من القبائل واضطرارهم الى ترك اراضيهم التي لم يعد لهم سبيل في الاقامة بها لضيق وسائل الحياة .

... وقد جرى العرف ان القبائل تعتبر الارض التي اعتادت رعيها والمياه التي اعتادت ان تردها ملكاً لها لا تسمح لغيرها من القبائل الاخرى بالدنو منها الا باذنها ورضاها . وكثيراً ما تأنس احدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق

انذار على قبيلة اخرى وتنتزع منها مراعيها ومياهها . ان قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل . فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في ايدي الناس .

ومع ان الدين الاسلامي ابطل كثيراً من العصبيات القديمة واحل محلها الاخوة في الدين (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم او عشيرتهم) فقد عادت العصبيات بشرورها في بلاد العرب مرة اخرى، والفضل الان في استتباب الامن والضرب على ايدي المفسدين يرجع الى جلالة الملك عبد العزيز وسهره واقامة احكام الشريعة وسرعة تنفيذها .

ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ؛ ولذا كان اعتماد الامراء على الحضر ، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه . وكثيراً ما كان البدو شراً على الامير المصاحبين له . فان ذلك الامير اذا مابدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجون بانهم هم اولى من الاعداء المحاربين . ولقد جرى كثير مثل هذا في الحرب الانجليزية العراقية مما كان يندهش له الضباط الانكليز ، لانهم لم يعرفوا ان صديقاً ينهب صديقاً ، ولكن البادية لاتعرف شيئاً غير النهب والسلب وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء . والبدوي لايرى حياة اسعد من حياة البادية ويرى الحاضرة حبساً لحريته وتنقله حيث يريد . كما ان أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لايعادلها شقاء ، ويصفون البدو بانهم جفاة غلاظ القلوب .

والبدوي اذا لم يجد سلطة تردعه او تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويخضع غيره بها . على ان لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامهـــا ، فالقوافل التي تمر بارض قبيلة

وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب ، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً ان يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بارضها ويسمون هذا (رفيقاً) .

والبدوي يحتقر الحضري مهما اكرمه كما ان الحضري يحتقر البدوي ، فاذا وصف البدوي الحضري فانه في الغالب يقول : حضيري تصغيراً لشأنه . ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء وانتقاد مايراه مخالفاً لذوقه او لعادته بكل صراحة ، فاذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من اين انت قادم ؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام ؟ وعن المياه التي مررت بها ؟ وعن اخبار الامطار والمراعي؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة وعمن في البلد من القبائل وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

وبعض البدو لايحلف كاذباً مهما كانت النتيجة . لقد شاهدت كثيراً من القضايا في الاحساء وغيرها كان البدوي ينكر اذا وجد مجالاً للانكار ،ويفلت بمهارة من الاجابة عما يسأل ، ولكن اذا وجه اليه اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه اذا كان مذنباً ولا يحلف بالله كاذباً وهذا امر يدعو الى الغرابة والاكبار ايضاً ، فانه يدل على شعور عميق بالخوف من الله ، وان هذا الشعور اذا احيط بالعناية والرعاية فانه ربما يوجه الى الخير او على الاقل الى الاقلاع عن الشر .

. . . ومع وجود الروح الارستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم ،فانه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الاخرى ، فالفرد وشيخ القبيلة والامير يأكلون جميعاً الرز واللحم والابن والتمر ،ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والقتر(الكوفية) ويتمتع افرادهم بحرية لا حد لها فالبدوي يقف امام الحاكم فيجادل في سبيل حقه ويستعمل كل الاساليب التي يراها موصلة الى ما يريد . اهـ.

وقال الاستاذ الشاعر خير الدين الزركلي في كتابه (مارأيت وما سمعت)

البداة هم البداة في كل عصر وجيل. يتطور المجتمع وتنقلب الدول وتكثر المخترعات ويتقدم الانسان ، وهم اولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر ، تغمزهم الحضارة فيمزات فينقادون خطوات وتأبى عليهم طبائعهم الا ان يعودوا القهقرى فاذا سجاياهم سجاياهم وأخلاقهم أخلاقهم كأنما جبلوا من طينة اسمها «سنة الله» لا تحويل لها ولا تبديل!

وهم على انفرادهم في خلالهم وعاداتهم انفراداً اوشكوا ان يكونوا فيه امة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها . فقد يشاركهم في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كثير الصلة بهم او قريب العهد في مساكنهم ومعاشرتهم من ابناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ولا سيما قطان القرى في الحجاز اخص منهم قرويي الطائف فان جلهم بداة يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خير زروعهم لا من لبن ضروعهم وفي هؤلاء من يغزو ويغزى كاصحاب المضارب لا فرق بين الفريقين ، الا ان ساكن القرية احرص على الاشتغال بحرث ارضه واستغلالها وساكن بيت الوبر اولع بالمغازي واحتياز الاسلاب بقوة الساعد .

ومن لطيف ما قاله هذا الاستاذ الشاعر في كتابه الثاني « عامان في عمان » المطبوع في مصر ١٣٤٣ (١٩٢٥) ... وجرى حديث في الصلت عن البداة وطرائق النجاة من شر المعتدين منهم ، فكثر المتكلمون ، وكانوا جماعة ، فلخصت حديثهم الطريف بما يأتي : يمر السالك في البادية بالاعرابي ، فينظر الاعرابي اليه نظرة الطامع به الوازن نفسه ، هل يستطيع سلبه ام هناك ما يمنعه ، فان رجح له الاول اعترضه وإلا تأوه ولوى وجهه، وفي نفسه ان غنيمة عرضت له وفاتت !.. ولا يخلو سالك البادية من أن يكون أحد ثلاثة : (١) أما عزيز الجانب (٢) او في قوته ضعف (٣) أو ضعيفاً بادىء الانحلال. فاذا كنت الاول فلك ان تجري في الارض مرحاً ، وعليك ان تسلم على من تلقاه في طريقك وإذا نزلت حياً من احياء العرب أو قرية من القرى فتصدر المجلس تأمر وتنهي واطلب ممن انت نازل عنده كل ما تحتاج اليه فان المضيف الذي يسمونه (معزب) يلبيك مسرعاً ويرى الشرف في خدمتك وان كنت الثاني فاتبع النصائح الاتية :

١.ـــ لا تسلم على احد في طريقك ما لم يبدأك بالسلام فذلك أدعى للرهبة.
٢.ـــ إهمز جوادك لتظهر عليه علائم النشاط والقدرة على الكر والفر. فانهم إن استضعفوا دابتك طمعوا بك.
٣.ـــ لا تكثر التلفت يميناً ويساراً وخلفاً، فانهم يشعرون بانك خائف فيعترضونك.
٤.ـــ كن جهوري الصوت اذا تكلمت مع أي كان.
٥.ـــ لا تكن منفرداً.
٦.ـــ إذا لقيت أناساً فتشاغل بالحديث مع رفيقك أو رفيقيك
٧.ـــ إذا لاح لك عن بعد أناس فضع بندقيتك امامك كالمتهيء للشر.
٨.ـــ إذا نزلت حياً أو قرية فلاطف المضيف (المعزب) ولا تكثر من كلامك.

وإن كنت الثالث فخير لك أن تسالم من ترى فتسلم على الذاهب والآيب وتكثر من النزول في خيام العرب لتكسب مودتهم وان إعترضك أحد بشر فلاطفه ولا تتعنت وأولى بك أن تلقى اليه بما يطلب فذلك أحفظ لحياتك ... (إنتهى).

رأي الفرنسيين في البدو ـ من هؤلاء المقدم مولر المعروف بين العشائر منذ ان كان في تدمر ودير الزور وغيرها قائداً على الهجانة. فقد نظر هذا الى البدو بعين السخط التي تبدي المساوىء دون غيرها، وذكر لهم في كتابه اوصافاً كثيرة نجتزيء ببعضها ليعرف بنو قومنا ماذا كان يقال عنهم أحياناً. فما ذكره هذا المقدم ان البدو اذا تكلموا كذبوا واذا تناقشوا واربوا واذا تقاضوا ماحكوا، وعندهم الطمع والجشع وحب السلب والنهب وقسوة القلب وحرمان الرحمة وضعف الدين مع الولع بالخرافات. وهم بخلاء الا إذا وجدوا مأرباً في البذل وجبناء الا اذا وجدوا خصماً ضعيفاً. وهم ان أظهروا شجاعة واندفاعاً للطعان والبراز فما هو في الغالب الا للبخترة والمباهرة، وان ترأوا اشداء فذلك للزهو وكسب الشهرة لا للاخلاص والتضحية، لان الاخلاص والتضحية وفكرة الواجب امور تكاد تكون مجهولة لديهم.

وقد اوّل المقدم مولر حسنات البدو حسب رأيه فما قاله : ان كان البدوي قنوعاً وجلوداً فلأنه يعجز عن حمل مؤونته الى اماكن بعيدة ، وان كان راضياً بعيشه وزاهداً بدنياه فلانه لا يرغب شيئاً يجهله ، وان كان بعض الاحيان كريماً مضيافاً فلانه ينتظر أن يقابل بالمثل من ضيفه او غير ضيفه او لان في ذلك الكرم غرور شخصي ، وان كان نهاباً سلاباً فلانه يعد ذلك اسرع واسطة للغنى واسهلها ، وان كان ذا أنفة وخيلاء فلانه لم يدخل بعد تحت سلطة ونظام ، وان عطف على اولاده فعلى أمل ان يكونوا له أعواناً وحماة . لكن اولاد البدو لا يحملون عطفاً واحتراماً كافيين نحو آبائهم ، ومقام النساء عند البدو يأتي بعد المال والحلال إلا ما ندر ، وللبنات قيمة أكثر مما لامهاتهن ، لانهن سيعرضن يوماً ما للبيع ، وهم يفرحون لموت الامرأة لانه سيسبب تبدلاً جديداً في الحياة ، ويحزنون لموت البنت لان فيه خسراناً لمورد لا يعوض ... الى آخر ما هرفه وقذفه .

وقال كاتب فرنسي آخر اعدل حكماً والطف لهجة من المقدم مولر في رسالة (العشائر البدوية ونصف البدوية في بلاد الانتداب الفرنسي) ما خلاصته : وفي صدد نوع المعيشة التي يقضيها البدوي نقول ان البدوي قنوع وذو صبر وجلد جديرين بالاعجاب. فغذاؤه القليل الذي لا يتغير جعله رجلاً عصبي المزاج نحيفاً وذا قوة عضلية قليلة في النسبة ، وهو يعيش من اول السنة الى آخرها بحليب نعاجه وعنزاته وبالخبز والبرغل والتمر ولا يرى اللحم الا اذا زحف نحو مائدة الشيخ عند قدوم الضيفان . وموائد الشيوخ تتألف من المواد الآتية : يقدم الفطور في ساعات مختلفة جداً (بين الساعة ٨ — ١٢) وهو حفنة من التمر والخبز واللبن الرائب ، ويقدم العشا (بين الساعة ٦ — ٩) وهو صحن من الرز وخروف وخبز ولبن . وقائمة الطعام هذه تتوالى دونما أي تبديل على مدى السنة كلها .

ومن خصوص المزايا والاخلاق فالبدوي لا يخلو من نصيب من الذكاء الذي يستعمله غالباً في الخداع ، وهو لا بد له بادىء بدء اذا سألته شيئاً ان يكذب ويراوغ قبل ان يعلم القصد من الاسئلة الموجهة اليه . ثم هو قليل التعلق بالدين

يؤدي صلاته على هون وحينما يروق له ذلك ، لكنه ورع جداً في صوم رمضان . ثم هو قليل الفتك وغير سفاك للدم. وهو وان كانت حرفته الاولى السلب والنهب إلا انه يجتنب القتل . وأساس مزاياه «الطمع» فهو لا يعرف فيه هوادة . وخلافاً لما يروى عنه كحقيقة ثابتة فالبدوي ذو معلومات وذو استقامة . أما كرمه ووفاءه فهما في ذروة الشهرة التي نالها . وقيمة البدوي العسكرية نسبية . فهو لا يرغب أن يحارب في خارج البادية التي لا يعرف سواها . وهو حتى في أرضه إذا بدأ بمشروع حربي ـ كالغزو مثلاً ـ ينبغي لنجاح ذلك المشروع أن يحصل على نتيجته بسرعة وفوراً . أما إذا شاهد أمامه دفاعاً قوياً ومقاومة مستمرة لا يلبث أن يترك المشروع ويهمله ولا يعود اليه بعد . والبدوي غير جدير بحرب المشاة ولا بالكمون وإتخاذ الموضع مهما كان موضعه قوياً . ومن ثم كانت قيمة البدو العسكرية محدودة جداً لا ينفعون إلا في مطاردة عدو منهزم وملاحقته وإزعاجه كما كانوا يعملون في أواخر الحرب العامة الماضية وراء الجيش التركي الرابع » اهـ.

* * *

أما الرئيس رينو والطبيب مارتينه صاحبا كتاب (البدو في مقاطعة دمشق) فقد كانا أكثر اعتدالاً وإنصافاً من المقدم مولر في بحثهم عن أطوار البدو وأخلاقهم وأجود وصفاً ورصفاً منه . فقد صورا أدوار حياة البدوي من حين ولادته إلى طفوليته فصبوته فشيخوخته فمماته . والى القاريء تعريب ما قالاه :

الولادة (عند البدو) حادثة كثيرة الوقوع ، لان البدوي كغيره من المسلمين يرى الزواج والاستيلاد واجباً . والعقم يعد من بواعث المهانة والازدراء . وهذا هو السبب في أن البادية تحوى أماكن للزيارة تهرع اليها النساء اللواتي لم يلدن في تلك السنة فيتوسلن لربهن أن يحسن اليهن بولد . والحق أن هذه الحالة الروحية جديرة بالتقدير جداً ، لانها تعوض وفيات الاطفال التي تقع لديهم بكثرة. ويكفي أن تمر بمقبرة بدوية حتى يثبت لك عظم الخسارة في الاطفال . وإذن تكون هذه الحالة الروحية قد كفلت بقاء العرق البدوي وأمنت مستقبله إلى حد ما .

وبينما وضع المرأة حملها عندنا (نحن الاوربيين) يعد عملاً مرضياً أو حادثاً مزعجاً يعد عند البدويات القريبات من الطبيعة حادثاً فيسيولوجياً وحركة عرضية بسيطة . فاذا كانت الامرأة الماخض في المخيم يهرع بعض النساء المتقدمات في السن والقدر ويساعدنها . ولا تمضي ساعتان أو ثلاث على الوضع حتى تعود النفساء إلى أعمالها المنزلية المعتادة . أما إذا أدركها المخاض في الطريق وهي راكبة ، وكان سبب أدراكه إهتزاز (الرحول) تنيخ الامرأة بعيرها وتضع ولدها بنفسها وهي جالسة القرفصاء وتقطع سرته وتربطها بيدها وتلف الوليد وتحمله على ظهرها وتستأنف سيرها كأن لم يحدث شيء . وإذا تعسرت عليها الولادة بحيث خرج رأس الوليد وحده تأخذ حبلاً وتربط أحد طرفيه برقبته وطرفه الثاني بأحد قدميها بعد أن تطوي فخذها وتشد عليه شداً قويا بحيث أنها حينما تمد فخذها المذكور قد يخرج رأس الوليد منفصلاً .

والعنايات الاولى بالوليد بسيطة . يغسل بدنه بالرمل وقد يدهن بالزيت . وهي طريقة حسنة لان الرمل ذو قوة امتصاص كبيرة . ثم إن ذر الرمل على الاعضاء التناسلية للوليد يمنع العطن عن جلده ما زال فى القماط . ثم يكحل وهذا الكحل (كبريتات الانتيموان) الذي يحيط بالاحداق يؤثر في جلد الوليد الاصفر الذهبي ويظهره بلون الليمون. ثم يلف بخرق بالية مشدودة بخيوط القنب ويضعون على رأسه طاقية صغيرة عليها تمائم . ويضيف الاغنياء منهم اليها ريشة من ريش النعام .

ولا يشهد أحد هذه الولادة أو يسجلها . إذ ليس للبدو سجل احصاء للنفوس ومن ثم يبقى الولد جاهلاً الزمن الذي ولد فيه . وإذا حاول أحد الفضوليين أن يعرف عمر أحد الاولاد وجاء يسأل أباه وأراد هذا الاب أن يجيبه يجهد فكرته ويستخرج تاريخ الولادة تقريباً من عدد سني النجعة التي تبدى فيها منذ نشأة ابنه وتعطي الاسرة الى هذا الولد اسماً . واسم البدوي يتألف من اسم أولي مضاف إلى اسم الاب أو اسم الاسرة التي ينتمي اليها كنوري بن شعلان، وإذا صادف مرور

ضيف جليل القدر بهم أثناء حبل الام يسمي الوليد باسم هذا الضيف (١). وأكثر أسماء البدو هي كما عندنا (الاوربيين) من أسماء الانبيـاء الواردة في دينهم كمحمد وأحمد وإبراهيم وعلي .

والبدو لا يحفلون إلا بولادة الصبي. أما البنت فليس لها محل من الذكر أو الاهتمام . وإذا سئل أب عن عدد أولاده لا يعد إلا الصبـــيان . وأطفال البدو يولدون ويتلمسون حياة البداوة وهم محمولون إما على ظهور أمهاتهم، وإما في إحدى عيني الخرج الموضوع على ظهر حمار صغير . وهم يترعرعون رويداً رويداً لوحدهم مثل الجديان والحملان الراقدة في بيت الشعر وحول أولئك الاطفال ، لا فرق بين هؤلاء وأولئك .

ودور الطفولة شاق جداً ، فالطفل البدوي يترعرع في الغالب دون أن يرى أي أثر للعطف والحنان . لان له إخواناً وأخوات كثيرون ، ودون أن يتمتع باللهو واللعب . لانه ما أن يشتد جسمه ويرجى عمله حتى يوجه الى غاية نا فعة مثمرة . ولا يرى مسرات الطفولة ويفرح بها إلا القليل من أبناء الشيوخ والكبراء فحسب .

ولا شيء يستحق التنويه في دور صبوة البدو إلا حادث الختان الذي يجري بين السنة الثالثة والخامسة . واليكم وصف حفلات الختان عند البدو :

قبل الحفلة بايام عددها بعدد عمر الصبي تقام معالم الافراح في كل المخيم ، فتعد الموائد وتذبح الذبائح ويبدأ الرقص والهرج . والرقص يدار حول دمية يعملونها من وتد كبير ويلبسونها لباساً ضخماً ويركزونها في الارض، وتسمى هذه الدمية «ألموسانا» وتأتي أجمل فتيات المخيم وأرشقهن قواماً وتحسر رأسها وتسدل شعرها وتشرع بالرقص حول الموسانا . ورقصها هو المعروف في هذه البلاد ، وهو عبارة عن حركات بدنية أخصها هز الاوراك والارداف . ويلتف الرجال والنساء حول الفتاة ويعملون كما تعمل ، فيصير الرقص هكذا عمومياً تديره امرأتان تسمى كل منها «اللافحة» . وفي ختام الرقص يدعى الحاضرون الى الطعام ، وهو مؤلف من

---

(١) حتى أنهم سموا بعض أولادهم لورنس وطوماس وأمثال ذلك .

البرغل أو الرز واللحم . ولا بد أن يعمل في إعداد هذا الطعام كل النساء اللواتي لهن أولاد عمرهم ٣—٥ سنوات .

ويجرى الختان في اليوم المعين وقت الظهر، يقوم به رجل أخصائي لقاء مجيدي او جزة وبر جمل أو عدة جزات من صوف الغنم . ويسبق هذه العملية الهامة وليمة أكبر من سابقاتها وأكثر دسماً ، لانهم يذبحون لها عدة خرفان أو ناقة سمينة توضع فوق منسف كبير من الرز . ويعقب هذه الوليمة حفلة طراد الخيل مع إطلاق الرصاص وتمثيل الكر والفر والحرب وزغاريد النساء . وتظل معالم الافراح بعد الختان أياماً عددها قدر التي احتفل بها قبل وقوعه .

والصبي المختون يستمر في نموه وترعرعه . وهو يمشي في الغالب عارياً في فصل الصيف . واذا البسوه فمن بقايا الثياب التي كانت لابيه ، ورجلاه حافيتان أبداً ، وهي تتصلب وتعتاد على دوس الحصى والصوان . أما رأسه فمحلوق بالمرة ؛ إلا من غديرتين طويلتين تتدلى الاولى على جبينه للبهرجة وتبقى الثانية في قمة رأسه ، وهي في زعمهم لاجل أن يسحبه ربه بها الى السماء إذا مات . لان هؤلاء الاطفال المساكين يموتون في كثرة . ويعود ذلك الى سوء التغذية ورداءة تقنينها . ومن هنا ترى بطونهم منتفخة متألمة . ثم إن الليالي في البرية باردة جداً ، والخوف من الامراض السارية كالحميراء والحصبة سائد . ومن ثم كان الانتخاب الطبيعي يعمل عمله هنا بقسوة وشدة . فهو يبيد من هذا النسل الكثير كل من يعجز عن تنازع البقاء في هذه الحياة .

واذا ناهز الصبي البلوغ في سن ١٣—١٤ يحسب رجلاً . وحينئذ يغطي رأسة بخرقة ويربي شعره ويجعله يستطيل وتتدلى جدائله على كتفيه وتحيط بوجهه الصغير المقطب. وهو يأخذ صغار الابل وصغار الغنم الى المراعي ويعيدها الى البيت ويشترك في حلب الغنم وفي التقاط الاعشاب اليابسة وجمع بعر الابل للوقيد . وهو يبقى في الغالب مع النساء اللواتي يساعدهن ويسابقهن الى العمل. وتراه أحياناً يدخل الى الربعة ويقبل أيدي الضيوف . ثم يندس في إحدى الزوايا محدقاً في من حوله

ساعات طويلة صامتاً صموت أبي الهول دون أن ينبس ببنت شفة ودون ان يفتر عن أصغر ابتسامة .

وسن الفتوة للبدوي هو دور روائي ومبهرج وشعري . فالفتى البدوي يغسل وجهه ببول الابل ليتقوى جلده ، ويمسح بدنه بعرق الخيل لتنشيط عضـــلاته ، ويمسده أيضاً بروث الخيل الذي يزيل الدهن جيداً . ولا يلبس الفتى البدوي إلا قليلاً من الحلى كخاتم من النحاس أو الفضة وإذا لم يجده يستعمل الوشم المشابه للاختام أو الاسورة .

والفتيات البدويات في باب التجمل والتزين أكثر تطلباً واندفاعاً من الفتيان فهن يحملن في معاصمهن وأحياناً في كواحلهن عدة أسورة ودمالج من الفضـة أو الذهب أو النحاس حسبما تمكنهن ثروتهن فيسمع لها قعقعة ترافق وقع أقدامهن . ويعلقن بالبراغي في أرنبة أنفهن اليسرى وفي شحمة آذانهن كرية صغيرة بشكل وردة يدعونها (وردة)، ويصبغن شعرهن وأظافرهن بالحناء وأخيراً يستعملن الوشم بكثرة تضطرنا الى التحدث عنه : فالوشم يؤتى بالابرة وذلك بان يوخز الجلد بها حتى يخرج الدم في المكان المقصود وشمه ، ثم يدلك هذا المكان بمسحوق النيلج وهذا العمل تقوم به النساء ويعملنه بين السنة الثالثة والعاشرة حسب عادة العشيرة وهو أمر محتم على الفتيات لا بد أن يقمن به ويعد من أكبر أسباب الزينة والتجمل لهن . ويعتقد البدو أن الوشم يرد مرض المفاصل « الروماتيزمة » والفتيات يرسمن في أصابعهن رسوم الخواتم وفي أيديهن نجوماً وعلى شفـاههن حبات الجمـال وعلى أعنـاقهن قلائد وعلى اثدائهن وأفخـاذهن سلسلتين عرض كل منهما نحو سنتيمتر منفرجتين كالمروحة وعلى بطونهن رسوماً متنوعة . هذه هي أخص رسوم الوشم التي تختلف حسب العشائر وحسب مقدرة الفتيات على تحمل آلام عملية الوشم .

واستعمال الفتيان للوشم أقل بكثير من الفتيات . فالشبان يكوون سواعدهم ، والكي يستعمله البدو للتداوي ويسيئون استعماله بكثرة وفي أي مكان. فهم يكوون سواعدهم بحديدة محمية أو بقطعة من الصوفان المحروقة ويجعلون الكية بقدر القرش

فالجرح يتعفن والفتحة تتقيح وتبيض فتشبه قطعة من النقد .

× والبدوي في سن العشرين يحب التمارين الرياضية والمياقة والرشاقة . إلا أن شجاعته ليست زائدة . وهي لا تخلو من التحذلق او الفشار حينما يتم واجبه أو يتحدث عما جرى له. وهو من صغره يعود على الفروسية، فيركبونه فرساً يسوقها برسن واحد مصنوع من الوبر ويكون السرج غالباً بدون ركاب . وهو يتجول بها مسافات طويلة تنوف عن المئة كيلومتر دون أن يقف أو يعرج على حي ثاني . وحينما ترحل العشيرة من مكانها يذهب للتفتيش على المراعي والمنازل وقبل أن يأتي رائد آخر ويسبقه الى هذه المهمة. وحين الظعن يرافق القطعان وهو راكب لاجل أن يخبر عن هجوم قد يقع على هذه القطعان ولكي يدافع عنها أيضاً . ثم قد يذهب لكشف منازل الاعداء ولارشاد الغزاة الذين يكون هو منهم أيضاً ، وقد يقوم هذا الفتى ببضعة أعمال من البطولة، وحينئذ تراه قد انشرح صدره انشراحاً عظيماً وزاد غروراً وافتخاراً حينما تستقبل النساء الغزاة الراجعين الظافرين الغانمين ويتأهلن ويرحبن بهم ويزغردن .

× والغالب أن يتزوج البدوي لاول مرة حينما يبلغ سن العشرين . وقد تشترط الفتاة المخطوبة على خطيبها أن يأتي بمأثرة أو مفخرة . وقد اختصت بنات الشيوخ وحدهن بحق انتخاب الخطيب وحق فرض الشروط عليه ، ولذا ترى خطباءهن يقابلنهم أحياناً بعمل من اعمال الفروسية الخالدة . وسن العشرين ليس سن محدد للزواج ومطلق . لان بعض البدو يتزوجون في الخامسة عشر ، وبعضهم قد يتأخر الى الثلاثين . لان مهور النساء غالية . وكثيراً ما يفضل ألاب المعمر نفسه على إبنه فيتزوج هو بفتاة صغيرة ويدفع مهراً باهظاً ويهمل إبنه . وعدد النساء اللواتي يتزوجهن البدو غير ثابت . ويذكر عن بعض شيوخ الجزيرة الفراتية أنهم قد تزوجوا ١٥ — ٢٠ امراة . ويذكر عن آخر زواجه بمئة ، أما البدو الذين نبحث عنهم فلا يجمع أحدهم أكثر من اثنتين سوية ، ولا يتزوج أكثر من خمسة مدى حياته كلها . والسواد الاعظم من البدو لا يحوى إلا امرأة واحدة .

وتجري الخطبة في هدوء وتكتم ، ولا يسمح للخطيبين أن يتبادلا اكثر من بعض النظرات وبعض الكلمات أثناء الطريق أو حول البئر ، وربما دام هذا بضع سنوات لعجز الزوج عن تأدية المهر .

وترسل بادىء بدء رسل الخطبة المنتخبون انتخاباً حسناً الى البنت فيطلعها هؤلاء على ما يراد منها . وترسل رسل آخرون مؤتمنون لمحادثة أهلها . وهذه المراجعات الرسمية مقررة ولا بد من تحقيقها حتى عند الفقراء . فاذا جاءت الاجوبة بعكس المطلوب يبقى كل شيء مكانه . وإذا جاءت وفق المطلوب تجري الخطبة الرسمية بمعرفة كبراء العشيرة . يذهب هؤلاء الى أبي الفتاة ويرجونه أن يخرج الى خارج البيت ليتمكن من الادلاء بحرية عن رأيه ، فيعرضون عليه القصد من مجيئهم . ومن هنا يفهم السبب في أن الاب لا يأخذ رأي البنت،ذلك لانها قد استشيرت في المراجعات الاولى وعرفت رغبتها . لهذا ندر أن يلاقي القادمون للخطبة الرسمية رفضاً . واذا حدث الرفض يعد إهانة للقادمين المذكورين .

هذا وانتخاب الفتاة المخطوبة تابع الى حد ما الى تقاليد وقيود . فالشيوخ أو ابناء الشيوخ لا يستطيعون أن يتزوجوا إلا بنّيات من طبقتهم وأمثالهم . وقد تتداخل الدواعي السياسية في هذا الانتخاب والزواج . لان البدو يحتمون وجوب التماثل في الثروة والطبقة . ومن ثم كان الزواج محصوراً في الغالب بين أبناء الفخذ الواحد أو أبناء فخذين من العشيرة الواحدة . وإذا كانت العشيرة المطلوب مصاهرتها بعيدة وجب أن تكون صديقة . وهكذا يستمر نمو العرق محتفظاً بالخصال الاصلية . وهذه القضية حقيقية بحيث أنك بعد اعتياد قليل تصل الى معرفة البدو الذين تلاقيهم ، وتستطيع أن تنسبهم الى عشيرتهم ، وذلك إذا أمعنت النظر في وجوههم وأساريرهم ، ومن هنا تدرك السبب في أن شدة القرابة الدموية بينهم هي الباعث للعيوب البدنية التي تكثر لديهم .

واذا تم التراضي يدفع المهر الى أبي المخطوبة أو أوليائها ، أما هي فلا يناله منه شيء . ولكن إذا كانت من عشيرة أخرى يعطونها نصف المهر . وفي مقابل المهر

تحمل هي الى بيت بعلها جهازا متواضعا مؤلفاً من سجادة وفرشة ووسادة وصندوق ثياب وأدوات زينة . وندر أن يدفع البدو المهر نقداً ـ بل يدفعون مقابله من الابل والغنم ، وقد يدفعون باديء بدء نصف المهر ويؤجلون النصف الثاني . ولكن لا يقع الزواج أبداً ما لم يدفع مقدماً نصف المهر على الاقل . ولا يمكن الشذوذ عن هذه القاعدة الا حين التبادل ، أي حينما يأخذ أحدهم أخت الثاني ويزوجه هو أخته ، فيكونا قد تبادلا دون دفع شيء .

والاعراس أيضاً عند البدو بسيطة. واذا كانت حالة العروس موآتية يركبوها هودجاً على بعير ويزفونها الى بعلها . وتقام معالم الافراح حين وصولها وتولم الولائم ويدعى لها كبراء العشيرة . وأساس هذه الولائم ذبائح الغنم أو الابل . واذا كان العرس لأناس أغنياء ، يضاف الى ذلك الطبل والزمر والغناء والرقص وطراد الخيل .

ومظاهر الافراح التي تجري في الاعراس ليست رهن السلام الدائم في الحياة البيتية . فالشقاق اذا ذر قرنه والبغضاء اذا تنفست لا بد أن يعقبها الهجر والطلاق . واذا طلق الرجل إمرأته تحمل هذه معها كلما أتت به من الجهاز وترجع الى أهلها الذين يحتفظون بمهرها ولا يردونه . واذا وقع الطلاق بطلب من الزوجة وهو ما اعتادت عليه بعض العشائر ـ يحق للرجل ان يسترد المهر الذي دفعه . والطلاق يتم اذا لفظ الرجل ثلاث مرات العبارات المعينة الآتية : انت طالق ، يمكنك أن تتزوجي بمن تشائين ، أنت وشأنك يا فلانة ، لا أريدك بعد الان.

بيد أن الطلاق نادر ، وأندر منه العزوبة ، لان العزوبة عند البدو تماثل العقم ويشبهون الاعزب بالشجرة غير المثمرة ويرونه جديراً بالمهانة . وأندر من هذا وذاك الزنا . لان أقل انحراف عن العفاف تقوم به المرأة عقابه القتل . ويقر الزوج هذا القتل بنفسه وينفذه بيده ويوافق الجميع على ذلك . والزوج لا ينحرف عن عفافه في الغالب . ألم يهون دينه عليه الامر ويسمح له بتعدد الزوجات ؟ ثم هو اذا لم يغش المدن كيف يتمكن من الزنا وسط نساء العشيرة العفيفات ؟

٢ بل إن الامر بالعكس ؛ فما أن يتم شهر العسل وما أن تظهر علائم الحبل حتى تحتل المرأة مكاناً في فؤاد بعلها . ويفسر هذا المكان في أنها أي المرأة (مطية اللذة الجسدية وقالب إيلاد الذرية) .

واذا تزوج البدوي سرعان ما تراه قد صار رب أسرة وسرعان ما تراه قد كبر وبلغ أشده . أما لباسه في هذا السن فهو ... (وبعد أن وصف المؤلفان لباس الرجال والنساء مما ذكرناه في مكان آخر قالا :

ولباس الرجال والنساء عند البدو في أيامنا هذه لا يختلف قط عما كان عليه في العصور الغابرة . وهذا اللباس لا يفارقهم في النهار ولا في الليل . ولا يبدلونه الا مرة في العام عقيب شهر رمضان . وهو موافق كل الموافقة لحالة البادية . وماذا تريدون أكثر من الكوفية درءاً لعواصف الرمال ، وأشد من الفروة الفضفافة في دفع برد السحر في الشتاء ؟ وهل هناك ألطف من الثوب العريض المهلهل في تخفيف حرارة القيظ ؟

اما في الناحية البدنية فالبدوي كبير الجثة رشيق القامة شديد السمرة وله شعر مضفر يحيط بوجه متطاول منته بذقن مدورة او مثلثة الشكل تحمل لحية مجعدة مستدقة الطرف وخداه مقعران بينما وجنتاه بارزتان وانفه اخنس وربما كان اقنى . اما عيناه فسودا وان وصغيرتان ونظراته تعرف اللطف كما تعرف العنف وتظهر احياناً من حدقة عينه المخدرة انعكاسات كانعكاسات الفولاذ الاسمر . اما اعضاؤه فنحيفة وقوية العضل ، وحينما تراه اثناء الطعام يعجن لقم الرز الضخمة ويدملكها في يده وباصابعه النحيلة ويهيؤها للازدراد تلحظ تحت جلده الاسمر وتحت سواعده المفتولة بروز عضلاته ودورانها كأنها خيوط من الفولاذ . ونساء البدو هن على الوتيرة نفسها وقد ألفن الاشغال الشاقة احياناً اكثر من الرجال ، ومن ثم تراهن في نفس اللون والسيماء والمظهر الذي لازواجهن . والعضلات في اعضائهن المعصوبة تشبه حزمة من الحبال المشدودة .

اما في الناحيـة الاخلاقية فالبدوي يكاد يكون مجموعة متناقضات . كأن المزايا الحقيقية الموروثة عن اجداده قد كلّت وكهمت نتيجة المعيشة القاسية التي يقضيها في يومنا هذا . فالبدوي غير خالٍ من الشجاعة . لكن شجاعته سطحية وغير خالٍ من صدق الطوية ولكنه يجنح كثيراً الى الخداع والمواربة . وقـــد اكسبته التجارب ان اللف والدوران حول العقبات والمشكلات خير من مجابهتها مباشرةً . فهو اذا ماطرحت عليه سوآلاً يجيبك دائماً اجوبة غامضة . بيد انـه يمكن استخلاص الجواب الشافي منه فيما اذا كانت المسألة لا تمس مصلحته الشخصية ومصلحة اقاربه الادنين . لان مصلحته ومصلحة عشيرته هما اهم الامور التي تحدد اتجاهه في المعاملة . والبدوي ميال الى السلب والنهب . وعنده في الوقت نفسه ميل الى الكرم والسخاء . كل ذلك حسب الظروف والحاجة . والطمع رائد البدوي بحيث ان وساوسه لا تمنعه أصلاً من ان يتجه نحو الناحية التي يجدها أصلح له بيد انه تجده غيوراً ومنافحاً عن سمعته وحريتـــه وهو سريع التأثر والغضب لكرامته وشديد الانفعال اذا أصابته اهانة او عداوة ، لاينسى ذلك ابداً حتى آخر عمره ولا بد له من أخذ الثأر ومحو العار . فالبدوي حقود وطلاّب للثأر الى حد انه يورث حقده وثأره الى أعقابه .

وشظف عيش البدوي لايمحو الناحية المثالية من شخصيته . فكلامه موزون ومعقول في عبارة صريحة وسرعة انطلاق نحو الهدف يزخرفه بضرب الامثـال وبالتشبيهات التي تصدر عن روية ومعرفة . وفي السهرات يسمع البدوي ويصغى لما يقصونه عن سير الابطال والفرسان من ابناء قومه وتترنح اعطافه طرباً حينما ينشد احدهم امامه اغنية بصوت مطرد الاوزان ترافقه دقات الربابة التي تتلاشى رناتها في الصمت الواسع للمخيم المستغرق في هجوده . والبدوي يقدر قدر الدماثة واللباقة ، وهو يهوى السلاح ويحسن استعماله .

واذ كان البدوي رشيق القامة ومتخلق بكل اوصاف جنسه ودنيوي النزعة حسب

بيئته ترى دوره الذي يمثله في مسرح الحياة دوراً تزييناً زخرفياً . ثم هو يلاحظ اعماله ويصدر أوامره ويتقبل الزيارات ويردها . ثم هو الى ذلك صاحب سلطة وقيادة ويعرف حسن القيام بهما ، ومن ثم يكل الى نسائه وأولاده امر العناية باعمال البيت وتربية الماشية وارعائها واسقائها . ولكن اذ كان هو روح اسرته وعماد بيته يعرف وقت هجوم الاعداء كيف يقف وينافح عنها ويعرف ان من واجبه خدمة شيخه يوم الغزو .

والبدوي في حقيقته اقل فروسية وانقص في المثالية (الكمال) مما يصوره الروائيون والقصاصون ، وهو خليط من المحاسن والمساوئ . ولكن مهما كانت مزاياه يظل في نظرنا رجلاً مستحقاً كل الاستحقاق للاحترام والانجذاب والتودد نحوه .

وتمتد حياة البدوي الفعلية مدة مديدة الى ان يشيخ ، وتخزله قواه رويداً رويداً ويعلوه الشيب . فينوب عنه ابنه الاكبر في الاعمال . وحينئذ يشتري الاب عقالاً ضخماً ويلتزم الانزواء في بيته ويرجع كما كان في عهد الصبى للعيش بين النساء لايزار في بيته ولا يخرج منه الا حين الضرورة ، وتنسى العشيرة يوماً بعد يوم استشارته في مهام الامور على انها تحفظ له كل رعاية وحرمة . ويبقى سنيناً عديدة مثال السلف الصالح ممسكاً بدفة الامور الى ان يموت كما يموت المصباح المنطفئ .

وموتة البدوي كولادته تقع حسب ظروف الحل والترحال . واذا مات يمزق نساءه ثيابهن الفوقانية ويحثين التراب على رؤوسهن وينتفن شعرهن ويرفعن اصواتهن بالولولة . ومن علامات الحزن تنزيل احد اطراف الخيمة ، ويتوافد كبراء العشيرة ويقدمون لورثة الميت تعازيهم بعبارات بالية اتكالية . ثم يحفرون له قبراً في ذروة اكمة مشرفة على منزل العشيرة ويجعلون اتجاهه نحو مكة ، ويحمل ابناءه نعشه وحولهم النساء الباكيات النادبات ويبلغون به الارض التي طالما دافع عنها في حياته .

وهناك يتلون بعض سور دينية بصوت منخفض ويغسلونه الغسل الاخير بالرمل وهذا الرمل الذي غسل جسمه الصغير العبل الاصفر صفرةً ذهبية لما كان طفلاً يعود لغسل الهيكل العظمي للميت الاسمر اللون . ويضعون على القبر ركام التراب المستخرج من حفرته ويحيطونه بسور مستطيل من الحجارة دون أن ينقشون عليها اي كلمة او رسم .

ثم يستأنف الحي سيره نحو آفاق جديدة وابعاد سحيقة ، ويعود الزمان الى فعله ، ويمحو آثار القبور الرثة ويلاشيها . وتدوس اخفاف الابل العريضة القبور المجهولة وهي سائرة دون علم ولامعرفة بها ولا باصحابها . واذا مات البدوي فمعنى ذلك ان حياةً قد انتهت في كل بساطة كما بدأت ونمت في كل بساطة .

ونحن أهل الحضارة والتمدن لاندرك للحياة معنى مالم تكن محفوفةً برغد العيش في الدور الفخمة والموائد المزخرفة ومالم تكتمل بغشيان المقاهي والمسارح . ولاجل ذلك نعد حياة البدو عديمة الالوان ونعتبرها قاسية شديدة ، ونراها كأنها دواعي عذاب الجسم وارهاقه دون انقطاع او كأنها قشافة وزهادة على غير جدوى .

على ان هذه الحياة في عين البدوي هي منتهى القصد وغاية المنى . أليس ان كل رغد في الحياة هو نسبي ؟ أليس ان الرغد حالة توازن بين الانسان وبيئته التي يعيش فيها ؟ أليس ان العادة اساس كل شيء وان الفكرة التي توحيها العادة هي مختلفة في نظر كل منا ؟ اذن هذا هو السبب في ان البدو قليلو الاكتراث بمطالبهم الجسمية (طالما مطالبهم الروحية مؤمنة) .

وجل مايحتاجه البدوي هو النهارات المضيئة والليالي الصافية والآفاق الواسعة الممعنة في البعد والمساحات الشاسعة اللانهاية لها حيث الارض يرثها اول من يطأها .

وحياة البدو مبنية على عدم المبالاة بالغد بتاتاً وعلى الانفعال الموقت الساذج

وعلى البطالة الطويلة تحت سقف الخيمة مع تدخين النار كيلة الخرارة (؟) واحتساء القهوة نغبةً بعد نغبة بالفناجين الصغيرة". ثم ان حياة البدوي قد جبلت ايضاً وخاصةً من الحرية الحقة . والبدوي جلود جلادة البعير وجسور جسارة الاسد ونشيط كنشاط الغزال ، الا انه اكثر من هؤلاء جميعاً حريةً واستقلالاً ".

هذا هو البدوي وهذا هو مايود ان يحرص عليه . ونفسيته المتعاظمة لاتقبل مطلقاً كل ما يشبه النير اذا حز الرقبة . فالحرية والاستقلال هما من الممتلكات التي يضعهـا البدوي فوق كل شيء ويبقى حريصاً على الاحتفاظ بها مدى الحياة .

وختاماً نقول ان عقيدة القضاء والقدر هي المتسلطة على كل شيء لدى البدوي. وكلمـــات (الله اكبر) و (الله اعلم) و (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) (اينما تكونوا يدرككم الموت) وأمثالها هي القواعد التي يعتمد عليها البدوي طول عمره وهذا هو السبب، في انه لمايتم البدوي حياته القاسية المتشردة وينقلب شيخاً هرماً ترى وجهه الذي كان نشيطاً فعالاً دار يشع صفاءً روحياً تاماً . (انتهى ماقاله الرئيس رينو ورفيقه) .

* * *

التقاليد والعادات

عند البدو

يتشابه البدو اينما كانوا في العادات والتقاليد والازياء .لأنهم جميعاً في حالة فطرية اولية واحدة . هدتهم اليهـــا الحاجة وما اقتضته طبيعة البوادي والقفار القاسية المتشابهة في كل مكان . فهم متماثلون في تكوينهم الاجتماعي وفي أمور معيشتهم ، ولا يختلفون الا قليلاً من حيث العراقة في البداوة او قلتها وقربهم من الحضارة او بعدهم عنها وعن أهلها . اي من حيث كونهم من البدو الاصليين او من البدو المتحضرين . وما سنذكره من القواعد والاصول والتقاليد والعادات يشملهم في الجملة . واذا كان هناك بعض فروق بين عنزة وشمر العريقين في البداوة وبين اعراب الديرة والشوايا انصاف الحضر او بين عشيرة في الشمال واخرى من الجنوب فذلك ليس بجوهري ، ولايزيد عن الفرق بين سكان دمشق واحدى قرى الغوطة او قلمون ، ولا يحتاج الى استطراد خاص قد يضيق نطاق هذا الكتاب عنه وها نحن نبدأ بذكر (التكوين الاجتماعي) لدي البدو ونتدرج الى غيره :

التكوين الاجتماعي عند البدو . -

ان التكوين الاجتماعي عنـــد البدو بسيط لايتجاوز حد الاسرة (العائلة) قط . واسم الاسرة عندهم (الاهل) ومن الاسئلة الاولى التي توجه الى البدوي اذا عثر عليه في الطريق منفرداً «اين أهلك ؟» . والاسرة تتألف من الرجل والامرأة ومن فروعها وفي بعض الحالات الشاذة من أصولها المنعزلة الطاعنة في السن او المريضة ومن بعض الايتام الصغار . ولايزداد عد الاسرة بفعل الزواج . لان البنت اذا تزوجت تذهب الى بعلها والابن اذا تزوج يتخذ لنفسه بيتاً قريباً من أهله

في الغالب فيؤلف في العشيرة أسرة جديدة تلقب باسمه . والاب هو رئيس الاسرة وإذا مات يرثه في هذه الرئاسة ابنه الاكبر . على إن هذا يجوز أن يتخلى عن حقه في الرئاسة الى أخيه الذي يليه في السن . ولرئيس الاسرة على أسرته حق الحياة والموت دون منازع . ويمكن الافصاح عن هذا الحق بالقاعدة الاتية : إما الطاعة له أو الرحيل عنه. وللاسرة على رئيسها حق الادارة وتدبير المعيشة وحل المشكلات التي قد تقع في داخلها والدفاع عنها بشدة إذا جاءها مكروه من خارجها .

والتضامن الكامل موجود في الاسرة البدوية باوسع معانيه . فاذا صدف أن التي بدوي في السجن لمنكر فعله ينبري أبوه وأخوانه وأعمامه وأبناء عمومته لتخليصه . فاذا جرى التحقيق وثبت الجرم على السجين تمتد التبعة المشتركة الى أنسبائه المذكورين وتسري عليهم . ومن هنا كان المكلفون بادارة البدو اذا ارادوا تحصيل شيء من الاموال أو العروض من بدوي لا يستطاع القبض عليه تعويضاً عن أموال مسروقة ، أو دفع دية أو تأدية ضريبة ما جرت عادتهم أن يأخذوا أخاه بجريرته كرهينة ويسجنونه . فبعد بضعة أيام من إلقاء القبض على هذا الاخ يبادر المجرم الذي قد يكون بعيداً في أماكن قاصية جداً ويرسل الابل أو الغنم أو الدنانير الذهبية المطلوبة. وعاطفة التضامن هذه في الاسرة من أجمل نواحي الحياة البدوية.

إن تاريخ الاسرة البدوية ونشوئها ونموها هو كما في كل الشعوب البدائية.

فقد يبرز رئيس إحدى الاسر بشجاعته ومضاء عزمه وذكاء جنانه فتلتف حوله أسر أخرى وتلجأ الى حماه ويتقدم رجالها لخدمته ، ويصيرون من ثم تبعاً لتلك الاسرة التي إرتأست .

وحقوق الاسرة داخل العشيرة تختلف بالطبع حسب مكانة تلك الاسرة وشكلها وعدد المقاتلين الذين يمكن أن تسوقهم الى ساحة الحرب . وكلما كانت الاسرة قوية وغنية كلما ازدادت حرمتها وقويت مكانتها وعلت كلمة رئيسها . بيد أن الاسر الصغيرة أو الضعيفة والتي لا تتألف إلا من الاب والام وولد أو ولدين

تحتفظ بحقوق الملكية كاملة غير منقوصة وتظل في حمى الجميع ونصرتهم. وإذا نكب الاعداء هذه الاسرة في غزو ينضم الجميع اليها ويوآزرها وتعد حينئذ شقيقة الجميع من حيث التضامن والتعاون. فمن مناقب البدو التضامن في البلوى والتعاون على المصائب فتراهم يتسابقون الى إمداد العزيز إذا ذل بغارة أو مصيبة. فالبدوي كثيراً ما يكون ذا ثراء في ربعه عند الضحى اذا بك تراه عند المساء فقيراً مدقعاً لا سبد ولا لبد بحكم الغزو الذي يداهمه او الجائحة التي تصدمه. وحينئذ هذا يجود له ببعير وهذاك بكساء وحصير وذاك بنعجة أو نعجتين أو أكثر وذلك بقربة أو علبة او قدر والآخر برضخ له بدريهات يسترن مهتوك ستره ويرأبن مصدوع أمره. وقد قامت قاعدة (التضامن البدوي) هذه عند البدو مقام (الحق العام) عند الحضر. فاذا قتل بدوي يكون الالصق بالمقتول هم المطالبون بدمه من أقارب القاتل الالصق به. فاذا لم يطالب الاقرباء أو كانوا عاجزين عن المطالبة فان أهل عشيرته يطالبون، لان المقتول عندهم هو ابن العشيرة وكل منهم هو (نائب عام) في دعواه.

النسب عند العرب

النسب في كتب اللغة مطلق الوصلة بالقرابة فيقال بينهما نسب أي قرابة وجمعه أنساب ونسبته الى أبيه نسباً من باب طلب عزوته اليه وانتسب اليه اعتزى والنسيب من كان أصله ثابتاً. قال النويري في كتابه «نهاية الارب في فنون الادب»: ومعرفة انساب الامم مما افتخرت به العرب على العجم لانها احترزت على معرفة نسبها وتمسكت بمتين حسبها وعرفت جماهير قومها وشعبها وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها ومالت الى أفخاذها وبطونها وعمائرها ونفت الدعي فيها ونطقت بملىء فيها».

وقد كنا بينا في الصحيفة ١٥٠ عند الكلام على (العصبية العربية قبل الاسلام) ان طبقات الانساب عند العرب كانت كما يلي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة والعائلة أوالاسرة، وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة. وعشيرة

الرجل هم رهطه الادنون .

وقد فسر القلقشندي في كتابه (نهاية الارب في معرفة انساب العرب) هذا الترتيب فقال : و كأنهم رتبوا ذلك على بنية الانسان فجعلوا الشعب بمثابة أعلى الرأس والقبائل بمثابة قبائل الرأس وهي القطع المشعوب بعضها الى بعض والعمارة العنق والصدر وجعلوا الفخذ تلو البطن ، لان الفخذ من الانسان بعد البطن وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ لانها النسب الادني الذي يفصل عنه الرجل بمثابة الساق والقدم إذ المراد بالفصيلة العشيرة الادنون بدليل قوله تعالى «وفصيلته التي تؤويه» أي تضمه اليها ولا يضم الرجل الا أقرب عشيرته . واعلم أن أكثر ما يدور على الالسنة من الطبقات الست المتقدمة القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة وربما عبر عن واحد من الطبقات الست بالحي أما على العموم مثل أن يقال حي من العرب واما على الخصوص مثل أن يقال حي من بني فلان اه .

قلت ان أكثر ما يدور في أيامنا على السنة بدو بلادنا الشامية من المصطلحات في تقسيم الانساب هو كما يلي : إن العنصر الاول في المجتمع البدوي هو (البيت) ويعنون به العائلة أو الاسرة . فالبيوت أو الاسر القريبة بعضها من بعض تؤلف (الفخذ) أو (الآل) مثل آل مشهور من فندة الشعلان في الارولة ومثل آل مهيد من فندة المنيع في الفدعان . وتجتمع الافخاذ فتؤلف (الفرقة) أو (الفندة) وجمعها فرق أو أفناد مثل فندة الشعلان وفندة المنيع المذكورتين . والفندة في الاصل عدة أفخاذ من جد قريب لا يكاد يتجاوز الخامس في الغالب . وتجتمع الفرق أو الافناد فتكون (العشيرة) مثل عشيرة الارولة وعشيرة الفدعان في عنزة . وتجتمع العشائر فتكون (الضنأ) مثل ضنأ مسلم وضنأ بشر في عنزة . وتجتمع الضنآت فتؤلف القبيلة مثل قبيلة شمر وقبيلة عنزة . وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة أو الفخذ فصيلة أو الفندة فرقة . ويزعم رواة البدو ان القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه الى قبيلته كبني صخر وبني خالد وغيرهم . والعشيرة تعترف بشيخ واحد . على

ان اعترافها لا يتجاوز القضايا العامة . وعدد بيوت العشيرة يختلف كثيراً . فقد يكون ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ أو أكثر كما هو الحال في الفدعان والارولة . وقد يهبط هذا العدد الى ٣٠٠ — ٢٠٠ — ١٠٠ — ٥٠ كما هو الحال في عشائر القسم الثاني أو الثالث . وكلمة ضنأ بمعنى نسل اختصت بقبيلة عنزة دون غيرها .

وقال القلقشندي ايضاً : في بيان امور يحتاج الناظر في الانساب اليهـا وهي عشرة ، أ . — اذا تباعدت الانساب صارت القبائل شعوباً والعمائر قبائل والبطون عمائر .. الخ ٢ . — القبائل هم بنو اب واحد . والاب الواحد قد يكون اباً لعدة بطون . ثم ابو القبيلة قد يكون له عدة اولاد فيحدث بعضهم قبيلة او قبائل فينسب اليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد او يولد له ولم يشتهر بولده فينسب الى القبيلة الاولى . ٣ . — اذا اشتمل النسب على طبقتين فاكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن في الدرجة الاخيرة من النسب ان ينتسب الى الجميع فيجوز لبني هاشم ان ينسبوا الى بني هاشم والى قريش والى مضر والى عدنان فيقال في احدهم الهاشمي ويقال فيه القرشي والمضري والعدناني بل قال الجوهري ان النسبة الى الاعلى تغني عن النسبة الى الاسفل ويرى بعضهم تقديم العليا على السفلى وبعضهم يرى العكس مثل ان يقال في النسب الى عثمان بن عفان الاموي العثماني او العثماني الاموي ٤ . — قد ينضم الرجل الى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب اليهم فيقال فلان حليف بني فلان اومولاهم . — اذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة اخرى جاز ان ينتسب الى القبيلة الاولى وان ينتسب الى القبيلة التي دخل فيها مثل ان يقال التميمي ثم الوائلي او ماأشبه ذلك ٦ . — القبائل تسمى في الغالب باسم الاب الوالد للقبيلة كربيعة ومضر والاوس والخزرج ونحو ذلك . وقد تسمى القبيلة باسم ام القبيلة كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى القبيلة بغير هـذا ، وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسان حيث نزلوا على ماء يسمى غسان ٧ . — اسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة اضرب ؛ أولها ان يطلق على القبيلة

لفظة الاب كعاد وثمود ومدين وماشاكلهم وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى والى عاد والى ثمود والى مدين يريد بني عاد وبني ثمود ونحو ذلك ، واكثر مايكون في الشعوب والقبائل العظام ولاسيما في الازمنة المتقدمة بخلاف البطون والافخاذ ونحوها، وثانيها ان يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان واكثر مايكون ذلك في البطون والافخاذ والقبائل الصغار لاسيما في الازمنة المتأخرة . وثالثها ان ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الالف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوهما وأكثر مايكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم . ورابعها ان يعبر عنها بآل مدين كآل ربيعة وآل فضل وآل علي وما أشبه ذلك واكثر مايكون ذلك في الازمنة المتأخرة لا سيما في عرب الشام في زماننا (١) بالآل والمراد الاهل . وخامسها ان يعبر عنها باولاد فلان ، ولايوجد ذلك الا في المتأخرين من افخاذ العرب على قلة . ٨ . ـ غالب اسماء العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونه اما من الحيوان كأسد ونمر وحية وحنش وأما من النبات كنبت وحنظلة واما من اجزاء الارض كفهر وصخر ونحو ذلك ٩ . ـ الغالب على العرب تسمية ابنائهم بمكروه الاسماء ككلب وحنظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك وتسمية عبيدهم بمحبوب الاسماء كفلاح ونجاح ونحوهما . والمعنى في ذلك مايحكى انه قيل لابى الدقيس الكلابي لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم باحسن الاسماء نحو مرزوق ورياح فقال انما نسمي ابناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا يريدان الابناء معدة للاعداء فاختاروا لهم

---

(١) يقصد القلقشندي الذي عاش في القرن التاسع آل فضل الذين لايزال لهم أعقاب في زمننا موجودين في قضاء الجولان كوجود ابناء عمهم آل ابو ريشة امراء عشيرة الموالي في قضاء المعرة . اما آل ربيعة فهم أجداد آل فضل ، واما آل علي فهم كانوا من اقارب آل فضل المذكورين ثم انقرضوا او اندمجوا بغيرهم وقد فصلنا ذلك في بحث تاريخ البدو .

شر الاسمـــاء والعبيد معدة لانفسهم فاختاروا لهم خير الاسماء .

قلت ، ومن غريب الاسماء البدوية في عهدنا مايصعب فهم مدلوله وايجاد تفسيره في كتب اللغة كراكان وجدعان وهو يدي وشواخ ومجول وهويش ودندل وهفل وفدعوس وأمثال ذلك . والاغرب ان يبلغ الامر ببعضهم الى تسمية اولاده باسمـــاء الاجانب الذين قد يكونوا ضيوفاً عندهم اثناء الولادة كلورنس وطوماس ونحوه .

وقال فوآد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » : ومع شدة عناية العرب بالمحـــافظة على انسابهـا والتمسك باحسابهـــا ومراعاتهـــا لتسلسل فروعهـــا واقسامها فانه من الصعوبة بمكان عظيم أن يتمكن الباحث من الوقوف على أصول جميع القبائل العربية الموجودة في الوقت الحاضر بسبب ضياع قسم غير قليل مما كتبه الاقدمون عن الانساب وفقدان حلقات عديدة من سلسلة الانساب في الاعصر المتوسطة أيام ضعف الدولة العربية واختلاف قبائلها وأمرائها ومن الواضح أنه حصلت خلال تلك الحقبة هجرات قبائلية متعددة حلت فيها الواحدة محل الاخرى أو غلبتها على أمرها وأجلتها عن ديارها وشردتها بين القبائل فنسيها الناس وجهلوها. ومن أجل ذلك فاننا لم نحاول في كتابنا هذا أن نرد الفروع الى أصولها القديمة الا في المواضع التي تثبتنا من صحتها ، وتركنا تحقيق ما عدا ذلك الى محبي البحث والتدوين ، واكتفينا بما هو موجود في زماننا هذا من الفروع فسميناها باسمائها المشتهرة فيها . ومما تجب الاشارة اليه أننا شاهدنا بعض حالات تحدر فيها فروع القبيلة الواحدة من أصول مختلفة يبعد بعضها عن بعض . وقد نشأ ذلك على ما نعتقد عن تحالف الفروع في زمن مضى لا نستطيع تعيينه .

ونظراً الى ان الصعوبات التي اعترضتنا في إرجاع فروع القبائل الحالية الى أصولها القديمة تعترض كل باحث في الانساب والعلم بها مفيد من حيث ايضاحه طريقة تحول القبائل عن اسمائها الاصليه الى أسماء منتحلة ونشوء الفروع وصيرورتها

قبائل مشهورة رأينا أن نذكرها (أي الصعوبات) فيما يلي إتماماً للفائدة التي توخيناها من وضع هذا الكتاب : ١ً.ـ تباعد الانساب وصيرورة القبائل شعوباً والعمائر قبائل والبطون عمائر (صبح الاعشى م ١ ص ٣٠٩) ٢.ـ صعوبة الوقوف على التسلسل الصحيح للانساب لقدم العهد وعدم وجود المدونات . ٣.ـ إمكان اشتهار قبيلة من القبائل باسم فرد مشهور منها يغلب اسمه الاسم الاصلي ٤ً.ـ إنضمام أفراد الى قبيلة غير قبيلتهم بالحلف والموالاة. ٥ً.ـ دخول أفراد قبيلة على أفراد قبيلة ٦.ـ تابعية أفراد معينين لقبيلة كالموالي والارقاء واشتهارهم باسم القبيلة الاصلية وهم غرباء عنها ٧.ـ إشتهار القبيلة باسم جديد لسبب من الاسباب ٨.ـ تشابه أسماء القبائل بالرغم عن تباعد اصولها واختلاف انسابها .

العشيرة

تتألف العشيرة من أسر (بيوت) وفرق وأفخاذ يختلف عددها كثرة وقلة . والعشيرة قد تكون من نجار واحد أي متحدرة من جد واحد أعقب ذرية كثيرة أنجبت العدد الذي كونها . كما هو الحال في عنزة المتحدرة من (عنز بن وائل بن أسد بن ربيعة) الصافية في أصولها وفروعها على كثرة هذه الفروع وتوزعها، وكما هو أيضاً في عشيرتي بني صخر وبني خالد اللتين يعتقد بنشأة كل منهما من جد عام أورثهما اسمه . أو لا تكون العشيرة من نجار واحد ولا من موطن واحد بل مؤلفة من فرق عديدة ينتمون الى أصول ومواطن مختلفة كل الاختلاف أو بعضه جاءوا واجتمع بعضهم الى بعض بسائق الرهبة من شيء أو الرغبة في شيء ، والتشابه الحاجات والمنافع وتشابك الميول والآمال وتعاقدوا وألفوا (اتحاداً) أو (حلفاً) عشائرياً على النحو الذي يدعوه الافرنج (كونفدراسيون) ، كما هو الحال لدى أكثر العشائر التي سيأتيك ذكرها ووصفها في القسم الثاني من كتابنا هذا . وينقاد هذا الحلف العشائري ويبايع أسرة كريمة المحتد طيبة الفعال كما هو حال شمر الجزيرة الملتفين حول الشيوخ آل الجربا وطيء الجزيرة الملتفين حول الشيوخ آل عساف والموالي في جنوبي حلب الملتفين حول الامراء آل ابي ريشة والفضل في

الجولان الملتفين حول الامراء آل فاعور والعقيدات والابي شعبان في وادي الفرات الملتفين حول بعض الاسر وأخصها آل هفل وآل ناصر وغيرهم ، او ينقاد الى شخص قوي الفهم وشديد العزم كالحديديين الملتفين حول الشيخ نواف الصالح الجرخ واسلافه آل ابراهيم من قبله .

ومهما يكن فالعشيرة هي امة في مقياس صغير ، وهي امة متنقلة تنقل معها في في غدواتها وروحاتها فروعها واعضائها الذين لا تحصرهم اي حدود ارضية ولا تقيدهم اي ملكيات عقارية . فكما ينبغي ان يكون للامم ماض وتاريخ وملوكها ولرؤساء جمهورياتها انساب واحساب او كفاآت يكون للعشائر ايضاً ماض وتاريخ ولشيوخها انساب واحساب او كفاآت يذكرون بها . وكذلك ينبغي ان تكون مصالح العشيرة ومعايشها ومنازعها واحدة . وفي حالة الحرب يتحد ابناء العشيرة كما يتحدون في السلم . وحينئذ ينضم بعضهم الى بعض تحت عاطفة وطنية حقيقية . لكن هذه العاطفة ليست في المعنى الذي نفهمه نحن الحضريين المؤدي الى تملقنا ارض آبائنا وأجدادنا ، بل هي في نظر البدو في معنى التعلق بالعنعنات وذكريات الآباء والاجداد وبالدفاع عن سلامة هذا المجموع المتنقل المسمى (عشيرة) . والعشيرة لا تدافع عن ارضها ، لانها لا تملك هذه الارض ، بل هي تدافع عن حقها في الحياة في تلك الارض اي عن حقها في المرعى والمنهل . ويقول المقدم مولر في كتابه (في الشام مع البدو): ان اكثر جموع البدو — وان كانت من نبعة واحدة — لا تجتمع على قضية قومية بل على غاية تبتغيها . فالبدو لا يبقون مجتمعين الا بسائق الاستمرار ، او كلما حالت المصالح المادية دون انفرادهم الشخصي . لانه متى رأت احدى كتلهم نفسها قوية في قليل او كثير او مطمئنة الى حد كاف تنفصل وتنفرد وتعيش لوحدها ، واعتقد ان الامن في البادية كلما استتب والطمأنينة كلما سادت وصل هوى الانفصام والانفراد هذا الى الافخاذ والبيوت الى داخل الفرق .

فالعشائر سائرة في طريق الافتراق ولا سيما في أيام السلم والاستقرار . فكل

عنزة اصلهم قبيلة واحدة . ولكن حينما نزحوا من نجد نحو بلاد الشام ساروا في حالة فرق . وحينما استقرت هذه الفرق في بلاد الشام واقتطعت لنفسها منطقة نفوذ اكتسبت شكل عشائر منفصلة كالأرولة والولد علي والاحسنة والاسبعة والفدعان وهم على قرابتهم واتصالهم بنجار واحد ، اذا حدثت بينهم فتن على منافع او اذا شجر نزاع على مراعي ومنازل انقلبوا أعداء وقاتل بعضهم بعضاً كما جرى بين الارولة والولد علي قديماً وبين الارولة والاسبعة حديثاً ودام مدة مديدة . وامر الانفصال والافتراق ما برح دائماً . فالاسبعة قد افترقت الى جذمين كبيرين البطينات والاعبدة . والفدعان الى ولد (بضم الواو) وخرصة . وقد ازعجت نتنهم ديار الفرات حتى سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥) التي اجبرهم الفرنسيون فيها على الصلح . وها ان الخرصة سينقسمون الى ضنأ خريص وضنأ كحيل بحكم ضعف القيادة لديهم .

العصبية العشائرية

بيد ان هذا الافتراق يؤتى مع الاحتفاظ بالقرابة او النسابة او بما يدعونه (العصبية القبلية) او (العصبية العشائرية) . وللعصبية سيطرة قوية على عواطف البدو . فهي تجمع بين الاقارب والانسباء الذين يمكن ان توجه اليهم المسؤليات في حالة اخذ الثأر ودفع الدية ومنتهاها الجد الخامس . وهي تجمع ايضاً بين الفرق المختلفة في حالة اعلان العداء واشهار الحرب (رد النكا) على عدو مشترك . والبدو انما يتعارفون بهذه القرابة ويتسمون ويتنادون بالنخوة التي يتباهون بها ويتعارفون عند الكريهة وكلمات (ضنأمسلم) (وضنأماجد) مستعملة بقدر كلمات الارولة والخرصة .

ولشدة اعتناء البدو بالعصبية تجد إنتصار بعضهم الى بعض على نسبة درجة القرابة . فكلما كانت العشيرة اقرب الى العشيرة كانت اولى بنصرتها ، لايختلف ذلك فيهم الا لعوامل غير معتادة . ومهما اشتدت العداوة بين ابناء فخذ واحد

فانهم يجتمعون بطناً واحداً على بطن آخر يناوئهم بينما هو من ضنأهم . وكذلك تجتمع البطون المنتسبة الى ضنأ لمقاومة ضنأ آخر بينما هو من عشيرتهم ، وهلم جراً ولا بد ان ينزع عرق النسب في البدوي فيميل به الى الاقرب مهما كان هذا الاقرب بعيداً في الحقيقة . وقد كان القحطاني قديماً ينتسب الى شعب طويل عريض يعـــد بالمـــلايين ، والعدناني كان ينتسب الى شعب لايقل عن ذاك في العدد والمدد . ولكن اذا اختصما في موقف من المواقف وجدت عرق العصبية نزع في كل عربي ، فمال القحطاني الى قبائل اليمن ومال العدناني الى قبائل الحجاز ونجد اي مضر وربيعة . وقد يوآخى الفريق منهم من كان يعاديه بغضاً بفريق آخر اشد عداوة لانه ابعد نسباً ، وعليه قول شاعرهم :

وذوي ضباب مضمرين عداوةً ... قرحى القلوب معاودي الاضغان
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم ... وهمو اذا ذكر الصديق اعادي
كيما أعدهمو لأبعـــد منهم ... ولقد يُجاء الى ذوي الاحقاد

على ان روابط النسابة ووشائج القربى لاتجمع بين البدو جمعاً كاملاً وتصهرهم في بوتقة واحدة . بل قصاراها ان لا تفرق ولا تفصم . فانت لست امام عناصر مندغمة اندغاماً تاماً ، بل امام عناصر لم ينفصم عراها بعد . والطأنينة التي يتمتع بها كل بدوي هي من وفرة العـــدد في عشيرته وذوي عصبيته لا من اضطراره او اقباله على الدفاع المتقابل ، اذ ليس مايجبر البدوي على نجدة اقرب جيرانه اذا نال الغزاة من هذا الجار مالم يكن ثمة نفع مادي له او يكون تجاه مجيء الغزاة غداً اليه . ولايكون الدفاع عاماً ما لم يقترب العدو من البيوت . فحينئذ يجبر كل منهم على الدفاع ، ويسوغ للرئيس ان يقسره على ذلك حتى اذا تخلف او تمنع قتل فرسه او اباد غنمه .

وتكافل افراد العشيرة وتضامنها يوجبان على رؤسائها ان يحافظوا على آداب ابنائهم المنتسبين اليهم . ومن ثم اذا اتى افراد العشيرة امراً لاتريد هي ان تأخذ تبعته على نفسها ، او اذا اذنب نحوها كلهـا ينفى ذلك الفرد حينئذ من وسطها ،

واذا لم تقبله عشيرة اخرى حاق به البلاء لامحالة . فالعصبية هي التي تسوق البدو الى التضامن والتكافل او الى الدفاع عن الحقوق واتخاذ الوسائل المؤدية الى خير العشيرة ونفعها .

والنسابة او العصبية العشائرية تربط الافراد الى حد الجد الخامس .وذلك عند دفع (المدة) اي دية الدم . ولايدفعها احدهم الا لملاحظة وقوعه هو يوماً ما في حادثة قتل يطالب بها فلا يجد من يعينه . وما خلا هذه الرابطة بين الاقارب فان الروابط الادارية والسياسية في عالم البدو ضعيفة جداً لاتقويها الا سلطة الشيخ (الرئيس) وحسن قيادته . فهذه الروابط منوطة بهما . ثم ان عظمة كل عشيرة بالعدد تختلف جداً من مقدار قليل من البيوت الى بضعة آلاف منها . واذا علت شهرة الشيخ (الرئيس) بسبب انتصار في الحرب او اصابة في الرأي او مقدرة في القضاء اوحنكة في الادارة اومهارة في النفوذ الى اولياء الامور ولا سيما في الشجاعة والاريحية ووفرة الاقارب والاتباع وكثرة الاموال والثمرات حينئذ يزداد عدد البيوت الملتفة حوله وتكثر حواشيه كما هو الحال في الارولة حول الامير فواز الشعلان الذى ورث ذلك عن جده النوري وفي الفدعان حول الامير مجحم بن مهيد وفي الاسبعة حول الشيخ راكان بن مرشد وفي شمر حول الشيوخ آل الجربا وغيرهم . وبالعكس اذا ساءت ادارته او طغت فظاظته او نقصت كرامته او ذابت ثروته لسبب ما ينفضون من حوله تباعاً ويلحقون رقيبه ومنافسه الى ان لايبقى حوله الا بضعة بيوت من انسبائه الاقربين كما هو الحال لدى بعض العشائر كالولد علي والفدعان الاخرصة والاسبعة الاعبدة وغيرها .

الطبقات فى العشيرة

ينقسم البدو في وسط كل عشيرة الى أربع طبقات : (١) — طبقة الشيوخ ؛ ويسمون شيوخاً ولو كانوا حديثي السن . وهم أصحاب الرأي الراجح والقول النافذ على سائر الطبقات ، وهم عماد العشيرة وملاذها وبهم سؤددها ورفعة شأنها

وفيهم يفترض وجود الشمائل والمناقب التي سيأتي شرحها ٢. طبقة الرواسي او الكبراء وهم يلون الشيوخ في المنزلة الاجتماعية ويماثلونهم او يقربوا منهم في الشمائل والمناقب ، وهم يرأسون فرقهم ويسوسون افرادها . ٣ ـ طبقة العامة ؛ وهم السواد الاعظم من افراد العشيرة والحاملون اعبائها والمكلفون بضرائبها والمقاتلون في سبيلها وبكثرة هؤلاء او قوتهم او عدتهم يعظم نفوذ الشيوخ والرواسي . ٤ ـ طبقة العبيد وهم احط الطبقات ، ولا يزال اسم العبودية لاصقاً بهم ولو ان اسيادهم اعتقوهم فصاروا احراراً يتصرفون بانفسهم واموالهم كما يشاءون . وافراد العشيرة لايصاهرون هؤلاء ، بحكم انهم ليسوا في مستوى اجتماعي مماثل لهم . وليس كل العبيد سود البشرة ، بل ان بعضهم بيض كالذين يكثر وجودهم في عشيرة طيء او النعيم ، وهؤلاء العبيد رغم انعتاقهم ما برحوا متعلقين بشيوخهم واسيادهم لاينفكون عن ولائهم وخدمتهم وبذل النفس والنفيس في سبيلهم . ولولا صفة بارزة تتجلى احياناً في بعضهم وهي نكران الجميل فاحدهم يبقى على الولاء ما دام يرى احساناً ومعروفاً . اما اذا قصر عنه مولاه ولو قليلاً بسبب عسر او سهو تنكر واقنعسس وقد قدمنا ان البدو يسمون العبيد باحب الاسماء لديهم كلؤلؤ ومرجان وسرور وسالم وغراف وامثال ذلك وهم يخاطبون ساداتهم بيا عمي وسيداتهم بيا عمتي .

ادارة شئون العشيرة المشتركة وشروطها ـ ان الطبقات الاجتماعية التي عددناها يتساوى ابناؤها في جميع الحقوق مهما اختلفت مراتبهم فلا فضل في عالم البداوة لاحد على أحد . الا انه يكون على رأس كل فرقة رئيس يدعى شيخاً . وشيوخ الفرق خاضعون لشيخ العشيرة ، وشيوخ العشيرة لشيخ القبيلة المعروف عندهم بشيخ المشايخ او العليم ، ولايمتاز الشيخ الا بكونه مقدماً على الاقران ومكلفاً بالادارة والقيادة وله حق اعلان الحرب او عقد الهدنة او ابرام الصلح مع مشايخ العشائر الاخرى . والمشيخة عندهم تنتقل بالارث الى الاولاد فالاحفاد وكثيراً مايكون ولي عهد الشيخ طفلاً وهو شيخ . ويبقى تحت وصاية احد اقاربه المتنفذين حتى

يبلغ من الرشد . على ان المشيخة ليست بالارث وحده ، بل بالاستحقاق ايضاً فلا يصير ابن الشيخ شيخاً ما لم تتوفر فيه الشروط . ولايستحق المشيخة وينالها الا من كان بين رجال الاسرة المتمشيخة او العشيرة اذكاهم جناناً واكثرهم معرفةً وسداداً واطلقهم لساناً وبياناً وافرسهم يوم الطعن والنزال واغناهم بالرزق والمال وابسطهم يداً بالكرم واقراء الضيف واقدرهم على رفع الضيم والحيف واوفرهم بعدد الاقرباء والانسباء والحواشي والمواشي واعرفهم بمخاطبة الدول والحكام واقدرهم على حل المشكلات لدى اولياء الامور . والشيوخ او رؤساء العشائر الرحل كانوا يعينون بقرار من المفوض السامي الفرنسي (والآن من وزير الداخلية في الجمهورية السورية) ، وتنص المادة ٣٤ من القرار رقم ١٣٢ بانه يمكن عزلهم اذا اخلوا بالامن العام او تمردوا على القوانين والانظمة النافذة او استبدوا وعتوا حتى قيام العشيرة كلها لطلب عزلهم .

والمقام الاول عند البدو في المشيخة للجدارة الشخصية . روى الاب جوسن الدومنيكي في هذا الصدد انه سئل ذات يوم أحد كبراء البدو كيف يصيرون شيوخاً عندكم ، فاجابه وهو يهز سيفه : بالفهم السوي والزند القوي .

هذا ويصعب تحديد سلطة الشيخ ونفوذه الفعلي . اذليس ثمة اي دستور مقرر او قانون محرر . بل كل ذلك يتبع العرف المشروع والشرع المعروف . ويمكن ان يقال احياناً ان الشيخ هو المرجع في كل شأن والملاذ في كل خطب او هو كل شيء ، كما يمكن ان يقال ـ اذا كان ضعيفاً او مأفوناً ـ انه ليس بشيء . والقاعدة العامة ان تتناول سلطة الشيخ الامور الآتية :

١ ـ يأمر الشيخ بالرحيل والنزول اذا نجع قومه وظعنوا . فهو يعين مقدماً مواعيدها حسب الفصول او حسب مراعي الكلأ او موارد الماء ، ويراعي في ذلك العادات البدوية المتعلقة بحقوق الرعي ومناطق الجولان الخاصة بالعشيرة وماليها . وهو ينظر في هذه الامور الى سلامة عشيرته او اطمئنانها من وجود

اخصام لها او عدمه ، فيستطلع لاجل ذلك اخبار الحالة السياسية في البادية ، وحينما يظهرله ان الآوان قد آن يأمر بالرحيل ويكون هو البادئ بتقويض البيت وتحميله .

٢. — يراقب الشيخ امر الالفة والوئام بين ابناء عشيرته . وهو المرجع في حل المنازعات وتسوية الخلافات التي لاتحتاج لمراجعة القضاة (العوارف) وهو الذي يوقف القتال بين المتخاصمين بقوله « وجهي بينكم » فبهذه الكلمة الصغيرة يحقن الدماء ويحفظ النفوس . ثم هو الذي يجير الدخيل اوالطنيب اذا استجار ويسترد الاشياء المسلوبة ويكشف السرقة ويقسم الغنائم اذا عاد الغزاة ويحمي الفقراء والضعفاء ويوافق على عقود الزواج والطلاق .

٣. — يمثل الشيخ عشيرته لدى الحكومات وذوي السلطات ويتحمل تبعة مايفعله هو واتباعه من السيئات المندرجة في المادة ٣٤ من القرار ١٣٢ .

٤. — يعلن الشيخ الحرب ، واعلان الحرب معروف عندهم بـ (رد النكا) ، او يقر الصلح والسلام بعد أخذ رأي المجلس المؤلف من شيوخ العشيرة ورؤساء فرقها . وعند حدوث مايدعو للحرب او السلم يدعو الشيخ هؤلاء فيجتمعون في في بيته ويتشاورون ويقرون ما فيه صالح العشيرة ، وعلى الشيخ ان يزعن لقرار هذا المجلس . ومن العادة انه حينما تعلن احدى العشائر الحرب على عشيرة اخرى يرفع الشيخ راية سوداء او يربطها في رقبة فرسه او بعيره ويطوف بين البيوت منادياً بما معناه « لقد اشهرت الحرب على العشيرة الفلانية استعدوا » فيهب كل واحد حينئذ الى سلاحه ويلبي الدعوة . ومن لا يلبي يحق للشيخ ان يضربه او يطرده من المنزل او يسلب سلاحه وحلاله . والواقع ان اعلان الحرب من عشيرة على اخرى امر ذو خطر كبير . ولا بد أن تكون ثمة دواعي حقيقية تسبغ ركوب هذا المركب الخشن كالغزو والتعدي المتكررين او سلب حقوق الرعى او الشرب او امثال ذلك . وحينما يقرر الشيخ اعلان الحرب على عشيرة اخرى

يبعث الى شيخها كتاباً أو رسولاً محايداً أميناً يقول فيه : مردود عليكم النكاح حلال لكم حلالنا ومالكم مالنا ، وبعد ذلك لاتكون احدى العشيرتين مسئولة عما يقع على الاخرى من الغزو او السلب والنهب ، لان كل مايحدث من ذلك بعد (ردالنكا) يعد امراً قانونياً شرعياً . وأما مايقع قبل اعلان الحرب فيكون تابعاً للضمان والغرامة .

هذا والبدو من حيث الطمع والاذعان جامعون بين الضدين . فاذا غلت ايديهم عن التحامل وضاقت بهم الحيل قنعوا باليسير ورضخوا كل الرضوخ ، وان تبينوا سبيلاً الى الاستطالة هبوا اليه . ويطلق هذا الحكم على الرفيع منهم والوضيع ، وهو نتيجة كل ساطة مطلقة . ومن ثم لم يكن الشيوخ في مأمن من فتك اقاربهم او منافسيهم ، الا اذا استتب لهم الامر واكثروا من وسائل الارهاب والترغيب معاً .

ومن العادة ان يكون في بيت كل رئيس كبير او شيخ جليل انسباء وذوو قربى مخلصون وحاشية وعبيد معتقون او شبه معتقين هم مكلفون خاصة بخدمة الشيخ وصيانته ويؤلفون شرطته او حرسه الخاص ويسمون (بيرق) عند عنزة الجنوب « ضنأ مسلم » و(ذكرد) (١) عند عنزة الشمال « ضنأ بشر » وكذا عند بدو العراق . ويكون وراء هؤلاء اسر وبيوت ممن لاتصلها بذلك الشيخ وشيجة قربى ، لكنهم متعلقون بولائه ووداده لا يفارقونه قط .

ومن المفروض ان يمتاز الشيخ بالاريحية والنجدة والبسالة ورجاحة الفكر مع طلاقة اللسان والوجه والحلم عند الغضب وطول الاناة ورباطة الجأش ، ودواعي الاريحية تقضي على الشيخ ان يكون بيته اوسط البيوت وأعظمها واعلاها ليراه الطارق ليلاً ونهاراً فيقصده ، وان تكون ربعته اي مكان اجتماع الضيوف كالمنتدى

---

(١) ربما كانت تصحيف كلمة escorte الافرنسية وهي بمعنى جنود الحرس

العام مفتوحةً في وجه كل قاصد لاتنقطع منها القهوة والتبغ والطعام والفراش. وعليه قول شاعر بدوي في صحراء سينا :

الشيخة ماهي بالجوخة ولا بكبر العباية يابنية
الشيخة صب القهاوي زي العيون المرويّة
الشيخة جر المناسف في السنين الرديّة

ومن عادة الشيوخ في العشائر الكبيرة (شمر وعنزة) ان يتكفلوا بجباية ضرائب الابل والغنم التي تفرضها الدولة على عشيرتهم وعلى الغرباء اللاجئين اليهم لسبب ما فيتولى الشيخ توزيعها على الافراد مباشرةً . وهو يجبيها ثم يدفع ما جباه الى الدولة ويحتفظ بالزائد منها لانفاقه في سبيل المصلحة العامة للعشيرة . وهذه الطريقة اي توسيط الدولة للشيوخ باب مغنم كبير لهم فوق الراتب السنوي الذي يتقاضونه من الدولة. الاان اكثر الشيوخ ينفقون مايأخذونه بحكم ان مالهم يكاد ان يكون مشاعاً ونفقاتهم طائلة وبذخهم غير يسير . ومن عاداتهم ايضاً ان يرسلوا احد عبيدهم فيمر بالفرق التابعة لهم ويجمع غنماً وماعزاً من كل واحد بحسبه . وذلك لقاء صيانة رزقهم من السرقة او السلب .

وفي العشائر الكبيرة ولا سيما في تلك التي على رأسها بيوتات كريمة المحتد وجليلة القدر (كآل الجرباء في شمر وآل عبدالرحمن في طيء) وامثالهما يكون الشيخ محترماً جداً لاينبغي لاحد ان يستغيبه بسوء او يعترضه بقول ولو شتمه او انهال عليه بالضرب . ثم ان مال الشيخ محرم لايجوز لاحد ان يختلسه او يغتصبه ، وان فعل ذلك عن غفوة وعلم به اعاده بسرعة معتذراً . ومن المزايا التي يفترض وجودها في الشيوخ الصدق في القول والبر في القسم والوفاء في العهد والمتانة في الذمة والبعد عن النقض والنكث والغدر ، وتقدر درجة النبل والسؤدد عند الشيوخ بنسبة مالهم من هذه المكارم . وكونهم عفيفي اللسان عزوفين عن الشر والاذى مترفعين عن الدنايا وعن اموال ابناء العشيرة واعراضها ، لايتقاضون اجراً عن معروف

اتوه ولا يتحزبون لاحد ولا يتوانون في مدافعة حقوق العشيرة ودرء المفسدة عنها وجلب المنفعة اليها ، يمدونها اذا عضتها سنو الجدب والمحل ويأتون لها بالخطباء الاتقياء والمعلمين الصلحاء اذا اخنى عليها الجهل بامور الدين والدنيا ويرشدونها ويوجهونهـــا نحو العمل الصالح والرزق الحلال من سبيل الزرع والضرع وما اليهما .

وقد جرت العادة انه اذا عجز الشيخ بسبب التقدم في السن او المرض وشعر بحاجته الى الراحة والتخلص من اعباء الرئاسة وهمومها ينتخب من بين اخوته او أولاده او احفاده ذاك الذي يرى فيه هو الكفاءة في النيابة عنه . وقبل ان يحمله الامرة كلها يحمله بعضها كحل الخلافات والنيابة عنه في المؤتمرات ونحو ذلك . واذا اشتد عليه المرض وشعر بدنو الاجل يقلد نائبه المنتخب الرئاسة كلها . وقد جرت هذه الحالة عقيب الحرب العامة الماضية عند عشيرة شمر ، فاذ رئيس شمر العاصي بن فرحان كان بلغ من العمر ثمانين حولاً أو أكثر وانزوى الى اراضي دميرقبو (في تضاء ديرك من محافظة الجزيرة) التي اقطعها له الترك وقتئذ . فعهد بالرئاسة الى حفيده دهام بن هادي العاصي على ما كان له من الابناء الشبان النشيطين .

اما اذا لم يظهر هذا الخلف الجدارة الكافية ونفرت العشيرة منه تنتخب غيره واذا حصل تبدل الرئاسة على غير انتظار كالموت الفجائي او لمصيبة داهمة او ازمة عضالة ، فرواسي العشيرة اي كبراؤها ينتخبون غيره . وقد يصل الامر الى نقل المشيخة من بد الاسرة التي كانت متوليتها الى يد (العقيد) الذي يكون له اوسع شهرة في ذلك الحين . لان شيخ العشيرة ليس من المحتم ان يكون عقيد الحرب والامثال عند البدو على ذلك كثيرة . كجدعان بن مهيد في الفدعان ، فقد انتخبته عشيرة الاسمة عقيداً للحرب في معاركها مع الاروله حول سنة ١٢٩٢ هـ وفي عهدنا لم يكن عقيد الحرب عند عشيرة الموالي احد امراءهم من آل أبو ريشة . بل كان رجلاً من طبقة تالية يدعى فارس العطور توفي منذ بضع سنوات . وقد

نال هذا الرجل بفروسيته وحسن قيادته ووعورة خلقه مقاماً جعل السلطات تعتمده رئيساً للموالي الشماليين في جانب الامير شايش والامير عبد حتى مات وخلفه ابنه احمد في العقادة وربما خلفه في الرئاسة على الموالي القبليين . على ان الشيخ اذا لم يكن عقيداً ولم يقد الحرب بنفسه له الامتياز الخاص في اعلان الحرب او عقد الصلح وهو في الحالتين مكلف بان يراعي الحالة الروحية في عشيرته . لذلك تراه في أغلب الاحيان يوفق الامر الواقع بما يلائمه . أما اذا تقدم الشيخ لعقد الصلح او اتمام المحاسبة والمقاضاة مع الاخصام حينئذ لامرد لكلامه ولا تبديل او نقض لما سمح به في امر (الحفر والدفن) . واليك هذا المثال الذي ذكره المقدم مولر : في مؤتمر الصلح الذي عقد بين شمر الجزيرة وفريق الولد من الفدعان في سنة ١٩٢٦ لانهاء الفتن والغارات التي دامت بينهما سنيناً عديدة قام الامير مجحم بن مهيـــد ودفن الفاً وخمسمائة بعير لفرقة العجاجرة احدى فرق الولد (بضم الواو وسكون اللام الثانية .) وقد كانت شمر اغتصبت هذه الاباعر في احدى غزواتها ، وثمنها اكثر من ثلاثين الف ذهب عثماني ، فقضى الامير مجحم بذلك على اكثر من مائة بيت اضطرت الى ان تبقي عالة على بقية العشيرة في حلها وترحالها ومعاشها ، ذلك لان غزاة شمر لم يبقوا لها شيئاً . ولا ريب في ان مكانة الامير مجحم وشخصيته وسلطته التي يتمتع بها على عشيرته والمعونة التي كان ينتظرها وقتئذ من الحكومة حملته على قبول هذا الحل المجحف .

والرئيس في العشيرة هو المسئول عن اعمالها تجاه الحكومة وبقية العشائر . وقد يكون هذا غير الرئيس الذي وظفته الحكومة واعتمدت عليه كما كان الحال لدى شمر الزور (الخرصة) حينما كان يرأسها رسمياً مشعل باشا الفارس وفعلياً ميزر العبد المحسن . فكانت العشيرة لاتقر على اي امر يبرمه مشعل مالم يقر به الشيخ ميزر الى ان نحي مشعل في سنة ١٩٢٧ واستقرت الرئاسه في يد ميزر . وثمة عشائر لا يعتبر ختم رئيسها الا اذا انضمت اليه اختام بعض الرؤساء

التالين الذين يدعون (ارباب الاختام) . ذلك ان معظم رؤساء البادية كرجالهم اميون ، يتخذون اختاماً لتوقيع رسائلهم التي يبعثونها وهذه يكتبها لهم كتابهم اذا كانوا اغنياء ومتخذين كتاباً ، او يكتبها لهم احد التجار العابرين . وطلب توقيع ارباب الاختام يظهر في العشائر التي خرجت السلطة فيها من يد الاسرة المترأسة الى رئيس آخر لم تلتف كل القلوب حوله بعد ، فبقيت متعلقةً الى حدٍ ما بالاسرة السابقة . كما هو الحال في الاخرصة من الفدعان التي نبغ فيها مزود بن قعيشيش الملقب بالنمر واغتصب الرئاسة من اسرة ابن غبين . فما من توقيع كان يضعه مزود الا وينبغي ان يقر عليه عبيد بن غبين كبير الاسرة المذكورة . وهذه الحالة موجودة ايضاً في الاسبعة في جذمي الاعبدة والبطينات فلكل منها ارباب اختام عديدون كابن عايد وابن الصايد وابن موينع وغيرهم من رؤساء الفرق .

ثم ان الرئيس فيما خلا مكانته الشخصية لا يمكنه ان يحل او يبرم امراً في أمور الحل والترحال والحرب والسلم مالم يشاطره الرأي رجاله الملتفون حوله وخاصةً الشيوخ المعمرين والرواسي المنظورين . فهو مضطر الى اخذ موافقة الجميع لاسيما اولئك الذين ربما انقلبوا عليه وصاروا رقباءه ومزاحميه بفضل ذكائهم او مكانتهم وهو اذا كان غنياً يسير على طريقتين : اما ان يربط القلوب حوله بجوده وكرمه واما ان يتخذ لنفسه عبيداً او (زكرد) اي رجالاً مسلحين يقضون مايبرمه وينفذونه وهذه الطريقة الثانية تظهر للوهلة الاولى احسن ؛ لأن فيها فائدة تحميل قسم من النفقات المصروفة على رجال العشيرة . ولكن يبقى هناك حصة كبار الرؤساء فالبدو لا يرضون بخدمة احد يحسبونه اقل نبلاً منهم ولو لقاء جعل ، وليس ثمة مجال للضغط ، لان من يجد نفسه مغدوراً ليس اسهل عليه من ان يقوض خيامه ويذهب بأهله نحو رئيس آخر يرى الانضواء تحت لوائه انسب له ، وهذه الحالة كثيرة الوقوع ، ولطالما حدثت من جراء سوء التوزيع الذى كان يجري حين فرض الضرائب (كالودي والاغنام) وجبايتها . فمن الفرق من لم يدفع الا القليل

ولم يستطع شيوخها مراجعة السلطات ،خوفاً من افلات الفرقة من يدهم ، وكثيراً ما كانت هذه الحالة تدعوهم للمطالبة بتخفيض الضرائب بحجة النقص الحاصل في العشيرة من جراء مغادرة بعض الفرق وانفصالها . وآخر تدبير يلجأ اليه الشيوخ هو مراجعة الحكومة واستدعاء معونتها لتنفيذ سلطتهم على عشيرتهم . لكن هذه المعونة دقيقة جداً ينبغي على الشيخ ان لايتعدى فيها الحدود وعلى ضابط القوة المرسلة لمعونته ان يجتنب كل ما يوجب الاقلاق والضجة .

هـــذا وكلما زادت افراد العشيرة حول الرؤساء والشيوخ كثرت اعمـــدة بيوتهم وكثر عـــدد عبيدهم ورجالهم وازداد بذخهم وترفهم بركوب السيارات الفخمة وغشيان الحواضر والمـــدن . ويصير عند كل من نساء الشيخ فراشة وهي امرأة تقوم بواجب الفرش والحل والظعن، وعند الشيخ نفسه طباخ يذبح الذبائح ويطهي الطعام وحطاب يجمع الوقود وراوي يهيئ الماء ويجلبه وسفراوي ينقل الصحون والمناسف للموائـد ووكيل مكلف بدعوة الضيوف واجلاسهم وتوزيع الطعام عليهم ، هذا الى ثلاثة او اربعة سواس وراعي ابل وسائق سيارة ورعيان غنم لكل ٣٠٠ ـ ٤٠٠ رأس منها راع ، ثم صانع او حداد لاصلاح السلاح ولجم الخيل ونعالها وبواردي لاجل الصيد وصقاقيري لخدمة الصقور وامثالها من الجوارح . وبعض هؤلاء الخدم من العبيد الذين اعتقهم اجداد الشيخ حينما حضرتهم الوفاة وبقوا في الخدمة لدى أولاده او اعقابه وهم يستمدون المعونة او الحماية في كل سانحة من « اعمامهم » الذين يمكنونهم من ان يتمتعوا وسط العشيرة بارضى عيشة . ويكون قرب بيت الشيخ بعد ذلك بيت خاص للخطيب او الملاّ ، المكلف باقامة الصلاة والاذكار والوعظ ، واذا كان هذا الخطيب صالحاً ودرّاكة يتمتع بحرمة كبيرة ونوال غير يسير .

الانفصال او تبديل التابعية

يستطيع من يشاء من العشيرة ان ينفصل عن عشيرته وينضم الى عشيرة اخرى

اذ راعى الشروط التالية : عند ما تقع مشكلة يتعذر حلها بين احد الناس وبين اسرته او عشيرته او بين عشيرتين او بين فريقين ووجد الشخص او العشيره او الفرقة الواحدة انها مغلوبة الاخرى وغير قادرة على نوال الحقوق التي تطالب بها ولم تجد سبيلاً للتفـاهم يسعى ذلك الشخص او تلك العشيرة او الفرقة المغلوبة بالمفاوضة مع عشيرة اخرى للانضمام اليها . وبعدان يتم الاتفاق مبدئياً يقيم المغلوب وليمة كبيرة يدعو اليها الاعيان والشيوخ ويعلن انفصاله من عشيرته بحضور الجمع المدعو ويرحل بعياله وحلاله وينزل على العشيرة التي كان قد تفاوض معها واعلن الالتحاق بهـا فتلاقيه رجال تلك العشيرة وتولم له ولذويه وتكرمهم . وفي اليوم التالي يدعو هو في دوره رجال العشيرة الى وليمة يقيمها في بيته ثم يرفع راية بيضاء معلناً انفصاله التام عن عشيرته وانضمامه للاخرى ، ويقدم الراية لشيخ تلك العشيرة ، وهذا يعلن قبول الشخص او العشيرة او الفرقة في عداد اتباعه ، بعد ذلك يصبح ذلك الشخص او تلك العشيرة او الفرقة في عداد العشيرة الاخرى مساوين لهم في جمع الحقوق والامتيازات .

الصداقة بين العشائر

× اذا كانت عشيرة صديقة الاخرى صارت مساوية لها في الحقوق والواجبات كأنها فرقة من فرقها . فكل من العشيرتين يحتفظ باستقلاله الناجز ، لكنها اذا تنازعا على الآبار وموارد المياه في مناطق النجعة والرعي ونحو ذلك ، يفصل الرؤساء في الامر باعظم مايكون من المسالمة والتسامح .

واذا ازدادت هذه الصداقة انقلبت الى تحالف حقيقي . وفي هذه الحالة اذا اصابت احد الفريقين المتحالفين غارةٌ او عداوة من عشيرة غريبة على الفريق الاول ان ينجده (يفزع له) ويقف بجانبه .

ان هذه المحالفات لاتكتب لها عقود وصكوك ولاتختم بتواقيع . وهي موجودة

ومستمرة بطبيعة الحال وبدقة تامة بين العشائر التي بينها عصبية نسب واحد كعشائر عنزة مثلاً ، رغم النفور الذي قد يكون بينها . ومن ثم ترى العشيرتين المتنازعتين اذا اصيبت واحدة منها بغارة عشيرة غريبة تحتمان النزاع الناشب بينهما موقتاً وتتضامنان للوقوف في وجه العشيرة الغريبة .

. واذا توثقت عرى الصداقة بين عشيرتين احداهما اقوى من الثانية تصير الضعيفة من اتباع القوية ولواحقها كما هو الحال بين الولدعلي والارولة وبين الفواعرة والاحسنة.

ان اعمال العداء والتطاول على عشيرة صديقة تحاكم دائماً بعقوبات اشد واقسى من التي ترتكب في حق عشيرة معادية . والقاعدة المتبعة هي ان العشيرة المعتدية لايصح لها ان تطالب عند المقاضاة باي تعويض عن الاموال المنهوبة ولا الا نفس المقتولة . واذا هوجمت عشيرة صديقة صدفةً او خطأً فالمنهوبات ترد بكاملها وبلا ابطاء ، وكثيراً مايضاف اليها هدايا لتلافي الضرر المعنوي الذي حدث .

الحرب بين العشائر

قلنا ان اشهار الحرب على عشيرة اخرى امر عظيم وخطر ، ينبغي ان لايقدم عليه الا بعد تفكير وتروي . وعلى كل ينبغي ان يسبقه باديء ذي بدء ارساله انذار وهو مايدعونه (رد النكا) (١) والا ؛ فان رئيس العشيرة الذي يقصر في ذلك ويغدر حينما يقف في موقف الحكم تصدر في حقه احكام قاسية عدلة ويعرض نفسه اذ ذاك لخذلان حلفائه وانفضاضهم من حوله ، بحكم ان عمله كان مخالفاً للمروءة والتقاليد العربية .

واذا اعلن الرئيس الحرب بعد تفكير وتروي واستشارة كبراء العشيرة تنفتح ابواب العداء والشرور وتبدأ الغارات بين الفريقين ، وقد تصل هذه الى معارك

---

(١) في أقرب الموارد ؛ نكا القرحة قشرها قبل ان تبرأ فنديت ونكا العدو قتل فيهم وجرح والنكى . فلعل كلتهم رد النكا من احد المعنيين .

حقيقية، وهي في يومنا صارت خطرة جداً ، لان البدو الرحل الذين بينهم عسكريون قدماء شرعوا يتخذون الاسلحة الآلية كالرشاشات والبنادق السريعة الطلقات كما جرى بين الولد والولدة في عام ١٩٤١ .

وفي المعارك الحربية قواعد لابد من مراعاتها . والا كان الناقضون لها عرضة لمؤاخذة القضاة الذين لابد من استدعائهم يوماً ما حين تسوية النزاع . وخلاصة هذه القواعد هي :

أ . ـ الجرحى ـ سواء أكانوا من الاصدقاء أم من الاعداء ـ يحملون الى المخيمات ويعتنى بهم ريثما يرسلون الى اهلهم . ٢ . ـ الجرحى الخطرين يمكن الاجهاز عليهم فوراً لتخليصهم من الآلام . وذلك بعد موافقة خطيب العشيرة وطبيبها اللذين يجب عليهما عادةً ان يرافقا الشيخ او عقيد الغزو . ٣ . ـ يؤخذ سلاح الاسرى ويساقون الى مكان بعيد عن المعركة ويطلق سراحهم . ٤ . ـ يقسم الشيخ الغنائم بعد أن يأخذ حصة قدرها في الغالب الثلث .

ويمكن انهاء النزاع فوراً خلال المعركة او حين الخروج منها والوصول الى صلح سريع ، وذلك في حالات خاصة صارت نادرة جداً ، وهي :

أ . ـ اذا وجد أحد الفريقين نفسه ضعيفاً وقصد التخلص باقل مصروف يبعث نحو المهاجمين فتاةً جميلةً راكبةً على ناقة بيضاء . وحينئذ يقف اطلاق النار من كل جهة ، ويضطر رئيس المهاجمين بحكم المروءة الى ان يذهب بنفسه للقائها ، او يرسل احد ابنائه ، وحينئذ يجب على هذا الابن ان يتزوج تلك الفتاة . وحينئذ يعقد الصلح فوراً ويعود كل امرئ الى منزله .

٢ . ـ اذا وجدت العشيرة المعتدى عليها نفسها ضعيفة جداً ، يحق لها عقيب حدوث الغارة ان ترسل وفداً من نسائها الى رئيس العشيرة المعتدية ليستعطفنه بامر الغنائم ، وتحتم المروءة على هذا الرئيس ان يرد كل ما أخذه ويقبل بالصلح . وهذه الحالة ايضاً نادرة الوقوع كسابقتها .

بيوت البدو

كلما تجول المرء في الباديـــة وضرب في آفاقها في فصلي الخريف والربيع ، لمح عن بعد قرب التلال وبين الاودية لطخات سود تشبه شامات ذوات القدود . وهي تبدل احياناً منظر السراب وتهدي التائه وتنعش السائر بمرآها وأمل وجود المأوى والقرى فيها . وهذه اللطخات هي بيوت البدو المصنوعة من شعر المعز . واجتماع هذه البيوت يؤلف (الحواء) او (الحلّة) او (النجع) او (الدوار) ، وفي اصطلاح الافرنج (المخيم) وكلها بمعنى قرية البدو او منزل البدو. الا ان هذه القرية موقتة متنقلة ومعدة الى ان تزول بسرعة كما نشأت بسرعة. والحلة لا تحوي العشيرة كلّها، بل تحوى في الغالب رهطاً او فرقة من العشيرة واهل الحواضر اذا رأوا جمعاً من بيوت البدو قالوا رأينا (فريق عرب) او (نجع عرب) ، ويندر جداً أن تجتمع العشيرة كلها في حلة واحدة . والبدو لا يستعملون كلمة خيمة ولا مضرب ولا فسطاط ولا غيرها مما جاء في كتب اللغة بل كلمة (بيت) او (بيت شعر) فقط . وقد ورد في الكتاب العزيز وصف مساكن البدو وأثاثهم وامتعتهم بعبارة في منتهى الرقة والجزالة وهي « وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وإوبارها وأشعارها اثاثاً لكم ومتاعاً الى حين ».

وبيوت الشعر حارّة في الصيف ، باردة في الشتاء ، ولا تقي من الرطوبة والمطر كما ينبغي، تخفق فيها الرياح وتهزها وقد تسقطها العواصف على رؤوس اصحابها لكن هذه البيوت على علاّتها المذكورة مابرحت منذ آلاف السنين مأوى البدو ومسكنهم يطوونها وينشرون ويقوضونها وينصبون ويهيمون بها ويمدحون . فمن المادحين لها ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان ، وذلك رغم الترف والنعيم اللذين غمرها بهما زوجها في قصرها المشرف على غوطة دمشق ورياضها فقد دخل عليها يوماً فسمعها تترنم في خدرها فأنصت اليها فاذا هي تقول :

لبيت تخفق الارواح فيه ... احب إلي من قصر مشيد
ولبس عباءة وتقر عيني ... احب الي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق دوني ... احب إلي من قط الوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل فج ... احب الي من نقر الدفوف
وبكر يتبع الاظعان صعب ... احب الي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف ... احب الي من علج عنيف
خشونة عيشتي في البدواشهى ... الى نفسي من العيش الظريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطن شريف

فلما سمع معاوية ذلك منها قال : مارضيت بنت بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً ثم ردها الى أهلها .

وتنسج بيوت البدو من شعر المعزى الذي يجعل لها هذا اللون الاسود مع تموجات كستنوية غامقة .وهي تتألف من مستطيل كبير مؤلف من قطع طويلة تدعى (شقق) جمع (شقة) تحيط الواحدة بجانب الاخرى،ويتكون منها(السقف). ونساء البدو يصنعن الشقاق بايديهن،وقد تشترى من بعض بلاد الشام التي اختصت بصنعها كقرية الشغر القديمة غربي حلب ويبرود شمالي دمشق والكرك في شرقي الاردن وغيرها.وللبيوت (حبال مرس) من القنب و(أطناب) جمع (طنب) ، ويقوم السقف على أعمدة جمع (عمود) علوها يتراوح من المتر الواحد في الخربوش الى الثلاثة أو الاربعة أمتار في بيوت الرؤساء الكبار ، وهي توضع في الخط المتوسط بامتداد الطول الاعظم للبيت ، ويتألف البيت أيضاً من (الرواق) وهو قطعة طويلة من نسيج شعر المعزى أو وبر الجمل ، وعندهم أسياخ كبيرة من الحديد (أخلال) شكلها كحرف S الافرنجي يربطون الرواق بها بطرفي السقف أو بطرف واحد منه حسب هبوب الرياح أو ورود أشعة الشمس . ومنه كان لا بد أن يظل بيت

البدوي مفتوحاً من احدى الجهات .

والشقق تكون من شعر المعزى ، لان هذا الشعر لا يمتص الماء واذا كان بيت الشعر ثقيلاً في الاصل فلو ابتل نسيجه يصبح غير ممكن الحمل والنقل لو انه من غير شعر المعزى . ونسيج هذا الشعر في لحمته وسداه ذو خيوط غليظة يؤلف حزماً متراصة جداً ، ويزداد تراصها حين هطول المطر حتى تصبح غير قابلة النفوذ والرشح ، بيد أنه ممر للنور ، وحين سطوع الشمس بشدة يظهر للاشباح ظلال ولذا يتعذر حسر الرأس تحته. وهذا ما دعا بعض البدو انصاف الحضر أن يتخذوا بيوتاً بيض من نسيج القطن الخاص بالخيام . وهي أقل حرارة ، الا أنها لا يمكن اتخاذها في الشتاء ، وتترك في المعمورة الى حين العودة من نجعة الشتاء . وبيوت التجار والباعة الملتحقين بالبدو تكون من نسيج القطن الابيض ومخروطية السقف وعمودية الجوانب ، وهي التي يسمونها (خيام) جمع خيمة . وهم يضربونها في الغالب قرب بيت الشيخ ، ومن ثم كانت من علامات الاستهداء اليه وللاعمدة قيمة عظيمة لدى البدو . وهي تعد روح البيت في البادية وقوامه . ومنها قولهم فلان عماد بيتنا. وهي أيضاً كلما طالت وكثرت دلت على الثروة. والرفعة وعلى ان صاحبها طلبة الاضياف والزائرين ، وفي اللغة (فلان طويل العماد) أي بيته معلم لزائريه (و فلان رفيع العماد) أي شريف لرفعة عماد بيته ، و(أهل العماد) اصحاب البيوت العالية الرفيعة . ومن فوائد الاعمدة ان الرجل في البادية اذا اجرم وطورد فدخل بيتاً وقبض على عموده سلم وصار في حمى هذا البيت .

وأصغر البيوت ما ليس لها سوى عمود واحد . وهذه هي بيوت الارامل والطاعنين في السن الوحيدين والمنقطعين وبيوت الدخلاء والمستجيرين. واكثر ما تضرب هذه البيوت الصغيرة في جوار بيت الشيخ لتبقى في كنفه وعلى مقربة من احسانه. ويكون لكل اسرة بيت واحد ، إلا كبار الرؤساء ، فان لهم عدة بيوت عظيمة وينتج مما ذكر ان مكانة البدوي وسعة حاله تعرف من عظمة بيته . فاذا انقلت على منزلة من منازل البدو وقصدت اعظم بيت فيه وقعت حتماً على بيت الشيخ

او على بيت كبير يماثل الشيخ .

وعدد الأعمدة يكون بحسب كبر البيت ، ولايدخل على كل حال في الحساب العمودان اللذان في طرفي البيت . وهما قلما يستعملان ، لان الطرفين يكونان في الغالب مائلين نحو الارض بالاطناب ، بينما اعراب الديرة انصاف الحضر يجعلونها مرفوعين والسقف ممتد باستقامة ، وهذا مايجعلك ان تعين اصحاب هذه ابيوت ان كانوا بدواً ام من أعراب الديرة . وثمة علامة لتمييز البدو الرحل عن اولئك هي ان بيوت اعراب الديرة تكون اكبر واوسع واكثر اعمدة واقساماً ، ثم ان بيوت البدو ذات اروقة . لان البدو لا يبيعون اوبار ابلهم ، بل يستعملونها لنسج الاروقة . ونسيج وبر الابل يكون أوسع خلايامنه في نسيج شعر المعزى . فوجود هذه الاروقة علامة ان البيوت بيوت بدو اقحاح . وقد امتازت عشيرة الاسبعة بان أروقتها من وبر الابل وذات خطوط بيض في الغالب . وعلامة اخرى هي ان اعراب الديرة يتخذون لتفريق خدور النساء عن مكان الضيوف نسيجاً من القصب اسمه (ذرب) ، وهذا لايوجد عند البدو ، الا لدى بيوت الكبراء ، وعيدان القصب تربط ببعضها بخيوط من الصوف ملونة وتجعل عالية . والمسافات بين الأعمدة هي اطول منها لدى أعراب الديرة .

وبيت البدوي المتوسط الحال ذو عمودين ، وبيت الفقير والضعيف منهم ذو عمود واحد ، يستثنى من ذلك عشيرة (الاروله) التي اكثر بيوتها ذات عمود واحد مما يجعل لحلهم منظراً كئيباً . وليس ذلك لقصر ذات يدهم ، فهم اغنياء يملكون عشرات الالوف من الابل ، بل لانهم لايعنون بتربية الغنم الا قليلاً ، وأتساع بيوت البدو في شمال الشام من علائم تمايلهم نحو الحضارة وتدرجهم لتقليد (أعراب الديرة) الذين يربون الغنم ، وهي تدر ربحاً اكثر من ربح الابل ، لاسيما بعد أن شاعت السيارات وزاد الاعراض عن كل لحم الابل في مصر .

واكثر رؤساء عشائر الفرات تكون بيوتهم اوسع واطول من بيوت كبار

رؤساء البادية ، وليس ذلك لأنهم أغنى وأرفه حالاً بل لانهم لايأوون الى بيوت الشعر الاّ في الشتاء ،اما في الصيف فانهم يطوونها ويقيمون قرب الفرات في (السبابيط) جمع (سيباط) المصنوعة من سوق الاشجار و أغصانها . لاسيما وان نجعة هؤلاء وترحالهم قليل وغير ذي بال . اما الحالة عند البدو الرحل فهي مختلفة جداً ، فالبيت لا بد من تجزئته الى قطع عديدة كلما قوض ، ومن اعادة تركيبه كلما بني،والبيت اذا صارت اعمدته اكثر من ثلاثة يغدو نقله متعذراً على بعير واحد . وهذا الحل والربط يحتاجان كما لايخفى لعدة أيادي عاملة لا يحواها الا الرؤساء والكبراء في العشيرة ، وهذا ماجعل وجود البيوت التي يتجاوز عدد أعمدتها الثلاثة في حكم النادر ،ويحتاج كل بيت ذي الاعمدة الثلاثة الى إثنى عشر(حبلاً) طولها ثلاثمائة متر بست أو سبع ليرات ، مما يبلغ مجموعه خمس واربعون ليرة ذهبية .

وتختلف أسماء البيوت باختلاف عدد الاعمدة وقلتها وكثرتها . فالبيت ذو العمود الواحد باستثناء العمودين الجانبيين يدعى (قطبة) وإذا كان صغيراً ورثاً وبدون عمود متوسط يدعي (خربوشاً) كما هو لدى الارولة وامثالهم ، وذو العمودين يدعى (مقورن) وفي بعض العشائر (جرنين) او (مدوبل)ودوبل الشيء بمعني كبره وزاد حجمه ، واذا كان له ثلاثة اعمدة (مثولث) او خمسة مخومس وهكذا مسوبع ومتوسع،واكثر رؤساء العشائر الكبيرة بيوتهم من صنف المسوبع ويبدو انهذا العدد هو الحد الاقصى لدى عشائر الشام طراً . وبيوت الذين يلونهم من الكبراء من صنف المخومس او المثولث وهكذا .ومساحة هذه البيوت من ٦٠ - ١٠٠ متر مربع .

وقيل انه كان لابراهيم باشا الكردي رئيس عشيرة الملي بيت ذو ستة عشر عمودا لا يزال ابنه محمد بك يتخذه احياناً ، وازدياد عدد الاعمدة او نقصها يدل على تبدل حال صاحب البيت من العسر الى اليسر او بالعكس . ويلحظ الناظرون

ذلك فوراً .

وللبيوت (أوتاد) ، ويغلق البيت من ورائه بالرواق . وفي الاماكن الباردة في شمال الجزيرة وخاصة عند العشائر الكردية يكون للبيوت رواقان . وفي الجهة اليمنى واليسرى في البيت لايكون رواق ، بل اطراف تدعى (الرفة) وتجمع على (رفاف) مؤلفة من قطع قديمة من مختلف الشقق او من الاقمشة المتنوعة مخيط بعضها بجانب بعض . وفي القطبة اي البيت ذو العمود الواحد يدعى هذا العمود (بالواسط) وفيه عمود الامام او (المقدم) وعمود آخر من الخلف يسمى « منيحر » .

وهم اذا ارادوا ان يركبوا بيت الشعر يمدون شقق السقف على الارض ، ثم يغرزون الاوتاد على بعد ١٠ ـ ١٥ متراً عنها ، وذلك لاجل ان يصلوا بينها وبين البيت بالحبال الممدودة ، فاذا تم ذلك يدخلون تحت شقق السقف ويرفعونها بالاعمدة وهذه الاعمدة تبقى طلقة بدون ربط . ثم يعلقون الاروقة الجانبية بالسقف . اما هدم بيت الشعر او تقويضه فيجرى على العكس مما عددناه . وتركيب بيت الشعر على هذا النحو لا يحتمل اكثر من بضع دقائق ، ثم يقسم اذا كان صغيراً الى قسمين « الربعة » و« المحرم » واذا كان كبيراً يقسم المحرم الى عدة اقسام ، لكل من الزوجات قسم ، اذا كان صاحب البيت ذا عدة زوجات او له ام او اخوات يرى لزوماً للتفريق بينهن . وهذا التقسيم يكون بواسطة الحواجز المصنوعة من القصب او المنسوجة من الشعر ، وهي المسماة بالقطع او الساحة .

وجملة القول ان للبدو كل الحق في المباهاة ببيوتهم والتعلق بحبها ، وان يقولوا :

لبيت تخفق الارواح فيه احب الي من قصر مشيد

لانها انسب مكان في البادية العاتية القاسية وأصلح مأوى للعيش القلق الذي يقضيه البدو ، لان الحبال اذا شدت يبقى السقف ممتداً مهما بلغ علوه . والبرد اذا قسى يميلون الاعمدة فيهبط السقف ويقترب من الارض ، والحر اذا طغى يوقفون

الاعمدة بانتصاب ويرفعون الشقة الجانبية (الرواق) وحينئذ يهب الريح ويحدث جرياناً ينعش الانفاس. والقاعدة العامة ان يوجه البيت نحو الشمس المشرقة. واذا كان هذا الاتجاه رديئاً بسبب الرياح مثلاً يسدون الشرق برواقه ويفتحون جهة الغرب. واذا شعروا بهبوب عاصفة رملية يدقون الاوتاد ويقوونها ويضعون جميع الاثقال فوق الحبال ليزاد وزنها فلا تعد العاصفة قادرة على العبث بشيء .

داخل البيت

وينقسم داخل البيت الى قسمين : « الربعة » او « الشق » للرجال « والمحرم » أو « الخدر » للنساء . ويفصل بين هذين القسمين حاجز من القصب اسمه (زرب) وفي بعض بيوت الكبار يسدل فوق الزرب قطعة كبيرة اسمها « خدرة » او (ساحة) منسوجة من الصوف الملون او الشعر الاسود النظيف ويتخللها نقوش بيضاء من القطن ، وتتفنن النساء في نسج هذه الحاجزة تفنناً غريباً ، والزرب الذي يفصل بين الربعة والمحرم يكون علوه قدر قامة انسان ، وهو يحول دون رؤية الضيوف لنساء البيت . وعند البدو الرحل يفصل هذين القسمين (النضيد) وهو حاجز يعمل بامتعة البيت . وهذه الامتعة اذا كانت حين تنزيلها عن ظهور الابل غير مرتبة تدعى (حلة) واذا رتبت وجعلت كحاجز تدعى « نضيد » وهي تتألف من (العدول) الاكياس المحتوية على المؤنة من الحب والطحين والسمن والبصل والتمر وامثالها ، وعلى الفرش كاللحف والاغطية والغفور جمع « غفرة » والبسط « والقطيفات » وهي ضرب من السجاد ومن الشف وهو غطاء ظهر الفرس ويكون من الصوف الرقيق « والمخدات » اي الوسائد وغيرها . وفي بيت الشيخ يكون الحاجز بين الربعة والمحرم جدار من الوبر يدعى « القطع » وفي منتهى قسم النساء وهو القسم الايسر في الغالب يوضع « الحوض » « والضروف » واحياناً يوضع القتاب وبين العمودين تعلق الهزازة وهي ارجوحة الطفل . وامام البيت تحفر

حفرة النار وعلى جانبها يكوم الرماد . وفي قسم الرجال او امامه تحفر حفرة القهوة ويدعونها (النقرة) وتمد في داخله البسط والاحف للضيوف ، وتوضع المخدات والرحال للاستناد والاتكاء . هذا ويمتد تحت شقاق البيت على رأس الاعمدة شقة يبلغ عرضها اثنتي عشر سنتمتراً وتعرف تلك (بالطريقة) يربط في أطرافها حلقات موصولة بحبال ثخينة وطويلة من المرس ، وهذه الحبال تشد الى اوتاد من الخشب الصلب تثبت البيت من جميع اطرافه في الارض .

وعندهم (القرب) وهي آنية الماء المشهورة وتصنع من جلود المعزى وهي أفضل آنية لتبريد الماء (والمجارب) جمع مجربة وهي اكياس التبغ تصنع من جلود الغزلان وجداء المعز و (الغلايين) لشرب الدخان . اما عودها فيصنع من شجر الاثل ، وهم يعلقون في الغليون سلسلة وفيها مبرد يدعى الابرة لتنظيف الحجر وملقط صغير لالتقاط الجمر وقد قل استعمال الغلايين عما قبل . اما أسرجة الابل والخيل والحمير فسرج الفرس يعرف عندهم بالسرج أو المرشحة او المعركة وسرج الحمار بالبردعة وسرج بعير الحمل بالوتر او الحوية وسرج بعير الركوب بالغبيط او الشداد . وللغبيط حزامان من الشعر وهما (البطان) ويحزم بطن البعير و (الحقب) ويحزم مؤخر بطنه . وعندهم (الخراج) جمع خرج وهي اهم اثاثهم ولا بد لهم منها في أسفارهم يصنعونها من الصوف الابيض والملون اخضر وأصفر واحمر ويصنعون لها شراريب من الصوف والشعر و (المزاود) جمع مزوادة تشبه فروة الخرج وتصنع مما يصنع منه الخرج وتستخدم في السفر لحمل الدقيق و (المخالي) جمع مخلاة تصنع من الصوف او الوبر . وكل هذه الانسجة الصوفية تحاك عندهم بانوال بسيطة يشتغل بها النساء او يشترونها من المدن .

حلال البدو او منازلهم

الحلال جمع حلة ، والحلة في اللغة جماعة بيوت الناس والمنزلة موضع النزول وهما تقابلان كلمة (مخيم) او (معسكر) المستعملة في الجيوش . وهي تنصب عادة في

صفين ، واذا كانت كبيرة في صفوف متعددة ، ويسمى الصف الواحد (سباط) . وقد اعتادوا نصب بيت الشيخ في الصف الغربي او الصف الاوسط ، ويمتاز برفع شارعته عن بقية البيوت . و « الشارعة » هي العمود الامامي من الربعة ، لهذا يستطيع الضيوف ان يهتدوا الى الربعة دون دليل . لان الشارعة هي الدليل . اما بقية افراد العشيرة فتنصب بيوتها على جانبي بيت الشيخ ، واذا كان بينهم غريب او (طنيب) كما هو معروف عندهم فان احد افراد العشيرة يتنازل له عن موقع بيته فيقيم ذلك الطنيب قرب بيت الشيخ معززاً مكرماً ، وتسمي بعض العشائر مضرب البيوت (الدوار) والفسحة التي بين صفوف البيوت (المراح) حيث تمرح مواشيهم . وفي الحل والترحال لا تنصب بيوت كبار الرؤساء بتمامها في كل مرحلة . وفي حالة الاستعجال في السير لا تنصب العشيرة بيوتها بتاتاً .

هذا ولا يستعمل البدو مصابيح وفوانيس للاستنارة الا نادر عند بعض كبار الشيوخ والرؤساء . وذلك لعجزهم عن حمل هذه الادوات السريعة العطب ، وعن حمل صفائح النفط التي تحتاجها ، وهم يكادون يعجزون عما هو اهم من ذلك ، فمالهم ولزيادة الثقل . ومن ناحية اخرى ان المكوث في الظلام ادعى للاستنارة عن اعين الرقباء والاعداء في الليل ، ولحفظ النظر ورؤية الاشباح في الظلام عن بعد . وهم اذا احوجتهم الضرورة كورود رسالة هامة في الليل لابد من قراءتها ـ هذا اذا وجد من يقرأ ـ وضعوا قليلاً من السمن في اناء واغمسوا فيه خرقة كالفتيل واشعلوها فتشع نوراً ضئيلاً قد يكفي للتلمس والعثور على شيء صغير .

كذلك هم لا يستعملون وقوداً للتدفئة . فالنساء يدفئن انفسهن نهاراً بالحركة ، وليلاً بنار الطعام الذي يطبخنه ، اما الرجال فلا يرون الدفأ الا عندما يعمد طابخ القهوة الى قبضة من الشوك او القش او الحشيش

اليابس فيلقيها فوق الضرم الذي قد يكون تحت المفورة من قبل . لكن هذه النار سريعة الخبوب والزوال لاتدفيء ولا تغني من برد . واذا كنت عندهم ضيفاً مكرماً يستمرون على تغذية الضرم بهذا العشب ويقولون لك (النار فاكهة الشتاء ، ومن لم يصدق يصطلي) ، ولكنك لاتستفيد سوى الدخان الذي يعمي الابصار ، وقد يحمى وجهك ويحمر ويبقى ظهرك متجلداً اذا لم تكن متدثراً بمعطف سميك او بفروة ثقيلة . ووقود البدو لايتعدى الاغصان والفروع اليابسة التي يلتقطها النساء وجذور بعض الحنبات والانجم الصغيرة التي يقتلعنها بالفؤوس ويحملنها على رؤوسهن بالم حطب . واذا طال مكوث العشيرة في مكان ما يوقدون بعر الابل ، وهو وقود جيد ومستمر وعديم الرائحة وقليل الدخان .

لباس رجال البدو

البساطة غالبة على لباس البدو وخاصة اهل الطبقة الاولى كعنزة وشمر ، ولا فرق عندهم بين لبس الصيف والشتاء ، الا ان الغني منهم يلبس عباءة رقيقة في الصيف اسمها (مزوية) او (حسوية) ، وفي الشتاء يزيد عليها كساء مبطناً او جلداً من جلود الغنم المدبوغة يسمونه (فروة) او (صديرية) ويتدارك البدوي لباسه خيطاً خالصاً من البائع الشامي او الكبيسي (نسبة الى بلدة الكبيسة في العراق) ، وهؤلاء الباعة يلتحقون بالعشائر ويبيعونها اكثر حاجاتها المجلوبة من المدن . يتألف لباس البدو من قميص واسع وطويل ثم فوقه قميص اطول واوسع حتى القدم اسمه (الثوب) وهو (ثوب ابيض) او (ثوب مرودن) ذو اكمام عريضة طويلة فضفاضة مشقوقة تدعى (الزدون جمع ردن) ولون الثوب ابيض او ترابي مدبوغ بقشر الرمان في مدن الشام او عندهم ونسيجه من القطن ، وكل حواشيه مكفوفة .

وكلما كانت الردون طويلة دلت على عراقة لابسها في البداوة ، فردون العنزي الطول منها عند عربان الديرة ، واذا وقف لابسها والقى يديه الى جنبيه يكاد رسغا ثوبه يمسان الارض ولكنهما في الغالب يعقدان وراء الظهر . والسروال هو سروال فضفاض مما يلبسه كل القرويين وبعض عربان الديرة . اما البدو الافجاج فلا يلبسون سراويل قط ، وربما عابوا لابسيها ، رجالهم ونساءهم في ذلك سواء ، ويزعمون انها تحبس الهواء . والبدوي لايغسل ثيابه الا كل شهرين او ثلاثة مرة اذ ليس لديه غيرها ، وقد يكون ذلك من ندرة وجود الماء عنده في اغلب الاحيان . وقد يلبس البدوي فوق الثوب « الصاية » او « الزبون » وهو عبارة عن قنباز من القماش الرقيق اللماع ، ويكون مفتوحاً من الامام ومشقوقاً من اسفل الجانبين واكمامه او ردونه اقصر منها في الثوب ، وله في كل جانب جيوب تدعى « مخبأ » . ويلبس البدوي فوق الصاية زناراً وهو حزام من الصوف عرضه نحو عشرة سنتيمترات وطوله بقدر ما يلف الخصر مرتين او ثلاث وهو ابيض او احمر ، واذا كان مزدوجاً ويسمح بوضع النقود وحفظها فاسمه « كمر » . ويلبس ايضاً فوق الصاية « محازم » او « جنادات » تمر من فوق الاكتاف ، وهي من الجلد ، وفيها بيوت لوضع خرطوش البنادق . وهم لا يرفعون هذه الجنادات عنهم حتى ولا حين النوم . ومن عادة البدو نساء ورجالاً ان يناموا بثيابهم كلها .

اما غطاء الرأس فيدعى (قضاضة) وتجمع على « قضايض » وهي قطعة مربعة من نسيج القطن الابيض تطوى وتوضع على الرأس تحت العقال وقد يكون تحتها (طاقية) ، والقضاضة تقابل الكوفيه المعروفة والمعمولة من الحرير ذات الشراريب الطويلة المستعملة لدى اعراب الديرة . والقيطية كلمة تدل على غطاء الرأس وجمعها « قياطي » وهي تصنع من القطن السميك ذي اللون الاصفر او الاسمر ويستعملها اعراب الديرة كثيرا والرحل

ولاسيما الاسبعة منهم نادراً . وغطاء الرأس يختلف عند كل عشيرة بلونه ونقشه واسمه (العقال) ويدعوه (المعصب) و (البريم) وهو صفيرة ضخمة قليلاً او كثيراً ، سوداء اللون في الغالب توضع على الرأس فوق القضاضة لتمسكها ، ويكون للعقال ذوائب من خلفه منتهية بهدبات ، وطريقة لبسه ووضعه على الراس مستقيماً او مائلاً الى جنب تدل على معاني الرزانة والبغض او الحب او عدم الاكتراث . والعقال يكون عند عربان الديرة غليظاً ، بينما هو عند عنزه رفيعاً . (١) هذا ومعظم البدو يمشون حفاة وبعضهم ينتعل (الحدوة) ويتمنطقون (بالحقو) وهو سير من الجلد مضفور ، ويلبسون (العباءة) التي تنفعهم دثاراً ولباساً وفراشاً ، ولوضع الحطب وعلف الدواب ولغير ذلك . وفي الشتاء يلبسون الفروة وبعض الرؤساء والاغنياء يلبسون تحت الفروة (الدامر) او (القطشية) وفي الشتاء وحين

---

[١] في كتاب قبائل العرب في مصر لاحمد لطفي السيد ص ٣٥ : ويختلف زي العرب الافريقية عن زي العرب الاسيوية . فالعرب الافريقية يضعون على رؤوسهم طربوشاً احمر لا يعتمون عليه وبرنساً تحته قميص ، وقد يلبس بعضهم صديرياً . ويكاد الحرام يسود عرب المغرب جميعاً ، وتصنع هذه الملابس في المغرب ويشتريها العرب من الاسكندرية . اما اثاثهم من خيام وبسط فيغزله نساء العرب وينسجنه . اما العرب الآسيوية فالسائد في لباس رأسهم الكوفية والعقال مما يصنع في بلاد الشام او بلاد العرب ولهذا يمكن التفريق بين المشارقة والمغاربة لاول وهلة ، ويتلاقى كلاهما في اثاثهم من بسط وخيام ويطلق على الجميع حين يسكنون الخيام عرب الخيش وحين يسكنون القرى عرب الحيط . وهؤلاء الاخيرون كانوا في اول امرهم بدواً ، ثم زحفوا على الاراضي الزراعية وسكنوها في خيامهم اولاً ، ثم ابتنوا المساكن كما يبنيها الفلاحون . اهـ

ركب الخيل او حضور الحفلات . والدامر معطف قصير واسع من الجوخ الازرق او الاسود ليس له رقبة اكمامه واسعة ومتدلية وفي بطانته جيب لوضع كيس النقود او ماماثله ، واجله ما صنع في مدينة حماة . وقد يكون مطرزاً او مزركشاً بخيوط ذهبية او فضية . والنساء يلبسن ما يشبهه ويدعونه (دراعة جوخ) .

لباس النساء :

اما النساء فلهن عبي وفروات كالرجال ، ولكن لا يستعملنها الا في فصل الشتاء . وهن يلبسن على ابدانهن جلباباً من القطن يدعونه (ثوب اسمر) يكون اسود اللون او نيلياً حتماً ويكون طويل الذيل في الغالب مجروراً على الارض حين المشي . وهن لا يغسلنه الا كل حدة اشهر مرة . ولذلك يكثر القمل عند البدو ، وهم لا يأنفون منه ويعدونه من دلائل الصحة وجواذب الدم . وفتيات البدو يشددن منطقة غليظة من الصوف يدعونها « شويحي » يلففنها فوق الثوب الاسمر . والنساء يشددن « الكمر » الاحمر اللون ، وتلبس الفتيات منهن « دراعة جوخ » زرقاء اللون او سوداء قصيرة الكمين ويضعن على رؤوسهن « المقرونة » وهي تقابل كوفية الرجال وتكون اوسع منها ومن الحرير الاسود ، واطرافها مناونة وذات اهداب سود يجعلنها بشكل عمامة ويدعونها « عصبة » او « قطة » ويلبسنها تحت « الشمبر » وهو ضرب من المناديل الملونة يضعنه في مؤخرة الرأس ليظهر من بين قطعتي القماش قسماً من خصال الشعر ويعقدون المقرونة وراء الرأس . وهذا عند عنزة ، اما فتيات عربان الديرة فلا يلبسن الشمبر بل يضعن على رؤوسهن كوفية او مقرونة بدون ان يدورونها بشكل عصبة . و « الشمبر قريشة » عصبة طويلة عريضة من القطن او الحرير الرقيق يلبسنه على رؤوسهن بشكل قطة فيتدلى ذات اليمين وذات

الشمال على الصدر وعلى الظهر . وهن يتمنطقن بكمر مطاط يضعن فيه نقودهن .

وأكثر النساء يمشين حفاة ، اما في الشتاء فيلبسن حذاء كبيراً يدعى « جزمة » او « زربول » من الجلد الاصفر او الاحمر له من الامام هدبات زرقاء ومتدلية وفي نعله مسامير ضخمة وهو لثقله يزحفن به زحفاً ويحدثن به قرقعة خاصة اذا سرن في شوارع المدن . ولكل امرأة مكحلة ومرآة ، وحين العمل في الاشغال التي توسخ يلبسن قب اصفر وهو كالثوب الا ان اكمامه اقصر ولونه اخضر ثم يسود ويتلوث بسرعة . ويدخن النساء بالغليون الذي يصنعه الرعاة من الطين .

حالة المرأة في البادية :

النساء في البادية اكثر من الرجال عدداً وبالطبع هن اللين جانباً وارق طبعاً ، ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة ، يطقن التعب وتحمل المشاق وتجشم المصاعب ، ويشاطرن رجالهن كل ضروب المتاعب فيقمن بكل ادارة بيوتهن ويعنهم حتى في غزواتهم ، ولهن بهم تعلق شديد وقد يؤثرنهم على الوالدين والاخوان بخلاف الرجال ، فاول مقام عندهم لاخوتهم ووالديهم ، وعلى ذلك يقولون اذا ذهب الولد والمرأة معاً فلها عوض ، واما الاخ فلا عوض له . والبدويات اشد تعلقاً بالبداوة من الرجال ، وعندهن من الاحكام السائرة انه اذا طلبت احدى بناتهم لرجل من الحضر ان تقول صكاك باب ماأريدنه اي انه اذا نام اغلق باب بيته فهو اداً جبان لا يليق بها . وعندهن الزي (المودة) على نمط واحد يكاد لا يتغير . فالبنات العذارى في أكثر الاوقات يقصصن الغرة او الطرة ويبرزن شعورهن ما فوق الجبين الى قرب قمة الرأس ، واذا تزوجن ارخينها وسترن شعورهن بالمنديل ، وهي علامة فارقة بين البكر

والشيب . ويستعملن بلا تكلف اموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء المدن لصفقن لها الايدي . فالاردان المتسعة مستعملة في البادية و كذلك الاردان الضيقة ذلك ليجمعن بين الهيئتين . فالنساء المثريات يلبسن الثوب الضيق الاردان ويرتدين فوقه بكساء متسع الاردان ضافي الحواشي ، اما الذيول الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات المدن في ملابس العرس فلهُ استعمال شائع في البادية . وجر الذيول في لسان الشعراء لايخلو منه كلام منظوم . وقد يلبسن العباءة والزبون ، ولبس العباءة لايزال مستعملاً عند نساء العراق المدنيات والقرويات والبدويات على السواء . والبدويات ومثلهن نساء العراق ايضاً يلبسن من الحلي الضخم الثقيل كالخلاخل والحجول الكبيرة يصفنها ذهباً وفضة كل على ما وسعته حاله ويعلقن الخزامات المتسعة في انوفهن ، واكثرها مصنوع من الذهب مرصع بفصوص الفيروز الصغيرة ، ولهن اقراط طويلة عريضة . ويضعن الذهب والفضة عقوداً وقلادات طويلة على ضروب شتى ، ويؤثرن في القلادات من النقود المضروبة القديمة كالغازي والمحمودي ينظمنها صفوفاً ويدلينها من المنق الى الصدر .

والجمال في البدويات قليل في أكثر العشائر وموجود في بعضها وقد يكون زائداً عندالاقل،وهواذا وجد تراه طبيعياً جذاباً ، وقديماً افتتن به الشاعر الشهير المتنبي فقال :

ما اوجه الحضر المستحسنات به كاوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب...الخ

وفي قول المتنبي هذا مبالغة ظاهرة . لان نساء البدو ما خرجن عن كونهن من بنات حواء اللاتي يتوسلن لاظهار محاسنهن بالتزيين والتطرية . وهن وان لم يبلغن شأو الحضريات بذلك تجد عندهن من انواع التزيين (الحناء) فهي شائعة الاستعمال يصبغن بها الاكف والاصابع

والاظفار واخمص الاقدام وقد يزججن حواجبهن ويكحلن عيونهن بالاثمد ولهن ولع خاص بالوشم ، يحلين بالصبغة الزرقاء جلود ايديهن بنقوش مختلفة من ظهر الكف الى المعصم الى الكوع ، ويجعلن نقوطاً صغيرة في منتصف الجبهة وطرف الانف والذقن ، وربما وشمن الشفاه السفلى والوجنات والصدر والنهود والاقدام .

لما اخلاق البدويات فهي حسنة في الجملة ، وخير ما يزينهن عزة النفس وشدة التعلق بالاهل والازواج ، وقيامهن مقامهم في أكثر الاعمال ، ولا يقوم الرجال بشيء من اعمالهن ، فاشتغال البدوي مقصور على الغارات والغزوات او على الاعمال الخارجية ، والمرأة رفيقة له ومعينة في كثير منها ، وجميع ما بقي مفروض على المرأة بحيث لو انقطع الرجل مدة عن طلب الرزق لكانت هي ربة البيت مكلفة بكل ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية . فاعتماده عليها تام او يكاد يكون ، واعتمادها عليه ناقص ، ومع هذا كله تراه متبرماً وغير راضٍ في الغالب . وقد يضربها او يلكمها او يشتمها لاتفه الاسباب ، ولا ينظر اليها في الغالب الا انها مطية الشهوة ومثابة المتعة والخدمة ، عليها له الطاعة العمياء .

والمرأة بنظر البدو محترمة مصونة من التعدي ، لايجوز ان تمس باذى بالغاً ما بلغت الخصومة بين العشائر ، وقد درجوا على اتخاذ النساء رسلاً بين الفريقين المتحاربين ، وكان من حق المرأة ان تذهب الى العشيرة المعادية لعشيرتها وتتعرف لجرحاهم وقتلاهم وتبلغهم ما اتت لاجله وما هي رغائب عشيرتها وترجع الى ذويها بسلام بدون ان يتعرض لها احد بسوء ، وبناءً على هذه الحرمة فانه لا يكتفى بالانتقام للمرأة اذا ما قتلها القاتل بقتل احد او بأخذ دية واحدة ، بل ان المرأة المقتولة

تؤدى باربعة الى ثمانية ديات بالنسبة الى حالة الجريمة .

ولا شك في ان العفاف في البادية اكثر منه في الحواضر واشد ، ويزداد في بعض العشائر ويقل بنسبة اتصالها بالحاضرة وبعدها ، والمرأة تسير وحدها في البراري مسافات طويلة ، ولا احد يعارضها او يتعدى عليها ، ومن فعل ذلك يناله العقاب الذي ذكرناه في بحث (الزنا) في فصل (القضاء عند البدو) ، على أن حوادث الاجهاض كثيرة عند نساء البدو تؤتى بحركة خارجية عنيفة او ببلع بعض الاعشاب التي اسرارها عند بعض العجائز ، وتنشأ اما لستر جريمة او لمنع الولادة التي لا تنقطع كل ١٠ - ١٢ شهراً .

ونساء البدو مشغولات تعبات ابداً ، فبينما ترى الرجل طول النهار وجزءً من الليل تحت خيمته يتقهوى (اي يشرب القهوة) مضطجعاً يقص اقاصيصه او ينعم ببطالته ، ترى نساءه وبناته يشتغلن اشغالاً كثيرة شاقة ، يجلبن الماء على ظهورهن ان كن فقيرات ، او على ظهور الحمير ان كان رجالهن من ذوي اليسار ، وقد يكون ذلك من مسافات بعيدة او يحتطبن الحطب ويجمعن العشب وينقلنه ويحملن المواشي ويرعينها احياناً ويمخضن السمن او الزبدة ويطحن الحبوب ويطبخن الطعام ويخبزن الخبز ، واذا وجدن وقتاً يغزلن الشعر والصوف وينسجن شقق الخيام والغرائر والفرش ويخطن الثياب ، هذا فوق الحمل والوضع والارضاع وهن يقمن بكل ذلك عن طيبة خاطر واعتياد لا يظهرن فيه اثراً للتبرم والضجر

والرجال والنساء في البادية قليلو الاعتناء بانفسهم ، ولا يضر بهم عدم الاعتناء ، حتى ان الحوامل لا يتخذن الا القليل من الاسباب والمداراة ، وقد يجيئهن المخاض وهن سائرات فيضعن في الطريق وليس من يعولهن بشيء فيجبرن بانفسهن كما تجبره القوابل ويلففن المولود ويسرن به . لكن اولادهن تعيش كالسائمة في البرية بدون عناية ويهلك

معظمهم قبل الخامسة من العمر ، ولهذا تكون اجسام من يفلتون منهم من الموت قوية تبعاً لقاعدة بقاء الانسب . والاولاد الذين يفلتون من الموت يربون في بيت ابيهم او مع امهم اذا كانت مطلقة ، ويبقون في احضانها سبع سنوات اذا كانوا صبياناً ، وتسع سنوات اذا كن بناتاً ، ثم يأتون الى بيت ابيهم ولا يخرجون منه الا ان تتزوج البنت فتلحق بعلها او يتزوج الصبي ويروح بانياً لنفسه بيتاً جديداً يترأسه هو في دوره .

والبدوية وان لم يكن لها محل في مجالس زوجها ، ولا يباح لها البهو والربعة المخصصة للرجال ، ولا يجوز ابداً ان يسئل الغريب عنها وعن حالتها ، الا ان ذلك لايعني ان ليس لها اي محل من الاشتراك او ابداء الرأي ، فيما اذا باع زوجها من حلاله او تصرف في ماله مما لايرضيها. والبدوية الشريفة لها منزلة رفيعة في قلوب الجميع ، وكثيرا ما تحزم السيدات منهن في امور كثيرة مهمة مما يدل على ان لكلمتهن في البيت او العشيرة شأناً خطيراً .

والبدويات سافرات بالطبع لايستعملن البرقع ، يتجولن في المخيمات وفي البراري بكل حرية ، والسجوف التي توضع على هوادجهن ليست لحجابهن بل لرد الشمس والمطر عنهن . والضرورة او الحاجة في حياة البدو ، تدعو الى الاتصال الدائم والاختلاط المستمر بين الجنسين سواء في حلهم او ترحالهم ، وفي الافراح والاعراس يختلط القوم ويشتركون جميعاً . وهم في هذه الحالة بمنزلة عائلة واحدة ، وكذا في الاتراح والرزايا العامة كالغزو وهجوم الاعداء او موت عزيز وقتله ، وفي الجيرة وسكنى الخيام التي لا سبيل لحجبها وتغطيتها ، كل هذه من دواعي الاختلاط وسبل التعارف والتحابب في الزواج مع العلم انه محاط بسياج قوي من الصون والعفاف والخوف ، والا تعرض الرجل او المرأة اذا شذا لاخطار قد تشترك فيها جميع افراد العشيرة بالمتناطح والتطاحن . انما

تربية الاولاد في بيوت البدو ففي نهاية القصور ، غير انهم يعودون احترام الوالدين ، واكرام الشيوخ والكهول ، ومن آدابهم ان لا يدخن الولد امام أبيه ولا يأكل او يتكلم او يعترض ، الا ان كثيراً منهم اصبح لا يراعي هذه القواعد الحسنة .

صحة البدو :

يداوي البدو مرضاهم بما تعلموه من اجدادهم بالوصفات وتفقوه بطول الزمن في مداواة الجروح ، ويداوون اكثر الامراض المستعصية بالكي وعندهم (آخر الدواء الكي) او بادهان وحشائش لهم يعرفونها واحذق أطبائهم من عشيرة (الصايب) ، فعند هؤلاء وعند بعض العشائر اهل خبرة في الطب من النساء والرجال . وجميع هؤلاء لايعرفون من الطب الا المعالجة بمخ عظام البعير وبالكي . فالمخ يستعمل بمنزلة دهان اومروخ او مرهم لانواع الامراض الخارجية او الادواء الباطنية ذات الاثر الخارجي كداء المفاصل والرثية والنقرس والحضار ونحوها وكل مالايعالج يداوى بالكي . وطريقة الكي عندهم ان تؤخذ قطعة صغيرة من ثوب ازرق صبغ بالنيل ـ لامن غيره ـ ثم تلف هذه القطعة على نفسها لفات متعددة حتى تغدو كالانبوبة دقيقة الرأس ثم يشعل هذا الرأس ويكوى المريض بالخرقة في انحاء شتى من جسمه معلومة عندهم بموجب نوعية المرض وموطنه . فالداء الفلاني مثلا يكوى المريض من كتفه وذراعه وظهره ، وللداء الآخر من ساقه وظاهر قدمه ومقدم صدره الى غير ذلك بموجب قواعد يعرفها الكاوي . وربما كان هذا الكي في فسحة معلومة من الجسم فيقوم مقام حراقة او لزقة او لبخة او نحو ذلك من مصطلحات الطب الحديث ، فيحدث هذا الحرق حويصلات ممتلئة ماءً فاذا نضجت وسال ما بها شفي المريض ، وقد تبدل الخرقة النيلية بحديدة حارة فيتصرف بها الكاوي

تصرفه بالخرقة الزرقاء ، وقد تبدل الحديدة بالصوفان ايضاً ، ومن نظر الى شكل الحديدة او الخرقة او الصوفان علم بان آثار الكي تكون مختلفة الشكل والهيئة والقدر فمنها مستديرة او مستطيلة او مستعرضة او غير ذلك .

على ان امراض البدو قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة في اجسامهم ، ولندرة مايطعمون من الاطعمة المركبة من حامض وحلو وحار وبارد ولمحافظتهم على العفاف وعنايتهم بالزواج الباكر ولقلة الهموم التي تساورهم ، وما تساور في العادة الا سكان المدن والقرى ممن يفقهون واجبات الحياة ويكدحون في طلب المعاش ، ولا يزالون مأخوذين بحب التقليد . والبدو اسنانهم واضراسهم سليمة براقة للطف اخلاطهم وتخليطهم . ولو راعوا النظافة وسائر شروط الصحة وخلصوا من القمل الذي لا يفارقهم لعاشوا بلا مرض وعمروا اكثر. ومن الغريب ان البدوي يشيخ ويهرم سريعاً فيتغضن جلده ويتشنج قبل آوانه في الهواء الطلق ، ولا يناهز الاربعين سنة الا وقد وخطه الشيب ، واذا بلغ الخمسين هرم هرما بيناً ، ولا يبلغ احدهم الستين الا نادراً . ولقناعتهم ورضائهم باليسير من الطعام وقلة امراضهم وغلبة الصحة والجلد عليهم ، يكون فكرهم دائماً رائقاً وحافظتهم واسعة وخواطرهم متنبهة وقد تعلموا منذ نعومة اظفارهم اتخاذ الارض فراشاً ، واحتمال حرارة الشمس المتوقدة ، والنوم غراراً ، والصبر على الجوع والظمأ ولو في حمارة القيظ . وهم لايتعاطون المسكرات واغلب شربهم (الشنين) واللبن الحقين الذي يهز معاطف الانسان بدون ان يسكره ، وهم في الغالب لا يأكلون الا مرة واحدة في النهار هي الوجبة وقدرها شيء زهيد بالنظر الى ما يأكله اهل الحضر من كثرة الالوان وغيرها . ومن المؤسف ان يكون المرض الافرنجي « الزهري » منتشراً جداً بين عشائر الفرات المعروفين بالشوايا ، وتكاد تكون نسبته ٨٠ بالمئة فيما ذكر ويسمونه (البجل) ،

الا انه على توالي الاجيال قد قلت فاعليته في اجسام المبتلين منهم به ، وخف ظهور اعراضه الخارجية في ابدانهم عما قبل . ويذكر المقدم مولران البدو اذ كانوا عطلاً عن كل صناعة وحركة فهم يجهلون الرياضة البدنيـة (الاسبور) فيخسرون رشاقة الشباب باقرب وقت ويكونون عديمي الحذاقة بطيء الحركة . وعامة البدو يكونون هزلى نحاف الابدان ، وخاصتهم سمان من قلة الحركة والرياضة التي يعدونها محطة بكبريائهم . ثم ان البدو على خلاف ما يشاع عنهم ضعيفو البصر ، ولعل ذلك من وهج الشمس او ذرات الرمل اكثر من انه مرض . ومن ثم اذا وجد بينهم من هو حديد البصر نال شهرة ومكانة لا سيما في الغزوات ، ولاجل هذا ايضاً يقتني رؤساؤهم النظارات الحربية ويعدونها من اثمن مايهدى اليهم . وفي البدو جراحون يعالجون الجراح التي يصابون بها في غزواتهم فهم يخيطونها ويغسلونها كل يوم بمستحلب بمر الحمير مدة اربعـة ايام . ويغلون البصل بالماء ويصفونه ويغسلون به الجراح ويسقون القليل منـه لمنع نقض الجرح ودفع اذى الرائحة ثم يغلون المر بالسمن ويجعلونه دهاناً فيدهنون الجرح اربعين يوماً حتى يبرأ .

ومما يخشاه البدو في بعض السنين الاوبئة الخبيثة التي تنتشر في البادية احياناً بسرعة غريبة . ومن امراضهم الطاعون والهواء الاصفر والجدري فتهلع لها قلوبهم رعدة وجزعاً ، ويفرون من مضاربهم تاركين مرضاهم في سكرات الموت يتقلبون على فراش المنون بعد ان يضعوا لهم مـاء وزاداً ، وقد يعهدون المريض اذا كان عزيزاً الى احدى العجائز لتعني بامره ريثما يشفى او يموت . وبينما نراهم اسوداً في الحروب قساة القلوب على احتمال نكبات الدهر ، اذ نجدهم في الامراض العامة اجبن الخلق واسرعهم الى الهرب . ولشدة ما هم عليه من الخوف يلجأون الى الذبائح كي يستنهضوا عزائم الارواح لمساعدتهم ، وتلك الذبائح ذبائح الفدو أو

الفداء لانهم بها يفدون انفسهم من الموت الزؤام .

الزواج :

يتزوج البدوي بين سن ١٥ و ٢٥ وقلما يتأخر الى ٣٠ بل ربما سبق الزواج هذا الاجل . والبدوي ينتخب خطيبته خلال الصدف التي تبعثها حياة الحل والترحال واختلاط الجنسين وتعارفها منذ الصغر .

— والبنات البدويات يتزوجن في سن مبكر جداً وقبل الحضريات بكثير . لان عيش البداوة واقليم البادية ينميانهن بسرعة وينضج استعدادهن في وقت وجيز ، وحتى انهما يعجلان بشيخوخة المرأة وهرمها . وعلى كل حال لا تستشار الفتاة البدوية في زواجها ، ولا تسئل حين خطبتها . لان الرأي لوليها يعطيها لمن يشاء ويبيعها بيع السلع لمن اراد او لمن يدفع له اكثر .

والزواج يتم بعقد ينطبق على القاعدة الشرعية بالايجاب وقبول وعلى الصورة الآتية وهي : حينما يرغب احد الناس الزواج من ابنة الآخر يرسل اليها اشخاصاً يستمزجون والديها واوليائها فاذا قبلت طلبته مبدئياً يستصحب جماعة من ذوي الوجاهة ، ويذهب بهم الى منزل والد البنت او وليها ومعهم ما يلزم للطعام من ذبيحة وبرغل وطحين وسمن وقهوة . وهناك عقب الوصول والنزول يفتتح متقدم الجماعة البحث مخاطباً والد البنت او وليها هكذا (جينالك طالبين ومن عندك ان شاء الله ما نعود خايبين) فيجيبه والد البنت (حياكم الله القمراء امامكم والظلمة قفاكم) وعندها يعلنوا الموضوع الذي جاءوا من اجله وهو على الاغلب يجيبهم الى طلبهم ، وانه وهبها الخاطب فيجيبه اولياء الخطيب ، اننا نقابل عملك هذا بمكافأة كذا من المال او الحلال (الماشية) ، ويطول الحديث على

المهر وهو ثمن الابنة . والمهور عند البدو غالية جداً يالاسف ، فالعروس تشترى بامان باهظة ، وربما بلغ ثمنها لدي الاغنياء منهم ٦٠ ـ ١٠٠ ليرة ذهبية ونحو نصف ذلك عند الفقراء ، وقد يدفعون ما يعادل هذه النقود من الغنم اوالابل اوالخيل او الحبوب او البنادق وقد يحتدم الجدال على المهر ، فكأن ولي الخطيب يشتري بهيمة وذاك يبيعها ، هذا يطلب كثيراً وذاك يدفع قليلاً ، فاذا تم الاتفاق يكلفون احد الحضور بتلاوة الفاتحة ثم يضع ولي الخطيب يده بيد ولي البنت ويقول احدهم للاخر ازوجت ابنتك فلانة الى فلان على سنة الله ورسوله فيجيبه الثاني زوجتها فيبارك لهم الحاضرون ، ويقوم اقارب الخطيب ويذبحوا رأس الغنم الذي احضروه فيقال حينئذ « فلان ذبح على فلانة » اي خطبها من والدها ، وعند الشرازات والرولة ينضحون رأس المرأة ويدها بالدم . ثم يهيئون الطعام والقهوة ويقدمونها الى الحضور . وبعد ان يأكل الجميع ويشربون ، يربط الخطيب ليرة ذهبية في طرف كوفية حريرية ويقدمها لخطيبته دلالة على أن روابط المحبة استوثقت عراها فلا يفكها الا الموت ، ثم ينصرف كل الى بيته ويستعد الخطيبان للزواج .

ويذكر عن الشرازات وامثالهم المتوغلين في البوادي اذا ارادوا ان يقترنوا بالزواج لا يذبحون ذبيحة بل يضع الخطيب في قبضته اليمين حنطة وتطبق المخطوبة يدها فوقها ، فيقول الشاب : « أتقبليني لك رجلاً على سنة الله ورسوله » فتقول (قبلتك) ثم تعد هي السؤال نفسه « أتقبلني لك امرأة على سنة الله ورسوله » فيجيب (قبلتك) فيقول (بحق البر وخالق البر لاتوق ولانوق ، هي سنة الله ورسوله ، ورباط العيش ورب العيش انا لك زوج وانت لي حليلة). والبدو يعتبرون الذبيحة ضرورية في عقد الزواج لانها تصد الاب عن طلب الزيادة في المهر .

هذا والمهر الذي يتفق عليه يأخذه ابو البنت ، وهي لا يصيبها شيء ، وفي حالة زواج الفتاة خارج العشيرة تأخذ هي نصف المهر . ولا يتم عقد الزواج مالم يدفع نصف المهر مقدماً ، والعروس تأتي معها بجهاز يختلف حسب ثروتها . ومبلغ المهر عند عنزة يختلف كثيراً من بعير الى عشرة اباعر مع عدد من الغنم . فهو لايكون عندهم نقداً . اما عند اعراب الديرة فهو بالنقد كما قدمنا وذكرنا مقداره الباهظ احياناً . وقد يكون بالغنم والابل معاً . ويلحظ ان المهر عند عنزه لايعين الا فيما ندر . لان تعيينه عندهم يعد معيباً . ويهدي العريس ام العروس هدية تختلف من بعير الى عدة اباعر ، ولا يدفع اي مهر اذا تبادل رجلان اختيهما . واذا كان للعروس ابن عم فله حق الرجحان . اما اذا كانت هي تفضل غيره عليه فلابن العم حق بطلب المهر لنفسه ، وبعد هذا ثأراً لحرمانه .

الطلاق

اغلب مايكون للبدوي امرأة واحدة ولا يتزوج عليها الا اذا كانت عاقراً ولا يريد ان يطلقها . فتعدد الزوجات عند البدو اكثر ما يقع عند كبار الشيوخ . فهؤلاء في اغلب الاحيان ثلاث نساء او اربع ، وذكر عن بعضهم انه كان لديه ١٠ ـ ٣٥ زوجة . وهم يفعلون ذلك لاسباب منها سياسية ليتصلوا ببيت شهير مثلا ، ومنها كثرة ما يحتاجونه من اماكن النزول والحل والترحال الى هنا وهناك ، ومن ثم تجد لهم عدة زوجات لدى فرق مختلفة او عشائر متباينة كلما زاروها نزلوا عند زوجتهم الباقية قرب اهلها .

ويقول بركهارت في كتابه (رحلة في بلاد العرب) ان اكثر

الاعراب يكتفون بزوجة واحدة. بيد انهم مغرمون جداً بتكرار الزواج تخفيفاً لوطئة الزواج الموحد ، وتغييراً للفراش في زعمهم وهم يتهزون القاعدة الاسلامية التي تجيز لهم الطلاق ، ويسيئون استعمالها كثيراً ، فهم يبدلون زوجاتهم على التوالي . فاذا غضب الزوج منهم على زوجته ولو لسبب تافه واراد ان يطلقها يكفي ان يقول لها « انت طالق » فيعطيها حينئذ ناقة ويبعثها الى بيت اهلها ، وهو لا يجبر على ذكر السبب الذى دفعه لعمله هذا كما انه هو في التالي لا يعزي اي فضيحة للامرأة او لاهلها . وكل الناس يعذرون الزوج بقولهم « لم يحبها ». وقد يتزوج هذا الرجل امرأة اخرى في اليوم ذاته ، وحوادث الطلاق عند عنزة كثيرة جداً حتى في ابان الحمل . والامرأة يمكن ان تتزوج وتطلق ثلاث او اربع مرات دون ان تمسها اذني ريبة او قولة . وقد صادفت من الاعراب في سن الخمسة والاربعين من تزوج او طلق خمسين امرأة وكل امريء منهم في مقدوره ان يستغني عن ثمن بعير الا ويطلق ، ويبدل من النساء بالقدر الذي يشتهيه . . . وتسمح الشريعة للامرأة ايضاً اذا لم تجد نفسها سعيدة في بيت بعلها بان تطلب طلاقها (كذا) وتلجأ الى بيت ابيها واهلها ، ويمكن للزوج حينئذ ان يعيدها الى بيته اذا وعدها وارضاها باعطاء ثياب او حلق او سجاد ذي قيمة . اما اذا رفضت لا يحق له ان يقسرها لان القسر في نظر اهلها بعد تجاوزاً واهانة . وفي هذه الحالة جل مايستطيع الزوج ان يعمله هو أن لا يلفظ كلمة الطلاق فتبقى متمنعة عن الزواج بغيره . ويجربون وقتئذ اقناع الزوج للطلاق بان يهدوه ابلاً ، ولكنه هو اذا ظل معانداً يحكم على المرأة ان تعيش وحدها ، ويسمون الامرأة التى على هذه الحالة طموحاً ، ومثل هؤلاء النساء كثير لدى البدو . لكن لايمكن قط ان يوجد عندهم بنات ابكار عوانس . . . واذا مات رجل وترملت امرأته يتقدم غالباً اخوه لزواجها

لكن العادة لاتجبر هذا الاخ ولا المرأة على الزواج . والاخ لا يمكنه ان يمنع ارملة اخيه من الزواج برجل غيره . على انه من النادر ان ترفض الزواج به ، لان ذلك يحفظ ثروة العائلة من الضياع . . . وللجار حق الرجحان في زواج جارته . وان كان غير مجبور على الزواج بها . لكنها هي لا تستطيع ان تتزوج غيره الا برضائه ، . . . ان سهولة الطلاق التي ذكرناها قد ادت الى انحلال روابط الاسرة . وان تبديل الزوجات كراراً قد ادى الى ان تهتك في العشيرة اسرار الآباء والاولاد ، وان ينتشر الحسد والبغضاء بينهم ، ولا حاجة بعد الى سرد النتائج التي تحدث في الاحلاق من جراء ذلك . . . ومع هذا كله فان البدو يبدون احتراماً زائداً نحو والديهم كما ان لهم عطفاً خاصاً نحو امهاتهم ، واذا حدث شجار عائلي كثيراً مايقفون بجانبهن ضد آبائهم ، وكثيراً ما يطرد الآباء ابنائهم من جراء هذا الوقوف . . » اه .

وفي كتاب عشائر العراق لعباس العزاوي : ان البدو يعنون كثيراً باختيار الزوجة ، ومراعاة اصلها وعراقة نسبها ، وعندهم من الامثال (العرق دساس) و (ثلثا الولد لخاله) و (بنت الذلول ذلول) وعندهم الامثال التي تحض على الزواج والاكثار من تكراره ليكون للمرء اولاد يكيد بهم اعداءه ويقهر اخصامه فيقولون : (خذ من النسا وكيد العدا) . وهم يلتزمون الاصل الصريح ولا يراعون الحسن والحب بقدره . ويقولون (مضروباً) لمن اخوانه ليس من اعمامه او من اصل رديء وهو المعروف بالطجين اه .

الخطف

ان خطف النساء والبنات كثير الوقوع بين البدو ، ومن لايزال على سنتهم من الحضر في بلاد حوران وشرقي الاردن ، ولا يمر شهر

الا ويسمع خبر كهذا بينهم ، ويقولون (فلانة خطفت فلان) ولايقولون فلان خطف فلانة ، لان اكثر الخطف يكون برضاء الطرفين ، وكثيراً ما يخطفون ذات الزوج ، وقد يقع الخطف جبراً .

الخطف الجبري

هو ان يترصد الخاطف الامرأة او الابنة التي يعشقها ويرغب الزواج بها دون رضاها ، وعندما تسنح له الفرصة يسحبها جبراً او بالتهديد واشهار السلاح ويفتأت على عرضها ويهرب بها الى ابعد العشائر ويعيش معها لبينما يتمكن من مصالحة ذويها ، وبهذا النوع من الخطف لاولياء المخطوفة ان يستعملوا مالهم من حقوق الانتقام كما يجري في امر الزنا الجبري ، واما الزوج فليس له حق الانتقام بل له ان يستوفي مبلغاً من المال يعادل مهر زوجته وذلك عند وقوع الصلح .

الخطف بالرضا

وهذا يكون نتيجة التعارف بين الرجل والمرأة ، وتبادل الحب بينهما ، وتقرير كيفية الزواج اذا رفض اولياء المرأة السماح لهم بالزواج من بعضهما . فعندئذ يقرر العاشقان الخطة التي يجب السير عليها ، ويضربان موعداً للملاقاة حيث يكون برفقهما شخصان من الاصدقاء فيذهبون معاً الى اقرب العشائر وينزلون عند شيخها ويعرضون عليه امرهم ، فيقوم الشيخ اولا باستجواب المخطوفة ، وعندما يتأكد رضاها بالزواج من خاطفها ، ويتحقق من الصديقين ان لازوج لها يستدعي بالحال امام العشيرة ، ويكلفه لعقد نكاحها . واذا لم يكن للعشيرة اماماً يجري العقد يذبح رأس غنم يذبحه الخاطف قائلاً (اللهم حلال لي هذه الانثى كما حللت لنا هذه الشاة) ، وبعد ذلك يخلي لهما الشيخ خيمة من مضارب العشيرة

ويزفونها فيها كعروسين . وبعد ذلك يقوم الشيخ بجميع الوسائل لعقد الصلح بين الخاطف واولياء العروس حتى ولو اقتضى الحال الى ان يدفع بدل الصلح من جيبه الخاص باعتبار ان عمله هذا من نوع البر والاحسان الممتاز . نعم ان اولياء المخطوفة وعشيرتها يثورون فور علمهم بخطف ابنتهم ويطاردون اقارب الخاطف ويعتدون على اموالهم واملاكهم في غضون الثلاثة ايام وثلث اليوم ان لم يحل بعض العشائر الحيادية دون اعمالهم ، الا انهم عندما يتحققون ان الخطف وقع برضاء ابنتهم يسكن غليانهم ويتداخل العقلاء بالصلح بين الطرفين ، ويكون بدل الصلح طالباً مقداراً من المال اكثر من المهر المعتاد ، فاذا كانت المخطوفة طموحاً (اي ناشزة) يعطى منه الى زوجها مقدار المهر الذي دفعه ومازاد عن ذلك يكون من حق اوليائها ، واذا تعنت اولياء المخطوفة عن المصالحة فللشيخ الذي التجأ اليه الخاطف ان يستدعيهم الى القضاء وله ان يستعمل جميع الوسائل لارغامهم على المقاضاة ، وغالبا يكون حق القضاء عبارة عن الزام الخاطف لدفع مبلغ يزيد عن المهر المعتاد بعض الزيادة .

ان هذه العادة المنكرة ان كانت مغفورة وخفيفة الوقع في صدد البنات المخطوبات اللواتي يخطفن برضائهن ، ولاجل ان يتزوجن وينسترن بحكم غلو آبائهن بالمهور او لتمنع هؤلاء الآباء عن الاعطاء تمنعاً لامبرر له فانها اي هذه العادة منكرة مرذولة اذا جرت في النساء المتزوجات مما هو واقع بكثرة يالاسف في بلاد حوران الباقية على جاهليتها الجهلاء. وقد نشر الشيخ محمد صالح الحلبي امام بلدة درعا الجديدة ـ اجزل الله ثوابه ـ رسالة خاصة في هذا الموضوع دعاها « صرخة الايمان لاهل حوران » طبعها في سنة ١٣٥٥ فما قاله فيها ان هذه العادة تعدت من البنات الى النساء المحصنات ذات الازواج والاولاد فكم من امرأة خطفت او خطفت وهي في حجر ابيها او دار زوجها وبين اولادها ، وكم من امرأة

تواطأت مع رجل على ارتكاب هذا العيب الفاضح كأنها لم تك بغياً ولم تأت شيئاً فرياً . فهذه مصيبة اخلاقية ورذيلة عائلية لم تألفها الجاهلية ولم تجر عليها الامم الوحشية . وهي عادة لا تتلاءم وكرامة العرب ولا تتوافق مع شرف الاسلام ، كم سببت للابدان جروحاً وعن الاوطان نزوحاً ، وكم حمل المخطوفات (او الخاطفات) اولاد ابناء زنا بطريقة السفاح الممقوت الذي يرذله الاسلام وينهى عنه رب الانام ، وكم سبب خطف النساء من شهادة زور وكذب وفجور واماتة حق واحياء باطل فبينما المرأة ترتكب هذه الرذيلة يتخذ وليها او زوجها عملها هذا ذريعة لاقتناص المال من الخاطف بصورة بعيدة عن الرحمة والمروءة . وبهذه الطريقة الوسخة يتمثل الطمع بافظع مظاهره . فان دفع الرجل (خاطفاً كان او مخطوفاً) ما يفرضه عليه ذوو المرأة تحسن الحال وزال الاشكال ، فعادت المخطوفة « أو الخاطفة » الى حجر ابيها او دار زوجها كأنها لم تأت خطية ، وعندها يغض الطرف عن تلك المدة التي قضتها بالزنا مع ذلك الرجل . والا لعبت الخناجر في المناحر وتقرحت من البكاء المحاجر واسرجت الخيل وعظم الويل وانزعج الانام وسلبت راحة الحكام . كل ذلك لا انتصاراً للشرف ولا دفاعاً عن العرض ولكن طمعاً في المال الذي اصبح معبود الجميع .

وقال عن اسباب هذه العادة المرذولة انها : ١ ـ عدم مراعاة احكام الاسلام في التزويج مثل التكافوء بين الزوجين والتساوي في السن والتجانس في الاسرة والتقارب في السوية النفسية والاخلاقية . ٢ ـ اكراه ولي المرأة على التزوج بمن يريد هو لا بمن تريد هي وذلك طمعاً بالمال ٣ ـ اكراه ولي الفتاة ذات العمر ١٨ على الزواج بكبير السن ذي العمر ستين فاكثر ، وذلك طمعاً بالمال ايضاً . ٤ ـ جعل المرأة سلعة في المزايدة العلنية ، فاي خاطب يزيد في مهرها لوليها فهي له سواء يريده

قلبها اولا ، ٥ ـ افساح المجال للمرأة بان تتصل بالرجال في اي واد ومكان فتجد الرجل قابعاً في داره خوراً منه وكسلاً ، وتجد المرأة مجبورة على القيام بالاعمال البيتية والاعمال الخارجية العائدة على الرجل بجميع فروعها ٦ ـ غلاء المهور ، فلو اعتدل اهل البنت بمهرها وتساهلوا به لما حصل شيء من هذه القبائح . ٧ ـ ايواء بعض من الشيوخ والمتنفذين للمتخاطفين وحمايتهم اياهما طمعاً بنوال المال من الفريقين ، ولكي ينصبوا انفسهم بصفة حكام لحل ما ينجم عن هذا الخطف من المشاكل بين عشيرتي الخاطف والمخطوف توصلاً لمنفعتهم المادية ، وربما وسعوا شقة الخلاف من وراء ستار توصلاً لهذه الغاية الخسيسة ، والاغرب ان يزعم هؤلاء الشيوخ والمتزعمين ان عملهم هذا مكرمة ، لان فيه حماية الدخلاء واللاجئين . وقد فاتهم ان حماية المتخاطفين طعنة في كبد الشرف وايواء للرذيلة وحماية للفحش وتنشيط للزنا .

العرس :

بعد ان تتم استعدادات العرس يعلنون في اول الاسبوع اي يوم الاحد مباشرة الافراح ، فيجتمع في كل مساء الرجال والنساء يغنون و «يدبكون» معاً حتى يوم الثلاثاء تؤلف قافلة من رجال ونساء راكبين على خيولهم والبعض مشلة ، والنساء على هوادجهن من الابل . فيذهب هذا الموكب الى منزل اهل العروس وهم يمرحون على ظهور الخيل والنساء تغنين ، ويطلقون الرصاص بالفضاء . . وقبل ان ينزلوا في بيت والد العروس يقابلهم اول اول من يصادفهم ويدعوهم الى ضيافته ، وبعد اكرامهم واطعامهم يذهب النساء بنشيد الى بيت اهل العروس ويدخلن اليه ، فيستقبلهن اهل البيت بالترحيب . ومن ثم يأتون بالعروس التي تكون اختفت من الوجه خجلاً

يحملنها ويلبسنها اثواب العرس ويعطرنها كما هو المعتاد وهن يغنين وينشدن ويذبح احد اقارب العريس لهن ذبيحة خاصة ، ويعد لهن الطعام ويكرم كلٌ من كان موجوداً هناك من النساء . وفي مساء ذلك اليوم يأتي النساء من محارم العروس اعني والدتها وشقيقتها وخالاتها وعماتها ومن يدلي اليها بقرابة ويحممنها ويزينها باجمل ما امكن من انواع الزينة وبسمين ذلك (تنميق الحبايب) . وفي الصباح يأخذن العروس ومعها امها واحدى خالاتها ويذهبن بها بالنشيد والاغاني وبين رمح الخيول واطلاق الرصاص الى بيت العريس ويسمون هذه القافلة (قطار العرس) ويدخلونها رأساً الى بيت العريس الذي يكون دعاه احد الاصدقاء من الشبان ودعا معه اقرانه ولداته للاستحمام والطعام وزينهم واكرمهم ، وهناك يزفونه الى العروس في خيمة احدثت خصيصاً في مكان منفرد متوسط يسمونه (رزة) ومن المعتاد ان يقدم العريس في الليلة الاولى هدية للعروس او شيئاً من النقود تسمى (نقوطاً) . وصباح اليوم الثاني يتوارد الاصدقاء لتهنئة العريسين وتقديم الهدايا واهل العريس يهتموا بذبح الذبائح واعداد الطعام ودعوة الاصدقاء والخلان . وبعد اسبوع تذهب العروس لزيارة اهلها وتأخذ معها من عند عريسها شيئاً تقدمه الى الاهل ، وبعد ان تصرف المدة التي ترغبها تعود مزودة بالهدايا .

وهذه الاعراس اكثر مايعنى بها ويتغالى هم اهل القسم الثاني « اعراب الديرة والشوايا » وبعض الرؤساء الاغنياء من اهل القسم الاول ، وعلى كل حال لاتجري هذه الاعراس الالدى من يتزوج للمرة الاولى . اما في المرة الثانية وما بعدها ، وفي زواج الارامل والمطلقات ، فلا يجرون شيئاً في ذلك ، وعند اعراب القسم الاول اي البدو تكون الاعراس بسيطة جداً ، فهم يكتفون يوم الزواج بغداء يطعمون فيه الاصدقاء والانسباء وكفى ، وربما غنوا

ورقصوا واظهروا فرحاً وابتهاجاً ، وحينئذ يدخل العريس الى (المحرم) وهو المكان المخصص للنساء ويكون قد هيأ واخلى لاجله ، وبينما تكون الضوضاء وطلقات الرصاص صاعدة من بنادق بعض الاصدقاء بقصد اظهار الفرح او احداث جلبة خاصة يفترع العريس عروسه وينتهي .

قضاء الوقت واللهو عند البدو :

اصاب المتنبي في وصف عيشة البدو وكيفية قضائهم الوقت بالابيات الآتية ، فقد قال عن لسانهم :

ان اعشبت روضة رعيناها أو ذكرت حلة غزوناها
او عرضت غانة مقزعة صدنا باخرى الجياد اولاها
او عبرت هجمة بنا تركت تكوس بين الشروب عقراها
- والخيل مطرودة وطاردة تجر طول القنا وقطراها
يعجبها قتل الكماة ولا ينظرها الدهر بعد قتلاها

هذا ما كان عليه البدو قبلاً ، ايام السيف والسنان والخيل والعنان ، رعى رياض وغزو وركوب جياد وصيد وقنص وطراد وجلاد . اما اليوم وبعد انقطاع سبل الغزو وتطور ظروف العيش ، اصبح البدوي يكاد لا يعمل عملاً مذكوراً الا اذا رعى الابل او الغنم او جلب الغلال وفرش البيت ، وفي الغالب يرى ماشيته ترعى امامه او على مقربة منه يراقبها الرعاة ويدارونها من دونه ، وكل اعمال البيت تقوم بها النساء اما الرجل فلا شغل يدوي يلهيه ولا صناعة او حركة تسليه ولا كتاب او صحيفة يقرأها ، فما له اذاً سوى الاضطجاع والاستمتاع بمنظر البراري الشاسعة ، واشعة الشمس الساطعة ، وهو يترقب مجيء الضيوف الى بيت الشيخ ، فيسعى لحضور مجالسهم ، ويصغي الى ما يأتون به من الاخبار والحوادث الطريفة .







شاعر صليبي يضرب على الرباب



رقص الفتيات في عشائر الفرات

واحاديث البدو لا تخرج عن موضوعات الغنم والابل والماء والجو والامطار وبعض الامور المتعلقة بحياتهم اليومية او العائدة الى العشيرة الفلانية او الشخص الفلاني يتخللها نقد حيناً وتقريظ حيناً اخر ، ثم موضوعات لحل المشاكل العائدة بين افراد العشيرة كخطف امرأة او اعتداء شخص على شخص آخر او فرار فتاة الى ما يماثل ذلك تتخللها مناقشة حادة تارة وهادئة اخرى .

والبدوي المعرف بانه اذكى وانبه من الفلاحين اهل القرى يعرف من الاخبار التي تهمه من انباء العالم ما ينبغي الاحاطة به ويتناقله بسرعة البرق ، حتى ان ما يحدث في الحجاز او العراق كان يصل خبره الى ابن بادية الشام وما وراءه من الاعراب قبل ان تصل القوافل او البريد ، فينقل الخبر في الافواه من فم الى فم ويسمون الاخبار (العلوم) ، واول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم ، واذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والاخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً ياخذ شاعر العشيرة ربابة يضرب عليها ويفكهم من محفوظه او نظمه باشعار يدور اكثرها حول المآثر والمفاخر التي جرت لمشاهير الفرسان والغزاة والانتصارات التي احرزوها في ميادين البطولة والبسالة او الكرم والاريحية ، كما يدور بعضها حول وقائع الحب والهيام ، ينشدهم كل ذلك بلهجتهم البدوية وانغامهم الفطرية باسلوب لطيف شجي ياخذ بمجامع قلوبهم وتترنح له اعطافهم حماساً وطرباً . وما عدا هذا النشيد او القصيد الذي يسمعونه فان لديهم العاباً كثيرة يتسلون بها كما انهم يتسلون احياناً بسباق الخيل يطلقونها فيروا الفائز منها ، او بالعراضة وهي ان تجتمع الخيل مستعرضة تلعب امام نساء العشيرة ، ويتسلون تارة بالرقص الذي يجرونه في الاعراس وحفلات الختان وفي ايام الربيع واوقات المتعة والراحة . والرقص معروف عند البدو واسمه (الدحة) يقابله عند عربان الديرة واهل القرى (الدبكة) و (السحجة) .

والدحة رقصة باوضاع خاصة واصول مألوفة تقوم بها بنات العشيرة تتقدم الواحدة تلو الاخرى وتلعب دورها فتمسك سيفاً في الغالب والمتفرجون في الجانبين ، ويقال لهذه اللاعبة (الحاشي) وتوصف باوصاف جميلة فتتقدم والقوم حولها كحلقة طولانية وتكون هي في الوسط ، وهناك قصاد (منشدون) ودحاحة (هم الذين يرددون مع القصاد ويختمون كل دور بكلمة دحي ، دحي ،) وخلال هذا الرقص لا يقع من احد قط ما يخالف الآداب لا في الفعل ولا بالقول .

والمنتدى الوحيد لرجال العشيرة هو بيت الشيخ لا سيما اذا قدم ضيف من الحضر ، فاذا ما رأوه انسلوا من كل حدب وجاؤوا لرؤيته وقعدوا حوله يرهفون آذانهم لاقواله وأخباره (علومه) الطريفة ،

شرب القهوة عند البدو

يتعاطى البدو في مجالسهم قهوة البن ، وهم يجيدون طبخها لفراغهم وتوفرهم على معالجتها ، وقد يستغني البدوي عن الاكل او يقلل منه كثيراً ، ولكنه لا يستغنى بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة ، فهي نقله وحلواؤه وشرابه المنعش ، وقد يصرف احدهم ثمن بن في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه ، واحب الهدايا الى قلب البدوي ان تحمل اليه مقداراً من البن . فمن ادوات القهوة عندهم (النجر) وهو جرن القهوة ويكون في الغالب من خشب البطم او الزيتون المشغول المزخرف بمسامير النحاس ، او يكون من النحاس الاصفر ، وحجم النجر يختلف ، فقد يبلغ علوه احياناً ٥٠-٦٠ س م وكذا قطره ، والاداة التي يدق بها البن في النجر تدعى (مهباج) . واستعمال المهباج ودق القهوة في النجر له صنعة خاصة تحدث رنات مختلفة شجية حسبما يكون الضرب في قاع النجر او في حوافيه . ولصنعة دق القهوة اناس خاصون ، واكثرهم حذاقة بذلك هم العبيد خدم كبار

الرؤساء المكلفون بطبخ القهوة وتقديمها . ودقات النجور وسماعها من علائم الاجتماع ودلائل الجود والكرم لمن يحدثها لديه . ومن ادوات القهوة عندهم (الدلال) جمع (دلة) وهي من النحاس الاصفر ، وكبيرتها تدعى (مفورة) من التفوير ، والصغرى (مصب) .

والنقرة تحتوي دائماً قليلاً من الضرم . فاذا ارادوا ايقادها القوا فيها من القش او العشب اليابس او بعر الابل المجفف وهوأوها بطرف العباءة . وكلما شبت النار ودامت في البيت دلت على كرم صاحبه وجوده . ويضعون فوق الجمرات عدة دلال من النحاس الاصفر ملانة بالماء كما يضعون فوق اللهيب الداخن دائما محمصة من الحديد ذات مقبض طويل يحمصون فيها كمية من البن الاخضر . وهذا العمل يقوم به اخو الضيف او احد اولاده او احد عبيده . والقائم بهذا العمل يقلب بدقة متناهية الحبات المحمصة بواسطة مطنة الى ان تحمر الحبات وتسود وتتدخن قليلاً . ثم توضع داخل النجر وتدق بالهاون الى أن تسحق وتنعم ودقيق البن الذي يحصل يوضع في دلة خاصة تدعى (المفورة) ذات ماء غال فينقع البن فيه ويغلي ، ويتناول طابخ القهوة كيساً معلقاً في زناره ويستخرج منه بضع حبات من البن المحمص (الهيل) فيدقها ويضعها في المصب ، ويسكب فوقه البن المغلي في المفورة ويضع على فم المصب قطعة من اللينو او مصفاة معدنية ذات ثقوب لتصفية السائل ومنع مرور الثفل والرمل . فاذا انتهى طبخ القهوة على هذا النحو يذوق الطابخ قليلاً منها ليمتحن جودتها ونكهتها وليعلم الحاضرين ان ليس في الفناجين المقدمة اليهم اي أثر للسموم . ثم يشرع بتدوير القهوة على الحاضرين . ومن عاداتهم في الدورة الاولى اسقاء القهوة للضيوف الممتازين وفي الثانية يدورون بها من اليمين دون تمييز . ومنها قولهم (أول القهوة خص وثانيها قص) . والكمية المقدمة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات مكعبة في كل فنجان الا انهم يشربون منها بضع مرات متتالية . ويمكن الزائر ان يرفض الفنجان الثاني ، اما رفض الفنجان الاول فلا يجوز ، ويحسب اهانة

عظيمة او انذار بشر او عرض حاجة يراد قضاؤها فتقضى حتماً لكي يشرب الضيف القهوة بهناء ، وهم لا يبرحون يصبون ويناولون حتى يهز الضيف الفنجان بيده . ورب البيت هو آخر من تقدم اليه القهوة في الدورة ، وهذه القهوة مرة ، لانها محرومة من السكر ، والهيل ينفحها نكهةً ذات حموضة وحلاوة معاً .

طعام البدو :

من ادوات الطبخ عند البدو تنجرة كبيرة ذات ميزاب يسمونها (مثعبة) ويجمعونها على مثاعيب لترويب اللبن وغلي السمن ، وعندهم (القدر) وهو من النحاس الاحمر لطبخ الطعام ووضع الماء و (المجنا) او (المشوط) وهي ملعقة كبيرة من الخشب . وعندهم (المنسف) وهو جفنة كبيرة مستديرة من النحاس ذات حلقات يقدمون فيها الطعام للضيوف ويبلغ قطر بعض المناسف الكبيرة متراً ونصف بحيث يتسع لناقة بكاملها فوق اكمة من الرز والبرغل . و (القدح) وهي اناء من خشب في شكل مربع مستطيل وظايد وفم تستعمل لحلب الابل وشرب الماء .

ان هذه الادوات كافية بحكم ان طعام البدو بسيط لا يحتاج لاكثر منها ، واسباب هذه البساطة عديدة : اولا فقرهم النسبي الذي يضطرهم الى اختصار اثاثهم وخرثيهم واقلاله ، ثانياً قلة الوقود التي تمنعهم من اكثار الطبخ والنفخ واطالتهما ، ثالثاً وهو الاهم عسرة نقل المؤونة الوفيرة وادوات الطبخ الكبيرة المحتاجة الى عدد كبير من الاباعر لا يتيسر وجوده دائماً ، وعلى افتراض وجود هذه الاباعر هنالك عسرة التحميل والتنزيل اللذين يحتاجان الى ايدي عامله قوية قد لا توجد ومن هنا كان طعام البدوي المتوسط الحال مقتصر على (الكسرة) اي الخبز الفطير فحسب ، يضيف اليه في الصيف قليلاً من الزبد او السمن ، وفي الشتاء قليلاً من التمر الذي يأكله رطباً أو مغلياً ويتمونه

من بلدة شتاتة في جنوبي العراق وغربي الفرات ، اما اذا انتهى الشتاء وبرز ربيع الارض يكثر درّ الغنم والابل فيتغذى به وهو يظل زهاء خمسة اشهر على هذا الغذاء اللطيف اعني به حليب النوق وزبده اللذين لا يبيعها قط ، ثم اللباء والشنينة والسمنة المستخرجة من حليب الغنم والمعز ، ثم الخاثر وهو اللبن الرائب المعروف ، واذا حل الصيف واقترب البدو من المعمورة يحصلون باديء بدء على (الفريكة) وهي حبوب القمح الطري الاخضر المشوي ، ثم بعد انتهاء الحصاد والدراس في القرى يحصلون على « البرغل » ويحصل كبرائهم على الرز فيقتاتون بهما ، الا ان هذا القوت لا يناله البدوي كل يوم ، ولا يحمل البرغل ويخزنه للشتاء الا المترفين منهم ، فالبرغل هو اساس مؤونة البدوي وحمولته في نجعة الشتاء وكانوا قبلاً يحملونه حباً فتطحنه النساء في طريقهن ، اما الآن فقد صاروا يأخذونه مطحوناً جاهزاً في اكياس الشعر الكبيرة « العدول » التي تنسجها نساؤهم في اوقات فراغهن .

وهم يطحنون الحبوب بالرحى ويعجنون الدقيق في قدر او قصعة ويخبزونه فطيراً على الصاج ارغفة رقاقاً ، او يخبزونه على الجمر اقراصاً وهو اكلهم في السفر ، وذلك انهم يطحنون الحب بهاون من خشب اذا لم يوجد رحى ثم يعجنونه في قصعة صغيرة ويجعلونه قرصاً ثخيناً ويوقدون الحطب على الارض حتى يصير جمراً فيزيلون الجمر عن الرماد ويطمرون القرص في الرماد ثم يردون الجمر عليه الى ان يجف وجهه الاول فيكشفونه ويقلبونه ويعيدون الرماد ثم الجمر عليه حتى يجف وجهه الثاني فيقسمونه كسراً صغيرة ويأكلون ، ولا يستغرق عمل القرص بهذه الطريقة أكثر من ساعة ويدعى « قرص الملة » وهم يأكلون خبزهم بلا ادام ، او بادام من قمر الدين او اللبن او السمن او الزيت او اللحم ، واطعمتهم بسيطة للغاية متشابهة تركيباً وطبخاً ، وقوامها كلها او اكثرها الحليب والسمن والدقيق والخبز والتمر والهقط واشهرها : (الجريشة)

وهي انهم يجرشون القمح بحجر الرحى حتى يصير برغلاً خشناً ويسلقونه جيداً ثم يسكبونه في قصاع ويصبون عليه من الادام اللبن او السمن او الزيت . « والعصيدة » يغلون الماء في حلة ويصبون عليه الدقيق شيئاً فشيئاً وهم يحركونه حتى يكون له قوام فيصبونه في القصاع ويأكلونه او يغلون اللبن او الحليب بدل الماء وهو « الثلبانة » و « الخميعة » وهو فتاة الخبز « الثريد » يصب عليه بدلا من اللحم حليب و (الدفنية) وهي الثريد او مسلوق الرز بمرقة اللحم واللحم منثوراً قطعها فوقها ، وهم لايتخذون البهارات في اطعمتهم ، واكلهم للخضر والفاكهة قليل وكذلك اكلهم اللحم والسمك . وفي ايام الربيع ينبت في بواديهم كثير من الاعشاب التي يأكلونها ، وهم يأخذون اغصان الشجر والجرجير والقريص والربيان والزعتر وامثالها ويجففونها ويطحنونها بحجر الرحى ويمزجونها ويغمسون قرص الملة بها ويأكلونها .

والخمور لا اثر لها في البادية ، هذا ولشظف العيش عندهم يعدون في الاعياد اليوم الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب ان ينحر له شاة فانهم في تلك الوجبة مدعوون كلهم بالبداهة ، فينسلون من كل حدب ويصطفون داخل بيت الشيخ ، وعندها يأكلون اللحم ، وترى وقتئذ السواعد مشمرة والايدي ممتدة تمزق اللحم وتضغط على الرز او البرغل ضغطاً قوياً حتى يصبح كتلة واحدة والدهن يسيل على سواعدهم ، ويقلبون هذه اللقم الضخمة في الاكف ويعصرونها ويكورونها ثم يقذفونها في الحلق ، دون مضع وبسرعة خاطفة ثم يتناولون اناء الشنينة ويضعونه على فمهم ويشربون وهكذا بينما الايدي العديده صاعدة هابطة تسمع عندها تمزيق اللحم عن العظم وقرقعته ، والقوم اذ ذاك حول المنسف يتزاحمون بالمناكب ، وجاثون على ركبة واحده لتسع دائرة المنسف اكبر عدد منهم ، وكلما شبع فوج كبير تلاه فوج اخر وراً الى ان يأتي دور الصبيان ، وهذا وفي اقل زمن ممكن واسرعه يصبح

المنسف في خبر كان .

ومن عادة المضيف ان يتناول اللحم ويقطعه بيده ويقدمه لضيوفه . ويعد عمله هذا من دلائل الكرم وحسن القرى . ومن اصول الطعام في البادية انهم يسكبون المرق على الطعام كلما قل المرق عنه وذلك ليسيغونه هنيئاً مريئاً ، واذا طلبوا المرق نادوا (اللبان ياعيال) بتشديد اللام الثانية من لبان كانهم ينحتونه من الليونة ، واذا شبع احدهم قام يلحس اصابعه . وبعض البدو يمسحون اصابعهم وافواههم باهداب البيت من جهة العامر وذلك لندرة الماء والصابون ، ويعرف القسم الذي يمسحون به ايديهم بالرفه ، ولا يمسحون بلحاهم كما قيل ، وقول بعضهم (صابون العرب لحاها) يستعمل للهزل فقط ، واذا كان هناك رجال لم يتح لهم الجلوس على المنسف لعدم وجود محل فان بعض متناولي الطعام ينضحونهم بعظمة عليها بقية من اللحم يتلهون بها حتى يأتيهم الدور ومن عادتهم ان لا يقوم احدهم عن الطعام قبل ان يشبع الجميع ، فهم يقومون عن الطعام سوية .

وفي صدد طعام البادية يقول الاستاذ عز الدين علم الدين في رحلته الى وادي السرحان والجوف مانصه :(عن المقتطف، اكتوبر سنة ١٩١٧)

لا يزال البدو مقتصرين - كما ذكر ابن خلدون - على الضروري من الاقوات والملابس وسائر الاحوال والعوائد ومقصرين عما فوق ذلك من حاجي او كمالي ، ويتناولون اقواتهم بعلاج او بغير علاج البتة الا ما مسته النار ، وذلك لاضطرار البدوي الى التنقل في كل حين ، فاختار بحكم معيشته الايسر تناولاً ، فتأنق الحضارة امر لم يعرفه البدوي ، فانه اذا اقام اياماً في منزل واكل العصيدة ، عد ذلك من النعيم . وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب يغلى ، فيذرون عليه الدقيق تارة ويضعون عليه البر الجريش « البرغل » وقليلاً من الدهن ، ويقال لها حينئذ الجريشة ، واذا ضيف رجلاً

عزيزاً ذبح له نعجة او خروفاً ودعا اكراماً للضيف كثيراً من البدو لمؤاكلته ، فكنا نفرح اذا ماحل بنا ضيف حظنا من لحم لا نذوقه في البادية الا قليلاً . اما في الاعياد والافراح فيذبحون الابل الكوماء لان لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله . وكان بريكان الصايبي اذا اراد ان ينعمني بطعام العشاء طبخ الارز ويسمونه التمن وبعد ان ينضج باوساخه يضعه في باطية ويحفر في وسطه حفرة يضع بها الزبدة التي تذوب بحرارة الطعام ، فنلبك الارز بالزبده ونزدره ازدراداً . وكان شاهر الخريشة الصخري يذيب السمن ويأتينا به بمقلاته فنغمس في خبز الصاج الفطير وقد يخرج لنا السحلب الاقط (١) وبقينا هكذا ايلماً لا نتغذى الا بالخبز والسمن . ولا يزال البدو على اثار اسلافهم في صنع خبز الملة وذلك بان يلقوا الدقيق بالماء ويعجنوه عجناً خفيفاً ثم يحتطبوا ويوقدوا فيفرشوا الجمر ويطرحوا عليه الرغيف الثخين ثم يغطوه بما بقى من النار فاذا نضج الرغيف تقاسموه . واكثر ما يصنع خبز الملة في السفر . واما في الاقامة فيأكلون خبز الصاج ، وفي كلتا الحالتين لايذوقون الخبز الخمير لانها من الرفاهية التي حرم منها البدوي ، فاذا ما ظفر بها شكر الله على تلك النعمة كثيراً . وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح يعد الخمير من فاخر القرى فمما رواه لنا عبد الله بن مصعب قال : وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها « هل من قرى » قالت نعم قال « وما قراك » ؟ قالت « عندي خبز خمير ولبن فطير وماء نمير » . وفي حديث ابي ذر الغفاري رضي الله عنه : « الحمد لله الذي اطعمنا الخمير وسقانا النمير » .

---

(١) الاقط ويقال له اليوم الهقط ، وقد شاهدتهم يصنعونه من اللبن الحامض ، ويتخذون من جبنه اقراصاً صغيرة يجففونها في الشمس ليدخروها مؤونة لهم في الاسفار .

وسيد طعام القرى البدوية كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة هو (الدفينة) وهو الثريد الذي كان العرب قديماً اذا ارادوا ان يفضلوا رجلاً قالوا : فضل فلان على سائر قومه كفضل الثريد على سائر الطعام . وتعد الدفينة من بذخ العمران البدوي ، وقد اكلتها في دومة الجندل مراراً فاليفتها لذيذة شهية ، ولا تصنع الا في الولائم او قرى ضيف كريم وطريقتهم في عملها ان ينضدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز نضداً يكفي المدعوين ، ثم يغطون هذا النضيد بطبقة من الارز ، ثم يأتون باللذيحة ناضجة ، فيسقون بمرقها الثريد ويكومون اللحم فوقه تكويماً .

والصابون الذي نعده من مرافق الحضارة لايوجد في البادية الا نادراً فما كان صابوننا بعد الطعام الا ان نمسح اكفنا من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر . وما استغنى البدوي عن الصابون الا اقتصاداً في الماء القليل في البادية كاستغناء الشارع بالتيمم عن الوضوء . وهم انما يدخرون الماء للطبخ او اطفاء للعطش الذابح كما يعبرون . ولم أر بدوياً يمسح يديه بلحيته بعد الطعام وان كنا نسمع في بلاد الشام ان « صابون العرب لحاها » .

لا ينزل قدرهم عن اثافي الموقد ويصب الطعام في الجفان الا ويحدق بها البدو احداق الخوارج بابي نعامة يلعقونه وهو يكاد لشدة حرارته يفور . فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبريداً فيستطاع نوعاً ما اكله . وكثيراً ما كنا ننزع من طعامهم يدينا بسرعة ونحرك في الهواء اصابعنا ملدوغة مستعيذين بالله من النار والطعام الحار ، ولذلك كنا أبطأ القوم أكلاً ولم نكن باعجلهم ... وقلما قمت من الجفنة الا جائعاً لان يدي ماكانت لتصل باللقمة الى فمي مرة ، الا وتكون يد البدوي قد وصلت كما يشهد الله عشراً ، ولهذا كان اهل الذوق من الاعراب يلاحظ ما يصيبنا من الغبن الفاحش بمشاركتنا اياهم في الاكل اذ « سباق

المذكيات غلاب ، فيضعون بصحفة لنأكل على حدة ونشبع على رسلنا .
ولله ما اصدق ذلك البدوي الذي قيل فيه : ما اسم المرق عندكم قال :
السخين ، قيل فاذا برد قال لاندعه حتى يبرد .

وقبل ان ندرك الجوف اصطاد بعض صحابتنا حيواناً صغيراً ابيض البطن رمادي الظهر يداه اقصر من رجليه خلقته فأرة برية فسألتهم عن اسمه فقالوا جربوع فعلمت انه اليربوع المذكور في كتب اللغة . ثم أمرع الصائد وشواه وتقاسمه وصحبه وازدردوه سريعاً كما يزدرد الحضري الفالوذج ، وعثر بدوي آخر على اثر قنفذ فاقتفره وعاد بعسد هنيهة بصيده وكنه آب في جوف الفرا فاضرم النار ورماه بها حياً ، ولما تمكن من القبض على عنقه انقبض حذر النار ذبحه وأكله ورفاقه بعد تمام نضجه بجشع غريب ، ولقد بُاركت لهم ورفيقي بحصتنا من القنفذ واليربوع .

ورأى عرب السرحان في رائعة النهار ضبعاً طاردوها بخيلهم والفرس اسرع من الضبع فادركوها واصموها رمياً بالرصاص ، ونبحوها ، واولموا تلك الليلة بها ، ويزعمون ان لحمها علاج من الحمى ، وللبدو غرام باكل الجراد ، ولعله حل اكله توسلاً لابادته ، على ان له في السنة المجدبة نفعاً في البادية جزيلاً .

ذكر ياقوت في معجم البلدان نقلاً عن بعض الرواة : قال لقيت اعرابياً فقلته ممن الرجل قال من بني اسد فقلت : فمن اين اقبلت ؟ قال من هذه البادية ، قلت فاين تسكنها قال : مساقط الحمى حمى ضرية (١) بارض لعمر الله ما نريد بها بدلا ، ولا نبتغي عنها حولا ، قد حفتها الفلوات ونفحتها القدوات فلا يملولح ترابها ولا يمعر جنابها ، ليس فيها اذى ولا قذى ولا وعك ولاموم (البرسام) ، ونحن فيها بارفه عيش

(١) ضرية ارض بنجد ينسب اليها حمى ضرية ينزلها حاج البصره ، لها ذكر في ايام العرب واشعارهم (عن ياقوت) .

وارقى معيشة . قلت وما طعامكم قال : بخ بخ الهبيد (الحنظل) والعنكث والعلهز والضباب واليرابع ، وربما اكلنا والله القد واشتوينا الجلد ، فلا نعلم احداً اخصب منا عيشاً ، فالحمد لله على ما رزق من السعة ، وبسط من حسن الدعة ، او ما سمعت بقول قائلنا :

اذا ما اصبنا كل يوم مذيقة وخمس تميرات صغار كنائز
فنحن ملوك الناس شرقا ومغربا ونحن اسود الناس عند الهزاهز
وكم متمن عيشنا لا يناله ولو ناله اضحى به جد فائز

وللبدو عامة صبر على الجوع والعطش . واذا جاع احدهم ولم يجد طعاماً شد حجراً مستطيلاً على معدته واحتمل الجوع بصبر غريب واكتفى باكل العشب . ومن بات بلا عشاء سمي (القوى) ومن لم يأكل طعام الصبح سمي (المريوق) .

قرى الضيف :

قرى الضيف امر قد اشتهر به البدو منذ القديم . وتذكر الرواية ان حاتم الطائي كان يشعل ناراً عظيمة امام بيته ليستهدي بها المسافرون والجائعون . ولا تزال آثار هذه العادة جارية في يومنا هذا لدى كثير منهم . وقد ذكر عن الامير مجحم بن مهيد وئيس الفدعان (الولد) انه يأمر مؤذنه ان يصيح عقب اذان العشاء (العيش ياجوعان) . وتأخير الطعام الى بعد العشاء يقصد به انتظار من قد يكون متخلفاً من الزوار والمساقرين .

والواقع انه لولا عادة قرى الضيف واكرامه لما طيقت البادية المحرومة من الفنادق والمطاعم . ومن هنا نشأت هذه العادة عندهم وصارت من الواجبات التي لا مناص لهم منها . والمسافر او النزيل يغدو معززاً مصاناً منذ حلوله ببيت مضيفه . واقراء الضيف من المكانة بحيث انه

لو لجأ المسافر الى بيت رجل فقير ليس لديه ما يقدمه للضيف ، على هذا الرجل ان يذهب الى جيرانه من البدو ويطلب منهم مايكفيه للقيام بواجب الضيافة ، وليس له ان يحيل ضيفه الى بيوت الآخرين : ويقعد الضيوف في الربعة اما متجهين نحو مدخلها في جانب المضيف (المعذب) او يجعلون ظهورهم الى الحواجز القصبية (القطع، الساحة) والضيف ينام في الربعة ويأكل فيها ويسمر ويسهر ويقيم في الضيافة ثلاثة ايام ، فاذا انقضت هذه المدة يغادر البيت . ويظل هذا الضيف في حمى المضيف الى بعد ثلاثة ايام من سفره . وحينما تزار منازل البدو لا يجوز للضيف ان يغير البيت الذي نزل فيه ، واذا فعل ذلك يكون قد اهان مضيفه اهانة عظمى كما لا يمكنه ان يقبل اي دعوة مالم يدع اليها مضيفه ايضاً . ومن هنا جاء المثل : (الضيف اسير المعذب) .

ومن عادة البدو انهم يحتفون بالضيف حين قدومه اكثر من حفاوتهم به حين ذهابه . ويكرمونه ما وسعهم الجهد . وعلى الضيف ان يكون اديباً ومراعياً لعاداتهم ، وعليه اذا قدم منزل العشيرة ان ينحرف ما امكنه ويقصد الربعة مباشرة كي لا يقع نظره على الحريم او اماكن النساء . لذلك يأتي الضيف من طرف المنازل حتى يصل الى بيت الشيخ اي الى (الربعة) فينزل عن مطيته ويربطها باحد الاوتاد او الاطناب . واذا دخل يحيي الحاضرين وينتظر قليلاً ريثما يعدون له محلاً للجلوس وهم يسرعون لانزاله عن دابته ويربطونها ويأخذون منه اسلحته وحوائجه ويأتون بالفرش والمساند ويدعونه للجلوس ثم يبادرون لاعداد القهوة والطعام . وعلى الضيف ان يحترم المنزل وكل من فيه ويقبل كلما يقدم له من طعام ، وليس له ان يرد اية خدمة تقدم اليه . ويحظر عليه القاء نظره الى ماوراء (الساحة) او الاصغاء الى محاورات النساء او الانتباه لاصواتهن وحركاتهن مهما قلت او كثرت . كما انه من العيب ايضاً ان يتغوط او يبول امام البيوت ، وعند الرحيل لايجوز للضيف الخروج الا من امام البيت ، ثم يمتطي راحلته اذ يكون احد المعازيب اي المضيفين قد

اعدها له وامسك بلجامها حتى يركب الضيف فيشيعونه بسلام يكون اقل من الاستقبال فيما يقال كي لايذكر الضيف انهم سئموه وملوا وجوده بينهم .

اسلحة البدو :

كانت اسلحة البدو قديماً السيوف والرماح والسهام ، اما اليوم ومنذ نصف قرن فقد انتشرت البنادق ويدعونها بوارید جمع بارودة . وصار اعمها بعد الحرب الماضية بنادق موزر الالمانية مما تركته الجيوش التركية . وهذه البنادق موجودة بكثرة في كل مضارب البدو . اما السيف فقد دالت دولته وهجر بالمرة ، الا عند الرؤساء والشيوخ الذين يحملونه للزينة او ذكرى لما خلفه الاباء . وعند البدو من الاسلحة اليدوية البيضاء الخناجر والشاكريات والشباري المعلقة بالمناطق ، وقد يشدون على حقويهم (الرداني) جمع (ردنية) وهي المسدسات على اختلاف اشكالها . وعند اعراب الديرة والشوايا (الكلنك) وهو شبه المطرقة ذو رأس حديدي دقيق من جهة وغليظ من اخرى وله مقبض خشبي طوله نحو نصف متر . و (القنا) او (الجنا) وهي كرة تكون من الحديد او من خشب البطم القاسي ولها مقبض خشبي ، وهي (الدبوس) عند الحضر ، وصبيان البدو يقاتلون بـ (المقلاع) المعروف ويقذفون به الحجارة .

الرحيل :

احب شيء الى البدوي الغزو والرحيل على حد قولهم :

لشرط البداوة كل يوم مغزى وعن البداوة كل يوم رحيل

والرحيل هو انتقال حلة البدو من مكان الى آخر وقد قدمنا ان البدو لا يستقرون في مكان ولا يطيلون الاقامة في ارض ، فهم دائما يتنقلون من ارض

الى اخرى ومن منزل الى منزل يرتادون الكلأ ويفتشون على مراعي ومواردلابلهم وغنمهم. ثم هم يرحلون من منازلهم لتراكم الاوساخ حول المحلات التي يقيمون فيها فيتركونها ليتخلصوا منها ومن الروائح المنبعثة بسببها . وهم متى ارادوا الرحيل يجتمع كبراء العشيرة في بيت الشيخ فيتشاورون وكل واحد منهم يذكر المكان الذي يراه مناسباً ليكون مرتعهم الجديد . فيختارون من الاعراب رواداً يرتادوا الاماكن الكثيرة الكلأ والماء . فيذهب هؤلاء على الخيل او في السيارات اذا كان لديهم سيارات فيتحرون المنازل والمناهل في المواقع التي اعتادونها في كل عام ويعودون ويخبرون عن المحل الذي اعجبهم فيعين مجلس كبراء العشيرة يوم الرحيل ويعلم ابناء العشيرة ليتأهبوا له ، وفي اليوم الموعود قبل طلوع الشمس تقوض النساء الخيام ويحملنها مع سائر الاثقال على الابل ويسرح الرعاة بالغنم قبل الفجر نحو المحل المقصود وتقوم الضجة اثناء الحمل والترحيل وبعد ان يتم تحميل الاثاث يسير شيخ العشيرة وكبراؤها في الطليعة ثم تتبعهم الرجال والنساء مشاة وركباناً وزرافات ووحداناً وبدون اي ترتيب او انتظام وتعلو النساء الغنيات الهوادج ، اما الفقيرات فيسرن وراء الخمير المحملة مشياً ، وهكذا يسير الركب الى ان يصل الى المحل المقصود وتنزل الاحمال وتنصب البيوت وتشد الى اطنابها وتوقد النيران وتطبخ القهوة والطعام .

وقد وصف الشاعر الجاهلي الحرث بن حلزة اليشكري اهبة البدو للرحيل باجمل مايمكن من الايجاز ، قال :

اجمعوا امرهم عشاء فلما ... اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال ذاك رغاء

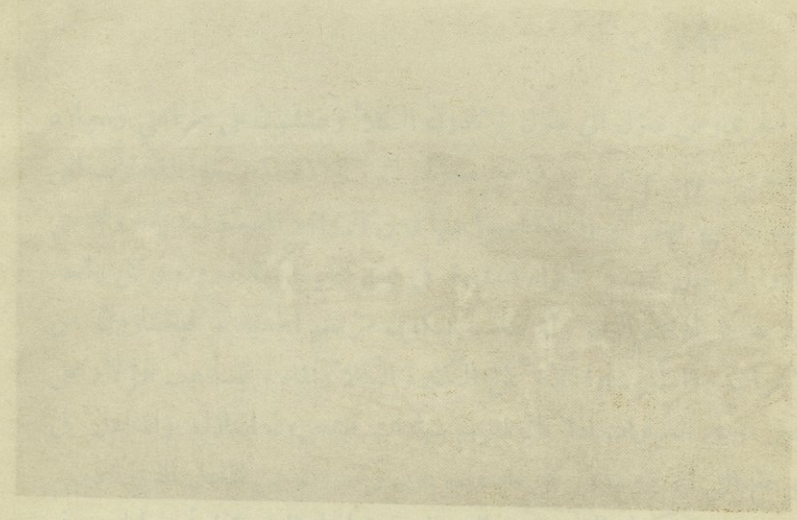
ويسمى البدو الفرسان الذين يتقدمون الاظعان « السلف » اي المقدمة وهم حماة الاعراض والاموال ، وتسير الاباعر المحملة وغير المحملة خلف (السلف). والنساء لا يركبن الهوادج الا ايام الرحيل او يوم الحرب بين

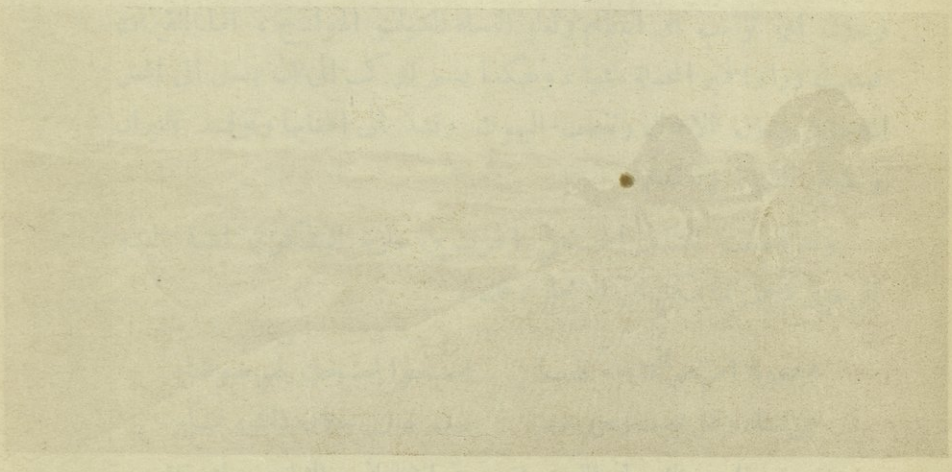


من مناظر البادية : بعد حركة الظعون



من مناظر البادية القفراء





العشيرة واعدائها ليحرضن قومهن على الحمية وتضحية النفس . وهذه الهوادج هي بمثابة الوطن للبدوي فيضحي بنفسه ولا يترك العدو يصل اليها قبل ان تطأ سنابك الخيل جثته .

والهودج من الاثاث الخاص بالمرأة ، وهو يعمل من اعواد الصفصاف او من سعف النخل او من اي خشب خفيف ، يوضع على ظهر البعير وتجلس فيه المرأة وتكون « المزاود » اي اكياس حاجاتها معلقة من الجانبين حفظاً للتوازن ، واذا كانت المرأة غنية تجعل هودجها حسب مقدرتها مزخرفاً بالصدف والاقمشة والاشرطة الملونة ، والهودج اذا كان كبيراً طويلاً بشكل الهلال وذي قرون بارزة للعلاء يدعى « قتباً » واذا كان بسيطاً مستطيل الشكل وموضوعاً على حداجة البعير يدعى « باصوراً ». والهوادج ان كان فيها نساء او لم يكن تدعى (ظعينة) وجمعها ظعائن وظعن واظعان . وظعن ظعناً في اللغة بمعنى سار وارتحل . والظعينة في الاصل وصف للمرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وان كانت في بيتها ، وكل امرأة بدوية ميسورة الحال لها هودجها تركبه وتحمل معها اشيائها الخاصة واولادها فضلاً عن بعض اثاث بيتها وادوات مطبخها ، وهي تستره بالسجوف وبما يشبه الكلل اتقاء الشمس والبرد والمطر لا بقصد التحجب .

والبدويات ماهرات في امتطاء الاباعر يتسلقنها برشاقة دون ما حاجة الى اناختها . وحركة الظعون هذه واهتزازها وتهاديها في السير ومنادمة النساء فوقها وحدوهن ومناغاة الاولاد على ظهورها وحولها الفرسان والمشاة الزاحفة والابل المحملة والمتلاحقة بعضها وراء بعض والمنتشرة على مسافات دون انتظام . . . كل ذلك من اروع الحياة البدوية . لاسيما اذا كان ذلك في صفو الربيع ونمو الاعشاب وفوحان الشيح والقيصوم والخزامى وفي هدأة الفجر او ضوء القمر وسكون الطبيعة في البرازي والصحاري المترامية الاطراف .

والحق ان هدأة الفجر او السحر لا تبدو على اتمها الا في البادية ، فلا ليل

في الجلال كامل البادية ، ولا صبح في الجمال كصبحها ولا نهار في الشدة كنارها . وما اجمل قول زهير بن ابي سلمى في معلقته حينما تمثلت في خاطره ظعائن الحبائب ، متحملات تغشيهن سدول صفيقة النسيج وكلة وردية الحواشي فتبعهن ببصره الحزين وقلبه الواله ووصف ما سلكنه من طرق ونزلنه من منازل حتى بلغن المنزل الذي اردنه ، وما احلى اسلوبه في استحضار هذه الذكرى حتى لكأنها ماثلة للعيون فلو تبصر صاحبه قليلاً لرآها :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن ... تحملن (بالعلياء) من فوق (جرثم)
علون بأنماط عتاق وكلةٍ ... وراد حواشيها مشاكهة الدم
بكرن بكوراً واستحرن بسحرةٍ ... فهن ووادي الرس كاليد للفم
وفيهن ملهى للصديق ومنظرٌ ... أنيق لعين الناظر المتوسم
فلما وردن الماء زرقاً جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم

☆ ✶ ☆

اعمال البدو

الرعى ، الصيد ، الغزو ، التجارة

ان الاعمال التي يعتبرها البدو جديرة بهم هي الرعي او تربية الماشية والصيد والغزو والتجارة .

اما (**الصناعة**) فانهم يأنفونها كما يأنفوا الاعمال اليدوية . وقد شاهدنا بعض اعيانهم المتحضرين لا يزوجون بناتهم من ارباب الصناعات والحرف مهما نبه قدر هؤلاء وضخمت ثروتهم .

اما (**الزراعة**) فقد كانوا ايضاً يزدرونها ويتهنون اهلها ويدعونهم (فلاليح) جمع فلاح ، لانها فيما زعموا تربطهم بالارض وتجرهم الى الخنوع والذل وتفقدهم الحرية والانطلاق اللذين هما غاية مناهم ، ومن اقوالهم في ازدراء الزراعة (الذل بالحرث والمهانة بالبقر) ، ويقابلون هذه الاقوال بكلمة (العز بالابل والشجاعة بالخيل) . الا انهم منذ ان انقطعت سبل الغزو ونضب معين السلب والنهب وتوالت سنو المحل والجدب وكثر موت الحلال (الماشية) اكرهوا على الميل نحو الزراعة وشرع رؤساؤهم وكبراؤهم منذ عشرين سنة يقتنون الاراضين ويتوسعون بالمساحات ويتنازعون على الحدود ويعنون بالحرث والزرع والري ، ومن ثم صاروا يعتبرون الزراعة ويعتبرون اهلها الى حد ما . ولو انهم لم يوفقوا بعد لتعويد اعرابهم على اعمالها واتعابها فاعتمدوا في الغالب على سواعد الحضر من ارباب القرى . ويرجى ان يوفقوا الى هذا التعويد وان يسري الى صغارهم الميل والهوى اللذان نشأا في كبارهم .

الرعى :

ان أكثر عناية اهل الباديه وهمهم هو في الرعي اي في تربية الماشية من الابل والغنم والمعزى والخيل، لان معيشتهم في الاساس متوقفة عليها وبداوتهم ناشئة منها ، ولولاها لما كانوا ولولاهم لما كانت. وهم يربونها اما لحسابهم الخاص او لحساب شركائهم من اهل المدن لقاء قسمة معينة من النتاج . وهم يستخرجون من حليب الماشية اللبن والزبدة والسمن والقشطة، اما صنع الجبن فغير معروف عندهم . ومن العناية بالماشية يحصل للبدوي صوف من الغنم وانسجة من شعر المعزى او من وبر الجمال فيذهب بها الى المدينة ليبيعها مع الزبد والسمن وقد يبيع شيئاً من ماشيته التي رباها . واذا كان يحسن تربية الخيل فهو يبيع من ذكورها بقدر ما يحتاج اليه من النقود ويشتري بدلها تمراً وحباً وثياباً وادوات للبيت .

الغنم :

ان اكثر الاغنام التي يستثمرها البدو هي للحضر اي لاهل المدن الشامية ولهؤلاء طرق عديدة في الاتفاق مع البدو وعقد شركات متنوعة للاستفادة من نواتج هذه الاغنام . والشركة على شكلين، الشركة الاولى (الغنومية) وهي ان يشتري الحضري الاغنام ويسلمها للبدوي ، فيتنقل هذا بها بين المعمورة والبادية حسب الفصول والمواسم ، وتقوم اسرة هذا البدوي بكل ما تطلبه الاغنام من عناية وخدمة وحلب نعاجها الرغوث وتحويل البانها الى زبد وسمن وخاثر، ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلاً من السمن علاوة على حملها الصغير ويأخذ البدوي مازاد عن الرطل ، والنعجة الواحدة قد تعطي في سنة الخصب من الرطل الى الرطل والنصف الى الرطلين من السمن، اما الصوف فيرجع كله الى البدوي لقاء تعبه ، واما الرسوم الاميرية المتحتم دفعها عن الاغنام فالحضري يدفع رسوم الاغنام الرغوث والبدوي يدفع رسوم الحائل ، وعلى البدوي ان

يدفع ايضاً كل النفقات من ضمان الماء وضمان الحقول المحمودة مما يسمونه (فراز) وخلاف ذلك ، والبدوي مسئول ايضاً عن ادارة الغنم وجلب الماء اليها من الاماكن البعيدة . واذا ما اراد الحضري ابدال هذا الشريك فان ذلك يكون في موسم (الفراز) اي زمن ذنوب اللبن او قبيله . ويقدر ان ربع البدو لا لايقومون بامانة في هذه الشركات اذ يعبثون بما عهد اليهم من الغنم ويدعون ان الذئب أكلها او ان البرد او المرض انتابها الى ماهنالك من الاعذار الملفقة. لكن الحضري لايتقيد بذلك فيتلطف بتدبير يرد به غنمه ويودعه الى بدوي آخر .

والشركة الثانية (شركة العظم او الشركة الحلبية) هذه تكون على شكلين : الاول ، يبتاع كل من البدوي والحضري عدداً متساوياً من الاغنام فيأخذ البدوي بتربيتها واستثمارها وفاقاً لما ذكرناه في الشكل السابق ، وتقسم الخسائر والارباح مناصفة كما تقسم النفقات بينهما على السواء ، الا ان هذه الشركة قد اصبحت نادرة جداً ولا تزيد نسبتها على ٥٠ ٠/٠ بين الشركات .

الثاني ، يشتري الحضري مثلاً مئة نعجة بمئتي ليرة ويسلمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه سنداً بالقيمة وتعهداً بوفاء اثمانها من نواتجها فيبدأ البدوي باداء جانب من اثمانها كل سنة فلا تمضي سنتان او ثلاث حتى يكون قد أدى القيمة بتمامها فتصبح الغنم متناصفة بين البدوي والحضري ، فاما ان تبقى الشركة شركة عظم او ان تشتغل كل منها على حدة .

الخيل :

اما الخيل فمفخرة البدو ومبعث مجدهم ، عليها يقطعون السباسب ويهاجمون العدو ويردون صدمات الغزو وفيها يعودون كاسبين ، وللخيل اكرام كبير ومنزلة رفيعة في المضارب تراها مربوطة في اكرم ارض امام البيوت كأنها من افراد الاسرة يحيطها كبيرهم وصغيرهم بكل رعاية وقد يؤثرونها على انفسهم في الماء والغذاء والتدفئة ، واذا انتجت الفرس مهرة حل الهناء في الخيام وعم السرور وذبحوا ذبيحة ونضحوا بدمها بطن الفرس والمهرة وقوائمها وناصيتها

واذا ابتاعوا فرساً او كسبوها في الغزو يذبحون لها نعجة قبل ادخالها الى البيت.

هذا والبدوي قلما يحب الاحتفاظ بذكور الخيل، فهو يسعى الى بيعها وهي صغيرة، وبهذا البيع المبكر يوفر على نفسه مشاقاً ونفقات. وهو يفضل اقتناء اناث الخيل للولادة والربح. ومن النادر ان يبيع البدوي الفرس صفقة واحدة الا اذا اطمع بالمال الكثير وكان بحاجة اليه. والعادة انه يرضى ببيع النصف فقط ليكون له في نتاج الفرس حصة. فاذا اتت الفرس بمهرة جميلة واراد احد الشريكين فسخ الشركة حق له ذلك فتثمن الام ومهرتها بمعرفة اهل الخبرة والاطلاع، ويتقاصرا اي يستقل احدهما حسب الاتفاق بالمهرة او بالفرس الولود.

وللبدو في بيع الخيل طريقتان الاولى (المثاني) يأخذ البائع ثمن الفرس المتفق عليه كاملاً وله حق في نتاج الفرس، وهو مهرتان، الاولى منهما وهي المهرة الاولى التي تضعها الفرس يأخذها غب مضي اربعين ليلة من الولادة واذا تأخر عن ذلك فالمصروف عليه، والمهرة الثانية يأخذها اما من نتاج الام او من نتاج المهرة الثانية التي تكون انتجتها الفرس، وتدعى الثانية التي يأخذها البائع فلو العامود، اما الاحصنة فكلها للشاري،

والطريقة الثانية هي (المناصفة) يأخذ البائع نصف ثمن الفرس وهذه الطريقة أكثر شيوعاً من الاولى بين البدو، ويقدم البائع للشاري اذا شاء الاخير حجة خطية تثبت اصل الفرس مهورة من وجوه العشيرة وشيوخها، وتكون الحجة سنداً صحيحاً في رسن الفرس واصلها. لان كل فرس لا يثبت انتسابها لاحدى سلائل الخيل المعروفة لا يعتبرونها اصيلة بل يدعونها (كديشة) مهما كانت مستوفية الاوصاف الممدوحة في الخيل. وعندما يصادف وجود فرس جيدة كهذه نسبها مجهول يدعونها (شمالية) فيسفدونها (يشبونها) من حصان اصيل ويستمرون على تلاقيحها وتلقيح نسلها من الحصن الاصيلة الى ان يبلغ البطن الخامس وعندها يحق لهم ان يعتبروا ذلك البطن اصيلاً وان يسموا هذه

الفصيلة باسم الحصان الذي لقحوا منه اول فرس من هذه الفصيلة .

وللعرب عامة من بدو وحضر عناية كبرى في تربية الخيل وحفظ انسابها (ارسانها) واشهر السلائل المعروفة هي الكحايل والصقلاويات وام عرقوب والهدب والعبيات والشويمات والمعنكيات والجدرانيات والنواقيات والشراقيات

والبدو يفوقون الحضر في ترويض افراسهم وتعويدها العادات المفيدة في العدو والكر والفر . ولهذا تنشأ الافراس عندهم اكثر جمالاً وجلداً وعدواً وفعلاً في الحروب خاصة وهي تعيش في الهواء الطلق والفضاء الفسيح دائماً .

ويوجد لدى عشائر عنزة وشمر وبعض عربان الديرة اكثر سلائل الخيل ، وتعنى عنزة بصورة خاصة في تربية الكحائل اكثر من غيرها ، والكحيلة يضرب المثل بعراقة اصلها ، فاذا وصفوا امرأة بنجابتها قالوا (كحيلة) وهي ذات اثواب مختلفة الالوان . ويذكر انه عند الاسبعة البطينات كحيلة الاخرس والنواقيات الشقر والعبيات ، وعند الاسبعة المواجحة الصقلاويات واغلب اثوابها صفر ، وعند الاسبعة الامسكة امهات عرقوب الشقر ، وعند ابن سبيل من الرسالين المعنكيات الحدرجية والسبيلية . وعند الفدعان الاخرصة الكحيلة الخدرجية والكحيلة المضبة والكحيلة الاخدلية والدنيسيات والشيخات والصقلاويات . اما الاروله فعندهم اجمل عتاق الخيل من كحايل وصقلاويات جدرانيات ومعنكيات وشراقيات وشويهات ام عرقوب ، ومثلهم بني صخر في شرقي الاردن ، وقد اشتهرت عشيرة طيء بالمليحيات وعشيرة الموالي بالصقلاويات والمعنكيات السبيليات وبني خالد بالمعنكيات الحمر ، وشمر بالشنينة وبهدبة انزحي وبالجدرانيات وهي عند حسن العامود قالوا وصلت اليه من الفرجة من الاروله ، وعنده الصقلاويات ايضاً ، وعند غيرهم غير ذلك من المرابط والسلائل المختلفة الطيبة مما يضيق نطاق بحثنا عنه فاكتفينا بما ذكرناه .

هذا وقد كان للخيل دولة واعتزاز لمضي ٢٠-٢٥ سنة في البادية والحاضرة الى ان حظرت الحكومات الغزو وقطعت مورد السطو والسلب على البدو

وانتشرت السيارات في كل دانية وقاصية واقتناها رؤساء البادية لسرعتها وحسن بلغتها وغالوا بها فدالت دولة الخيل وقلت العناية والرغبة بها حتى لم يعد يركبها الا القليل، والفروسية التي كانت احدى مفاخر البلاد العربية اوشكت ان تضمحل، والبيوتات القديمة في مدن الشام المعتادة على اقتناء الصافيات الجياد قد اقفرت اصطبلاتها وصارت مرائب للسيارات ، ولم يبقى للخيل قيمة الا فيما كان منها صالحاً للسباقات الدولية وعقد المراهنة والمقامرة كما يجري في ميادين السباق في بيروت وبغداد وامثالها مما فيه خراب كثير من البيوت وانحطاط كثير من ارسان الخيل الاصيلة يا للاسف .

الابل :

واما الابل فهي صديقة البدوي الحميمة ولولاها زالت البداوة ، وهي كما قال الاستاذ عباس العزاوي في كتابه « عشائر العراق » قوام حياة البدوي ووسيلة بقائها ... فمنها لبنه ومنها وبره ومنها لحمه وجلدها نافع له، وهي واسطة نقله من مكان الى آخر وحمل اثقاله فهي في نظره (سفن البر) ، ولولاها لكانت حياته منغصة وعيشته مرة وآماله ضيقة ، وهذه فيها غناؤه وثراؤه بل من اعظم ثروة له ومن اهم تجارته ، لا تعيش للبدوي انعام وهو في حالة غزو وتنقل سريع من مكان الى مكان الا اذا كانت كهذه الابل تتحمل المشاق وتتقبل الصعوبات والاراضي الوعرة والفيافي البعيدة عن العمران فهي بحق تعد اعظم نعمة ناسبت اوضاعه فكانها خلقت لاجله وقدرت له في اصل الخلقة وفي آية « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » دليل الامتنان بهذه النعمة. ولولا الابل لما تمكن البدوي ان يبلغ المكان الذي يريده الا بشق الانفس وصعوبتها ، والعرب في آثارهم الكثيرة من كتب الادب واللغة تعرضوا للكلام عليها واوسعوا المباحث كما عمل الاصمعي في رسائله وابن سيده في مخصصه . فما قالوه الابل مراكب العرب وطعامهم، وهي اكثر البهائم شحوماً واطيبها لحوماً وارقها لبناً واقلها غائلة واحلاها مضغة وهي من أرخص وسائل

النقل في الاسفار وتحمل الاثقال ورجاد الزروع من الحقول الى البيادر وان كانت بطيئة .

والابل انواع كثيرة، واشهر المعروف منها مما ينتفع منه للحليب وللحمل ويسمى (البعير) فمنها (الخواوير) واحدها خوار ، وهي اباعر عنزة وشمر وغالب البدو بصورة عامة ، وهذه ابل بادية الشام تصبر على العطش وتستخدم للغزو وتعيش خارج المياه في البادية الجرداء، والمعروف منها «بنات وضيحان» التي اصلها من ابل الشرارات ، وقد سميت بذلك لان لون قوائمها الاربع واسفل بطنها ابيض وضاح وباقي الجسم اصفر مشرب حمرة كلون الغزال و (بنات عبجلي) و (البجانيات) وهناك قسم آخر يستفاد منه للركوب غالباً ويقال له (الذلول) ومن انواعه (التيهية) وهذه صغيرة ولها رسن تقيد للسرعة وللمغازي وتقطع مسافات بعيدة وهي عند الشرارات والحويطات في جنوبي بلاد الاردن ، وهذه تطرح النعام والغزال وهي للركوب خاصة ويقال ان اضلاعها سبعة في كل جانب ، و (الحرة) تعيش في البادية وتصبر على الماء وهي عند شمر وعنزة وعند الشرارات والحويطات وبها يتمكنون من اللحاق بالخيل و (العمانية) وهي جميلة ووافية ، وغالب ماتكون عند عشيرة المنتفق في العراق ، وقليلة في سائر الانحاء ومواطنها على ساحل خليج فارس.

ويذكر ان ابل الحرة تتحمل اخفافها الارض المحصاة وتعرف ببروز قصبة انفها ، اما الابل التيهية فان اصلها من السودان وهي ترد فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر ، وقد كانت ابل الجيش الانكليزي في الشام من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى الماضية . واما الابل العمانيات فاصلها من عمان (مسقط) وهي ذوات رأس نحيف وقد اهيف ومزاج عصبي وبرد قاق ومنها الصبورة على العدو في الفلوات والحساسة كالخيل العراب ، وكان الجيش الهندي في الحرب الكبرى المذكورة يبتاع منها مايلزمه ، اما في الحرب الكبرى الثانية فقد استعاضت الجيوش عن الابل بالدبابات والسيارات المصنوعة خاصة للصحاري فزالت دولة الابل كما زالت دولة الخيل .

هذا والابل عند كل عشيرة او فرع من فروعها علامة يسمونها بها تعرف وهذه تختلف اشكالها بالنظر لما تتخذه العشائر ولا تجد تقارباً في الوسم الا قليلاً ، وكذا يقال للشاهد وهو من نوع الوسم الا انه لا يعول عليه في التفريق وانما هو اشبه بالاشارة الخاصة ، والوسم يكون على اليمين او على اليسار او على الرقبة ، والشاهد يكون على يمين الوسم او يساره ، وقد يكون الوسم على اليد اليمنى او اليسرى والشاهد على الرقبة ويكون قريب الخشم ويصير محاذياً للعين او نازلاً الى الفك وعلى كل لا يعول على الشاهد ، ومن الوسوم ما هو بشكل X او كحرف T او غير ذلك .

والبدو يطلقون ابلهم في البرية فتقتات من نباتها كالشيح والروثة وغيرهما ويوردونها الماء مرتين في الاسبوع في الصيف ، اما في الشتاء فهي تظل اياماً عديدة دون ان تعطش ، اما الحضر فيسقون الابل التي يستعملونها مرة في كل يوم من ايام الصيف . والحضر في بلادنا يسيئون تغذية الابل فلا يطعمونها اكثر من ثمنية (اي نحو كيلو غرامين) من الحب في اليوم من (الشعير او الكرسنة او الجلبان او الفول او البيقية) على ان تكون مجروشة ومنقوعة في الماء لانه ليس للبعير قواطع في فكه الاعلى ويضاف الى ذلك مقدار كاف من التبن ، هذا اذا كان يشتغل والا فيقصرون غذائه على التبن وعلى ما يصادفه من الاعشاب . والابل اذا كانت بالغة وطعامها كافياً تحمل ٢٠٠ـ٢٥٠ كيلو غراماً في اليوم ، اما اذا كان طعامها سيئاً فهي لا تحمل اكثر من ١٠٠ـ١٥٠ كيلو غراماً ، هذا ووبر الجمل انعم من صوف الضأن ، وتصنع منه عباءات الوبر العراقية الشهيرة كما ينسج الفرنج منه نسجاً رقيقة غالية الثمن ، ويحشي البدو لحفهم ووساداتهم به . ومتوسط ما ينتف من الجمل في كل ربيع ٢ـ٣ كيلو غرامات من الوبر ، وقد يبلغ ذلك خمسة كيلو غرامات ، ويصنعون من جلده قرباً عظاماً منها التي تتسع ٢٠٠ ليتر من الماء كما يصنعون من عظم يديه امشاطاً ، ويعمدون الى جلد ركبته وغيرهما من اعضائه التي تحتك بالارض وهو جالس فيصنعون منها نعالاً غاية في المتانة ، ولحم الابل لا يقل

عن لحم البقر، بل ان لحم سنامه الذ من لحم البقر، لكن البعير متى كبر يصير لحمه قليل اللذة لا يأكله سوى الفقراء ، ونسبة لحمه الصافي الى مجموع وزنه كنسبة ٥٥ الى مائة تقريباً. هذا وركوب الهجن الاصايل المروضة على الجري يفضل على ركوب اية دابة كانت لانه مريح للغاية خصوصاً في البوادي القفراء. ولا يصفو الاصل عند البدو الا في الجيل الخامس، وذلك ان تلقح ناقة من هجين اصيل فاذا انتجت ناقة ولقح هذه هجين اصيل ثم تكرر هذا التلقيح الى الجيل الخامس فهو الاصل الصافي ونتاجه اصيل ، ومنهم من يؤصلون ابانهم الى الجيل السابع او الجيل العاشر . ولابل عنزة خاصة صبر عجيب على العطش ففي ايام الربيع تبقى شهرين او اكثر بلا ماء . اما في ايام الصيف فالتي تشتغل منها تطلب الشرب كل يوم او يومين وقد تصبر الى اليوم الثالث والرابع . وهم يردون بها الابار اذواداً كل ذود في حوض ويروونها على نغم الحدو ولطيف الاشعار .

ومصطلحات الابل في بلاد نجد على ماجاء في كتاب (قلب جزيرة العرب) هي مايلي: (الجمال) تفيد النوع مطلقاً (الابل) تطلق على الاناث التي لاتركب وهي التي تلد وترضع صغارها ولكنها لاتحلب (الناقة) واحدة من الابل سواء أكانت تحلب ام لا (المسنح) الابل التي يستدر حليبها وهي غير التي يرضع اولدها (الجيش) انثى الجمل التي تستعمل للركوب فقط (الذلول) واحدة من الجمل (الزمل) الذكور من الجمل اجمالاً (البعير) لايستعمل الا للذكور [الهجين] لاتستعمل في نجد ولكنها تعني الذلول . وتسمى الناقة الحبلى (اللقحاء) والتي تجد وراءها ولدها (الخلفة) والتي يسحبها ولدها الذي لا يزيد عمره عن عشرة اشهر (عشرة) .

وقال : ولصغار الابل اسماء مختلفة بحسب السن التي تبلغها ، فيقال للذي عمره اقل من سنة وقبل ان يفطم (حوار) وبتمام السنة بعد الفطام (المفرود) او (الفصيل) وفي السنة الثانية (لبنى) وفي السنة الثالثة (مربوط) وفي السنة الرابعة (حق) وفي السنة الخامسة (جدع) وفي السنة السادسة (رباع) وفي السابعة (سداس) ، فان كبرت من الرباع فصاعداً فهي (ناقة) والذكر (جمل).

قلت ، ان اسماء صغار الابل بحسب السن تختلف في كتب اللغة قليلا عما ذكر ، فهي تقول ان ولد الابل يسمى في السنة الاولى الى ان يفطم (حوار)

وفي السنة الثانية (ابن مخاض) لان امه تكون حامل وفي السنة الثالثة « ابن لبون » لان امه تكون ذات لبن اي ترضع اخاه ، وفي الرابعة يسمى « الحق » لاستحقاقه ان يحمل عليه ، ومتى دخل الخامسة يسمى « جذع » وفي السادسة « ثني » وفي السابعة « رباع » وفي الثامنة « سداس » وفي التاسعة « بازل » وفي تلك السن يكون البعير قد بلغ اشده وصار صالحاً للشراء ، ومدة الحمل في الابل ١٢ شهراً ومن النادر ان تكون ١٣ او ١٤ ، ومدة الرضاع تختلف من خمسة الى ثمانية اشهر ، قالوا ان ولد الناقة يقف في اليوم الاول من ولادته ويمشي في اليوم الثالث ويرافق امه للمرعى في اليوم السابع .

ان انقطاع الغزو وشيوع سيارات الركب السريعة التي صارت تطوي البيد طي يكاد يبيد الخيل كما ان السكك الحديدية وسيارات النقل الضخمة ابادت قوافل الابل العظيمة التي كانت تنقل نواتج الهند والعجم والعراق من بغداد الى دمشق ومصر ، ومصر التي كانت اكبر سوق للابل المعدة للذبح قل فيها عدد آكلي لحمها فلم تعد تربية الابل رابحة كما كانت من قبل مما اضطر العشائر الكبرى الى الاقلال منها ، فبعد ان كان عدد ما يباع منها مثلاً عند الرولة حين اصطيافها في الجولان ٣٠ - ٣٥ الفاً في سنة ١٩٢٢ هبط عدد المبيع الى ١٢ الفاً في سنة ١٩٢٧ والى اقل من ثمانية آلاف في سنة ١٩٢٨ وبينما كانت هذه العشائر لا تربي نعجة واحدة صار عدد الغنم لدى الرولة ٣٠ الف رأس في سنة ١٩٢٩ ولدى الاسبعة ٥٠ الف ولدى الفدعان ٦٥ الف وهكذا .

وعلى كل حال فالابل كما قلنا في بحث التحضير من ارخص وسائل النقل وان كانت بطيئة ، وهي ثروة لا يستهان بها ، فاهمالها دون العناية بامرها غير صحيح ، ومن اهم ما يعرض للبدوي قلة المراعي لها ، ومن الوسائل الفعالة افساح المجال له للسرح بها في براري وصحاري لا يستفيد منها سواه ، وفي هذا تخفيف لشظف عيشه وترفيه لحالته وربح لتجارة البلاد وموارد لخزينة الدولة .

الصيد :

واما (الصيد) وان كانوا مغرمين به الا انهم لا يميلون اليه الا في ايام الربيع بقصد اللهو واللعب . ولبض شيوخ البدو ولع في قنص الغزلان والارانب والحباري والحجل والقطا وامثالها ، يخرجون اليها فرساناً بالبازي والشاهين على ايديهم فوق اكف من الجلد لئلا تؤذيهم المخالب وتتبعهم الكلاب السلوقية ، فاذا تراءت الحباري للبازي وهو يلمحها قبل الناس طلب الانفلات من يد صاحبه فيطلقه ويغير وراءه حتى يدركه فوق الحباري يمتص من دمها ويأكل من لحمها فينزل عن فرسه ويأخذه ويأخذ الحبارى ويستأنف المسير . اما الارانب فتقتنصها الكلاب والطيور معاً فيطلق عليها الطير ينقرها في رؤوسها وعيونها حتى يعمي ابصارها وتتأثرها الكلاب وتبطش بها ، ولهم طريقة اخرى في قنص الغزال لا يطيقها غيرهم ، وهو اذا قل الماء في البر في في الصيف حفروا حفراً عميقة عند موارد المياه واستكنوا فيها ببنادقهم دون ان يستروها بشيء من حرارة الشمس لئلا تنفر الظباء ، فاذا قاربت الشمس الهاجرة واشتد القيظ طلبت الظباء الموارد لترتوي ظماؤها وانتها افواجا فيرمونها وقد يطرحون منها عدة بطلق واحد . وغالب صيد البدو الغزال ، وباقي الصيد لاقيمة له عندهم . وقد صاروا بعد انتشار السيارات يطاردونه بها بمنتهى القسوة والجور ويرهقون هذا الحيوان المسكين ، وهم يكادون يقرضونه رغم وجود قرارات بمنع ذلك لعدم امكان تنفيذها في الفيافي الشاسعة .

وقد يصطادون النعام والوعول والوضيحي والاروية والها او بقر الوحش وحمر الوحش او الفراء ، وهذه الحيوانات ايضاً تلاحق بالسيارات وترهق بالمطاردات وطلقات الاسلحة النارية السريعة وتعرض للانقراض ، وربما جاء يوم تقفر بادية الشام منها ، فهل يلحقها راعيوها الى النفود في وسط الجزيرة العربية او الى الربع الخالي في جنوبيها ؟

وبدو الصليب وابناء عمومتهم الهتيم والشرارات قد اتخذوا لهم الصيد حرفة يصطادون بالافخاخ او ببنادقهم الشحاذة القديمة انواع الطيور والحيوانات الوحشية التي ذكرناها وفوقها اليرابيع والضباب والوبر الذي يشبه الارنب .

وعلى ذكر القطا نقول ان هذا الطير يقيم في البراري والقفار ، وهو شديد الطيران يبعد الى مسافات شاسعة في طلب الغذاء والماء ، والعرب قديماً احبوه واكثروا من ذكره في اقوالهم واشعارهم ووصفوا جثومه على بيضه في عشه ونهوضه من مجثمه ووصفوا سراه ليلاً وورودوه الماء وسيره اليها متدافعاً وصدوره عنها وعقدوا لوصفه المجالس والمباريات وقد حكت في احداها الشاعرة ليلى الاخيلية وضربوا بصفاته الامثال وجعلوا تركه طيب المنام دليلاً على مزعجات الليالي وجعلوه شريك المحب في حبه والغريب النازح في غربته ورحلته ، وقد رأى مجنون ليلى سرباً منه فهاجت شجونه وقال :

اسرب القطا هل من يعيرني جناحه لعلي الى من قد هويت اطير

والقطا من فصيلة الحمام ، وهو يشبه الحجل بلونه ومشيه ، وله اربعة انواع « الكدري » ذو البطن الاسود والظهر الارقش الاشهب ، ومنه ضرب يدعى الجوني يكون بحجم الحجل ، والنوع الثاني « الحر » وهو غير حر الصيد بطن القطاة منه بني فاتح وظهرها بني مرقط والثالث « المطوق » وهو مخطط بخطوط هلالية الشكل بعضها سوداء او رمادية وبعضها كستنائية والرابع « الصياح » او « القطقاط » يصيح قطا قطا يشبه الحجل في لونه غير ان لون بطنه بني . وهو كثير في البادية يهاجر بالملايين في سنى المحل الى القرى الشرقية الواقعة في طرف المعمورة ، وبعض عشائر البادية واهل القرى يعيشون مدة من الزمن على بيضه المنتشر في البادية وترى الصبيان يطوفون في البراري والآكام يلتقطون بيوضه . وكثيراً ما ترى الآكام وقد حط عليها القطا وهي تكاد تحجب الشمس وتسمع صوت اجنحتها فوق رأسك كأزيز الطائرات ، والقطا تبيض مرة في السنة بيضتين وقد تبيض ثلاث ، وهي ولوعة بشرب الماء واذا لم تجده في البادية تهاجر هي وفراخها الى القرى التي في شرقي المعمورة حيث ترد الماء اسراباً اسراباً ، وهي لا تغشى المعمورة الا في سني المحل ، ومن ثم يقول الفلاحون « سنة القطا بيع الغطا » دليل المحل والفاقه وطريقة صيد القطا هي ان الصيادين يحفرون حفرة عند مصب الاودية او

الغدران بحيث يكون قطر الحفرة نحو متر وعمقها نحو نصف متر ثم يبنون حولها حائطاً من الحجارة في ارتفاع نصف متر يسدون ثقوبها بالطين عدا ٣ ـ٤ ثقوب في كل جهة يتركونها كمزاغل يسددون بنادقهم منها نحو القطاحين وروده الماء. ويسمون هذه الحفره (نوجة) . ويرتدي الصياد ثياباً صفراء او غبراء ليختفي عن القطا المارة .

التجارة :

اما التجارة فلم يكن للبدو عناية خاصة بها وانما كانت عنايتهم من باب المعاونة لاصحابها بمعنى انهم كانوا ينقلون البضائع والاموال على اباعرهم ويحامون عن القوافل التي كانت تنقل تلك البياعات ، وهذا كان دأبهم منذ اقدم الازمان الى ان ظهرت سيارات النقل الضخمة واكتسحت الصحارى والبراري بسرعتها وسهولتها وسلامة منقولاتها فانقطع رزق البدو من هذه الناحية . وقد كان اصحاب القوافل فيما مضى يدفعون الى حماة القوافل المدعوين بـ (المبزرقه) اجرة يسمونها « الخفارة » وهذه العادة كانت جارية الى قبل نصف قرن عند العشائر النازلة على طرق النقل ولاسيما طريق الحج فانهم كانوا يتقاضون مبالغ من الحكومة العثمانية تعرف باسم « الصرة » . واذا اراد اهل الحضران يمروا بارض عشيرة يجبرون على دفع بدل لمرورهم يسمى « الخوة » ، وسيأتي الكلام على هذه الخوة في مكانها .

الغزو :

واما الغزو فهو في عرف البدو يطلق على عدة معاني فهو يطلق على الكتيبة المسلحة نفسها وعلى الفرسان الذين يؤلفون هذه الكتيبة ويسيرون للقتال ويطلق على القتال نفسه وفي اللغة غزا العدو غزواً ، سار الى قتالهم وانتهابهم في ديارهم والغازي اسم فاعل وجمعه غزاة ، والمغازي مناقب الغزاة . والقصد من الغزو

السلب والنهب او اخذ الثأر و كشف العار .

والغزو عادة قديمة توارثها البدو منذ اعصر الجاهلية .فقد كانوا اتخذوها وسيلة من وسائل العيش ، يغيرون على عشيرة معادية ـ وما أكثر المعاداة عندهم ـ فيأخذون ابلهم وغنمهم ويسبون نساءهم واولادهم . وتتربص بهم العشيرة الاخرى ذلك فتفعل ما فعلوا . بل هم اذا لم يجدو عدواً من غيرهم قاتلوا انفسهم . ولعل خير مايمثل ذلك قول الشاعر القطامي :

فمن تكن الحضارة اعجبته فاي رجال بادية ترانا (١)
ومن ربط الجحاش فان فينا قناً سلياً وافراساً حسانا (٢)
و كن اذا اغرن على قبيل فاعوزهن نهب حيث كانا (٣)
اغرن مع الضباب على حلال وضبة انه من حان حانا (٤)
واحيانا على بكر اخينا اذا لم نجد الا اخانا (٥)

ويشبه هذا قول بدو زماننا وهم سائرون الى الغزو :

عيب عاللي مايحضر المنايا ويشتري في سوقها ويبيع
والعز في ظهور الصفايا والعمر عند الله وديع

وغزو العشائر بعضها بعضا عادة محرمة ممقوتة عقلاً ونقلاً ينجم عنها البلاء

---

(١) يقول ان كل ما اعجبك من رجال الحضر فهو اكثر بيننا منهم وان كنا أهل بادية (٢) واذا رضي اهل الحضر بربط الجحاش واقتنائها فاننا لا نرضى الا بما عندنا من الرماح الطوال التي تسلب النفوس والخيل الحسان التي تعين على دفع الاعداء (٣) و كن اي الخيل انزلها منزلة اربابها وهم المغيرون ، وجواب اذا اول البيت والجملة خبر كن (٤) و (٥) معنى البيتين ان ارباب الخيل منا كانوا اذا اغاروا على ناحية وتعسر عليهم السلب والنهب من الاباعد عطفوا على الحي المجاور لهم من عشيرتي ضباب وضبة . وقوله من حان حانا اي من جاء اجله فهو لابد هالك . وهم احياناً يغيرون حتى على اخوانهم من بني بكر اذا لم يجدوا الا اخاهم هذا .

وسفك الدماء وتحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامتة فيهم . فقد تكون العشيرة اليوم في الغاية من طيب العيش ناعمة البال بحلالها اي ماشيتها فتغزى من الغد في عقر دارها فلا تلبث ان تصبح اعرى من مغزل لا سبد لها ولا لبد ، مع مايصيبها من نقص الانفس . فقد كان من النادر ان تجد رجلاً من البدو بلغ اقصى سن الشيخوخة لانه يعتبط في الغزوات ويقتل في سن الفتوة غالباً وهم يعتذرون عن الغزو اذا لوموا عليه بان الغزو ضرر لامفر منه ولهم فيه معاش لا يستغنون عنه وان في الضرب بالنار اخذاً للثار وغسلاً للعار وان لاطاقة لهم بحسمه ، اذ نفعه اكبر من اثمه الى آخر ماهنالك من الاعذار الواهية . والغريب انهم يأخذون معهم الصبيان ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان والثبات في معترك الفرسان . على ان الحكومات في العراق والشام وشرقي الاردن في يومنا قد حظرت ولله الحمد الغزو على العشائر حظراً تاماً وهددت بالعقوبات والغرامات واستعادة المنهوبات ومصادرة السلاح والعتاد والخيل والسيارات وكافة الادوات المستعملة في الغزو وسجن رئيس العشيرة والفت لاجل تنفيذ ذلك قوات برية من راكبي الهجن او السيارات المصفحة وجعت جنود هذه القوات من ابناء العشائر انفسهم ، ناهيك الطيارات وقذائفها من الجو حين الحاجة وكلما زاد هذا الحظر واشتد جانب هذه القوات وحسنت إدارتها وسيرتها استقر الامن والسلام في البادية ونجا أهلها من الفناء والشقاء واضطروا الى ترك الغزو والنهب والسلب والاتجاه نحو التحضر والزرع والضرع وهو غاية ماينشده ويرجوه لهم كل محب .

كان البدو دائماً بين مهاجم ومدافع وكل عشيرة على حذر تام من الاخرى تتلقف الاخبار عن حركاتها وتجهز نفسها بالعتاد وتحتاط للحرب أشد الاحتياط وكان في ذلك حكمة تدفعهم الى حصر الغمو والنكاثر لئلا تضيق دونهم ارضهم فالحليف عندهم يعرف « بالصديق » والعدو بالقوم او « القوماني » ، والغزو اقسام حسب قلته او كثرته ، فمن قليله « الحنشل » وهو يتألف من ٢ ـ ٣ رجال مشاة يباغتون ابناء السبيل المنفردين العزل ويسلبونهم و « السريبة »

وهي تتألف من ٥ـ١٠ فرسان و « السربة » هي اكبر من السريبة وتتألف من ٢٠ ـ ٣٠ فارساً ومن الغزو القليل ما يسمونه [الخواف] وهم ثلة من اللصوص المغامرين يتسللون ليلاً الى حلل البدو وهم نائمون ويسرقون ما تصل اليه ايديهم ، اما اذا زاد العدد عن السربة تكون العشيرة كلها قد نازلت عشيرة اخرى وقاتلتها ، فهناك يقع ما يسمونه (الحرب). فالغزو تشكيل تام التجهيز مؤلف من فرسان وهجانة لا يقل عددهم عن ٥٠ـ٦٠ والهجانة يؤلفون ثلثي المجموع او ثلاثة ارباعه حسب المسافة التي يجتازونها ، لانهم يحملون الزاد والعتاد ايضاً ، ويكون على رأسهم قائد يسمونه « العقيد » قد مارس كل ضروب الغزو من الحنشل ومافوق وعظمت مهارته وخبرته وعرفت شجاعته وحظوظه ، وهو وحده يقرر الحركات التي يسيرها وينظم أصولها وفروعها ويكون هو وحده المسؤول عنها ، يعاونه في ذلك [المنيخ] الذي يأتي بعد العقيد في القيادة والاشراف على الركوب والنزول والزاد وحفظ خط الرجعة ، وقد يستشير العقيد كبراء حملته ، لكن السلطة المطلقة له دون غيره ، وللبدو في الغزو والحروب فنون خاصة اتخذوها منذ القديم ونحن نذكرها ونتتبعها من حين بدأها الى ان تنتهي :

اذا تاق البدو الى الغزو وحنوا الى السلب والكسب ارسلوا [السوابير] جمع سبور من سبر بمعنى عرف واختبر او [الطاراش] بمعنى طارش وهو بنفس المعنى وهم الرقباء أو الكشافة أو الجواسيس ، يكشفون منازل العشيرة المعادية ويستطلعون ما هي عليه من الاحتياطات والتبصر فيما اذا كان لديها علم بقدوم الغزو ومتهيأة نحوها . وحينما يقتربون منها ينبطحون على الارض ويتسترون وقد يغامر بعضهم ويدخل بصفة ضيف او طارق سبيل ، يتفحص عدد البيوت والبنادق والماشية والحالة الروحية ثم يعود ويخبر جماعته عما رآه وتحققه ، ويجري كل ذلك سراً ، فاذا اتت [العلوم] اي الاخبار بما انسوا منه خيراً يعلن الشيخ الغزو ويضرب موعداً لاجتماع الغزاة في وقت معين ، ثم يتفقد جنوده ، فمن كان منهم غير مجهز بالسلاح والعتاد الكافيين او كانت راحلته

هزيلة لا يركن اليها فرزه من بين الغزاة وامره بالرجوع ، ومن ثم يقسم الغزو الى فرق كل فرقة يرأسها عقيد ، فاذا اكتمل العدد المطلوب سارت الفرق بين ركبان ومراديف ، ولا يعلم سبيل الغزو وهدفه في الاكثر الا العقيد وحده ، ويبقى رفاقه جاهلين ذلك الى ان ينتصف الطريق ، وحينما يطلع العقيد رفاقه على بغيته يخرج من الفرسان (طليعة) الى الامام ، ويتأخر الجزء الاكبر ورائها بضعة كيلو مترات ، ومن عادة الغزاة ان يتحاشوا الطرق المسلوكة فهم يسيرون سيراً متمعجاً حلزونياً ولا يردون المناهل الا في الليل ولا يسيرون منفردين كي لا يلحظهم احد ، فاذا صاروا على مقربة من الحلة المقصود غزوها وقفوا وارسلوا السوابير واستطاعوا حالتها بدقة ، فاذا جاءت (العلوم) وقروا الهجوم اقتربوا حتى يترائى لهم (الزول) وهو العدو المقصود حينئذ ينيخ العقيد هجانته ويعبأهم في طريق الرجعة ، ثم يقسم فرسانه الى قسمين يسمى الاول (الغوار) وهو القسم النشيط الخفيف الحركة وواجبه ان يسطو على الماشية ويجفلها باطلاق الرصاص ويسوقها بسرعة . ويسمى الثاني (الكمين) او (الملزمة) وهو قسم يتألف من احسن الرماة واشجعهم ، وواجبه ان يقابل المدافعين (الفازعين) الذي يهبون للدفاع واسترجاع الماشية المنهوبة ويشاغلهم مهما امكن من الوقت وبينما تصل هذه الماشية الى الهجانة فيستلمها هؤلاء ويسوقونها ، لان المدافعين يهاجمون الغزاة فوراً ويتهالكون في الدفاع ويستميتون عند اموالهم وحلالهم ، فكل الشبان والكهول في الحلة التي هوجمت وكل القادرين على حمل السلاح وازود عن المال والحلال يكلفون بالدفاع ويهرعون للقتال ، فاذا قدروا ان يصلوا اليها قبل ان تؤخذ او قبل ان يسوقها الهجانة فازوا وردوا الغزو . وان تأخروا او ضعفوا عادوا خاسرين وفي القتال الفرسان تتبع الفرسان فمن قتلوه او اسروه او طرحوه عن ظهر فرسه وهو (القلاعة) عندهم يحسبونه خير مغنم .

واذا كان الغزو سائراً وصادف (زولاً) لم يتحققه عن بعد اطلع من فرسانه طليعة قليلة تغير بخيلها وهم يتبعونها خبأ حتى تدنو اليه دنواً تتحققه به ، وبين

الفريقين مرمى طلقة ، فتنحرف الطليعة شرقاً او غرباً او جنوباً او شمالاً على غير الطريقة المتخذة ، ولكل من هذه المراكض معان معلومة عندهم ، وهي التي يدعونها (العرض) ، وعرض الجيوش مأخوذ منا ، فاذا عرفوهم حلفاء (اصدقاء) عرفت الخيلة كلها وتدانوا دون ان يتماسوا بضر ، والا افترقوا فرقاً او صاروا فرقة واحدة حسب اقتضاء الموقف والكثرة فينشب القتال بينهم ، فان ظفروا بهم تولوهم وخلفوا جماعة تسوق ما يصيب الابل والماشية.

ومن عوائدهم ان يقسم كل الكمين والغوار الى ميمنة وميسرة وقلب ويتشابكون على ظهور الخيل بالبنادق ، وكل فارس يطارد آخر من العدو وفي الغالب ينادي الطالب المطلوب بقوله (خيال يا خيال) وينتخي كل منهم بقوله انا اخو فطيم او راعي البلها او الملما او الحمدانية وغير ذلك ليعرفه بنفسه ولينبه المطلوب حتى لا يكون فعله غدراً او لاخافته ، فان اعتمد المطلوب على قوته او فرسه يجيبه بقوله « تخسه (اخسأ) انا اخو فلانة راعي كذا » وان احس بضعفه او ضعف فرسه عن الدفاع يجيب بقوله (امنع يا خيال) اي امنع اذاك عني ، وليس ذاك جبناً اذا كان ثمن اضطرار لمعذرة ، فيقول له الطالب (على رويحك) اي انني امنع اذاي عن نفسك فقط او (على فرسك وسلاحك) اي اذا سلمت تنجو بروحك وسلاحك وفرسك ، فيكون الامر مساومة حتى اذا قبل المطلوب نزل عن فرسه فيكون منيع الطالب ولا يحق لاحد معارضته ولو بقي سلاحه في يده ولا ان يشترك في الحرب .

هذا ولكل مبارز شعار ينادي به في ميدان الحرب ، وهذا هو المسمى عند الماضين بالاكتناء من الكنية وعند المعاصرين بالنخوة وهي في اللغة العظمة والفخر ، ويقولون انتخى عليه اي افتخر وتعظم ، واذا كان المنتخي اكثر ما ينتخى على طريق الكنية كأن يقول (انا ابو فلان او اخو فلانه) جعل هذا الفخر في ساحة القتال اكتناء وسمي هذا الاكتناء انتخاء ، وفي الانتخاء يعرف الفارس بنفسه في ساحة الوغى بلقب من الالقاب او وصف من الاوصاف يصير عليها علماً ، فالشغلان رؤساء الرواله ، ينتخي احدهم

(خيال العليا وانا ابن نايف) ومتى قيل (رحاة العليا) علم انهم الشعلان عند كل البدو ، ولهم نخوة اخرى وهي «اخو صيتة» ولم نعلم ما اصل هذه التكنية فهل هي من الصيت ، ونخوة ابن سمير شيخ ولد علي « خيال الملحمة ولد على » وقيل (اخو عذرا) وعذرا قرية في شرقي قضاء دوما يظهر انه كان لابناء سمير عليها خوة سنوية فتكنوا بها . ونخوة ابن الطيار « اخو ثنية » ولعلها ثنية العقاب شمالي عذرا ، ونخوة السردية « اخو ذيبة » ونخوة الفايز من بني صخر « اخو بلها » ونخوة الحامد من بطونهم « اخو عمشاء » والزبن « اخو وضحاء» ولم نعلم مرادهم بالبلهاء ونخوة الاسبعة «عرقة سبيعي» ونخوة العمارات « اخوة بتلة » ومن الاقوال الشايعة «اخوة بتلة انسب الحمايل» ونخوة شيوخ الاحسنة آل ملحم « خيال البويضة احسني اخو فضة » . ويقولون حين العرضة « خيال البويضة صاعدي » ، ولم يفسروا معنى صاعدي . ونخوة الشيوخ من آل مهيد في الفدعان (اخو قطنة) ونخوة امراء الموالي « خيال البلهاء ولد الامير) ونخوة اعراب الموالي (الدواخلة) ولم يفسروا معني هذه الكلمة . هل هي من انهم دخلاء على الامراء ؟ ونخوة الدنادشة (اخوة زرقاء) وهكذا لكل عشيرة نخوة و كنية تتعرف بها لا يكاد يأخذها عد فاكتفينا بهذا المقدار . وهذه النخوة من اكبر اسباب التكاتف عندهم ، ويقال لها (العزوة) ايضا ، وفيها تتشارك العشائر التي تمت الى نجار واحد ، وغالب العشائر تعرف القربى بينها بسبب هذه النخوة . وهي حسنة اذا صرفت في سبيل اتباع الحق ونصرة المظلوم ومقاومة الشر .

ومن عوائدهم ان يغير الغزو صباحاً قبل الفجر او قبل طلوع الشمس على الاقل حينما تكون مواشي العدو في حظائرها والابل معقلة والخيل مقيدة ورجال الحرب نائمين او غافلين بعيدين عن اسلحتهم فيمكن الغزو من الاحاطة بالعرب على حين غرة فينهب المواشي والاموال واذا امكن بيوت الشعر برمتها . ولهذا قالوا (ان العقيد الفلاني غزا العقيد الفلاني وخلى عمدها تقرع) اي تمكن من اغتنام مواشيها واموالها حتى بيوت الشعر ولم

يترك في المنازل الا اعمدة البيوت تقرع بعضها بعضاً ، و كثيراً مايقتصر افراد قلائل من العشيرة المهاجمة على الغزاة المهاجمين ، ذلك لان موقف الدفاع يكون اقوى من موقف الهجوم . ويذكر الناس كثيراً من الغارات التي ردها عن المغزوين شخص واحد او بعض افراد قلائل ، ليس هذا فحسب ، بل انهم تمكنوا من قتل كثير من الغزاة واسر من يبقى منهم ، واذا قصر احدهم في الحرب او هرب من الميدان ساءت سمعة والده او ولي امره ، فكان لوالده او ولي امره الحق في ارغامه على لبس ثياب امرأة ، ولا ينزع ذلك حتى يبدي شجاعة فائقة في غزو آخر .

هذا واذا رجع الغزاة الى قومهم ظافرين غانمين لاقتهم النساء بالهلاهل والاهازيج ، وخرج اليهم من تخلف من قومهم يهنئونهم بالظفر ويصرخون (الحذية الحذية) وهي مايعطيه السالب لصاحبه من السلب ، فيعطونهم ولا يبخلون ، وربما اعطى السالب سلبه فما كفاه فاعطى شيئاً من سلاحه او ملابسه . والغالب في قسمة السلب ان يأخذ الشيخ او الامير خمس المسلوب كله عملاً بالآية الكريمة : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه ... الخ » وقد جعلت العادة شيخ العشيرة مقام الرسول ، ويوزع باقي السلب للفارس سهمان ولسواه سهم واحد ، الا القلائع فهي لاصحابها . وقد يرجع الغزاة مخذولين فتلقاهم النساء بالشتائم والاقسام ويصرخن « العودة العودة » كي يرجعوا ويأخذوا بالثأر فيرجعون ويقاتلون شر قتال حتى يظفروا او يتلاشوا . وقد ترافقهم النساء ايضاً تنشطهم « تفخيهم » وتنشد جراحهم وتسقيهم الماء وربما قاتلن معهم . والدفاع يختلف عما ذكر ، فاذا انتهم علوم عن مجيء غزو وآنسوا بانفسهم قوة لدفعه قاموا على ماذكرنا آنفاً وعهدوا الى فريق منهم امر حفظ الحريم والمواشي والبيوت بما فيها واندفعوا للملاقاة ، وهناك يشتهر بالشجاعة من يشتهر ، وهؤلاء المدافعون كثيراً ما يصدون الغزاة ويردونهم على اعقابهم خائبين لذلك يتحاشى الغزاة كثيراً الحرب عند الظعون او الهجوم على العدو عند البيوت .

اذا رأى المدافعون في انفسهم العجز والخور لقلة في العدد ونقص في العتاد اسرعوا الى نزع الاوتاد والرحيل ببيوتهم وذراريهم ونعمهم ويتخلف فرسانهم ومقاتلوهم للدفاع والاشغال .

ومن عادات البدو القديمة اتخاذ العطفات جمع (عطفة) بضم العين وذلك انهم يأتون وقت الحرب ببنت من اكرم بنات العشيرة واجملهن وانشطهن واطلقهن لساناً والغالب ان تكون بنت الشيخ او العقيد ويركبنها ناقة عليها هودج ذو شكل خاص يدعونه العطفة يغطونه بريش النعام ويدعون هذه البنت (العمارية) ، وهي تكون من العاوفات برجال الحي ومزايا كل منهم فتسوق ناقتها الى الامام وتكشف رأسها وتميل وتنحني القوم بكلام مؤثر يفعل في النفوس فعل الكهرباء وتحرضهم على القتال وتمتدح المتقدمين وتقرع المتراجعين وتلوم المنهزمين وتصيح فيهم العودة العودة ، عليهم عليهم ، فيكر هؤلاء ويستميتون في الهجوم والدفاع ويقصدها العدو خشية ان تشجع ذويها وكثيراً ما تصاب المسكينة قبل كل احد وكثيراً ما يناضل ذووها عنها وهي تتقدم نحو العدو فيشتد الحرب حولها ويقوى الصراع وتتجدل الابطال الى ان يتم النصر لاحد الفريقين ، وفائدة هذه العمارية اوالعماريات استحثاث الهمم وتقوية العزائم بصوت العذارى الجميلات ودعوتهن وتحميسهن

ومن عادة البدو ان من خسر عطفته واوقعها في يد عدوه لا يمكنه ان يتخذ بدلها مالم يأخذ هو عطفة من عدو ويغنمها ، ومن ثم فقدت العطفات من جميع العشائر الا من آل شعلان في عشيرة الرولة اكبر عشائر عنزة عدداً وقوة ، فاقتصروا على العماريات اي الفتيات المحرضات بدون عطفة وهؤلاء يقفن على اباعر او في مكان عال ويصحن ويثرن الهمم كما قلنا .

ومما قالة الرحالة السويسري « بركهارت » في كتابه رحلة في بلاد العرب في بحث الغزو : وكلما قامت عشيرة بحملة يرأس الكتيبة رجل يدعونه «العقيد» ومن مزايا البدو انهم خلال الحرب تبطل عندهم سلطة الشيخ بتاتاً ويقاد المحاربون منهم الى العقيد وحده ، فلكل عشيرة عقيد غير الشيخ ومن النادر

جداً ان تجتمع الوظيفتان في شخص واحد ، او انني لم اسمع بذلك قط ، ووظيفة العقيد وراثية في عائلة معينة وتنتقل من الاب الى الابن . واذا التحق الشيخ بالكتيبة ينقاد الى العقيد حتى يعود الغزاة الى اهلهم وحينئذ تنتهي امرة العقيد وتعود امرة الشيخ كلها .

وشخص العقيد وخاصة وظائفه تحترم جداً وينظر الاعراب الى وارث هذه الوظيفة كنظرهم الى الفآل او الطالع او شيء مقدس وكثيراً ما يقررون الحرب بناءً على حلم رآه او الهام اتاه او حدس خطر له . وهو يحدد اليوم الذي يرجحه للهجوم والايام التي يخيل اليه انها نحسة وحينما يشتهر العقيد بشجاعة وفطانة يحتفظ حتى في اوقات السلام بنفوذ كبير في عشيرته . ورأي العقيد وان لم يعلو على رأي الشيخ لكنه يستشار في الحالات الحرجة ويكون لاقواله اعتبار كلي . واذا نجح اي بدوي بمعونة اصدقائه الخلص في بضع غزوات يلتف حوله الانصار ، واذا توالى نجاحه يذيع صيته بانه (مبروك) في تشبثاته وهكذا يحوز مرتبة عقيد ثاني ..... هذا واذا كبس البدو مخيماً ونهبوه في الليل ام في النهار يعاملون النساء باحترام في الغالب ، واستطيع ان اقول انهم يراعون شعورهن ، ولم اسمع بحادثة مخالفة لذلك قط ، الا انه يحدث احياناً اذا كانت العداوة محتدمة بين الفريقين ان يسلبوهن الحلي ، وذلك بان يأمروهن بان يشلحن الحلي بانفسهن . وهذه القاعده متبعة بدون تغير لدى الوهابيين ، فهم بينما يغيرون على حي من احياء البدو يأمرون النساء ان يشلحن ثيابهن وحليهن الثمينة التي يحملنها ، وحينما يصدرون هذه الاوامر يقفون على بعد كاف عن النساء ويديرون لهن ظهورهم اهـ .

حقوق الغزاة :

هذا ومن عوائد البدو في الغزو انه اذا طعن احدهم فرداً من الاعداء وارداه قتيلاً او جريحاً تكون مطيته ملك الطاعن . وتعرف تلك المطية « بالقلاعة » اي مقلوعة ممن كان منصوباً عليها

وليس للعقيد الحق في أخذ شيء من القلائع . و كثيراً ما يطعن احد الغزاة شخصاً بعد ان يجندله عن فرسه فتهرب تلك الفرس و تقع في يد آخر من الغزاة فلا تكون من حق الذي أخذها بل من حق الذي أخلي سرجها . واذا وقع احدهم جريحاً او قتلت فرسه وسقط عنها وجب على كل من رآه طريحاً ان يبادر الى نجدته فيردفه وراءه على فرسه وينقذه من هول المعركة ويعرف ذلك الجريح عندهم (بالرديف). وللشخص الذي ينقذ الرديف شأن عظيم عند قومه وله من الغنائم مثل ما للمجاهدين في المعارك ، ولو كان فعله فيها قليلاً . اما الغنائم فيأخذ العقيد الاكبر لنفسه مايراه مناسباً وقدره الثلث في الغالب ، ويوزع الباقي مراعياً جهود كل فرد حين القتال . وليس اعدل من البدو في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحرياً للعدل فيقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص والسروال . كل هذا ارضاء لضمائرهم ودفعاً للظلم . وهم يعرفون بيوت الشعر جق المعرفة ، لانها بيوتهم التي يعيشون فيها ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاة للعدل . اما الابل والغنم فانهم يقسمونها اذا امكن القسمة ، او يقومونها بثمن اذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة . واذا وقع احد المتحاربين اسيراً في قبضة العدو اعتنوا به واكرموا وفادته واذا وجد العدو بين الاسرى جريحاً عالج جراحه حتى تشفى ، واذا مات دفنوه باحترام . واذا كان الميت من عيون قومه رثاه العدو . واخيراً يقدم العدو للاسرى زاداً ومطايا تحملهم الى مواطنهم .

التضامن البدوي :

ان ثروة البدوي في هذا الغزو سريعة الزوال ، ولا تستقر على حال فهي تحاكي ثروة المقامرين في المصفق (سوق البورصة) اذ بينا ترى البدوي يضحي وهو ذو ثراء في ربعه اذا بك تراه يمسي وهو لفقره المدقع كأن قد ضرب على سمعه وبصره . لكن البدو من مناقبهم التضامن في البلوى والتعاون على المصائب وقد قدمنا انهم يتسابقون الى امداد العزيز اذا ذل ويتعاونون على اقالة عثراته

× والعشيرة او الفخذ او الاقارب بمنزلة اسرة واحدة بينهم « تضامن » و « تكاتف » وهم اذا لم يشتركوا في جريرة ما ، متضامنون في السراء والضراء ويلبون عند الدعوة ويجيبون النداء ، يغضبون لغضب قريبهم دون ان يعلموا السبب .

لا يسألون اخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

ومعيشة البدو قلقة ومعرضة لكثير من الاخطار والمهددات للكيان لاسيما في ايام فوضى الاحكام وغفلة رجال الامن وضعفهم ، ولذا ترى البدو يتخذون وسائل عديدة لدعم التضامن بينهم والتأهب لدفع الطوارىء ، واهم هذه الوسائل الاجتماعات المتوالية في ربعات الشيوخ والكبراء والمذاكرة في كيفية حراسة الاموال والانفس وترديد الوقائع السابقة واللاحقة وحكايتها وتهييج العداء والحماس بالهوسات والاهازيج والخطابات المقترنة بالاشعار .

× واذا رأت عشيرة نفسها في ضعف عمدت الى التحالف مع العشائر الاخرى المجاورة مذكرة لها بقرابة ونسابة مهما كانت بعيدة او بوقائع مماثلة اعانتها بها في يوم مضى ، او بان الخطر مشترك وسينالها ما ينال هذه وامثال ذلك ، وبعد هذا التهويل والاستنهاض او الاستعطاف يحصل الاتفاق او التحالف الدفاعي او الهجومي او يتدخل في امر الصلح ، وكل هذا يشبه ما يقع بين الدول التي تسعى بعقدها محالفات ثنائية او ثلاثية او اكثر ضد حالف مماثل لها ، حفظاً للتوازن ودرءاً للاخطار المشتركة في معترك الحياة .

***

القضاء عند البدو

التشريع البدوي = اصول العشائر

القضاء عند البدو يتبع العرف والعادة ، وليس ثمة قوانين مكتوبة ولا خطط مرسومة . وهذا القضاء في ايدي شيوخ العشائر ، وهم حريصون جداً عليه ، ولا يقبلون به جدلا ولا يرضون بتعديله بـ (القضاء المدني) الذي يسلبهم سلطتهم ويخفض شوكتهم . وهؤلاء الشيوخ هم اما قضاة في الدعاوي التي تقام وسط العشيرة او هم محكمون في التي تقام بين العشائر المجاورة . وهم اذا لم يتولوا القضاء بانفسهم ينيبون عنهم رجالاً اخصائيين في القضاء البدوي يدعونهم (عوارف) جمع عارفة . والشيخ او العارفة يحكم من بنات افكاره ، بما اكتسبه من الاختبار والتعامل القديم والوقائع السابقة المماثلة . ولهذا القضاء انصار ومحبذون كما له اخصام ومعترضون . ولكل من الفريقين آراء وبراهين . وها نحن نذكرها ونترك الحكم فيها للقارىء .

يقول انصار القضاء البدوي ان هذا القضاء سريع في مرافعاته عاجل في احكامه التي لا استئناف فيها ولا تمييز ، وان فيه ميسرة تمكنه من تقدير (المسئولية المشتركة) في العشائر المعتادة على التنادي والتناصر والتطاحن عند حدوث (الهوشات) و (الطوشات) التي يخوض غمراتها العشرات منهم واحياناً المئات ، فيتعذر تحديد الفاعلين وتمييزهم ، وان هذا التنادي والتناصر الناجمين عن (العصبية العشائرية) و (الحمية البدوية) لابد منها لاقرار السلام وحفظ التوازن في هذه البوادي المترامية الاطراف البعيدة عن مراكز الدول ومحاكمها وقوانينها ، ويقولون ان في القضاء البدوي مجالاً للبدوي الضارب في تلك البراري يمكنه من ان يترافع ويبلغ حقه عند اقرب قاض وفي اسهل اسلوب

خطأ لا يمكن استئناف حكمه امام الآخر وحكمه يعد شرط من يعد الجلسة

واقصر زمن وان في « القضاء المدني » تحقيقاً وتعقيداً وتطويلاً بينما البدو يرغبون قضاء مفهوماً لديهم وحكماً عاجلاً لا تؤجل جلساته من وقت الى آخر ولا تبطئ اجراآته وان يحكم لهم او عليهم في جلسة او جلستين .

ويقول اخصام القضاء البدوي ان الاسلام قد ازال العرف العشائري الجاهلي في القضايا العامة وامر باتباع الشرع وصرح بان الحكم بمقتضى هذا العرف مخالف للاية « أفحكم الجاهلية يبغون » وللاية «ولا تزر وازرة وزر اخرى» وان هذا العرف العشائري لم يعد الى الجزيرة العربية بعد منع الاسلام الا عقب ان ضعفت سلطة الخلفاء وقلت عنايتهم بالعرب والعروبة وانكمشت العشائر في باديتها ورجعت الى كثير من العادات التي كانت عليها في جاهليتها كالغزو وما اليه ، وتولد التكاتف على الحق والباطل معاً واتسع المجال للحزبية والعصبية القبلية « العشائرية » وصارت العشائر لا تعمل بالشرع الا في الاحوال الشخصية من زواج وطلاق . اما في الامور الحقوقية والجزائية فشرعها هذا القضاء العشائري او العرف البدوي الباقي من عهد عاد وثمود ، وهو نتيجة اثرة وتحكم وقوة في جهة وضعف واستكانة في اخرى .

والمعترضون يقولون ان على الحكومة ان تحد من قانون العشائر وتجعل غالب الدعاوي الشخصية ـ مما لامساس له في السياسة العشائرية ـ في حسمها تابعة الى القضاء المدني والحكم النظامي وان توعز الحكومة الى المحاكم الناظرة في دعاوي البدو ان تسرع في بحثها وتحقيقها وحكمها ماوسعها الجهد كي لا يبقى ثمة حجة لهم في الاعراض عن هذه المحاكم . وهم اذ يذكرون القضاء البدوي يصفونه بانه قضاء جاهلي وان له المآخذ والنقائص الآتية :

اولاً ـ استعجالهم في الدعاوي : وعدم رويتهم ولا سيما في الكبرى منها التي تتطلب بحثاً واستقصاء ونقداً وتكراراً ، فيأتي حكمهم مبتسراً قد يؤدي الى ضياع حقوق وانتهاك حرمات .

ثانياً ـ ان كل عقوبة في القضاء البدوي مهما كان سببها من قتل او ضرب

ا سرقة او غيرها انما هي في « المال » او « الجزاء النقدي » دون غيره . ومعلوم ان الغرم في المال ليس بالوازع الذي يزجر المرء عن المفاسد ، بل ربما كان باعثاً على زيادة المفاسد لاستسهال الغرم في جانب الحصول على الغرض فيبقى القوم فوضى مستطيلة ايدي بعضهم على بعض فلا يستقيم لهم عمران ولا يقرون على امان . ومن هنا كان لابد من ادخال العقوبات البدنية في الاحكام كالاعدام والسجن والاشغال الشاقة لتكون الوازع الكافي للصغير والكبير والضعيف والقوى .

ثالثاً ـ ان في هذا القضاء البدوي هدم لكثير من الاحكام الشرعية الاسلامية فيما يتعلق مثلاً بمؤاخذة الاقارب حتى الجد الخامس بجريمة قريبهم الجاني واعتبارهم مدانين بقبول أخذ الثأر منهم ودفع الدية وفيما يتعلق باستحصال الحقوق عن طريق مايدعونه (الوسقة) او (الوساقة) ممن لا ناقة له ولا جمل في الامر . وفيما يتعلق بـ (البشعة) اي تلحيس المتهم قضيب الحديد المحمي بالنار او اطعامه لقمة الزقوم وامثالها من وسائل التعذيب والبربرية التي لا تكشف جرم ولا تجبي غرم ، وفي اجحافه بحقوق النساء وحرمان المرأة من نصيبها الشرعي في الارث ، وفي تزويج البنت البكر البالغ من اي رجل اختاره لها ابوها اوولیها بدون اخذ رأيها .

فما ذنب اقارب الجاني الابرياء حتى البعيدين عنه الى الجد الخامس الذين لادخل لهم وربما ولا علم في جريمة القتل او الزنا او الخطف حتى يهاجموا على حين غرة فيقتلون وتخرب مساكنهم وتتلف امتعتهم وتذبح ماشيتهم وتحرق بيادرهم خلال مدة « فورة الدم » وما معنى اجبار هؤلاء المساكين على الجلوة الى عشيرة اخرى قريبة او بعيدة فتعطل اعمالهم وتقطع ارزاقهم وتسلب امتعتهم ويكرهون على توسيط ذوي الوجاهة والنفوذ وبذل الاموال لاخذ الهدنة التي يدعونها (عطوة) ثم الى اجراء الصلح ثم الى دفع الدية عن قريبهم الجاني ولو كانوا بعيدين عنه ، مما ينطبق عليه قول الشاعر :

وجرم جره سفهاء قوم فأودى بغير جارمه العذاب

واي فائدة ومفعول زجري اذا لحق كل من الاقارب حينما يكونوا كثيرين بضعة دنانير من اصل الدية ، وما قيمة هذه الدنانير القليلة في نظر من لايتورعون ولا يجدون سبيلاً للاهتداء والاسترشاد ، وهل هذا ما قصدته الآية الكريمة « ولكم في القصاص حياة ياولى الالباب » ؟

رابعاً ـ ان احكام العشائر كثيراً ماتكون عرضة للنقص وعدم الاتباع من كلا الطرفين المتناحرين لفقدان العنصر الحقيقي الذي يتمكن معه الحاكم ذو السلطة المختصة من تنفيذه وممارسته . . .

ويقول المعترضون على القضاء البدوي اخيرا ان دواعي الانسانية والواجبات الدينية والقومية تقضي بتحضير البدوي وبتعويده على الاحكام الشرعية والقوانين المدنية المطابقة للتقدم العلمي والادبي بين البشر لا بابعاده عنها وبابقائه في حكم الجاهلية . . . لاجل هذا اصبح من الواجب ان تصفى هذه (الشريعة البدوية) او (الحقوق العرفية العشائرية) وتخفف غلوائها ان لم يكن دفعة واحدة فتدريجياً وبقرارات وتعاليم خاصة تعدل دوراً بعد دور كي يتجه هؤلاء البدو نحو الصلاح ، ولاسيما اولئك الذين استقروا منهم وتحضروا وتملكوا وحرثوا وزرعوا ، وكي يرضخوا للاحكام الشرعية والقوانين المدنية وتحسم قضاياهم في (المحاكم النظامية) وترفع ايدي المشايخ والعوارف واللجان الخاصة حتى لايكون هنالك رجعة الى الوراء وعودة الى اساليب القرون الاولى في هذا القرن العشرين ، وكي تتخلص البلاد من (تثنية القضاء) من جعله في البادية على خلاف الحاضرة .

وقد كان الفرنسيون سمعوا هذه الاعتراضات الموجهة الى القضاء البدوي فحضروه في البدو الرحل وفي الموجودين في البادية فقط من نصف الرحل ، (نصف الحضر) . واتبعوا البقية الى مادعوه (قواعد الحق العادي) فقالوا في القرار الاخير الذي اصدروه في ٤ حزيران سنة ١٩٤٠ تحت رقم ١٣٢ ل ر فيما يتعلق بالجنايات والجنح التي يرتكبها البدو ان « قواعد العرف العشائري » تخضع اليها العشائر الرحل في علاقاتهم فيما بينهم سواء أكانوا في البادية ام في

المعمورة ، وتخضع اليها العشائر نصف الرحل (نصف الحضر) اذا كانت موجودة في منطقة الرحل اي في البادية . اما اذا كانت العشائر نصف الحضرية في المعمورة فانها تخضع الى قواعد الحق العادى كما تخضع الى هذا الحق ايضاً العشائر الرحل في علاقاتها مع الحضر ونصف الحضر . لكنهم اجازوا مراجعة العرف العشائري اذا اراد المغدور . ووضعوا في القضايا العائدة للرحل معاقبة الجناة بالسجن من سنة الى خمس سنوات عدا العقوبات التي قد تفرض بمقتضى العرف .

بعد هذه المقدمة التي اضطررنا الى ايرادها نشرع بسرد خلاصات عن كيفية المرافعة والجرائم التي تستدعي الحكم والحسم في الامور الحقوقية والجزائية عند البدو . ولابد من القول ان هذه الخلاصات التي ذكرناها قد تختلف بعض الشيء من عشيرة الى اخرى ومن منطقة الى منطقة ما زالت التقاليد والعادات مختلفة ايضاً بحسب الاماكن والاوساط وبنسبة العراقة في البداوة والبعد عن الحواضر والحضارة . لهذا قد يكون في ماذكرناه قواعد متباينة عما درجت عليه بعض العشائر نرغب شموله بسعة الفكر والصدر . واننا اعتمدنا في بعض مابيناه على ما كتبه المرحوم السيد عودة القسوس احد رجال القانون في شرقي الاردن في مقالاته المندرجة في المجلة القضائية الاردنية سنة ١٩٣٦ ، وقد كان حجة في موضوع القضاء البدوي .

المحاكمات الحقوقية لدى البدو :

يتقاضى البدو المتخاصمون عند رجال اختصوا بمعرفة (القضاء العشائري) وهؤلاء القضاة هم من شيوخ العشائر ورؤسائها امتازوا بتوقد الذهن وسرعة الخاطر وسداد الحكم وخبرة عميقة في العرف والعادات البدوية وفي فصل الخصومات وكشف حجج المتخاصمين وتمييز الحق من الباطل وفي قياس الدعوى الحاضرة على دعاوي سالفة مثيلتها كان غيرهم حلها حلاً مرضياً . وبعض هؤلاء القضاة اناس من افراد العشيرة شبه فقهاء يدعونهم (عارفة) من المعرفة

ولو كانوا امميين كما هو حال اكثرهم وفي عشائر انحاء دمشق وحوران والبلقاء لايوجد عارفة ، والقاضي هو شيخ العشيرة ، والعوارف اختصوا بعشائر الشمال ولاسيما انحاء الفرات والجزيرة . ويقول رؤساء شمر نحن الذين نصبنا عوارفنا واخترناهم من جهة اننا نظراً لاشغالنا لا نقدر ان نرى الخصومات بانفسنا فاودعناها الى من اعتمدناه وبمرور الايام صارت موروثة فيهم ، ولا يعتبر عارفة الا من كان ابوه عارفة ، اذ يشاهد الدعاوى من الصغر ويسمع بما يحكموا به ويتناقلونه وهو ينظر وعنده قلب واع وماذا بعد ذلك ؟

وللقاضي البدوي سلطة واسعة ونباهة قدر ، فاذا تكلم انقطع الحديث وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . وكثيراً مايحدث بعد الحكم اعتراضات ومجادلات ، غير ان القاضي يلبث بين تلك الاصوات الصاخبة ساكن الجأش هادي البال ، وربما شطوا في الكلام ، ولكن لاينتهي جدالهم الى الشتم والاهانة لانهم يكرمون بيت القاضي ويقدسونه . وقد يطول الجدال بينهم والقاضي يتحمل جدلهم بصبر عجيب فلا تخرج من فمه كلمة نابية . وللقضاة البدو منطق موزون وبيان مرغوب يخلبون به الباب سامعيهم فيأتون بالتشابيه البديعة ويضربون الامثال ويوردون الحكايات عن السنة الحيوانات او الجمادات مما يطرب له الحاضرون .

واحكام القضاة والعوارف واجبة التنفيذ فوراً ، الا انه اذا لم يرض احد الفريقين بحكم القاضي له ان يعارض حكمه ويطلب ان يرجع الى (المنهى) والى قاضي المناهي ، وهو آخر محكمة او بمثابة (محكمة التمييز) . وهؤلاء المناهي لايختلفون عن اولئك الا في انهم اكثر شهرة وشأناً واذا عارض المنهى الحكم السابق يشترط عليه ان يأتي بشهادة من قاضي آخر كان قد حكم بما خالفه .

حينما يترتب لبدوي حق ما (كالدين) عند آخر يمانعه في اعطائه اياه فان صاحب الحق (الدائن) يرسل الى المدعى عليه وفداً من سراة الناس يطلبوا منه باسم موفديهم ان يخاصم صاحبهم في حضرة قاض يتفقان عليه ويانتخبانه ،

فاذا تمنع المدين يعاوده الدائن بارسال وفد ثاني وقد يرسل وفداً ثالثاً . والمقصود بذلك ان يبدأ الدائن مدينه بطلب حقه طلباً مجرداً حتى يعرف منه رأي خصمه في موضوع الدعوى . فاذا اذعن المدعى عليه لمقترحات الوافدين ضرب للوفد ميعاداً في يوم بعينه ليجتمع فيه اليهم في بيت احد الشيوخ وهذا مايسمونه (الوجه) للاتفاق معهم على تعيين القاضي الذي سيختصم المدعيان اليه اما اذا رفض المدعي مقترحات غريمه التي حملها الوفد حول التقاضي يلجأ صاحب الحق الى طريقة (الوساقة) ان كان قوياً ، والا فانه يستجير باحد الزعماء والاقوياء طالباً اليه ان ينوب عنه في ارغام خصمه على الرضوخ للحق فان قبل المستجار به بعث الى المدعي عليه وفداً يكلفه الي مقاضاة دخيله ، فان اصر على رفضه استعمل الزعيم قوته في اكراه المدعي عليه وذلك بالاغارة على ماشيته واخذ ما تيسر اخذه منها والاحتفاظ به الى ان يذعن للطلب الواقع .

انتخاب القاضي :

يجتمع المدعي والمدعي عليه في اليوم المضروب للحضور في بيت الشيخ الذي سبق تعيينه ومع كل منهما رهط من ذويه ويشرعوا في انتخاب القاضي فيسمى المدعى اليه شيخاً او زعيماً من العشيرة التي ينتسب اليها المتداعيان ان كانا من عشيرة واحدة والا انتخب من مشايخ او زعماء عشيرة اخرى محايدة ثم يليه المدعي فيسمى شيخاً ثانياً ويعقبه المدعي عليه فيسمى ثالثاً ، ثم يسئل المجتمعون المدعي ان يسقط اسماً من الثلاثة ثم يسألون المدعى عليه مثل ذلك فيفعل ، ويكون صاحب الاسم الثالث هو القاضي الذي له حق الفصل بين المتخاصمين في القضية .

واذا اختلفا في تعيين القاضي يرجعان الى احد القضاة الذين يدعونهم (المعترضة) فينتخب لهم القاضي الذي من حقه ان ينظر الى قضيتهم ويصدر حكمه فيها .

(القضوة) :

اذا اتفق المتداعيان وانتخبا احد القضاة يراجعانه ويترافعان امامه وهذا مايدعونه (قضوة) .

وطريقتها ان يدخلا بيت الشيخ (القاضي) حينما يكون جالساً في صدره للقضاء ومن حوله وجوه العشيرة وبعد شرب القهوة يقوم احد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس في وسط البيت بين الحاضرين ويلتفت الى القاضي ويقول ، وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى « وايش بك ياقاضينا ، ياللي حقك تراضينا ، جيتك هدي ومشياً قدي ، افلح وصلي عالنبي» (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظي وحظك يدخلان على اربعة واربعين نبي من الفوط والنوط والحق الردي ، وانا داخل عالمال والعيال من شيء مبين علي وعليك غبي ، واناحاططلها بعيونك السود وربعك القعود وبالامرأة وما تجيب ونساقات العسيب» . ثم يذكر ماجري معه بصوت جهوري بحيث يسمعه الحضور من اطراف البيت ، ويورد البراهين في ذلك ، الى ان ينتهي ويعود الى مقامه الاول ، فيقوم المدعي عليه ويجلس في وسط المجلس ويكرر المقدمة نفسها وايش بك ياقاضينا الى آخر الديباجة التي اتينا على ذكرها بالفاظهم ولغتهم الدارجة في البادية ، ثم يفصح عن ادلته ولا احد يعارضه في شيء ، والقاضي بين كل ذلك صامت لايبدي كلمة ، وفي ختام ذلك يلتفت القاضي الى المتخاصمين ويقول : افلحوا واصلحوا خير لكم ، فاذا ابيا الا اظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

الرزقة

الرزقة هي رسم المحاكمة الذي يدفعه احد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة ما يخاصم عليه ، وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من اجل تعيين مقدار الرزقة ان نقوداً او عروضاً كفرس مثلاً او سيف

أو بعير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم الى ان يستحسن مايقدر له . والرزقة انواع كثيرة ، منها رزقة المبطل ومنها رزقة الحق . فرزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم او المغتري للقاضي ويستثنى من ذلك دعاوى الدم والعرض والوجه والدخالة . ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . واذا استأنف المحكوم عليه دعواه الى قاض اكبر وحكم له بالحق وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يردها له المحكوم عليه ، لان المستأنف الكاسب حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل (١) .

---

(١) في كتاب المقدم مولران العوارف المصادق عليهم هم ابن سعدي من شمر وابن الطيار من الولد علي وابن سويط من الظفير في العراق اما الامير مجحم بن مهيد رئيس قسم الولد من الفدعان فهو اكبر العوارف . ومن العوارف الخصوصيين في قضايا الدم الامير مجحم وقريبه ابن زرعة ، ثم ابن السحالي من الاروله ومحمود العبد الجادر من بني خالد . وفي قضايا الخيل والمواشي محمد الصايد من الاسبعة وابن جروان من الاسبعة الاعرفة وكذا ابن موينع وفانوس وهو حضري من دير الزور واخصائي في قضايا الخيل ومثله جابر من العقيدات وابن علي من آل حريميس وغيرهم . وفي كتاب عشائر العراق ان عوارف عشائر عنزة هم في (ضنابشر) ابن زرعة من المهيد وابن هيازع من الحبلان ويرى كافة الدعاوي ماعدا حقوق النساء وقضايا الخيل ويقال لهذه المكلدات (المقلدات) وابن جلعود من الجلاعيد الدهامشة والسحالي من المطارفة من السلقة وهذا يرى المقلدات وابن عبده من الرسالين من الاسبعة والجعيب من الزبنة . وفي (ضنامسلم) ابن الطيار وابن جندل وابن معجل وابن كويجب من الكواجبة وكميان بن دغمي رئيس المهنا وموبنع رئيس النصير وبشيتان بن بنيه وعويضة الاخضع رئيس الفرجة والقعقاع من الاروله والآن مونس وشاجي من رؤسائهم .

الكفلاء :

بعد ان يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما ان يقدم كل واحد كفيلاً يتعهد امام الشهود بدفع الرزقة اذا ابى الآخر تقديمها فيقولون: « ترى ياشيخ فلان هذه المسألة في وجه فلان » اي انه يتعهد بدفعها او يحمل المتخاصمين على دفعها . ويقول القاضي للكفيل : « عندك الشيء الفلاني ؟ » فيجيب « عندي ما تطلب ، وحق الله ورسوله اني ما ابوق » « اي لااخون العهد » .

رأينا ان الكفيل نوعان : غائب وحاضر ، فالغائب هو الذي لايحضر مجلس القضاء حينما ترفع الدعوى فيختاره الحاضرون والقاضي لانفاذ الامر . والحاضر هو القائم بين الحضور في اثناء الدعوى . على ان لكل منهما واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر . فالغائب مضطر الى قبول الكفالة والحاضر له الخيار في قبولها او رفضها . ولا بد للكفيل من صفات ، اخصها أن يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع .

والذين يحرمون حق الكفالة هم النساء في جميع العشائر ، الا عند عشائر النصارى في شرقي الاردن ، ويحرمون شهود الزور والجبناء والخائنين وهاربي الثلاثة والشيخ البخيل والعبيد الذين لم يعتقوا ، والمعتادون على الفواحش والمنكرات وغدوا يطمحون الى النساء يطردون من العشيرة ويحرمون كل الحقوق ، هؤلاء كلهم مرذولون عند البدو لايقبلون في مجالس الكرام ولايشربون القهوة في بيوت الرؤساء ولا تقبل لهم شهادة . واذا جلس احدهم في هذه المجالس صب له الشيخ القهوة وبينما هو يرفع الفنجان الى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ويقول انت لا تستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

الشهود في الدعوى :

بعد تعيين الكفيل يتجه القاضي نحو المدعي ويقول له يافلان اذا كان عندك شاهد لايكذب ولا يوجد عليه اعتراض فليتقدم وليشهد فيجيب عندي ياقاضي العرب فلان وفلان وفلان . فيلتفت القاضي الى اكبر الحاضرين ويسئله : وايش تقول ياشيخ عن فلان ؟ فان كان مقبول الشهادة يقول : والله انه مقبول الشهادة ، ماانا خابر عليه الذرب الذي يذربه عن الشهادة ، وان كان مرفوض الشهادة يقول : والله انه غير مقبول .

وقد تقع الخصومات في اختيار الشاهد فمنهم من يرفضه ومنهم من يقبله ، ويطول الكلام بينهم الى حد يسأم منه الحاضرون الى ان يقر رأيهم على شاهدين فيقفان ويقسمان القسم البدوي ، فيقول كل واحد على حدة : « والله العظيم والرب الكريم وحياة العود والرب المعبود والكاذب ماله مولود لاغيظ شافيه ولا طمع راجيه الا حق الله من رقبتي مؤديه ، ان هذا الرجل قد فعل كيت وكيت » وهم يقصدون بالعود كل نبات من السنبلة الصغيرة الي الشجرة العظيمة ، وبكلمة لا غيظ شافيه ولا طمع راجيه اى انه لايحلف لاخذ الثأر بل لاظهار الحق ولا يحلف لاجل المال . وللشاهد حق في طلب هدية ما ، اذ لا بد له من القسم . والبدو كما سنذكره في بحث القسم يرهبون القسم ولو كانوا صادقين في كلامهم ، فلذلك يقدمون للشاهد هدية بدوية كسيف او عباءة وغير ذلك . ونصاب الشهادة في الامور العادية رجلان وفي الهامة جداً اربعة ، وتقدير الفرق بين العادية والهامة يعود الى القاضي .

الحكم :

بعد ان تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بامثال يبين فيها احكام القضاة

من قبله في امور جرت من عهد قديم . فيروي حكايات واقعية او خيالية يذكر فيها الحلم بمبهم الكلام ، وربما أتى بامثال عن الحيوانات تنطبق على الامر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل ان ينطق به . واخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : «انا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند اجاويد الله مثلكم ان فلاناً هو المجرم وفلاناً هو البريء» ويورد في ذلك الادلة والبراهين والاسناد كي لايبقى في الامر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم الحاضرون وينصرفون الى بيوتهم وهم يرددون الحكم المبرم . وخلال المحاكمة يسود السكون بين الحاضرين ولو بلغ عددهم المئة ، فما منهم من ينبس ببنت شفة اذا لم يطلب منه الشيخ ذلك ، وكل الحالات والقضايا الحقوقية تعالج على هذا النسق كمسائل الارث والطلاق وقسمة الغنائم والشركات ... الخ

ويخول العرف البدوي المدعي عليه رفض الشهود وتحليف المدعي اليمين ، فيكلف القاضي المدعي ، فاذا حلف كسب الدعوى ، واذا رفض سقطت دعواه وحكم القاضي بردها ويمنعه من معارضة المدعي عليه . وكذلك اذا عجز المدعي عن اثبات دعواه يكلف القاضي المدعي عليه ان يحلف اليمين على الصورة التي يرسمها له القاضي . فاذا حلف او استنكف المدعي عن تحليفه حكم القاضي برد دعوى المدعي ومنعه من معارضة المدعي عليه .

الحالف او القسم :

القسم من ارهب الامور عند البدو واقدسها ولا يقدمون عليه الا مضطرين. لان البدوي لسذاجته تملك قلبه الخيالات المختلفة والتصورات المرعبة ، لذلك يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً ويهاب اتخاذ المولى الكريم او احد اوليائه وانبيائه شاهداً على صحة قوله ولو كان من قطاع الطريق .

والقسم عند البدو انواع مختلفة : منه مايسمونه القسم الجاري او القسم الصغير ومنه قسم اليد والقسم الكبير ومنه قسم العشبة ومنه قسم النملة والشملة . ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط البيت ويقول اقسم عاليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الامر الفلاني . فيقول والله وصلاة محمد لم افعل ، وفي قسم اليد يضع المحلف يده على رأس المحلف ويقول : اناشدك الله بما تحوش وتنوش (اي بما تملك في هذه الدنيا فاذا صدقت في جوابك يبقى لك مالك واذا كذبت يهلك جميعه) بحلابات الحليب (هي الغنم والنوق والمعزي وامثالها) ونسافات العسيب (هي عتاق الخيل والعسيب ذنب الفرس) وبالنساء وما تجيب داخل عليك وعلى المال والعيال من الحل والاستحلال (اي اني ارجوك بحق اسرتك واولادك ان لا تتكلم بالغش) اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (اي انك تراني اليوم وغداً ستحملني على النعش واقف انا وانت امام الديان العظيم) بغيبة علي وبينة عليك (اي الشيء المكتوم والشيء الجلي) ان اطلعتها تسرك وان خبيتها تضرك أما صار كذا وكذا ، فيجيب : إي بالله ورسوله صار كذا وكذا . او لابالله ورسوله ما صار ذلك » .

ويقولون ايضاً في أقسامهم « انا حاضر بحضارك وموقد نارك ، اما صار كيت وكيت . ويقولون في حلف العشبة بحق هذه العشبة الملوبة والكاذب ماله ذرية ».

ولهم قسم عظيم يسمى قسم النملة والشملة ودونكم وصفه . حينما يكون البدو وكبرائهم ملتئمين في الربعة ، وقد طال الجدال بين الفريقين على ارض او فرس او غير ذلك ، يقوم صاحب البيت ويخرج من مجلسه الى خارج البيت ، ثم ينتضي سيفاً ويخط به دائرة كبيرة ويضع في وسط الدائرة حبة حنطة ونملة . فالحنطة تدل عند البدو على أكرم ماخلق الله تعالى والنملة تمثل الحكمة والفطنة والادراك ويمدون السيف في منتصف

الدائرة فيدخل المتهم في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً والله العظيم والسيف الكريم مافعلت الشر ولا سرقت ولاقتلت ... الخ . وقبل ان يدخل في وسط الدائرة ينزعون عنه كل اسلحته وهو كثيراً ما يرجف رعدة وهيبة وربما نكل عن الحلف واقر بما فعل.

والحلف بالمقامات عند البدو يعد عندهم من الايمانات المغلظة . وربما اقسم البدوي بالله مراراً عديدة وابى ان يقسم بالاولياءوالمزارات المقدسة المعلومة لديه . وكثيراً مايصير التحليف على قبر احد الاولياء المشهورين بجهاتهم . وطالب اليمين عندما يتأكد عزم الآخر على الحلف يعفيه على الاغلب من اليمين . لان البدو اجمع يتشائمون من الحلف والتحليف ويقولون (ياويل حالف ومحلف) . ولذلك لايجوز عمل الخطة والتحليف فيها في مراح العشيرة اي بين دائرة المضارب بل يجب ان تكون خلف المضارب مهما امكن وفي مكان بعيد . وكثير من القضاة يرسل المقرر تحليفهم الى محل آخر بعيد عن أعرابه ليحلفهم فيه بناء على السبب المذكور . ولايجوز عندهم تحليف احد الخصمين اذا كان المنازع عليه من الكسب والغنايم . ومن حلف لاتتوجه عليه مطالبة ويبرأ من الدية . وفي الغالب لايحلف البدوي اذا كان قاتلاً او فاعلاً . وهو يخشي ان يصاب باذى في اهله او ماله اذا حلف كاذباً .

البيع :

لاتتم البيع الا بالعقد والتسليم معاً . ولايكون العقد ملزماً لاحد الطرفين ، ولذلك حينما يبيع احد الناس مالاً غير منقول فانه يتم البيع بعد المساومة عليه بين البائع والشاري والاتفاق على الثمن وتسليم المبيع للمشتري . وتجوز الشفعة في بيع الاموال غير المنقولة والجياد من الخيل . والشفيع في الدرجة الاولى الاقارب ثم الشركاء ثم الجيران ومن العوائد ان يذكر المتعاقدان في الشروط حالة البيوع الحاضرة ويجب على البائع

ان يعرف حالة المبيع ويقول انني ابيعك هـذا المـال في جميع العيوب فاذا وافق المشتري واستلم المبيع على هـذا الشرط لا يحـق له الرجوع مهما ظهر من العيوب في المبيـع . واذا قال بعتك (صـاغ سليم) اي خالي من العيوب وظهر بعـد ان المبيع معيوباً وتبين ان العيب قديم يحكم برده على البائع. وظهور ذلك يتوقف على البينات وبفقدانها يحلف المشتري بان العيب لم يحدث عنده .

الشفعة :

الشفعة ويدعونها (البداة) تشمل كل شيء من الاموال المنقولة وغير المنقولة . والحق الاول فيهـا الى اقارب البايع ثم الى المجاور . وحق الشفعة يتناول حتى الزواج ، ويدعونه (النهوة) وهو انذار الاقارب لطالب الزواج ومنعهم اياه . ولذلك اذا تقدم خاطب غريب الى احـدى بنات العشيرة فان للاقارب حق النهوة والشفعة بنسبة درجات القرابة . واذا لم يظهر طالب من الاقارب فالحق لافراد العشيرة . فاذا لم يظهر من هؤلاء طالب فلافراد اقرب عشيرة موالية لتلك العشيرة . والاصول في طلب الشفعة هو ان يعلن الشفيع حالاً عند سماعه بعقد البيـع او الخطبـة انه اولى بتملك المبيـع اوبزواج المخطوبة ويشهد الحضور على اعلان هذا . ثم يجب عليه بالحال ان يحمل الثمن الذي علم بدفعـه من قبل المشتري نقداً كان ام عروضاً ام ماشية ويتوجه الى محل المشتري ويعيد اليه الثمن الذي دفعه معلناً له انه ابدى اى اولى منه بشراء المبيع او بخطبة المخطوبة لانه قريب البائع من الدرجة الاولى او جار للعقار او خليط او شريك . ولاريب في ان الخليط او الشريك اولى من الجار الملاصق ، فاذا قبل المشتري وعدل عن المبيع قضي الامر ، وان رفض يلجأ الشفيع لجلبه الى القضاء بالاساليب المار ذكرها . واذا كانت الحالة تقتضي اتخاذ الاحتياطات السريعة مثلاً لو كان الخاطب قد شرع باتمـام

الزواج فللشفيع ان (يجير) المخطوبة من الزواج على احد المتنفذين بقوله امام شهود (انني اجير فلانة من الزواج على الشيخ فلان لنتيجة دعواي) وهذا القول يكون بمثابة الحجز الاحتياطي. اذ يصبح (المجير) اي المتنفذ الذي انتدبه المدعي واجار البنت به من الزواج ملزماً بتنفيذ الحجز الاحتياطي، ولو كان المجير غائباً عند اعلان المدعي جيرة البنت. فعلى الخاطب ان يتوقف عن الزواج حرمة لجيرة ذلك المتنفذ. فان لم يفعل عرض نفسه لغرامة كبيرة يدفعها الى ذلك المتنفذ المجير اذ يحق له ان يطالب الخاطب عنها باربعة بنات لقاء الغرامة. وكثيراً ماقضى بذلك قضاة البدو. ولاسيما انه لاينظر في الزواج الى رضا العروس من عدمه.

الميراث:

ليس للميراث قاعدة عند البدو، وهم لايعملون في تقسيم الارث بالقاعدة الشرعية ولابالقوانين المدنية، بل لهم في ذلك اصطلاحات خاصة تتمركز على قاعدة حرمان الاناث من التركة بل هم يعتبرون البنات من جملة التركة التي تقسم بين الورثة. وغالباً تقسم التركة على الصورة الآتية: (توفي) عن اولاد ذكور واناث وزوجة ووالدة واخوة فالميراث ينحصر بالاولاد الذكور. (توفي) عن بنات وزوجة واخوه واعمام فجميع الميراث محصور بالاخوة بشرط ان يقوموا بنفقة والدة المتوفي وزوجته مالم يتزوجن باخر، وعند زواجهن لايبقى لهن ادنى علاقة بتركة المتوفي، وعلى الاخوة ان ينفقوا ايضاً على بنات المتوفي حتى يزوجونهن ويستوفوا مهورهن، واذا كان للمتوفي اخوة قد توفوا قبله عن اولاد فيقوم الذكور من اولادهم مقامهم بجميع ماذكر (توفي) عن والد واخوة فالميراث جميعه يحصر بالوالد، واذا (توفي) عن والد واولاد ذكور واناث وعن اخوة، ومن ثم توفي والده فليس

لاولاده ان يشتركوا بارث والدهم ولا ان يقوموا مقامه . (توفي) ولم يكن له اب او اولاد ذكور ولا اخوة ذكور فينتقل حق الارث الى اعمامه واولادهم واذا لم يكن له اعمام واولاد أعمام فللعصبية الاقرب فالاقرب اذا (توفيت) امرأة بدون اولاد ذكور كان الوارثون لها اخوتها او اولادهم ومن بعدهم أقرب عصبة من الذكور .

الوسقة (الوسة) :

هي الطريقة للوصول الى المال المغصوب او المسروق . فكل شخص يكون له غريم (مديون) عسر عليه تحصيل دينه منه ، او كل من يكون قد سلبه شخص وعجز المسلوب عن استرداد اشياءه المسروقة او عندما يرفض المدعي عليه طلب المدعي مقاضاته ، فان هذا المدعي او مجيره يعمدان الى مصادرة اموال المدعي عليه (بضاعة ، ماشية .. الخ) العائدة الى اي فرد من الاسرة او العشيرة التي ينتسب اليها ذلك الغريم العاجز او المتمنع عن الاداء . وهي طريقة مخالفة للشرع ، فقد صرحت الآية : (ولاتزر وازرة وزر اخرى) . وقد نشأت هذه الطريقة من كون افراد العشيرة او الاسرة متكاتفين ، وهم وان لم يشتركوا في تلك الجريرة منضامنون في الخير والشر يلبون نداء الاستصراخ ويجيبون عند ما يندبهم دون ان يسئلوا انفسهم على ماقال برهانا . والوسقة يطالب بها لحد خمسة جدود ، ولايؤاخذ من هو ابعد . وحينما يحصل صاحب الحق على اي شيء مما يصلح لاستيفاء الحق ممن تمكن سواء من السارق او من غيره من اقاربه يودعه فوراً عند احد أفراد عشيرة المطالب ممن هو فوق الجد الخامس ويضعه في جيرته ويدعوه الى ايصاله اليه فيكون هذا ملزماً بذلك . ومما يلحظ ان الوسقة من أكبر دواعي النزاع بين العشائر والفروق والاسر ، لان الشخص الثالث الذي يرغب الدائن تطبيق حق الوسقة عليه يحتج وكثيراً مايدافع بالسلاح .

واذا وقع قتل يحتدم الشر وتنجم معارك حقيقية من جراء تنفيذ حق الوسقة . وفي المعاهدة التي عقدت بين الحورانيين والدروز في سنة ١٩٢١ الغي حق الوسقة كما ان المحاكم العشائرية في شرقي الاردن على ما علمت صارت ترفض سماع دعاوي الوسقة .

الحشم (نسبة احدى النقائض):

ليس للشتم العادي اهمية اذا لم ينشأ عن ذلك شجار يؤدي الى الضرب او الجرح واذا بقي الامر مقصوراً على الشتم او التحقير البسيط ينتهي عادة بالصلح او الاعتذار . اما اذا كان الشتم قبيحاً او وصم احدهم آخر بعيب علناً وبمواجهته كالسرقة والشرد من القتال او قذف بحقه عبارات تثلم الشرف والعرض ، او يكون قد نهى عن امرأة يريد التزوج بها من اقاربه فلم يلتفت الى نهيه . . . كان للمعتدي عليه الحق بان يطلب المعتدي للمحاكمة عند القاضي وان يحكم عليه بتضمينات كبيرة وان يجبره على تقديم الاعتذار برفع راية بيضاء بين مضارب العشيرة . وهذا الحق يدعى (الحشم) فاذا ترتب على المعتدي عليه وجب فصله ، فان ابى عرض نفسه لخطر (العقر) وهو ان يقتل المعتدي عليه حيوانات المعتدي او يقطع قوائم ابله واطناب بيته بثلاث هجمات متعاقبة . وهذا العقر يعدونه انتصاراً للاهانة اللاحقة .

البشعة :

هي تلحيس النار المتهم اعني عندما تفقد جميع الادلة الثبوتية لاظهار المجرم يقرر القاضي ارسال المتهم الى رجل من اهل الطرق الصوفية كالرفاعية وامثالهم يدعونه «المبشع» . وهذا الرجل يأتي بقضيب عريض من الحديد ويحميه بالنار بحضور المدعي

او وكيله حتى يبلغ اقصى حد من الحرارة ويمسح به لسان المتهم بكل سرعة ولباقة ، ثم يناوله في الحال شربة ماء ، فاذا حصل ضرر في لسانه اعلن المبشع ان لاحس النار مجرم ، وان لم يحصل ضرر يعلن براءته ، وحينئذ يرفع من تبرأ راية بيضاء وينادي قائلا « بيض الله وجه المبشع وبيض الله وجه الكفيل » وهو يعني كفيل المحاكمة . وهذه البشعة من اغرب الاعمال واوحشها وابعدها عن العقل والشرع وقد جرت مرة في الكرك (شرقي الاردن) امام احد الاجانب ، فرفع آلة التصوير وصورها وبعث بها الى صحف بلاده لنشرها وتشويه سمعة الامة العربية بها . فحبذا الاعراض عنها بتاتاً .

الحقوق الجزائية لدى البدو

الانتقام في البادية :

الانتقام او اخذ الثأر عند الاعراب من العوائد الشريفة يقيمون له وزناً رفيعاً ويعدونه من الفرائض التي لايسعهم اهمالها ولوطال عهدها . وما كان يعرف عن اعراب الجاهلية في هذا الصدد ـ وقد ذكرناه في الصحيفة ١٥٦ ـ ينطبق على اعراب زماننا . ومن المأثور عنهم ان البدوي يأخذ ثأره بعد اربعين سنة ويقول انني تعجلت أخذه . لان الضغينة تبقى كامنة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، وهم اذا راجعوا قضاتهم واخذوا حكماً على غرمائهم قد لايعجبهم الحكم فيرون ظلمهم بدم الغرماء ويثأرون بايديهم ، وهم ينتظرون بصبر عجيب الفرصة الموآتية لنيل أمانيهم ويقدمون على جريمتهم هذه بنفس هادئة وانشراح كبير ، وعندهم النفس بالنفس والسن بالسن والعين بالعين ، اي انهم يعتدون على الغريم بمثل ماعتدى عليهم . ومن تأمل في هذه السنة من أهل الحضارة استنكرها

باديء ذي بدء . ولكن العارفين بشئون البادية والعاذرين لاهلها يقولون ان لولا وجود هذه السنة عند البدو لغدت البادية دار حرب مستمرة لان سنة الدم بالدم تصد المجرمين والاشرار عن جرائم كبرى ، والبدو يتجنبون القتل حتى في الغارات والغزوات ماوسعهم الامكان لئلا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام ، وهذه الشريعة تجعل البيداء في امن وسلام يسافر فيها المرء غير خائف من صولة اشرار البدو وان سلبوه ماله ، ولذلك يندر القتل في البادية . والبدوي لايهدر دم المسافرين خوفاً من العقاب بل يسلبهم ثيابهم واموالهم ودوابهم . وشأن البدوي شأن معظم البشر عبد القوة لايحاذر غيرها . ولطالما كان الجنود من ابناء بلاد الشام ايام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن والحجاز ويقطعون جزيرة العرب من الجنوب الى الشمال مشياً يطيل البدو عليهم ايدي الاعتداء تارةً ويكسونهم ويطعمونهم تارةً اخرى وهكذا كان الفار يعرى ويكتسي مراراً حتى يصل الى وطنه . على ان عواطف الشفقة والحلم غير يسيرة عندهم تتغلب فيهم مرات عديدة على حب الانتقام وتحملهم على الصفح . وفي كتب التاريخ والادب القديمة حكايات وفيرة تشير الى شهامة نفسهم وكرم خلقهم . ولايزال يقع في ايامنا حوادث كثيرة من هذا القبيل ، فمنهم من اكرم قاتل ابيه او خاطف ابنته او حارق بيادره ، ومنهم من يكونوا في اشد سورة الغضب فيقوم شيخ وقور بينهم يحاجزهم ويوادعهم ويصلح ذات بينهم فيزول كل شيء ، وبمثل هؤلاء الشيوخ والمصلحين وبفضل تؤدتهم وحكمتهم تسكن النائرة في البادية في الغالب ويسود السلام والاطمئنان .

الرزقة :

في القضايا الجزائية يأخذ القاضي قسمته من الرابح . وذلك أنه اذا

كان الرابح المدعي يدفع قيمة الرزقة مما حكم له به في التضمينات والغرامة . واذا كان الرابح المدعى عليه يكون دفع الرزقة بمثابة رسم براءته من التهمة .

انواع الجنايات:

انواع الجنايات لدي قضاة البدو ١ - القتل مهما كان انواعه وتعطيل العضو ٢ - الزنا مهما كانت انواعه ولو كان بارضا وخطف البنات او النساء ٣ - قطع الجيرة اي التجاوز على المحجوز عليه بدخالة زعيم ما ٤ - التجاوز على الدخيل اي المستجير ٥ - التجاوز على رفيق الطريق ٦ - تقطيع الوجه اي التجاوز على الخصم بعد ان تم بينهم عقد الصلح او عقد الهدنة بكفالة آخر ٧ - التجاوز على الضيف ٨ - التجاوز على الطنيب ٩ - التجاوز على الناصي الذي قدم من ديار بعيدة واعلن انه قادم على زيد من الناس .

القتل :

لايكون القتل عند البدو موضوعا للمحاكمة اذا كان فاعله غير معلوم لدى الجمهور ، اما اذا كان القاتل معلوماً عمد ذووه الى مالهم من الحقوق على الوجه الآتي : اذا قتل شخص آخر كلاهما من عشيرة واحدة يثور أقارب المقتول ويهاجموا فرقة القاتل ، واذا صادفوا من يجتمع بقرابته مع القاتل حتى الدرجة الخامسة بالنسبة للجد الجامع بينهم سواء اكانت قرابتهم مع القاتل بالخط المستقيم او الخط المنكسر يقتلونه ثأراً لقتيلهم ، وان لم يتمكنوا من أخذ الثأر فلهم ان يتلفوا او يخربوا ما تصل اليه ايديهم من اموال منقولة او غير منقولة تخص القاتل واقاربه حتى الدرجة الخامسة ، وذلك في غضون ثلاثة ايام وثلث اعتباراً من ساعة القتل ، وبعد مرور هذه المدة لايحق لهم ان

يتناغوا شيئاً من مال القاتل مالم يتمرد القاتل وذووه عن الانصياع لاصول العشائر فيما يتعلق بالدم . ومن المعتاد عند وقوع قتل احد الناس ان يسارع رجال احدى العشائر المجاورة لحماية اموال القاتل واقاربه من تجاوز ذوي المقتول ضمن المدة المنوه عنها . وهذه المدة اي الثلاثة ايام وثلث يسمونها (فورة الدم) وكثيراً مايتدارك عقلاء المشايخ الامور بحضورهم دفن القتيل واسداء النصح لآله وتخفيف غلواء صدورهم ، لان حماسهم في ذلك الحين يكون بالغاً اشده ، ومن المعتاد ان يحتشدوا ويزحم بعضهم بعضاً وهم مسلحون ويهزجون الاهازيج الحماسية ويسيرون خبباً قاصدين مهاجمة فرقة القاتل ، وقد يدفعهم الحماس للخطأ بآخرين . ثم يجتهد عقلاء المشايخ المحايدين للتوسط بعقد هدنة لمدة فورة الدم المذكورة ، وتدعى هذه الهدنة القصيرة (عطوة المهربات المقربات) اي هدنة تكفي لتهريب القريب . والعطوة تكون مؤيدة بكفالة احد الزعماء حيث يذهب الوسطاء ويبلغون ذلك الى اقارب القاتل حتى يتمكنوا من الرحيل من وجه اقارب المقتول . ويساعد الوسطاء وغيرهم من المحايدين اقارب القاتل على سرعة الرحيل خلال مدة العطوة .

وبعدئذ يتحتم على اقارب القاتل حتى الدرجة الخامسة ان يجلوا اي ان يرحلوا ببيوتهم ومواشيهم واثاثهم عند احدى العشائر المحايبة لعشيرتهم اي التي يربطها اتفاق حسن الجوار معها ، ولا يجوز لهم ان ينزلوا عند عشيرة اخرى تدخل تحت علم شيخ عشيرتهم ، وبعد ان يتكامل نزولهم يرسلوا ويطلبوا من مشايخ العشائر الاخرى التواسط مع فرقة المقتول ليقبلوا منهم (المعادد) اي تقريب درجة القرابة والنسب بينهم وبين القاتل ، فيهتم الشيخ الذي كلف بهذه الوساطة ويراجع اقارب المقتول ويطلب منهم ان يعينوا موعداً للاجتماع لبيان درجات أنساب اقرباء القاتل حتى يطبق بحق كل فرد من ذوي القتلى بحسب درجة قرابته مايتوجب عليهم وفاقاً لاصول العشائر . وفي اليوم المعين يصير الاجتماع ويأتي الشيخ الوسيط بشخص خبير في نسب

فرقة القاتل يسمونه (العداد) فيجلس بين المجتمعين وبعد ان يحلفوه اليمين بانه يقول الحقيقة ياخذ بيده اليمنى خنجراً مسلولاً ويقبض على نصابه بكامل يده ويبدي بذكر انساب القاتل درجة درجة اعتباراً من الجد الجامع حتى يعرف ابعاد كل واحد منهم عنه . وهم يزعمون بالقبض على الخنجر المسلول بان ذوي الدم قابضون على خنجر الانتقام قاصدون ذبح من يسوغ قتله من اقارب القاتل وان اصابع اليد تمثل درجات القرابة باعتبار ان من كان قابضاً على الخنجر المسلول يمكنه الذبح . وعند رفع احد الاصابع تنقص قوة اليد ، وهكذا دواليك حتى ارتفاع آخر اصبع حيث يسقط الخنجر من اليد . فعندما يكون احد اقارب القاتل بعيداً عنه في الدرجة الاولى يرفع العداد اصبع الخنصر عن الخنجر ويعلن بان هذا الشخص يمكن ذبحه ويجب ان يبقى بعيداً عن اقارب المقتول ، ثم يرفع اصبع البنصر ويعلن أيضاً ان فلاناً القريب من القاتل بالدرجة الثانية يمكن ذبحه أيضاً بالخنجر المقبوض عليه بثلاثة اصابع ثم يرفع الاصبع الاوسط ويعلن ان فلاناً الذى في الدرجة الثالثة يمكن ذبحه أيضاً بالخنجر المقبوض باصبعين وعلى كل اولئك ان يبقوا في الحلى (المهجر) بعيدين عن وجه ذوي المقتول ، ثم يرفع السبابة فيبقي الخنجر يمسكه الباهم مع جانب الكف حيث لايبقى امكان للذبح فيه انما يمكن ان يجرح من يصيبه ولو جروحاً خفيفة ، عندئذ يعلن العداد بان فلاناً الذى في الدرجة الرابعة لايمكن ذبحه بل يتوجب عليه ان يتقي اضرار الخنجر التي بالامكان نهشه بها و (ان يدفع بعير النوم وينام) اي ان يدفع لذوي المقتول بعيراً ثمن قيمته خمسمائة قرش ويرجع من المجلس وينزل بين عشيرته . وبعد كل ذلك يرفع الباهم لان جميع الاصابع تخلت عنه فيعلن العداد ان فلاناً الذي في الدرجة الخامسة وقع عنه الخنجر ولايؤذيه بشكل ما ، ولذلك يحق له ان يرجع من المجلس وينزل بين عشيرته من غير غرامة ، الا انه عند

وقوع الصلح يكلف بدفع مايصيبه من الدية ، ثم يعلن نسبة اقارب القاتل مع اقاربه وعددهم ويكون تنفيذ مايترتب على كل منهم وعلى فرقة المقتول من الحقوق مضموناً بكفالة احد أرؤساء .

وبعد الانتهاء من ذلك يتوسط مشائخ العشائر الاخرى لاخذ عطوة عمومية بين الطرفين فيذهب هؤلاء وينزلون في بيت اهل المقتول (جاهة) اي ملتمسين ، وهناك يرفضون ان يتناولوا القهوة والطعام حتى يلبى طلبهم ويعطوا مبتغاهم وهو عطوة تشمل القاتل وجميع اقاربه ، ومن ثم تعين لهذه الهدنة شروط وحدود تربط بكفالة احد المتنفذين من العشيرة المنسوب اليها القتيل ، وعندها يصبح القاتل واقاربه يتأمن على انفسهم وعلى اموالهم بشرط ان لايتجاوز الشروط والحدود التي تعينت عند الهدنة . وبائناء هذه الهدنة يسعى المصلحون لاقناع اقارب المقتول على قبول المصالحة ، فاذا تمكنوا من اقناعهم على الصلح طلبوا منهم بواسطة (جاهة) اخرى تتألف من عدة مشائخ (عطوة اقبال) وعندما يعطى اقارب المقتول عطوة الاقبال هذه يكونوا اسقطوا حقهم باخذ الثار ولايبقى لهم اي حق الا اخذ الدية ، واذا تعسر اقناع اقارب المقتول بقبول الصلح يذهب اليهم بعض المشايخ ويجددون العطوة مرات متعددة حتى يتمكنوا من اقناعهم بقبول الصلح واعطاء (عطوة الاقبال) وهي تعني الهدنة التي يسعى في غضونها اقارب القاتل لاقناع اهل المقتول بالصلح . وقد جرت العادة بان يدفع رسم على هذه العطوة ويكون مبلغه محسوباً من أصل الدية عند تعيينها .

الصلح بين الافراد :

يعين المتوسطون بالصلح يوماً لاجراء الصلح ويعلنونه للطرفين ، وحينئذ يهتم اقارب القاتل لجمع عدد من المشايخ ذوي الوجاهة والحرمة

في العشيرة ومن غير مشايخ العشيرة ان امكن ، ويلتمسون من احد المشهورين في حسن البخت والحظ ان يعيرهم بيت الشعر خاصته ، وبعد اعارته يحملونه سراً ويرسلونه ليلاً مع اشخاص لاعلاقة لهم بالدم فيأخذه هؤلاء وينصبونه سراً قبل طلوع الفجر وراء بيت عائلة المقتول ويجلسون فيه يعدون الحطب والنار لحضور (الجاهة) ، وعندما يفيق اقارب المغدور من النوم ويشاهدوا البيت المنصوب وراءهم يجمعون رجالهم المحنكين ويستعدون للمذاكرة بامر عقد الصلح ، وعند ضحى النهار يقبل وفد المشايخ ومعهم عدة اشخاص من اقارب القاتل العقلاء وثلاثة او اربعة من عاقلات النساء . ويتقدم هذا الجمهور كله كفيل (عطوة الاقبال) اشارة الى انه يحمي اقارب القاتل ذهاباً وايباباً تم الصلحام لم يتم ، وينزل هذا الجمهور في بيت الشعر الذي نصب ويكون لاقارب القاتل قد احضروا معهم جميع مايلزم من الذبائح والطحين والسمن والبرغل والرز لاطعام الجموع وقهوة ودخان اي كل مايقتضيه اكرام الضيوف ، هذا فضلاً عن عدة ثياب جديدة لاكساء ذوي القتيل .

وبعد ان يستقر المقام بهؤلاء يتولى أمر المفاوضة أكبر المشايخ الموجودين فيرسل من قبله احد المشايخ الاخرى ويستدعي اقارب المقتول الى بيت الشعر المنصوب للمصالحة ، وحينئذ يأمر ذلك الشيخ اكبر اقارب القاتل امام الحاضرين ان يتقدم الى اقرب شخص من اقارب المقتول ويطلب منه الصلح فيقوم الاول ويحمل عقاله في عنقه ويستل خنجراً بيده ويتقدم ويجلس بين يدي قريب المقتول ويسلمه طرف عقاله المعلق بعنقه مع الخنجر ويخاطبه قائلاً انني بالاضافة عن فلان القاتل اعترف بانني قتلت قريبك فلاناً وها انا اسلم روحي ليدك فان شئت اذبحني بهذا الخنجر وان شئت اعف عني واقبل فدية حياتي

الدية التي تفرضها علي ، وعندها يمسك قريب المقتول العقال المعلق بعنق ذاك ويسأله ثلاث مرات من هو القاتل فيعترف هذا ثلاثاً بحضور الجميع انني انا القاتل مضيفاً اقراره الى القاتل الذي لايجوز له الحضور عند عقد المصالحة . وبعد ان يتم الاقرار بهذه الصورة يختار اقارب المقتول احد الامرين ، فاما ان يتنازلوا عن دمهم ويترفعوا عن اخذ الدية فيقابل اقارب المقتول كرمهم هذا بمثله كأن يهدوهم بعض بناتهم او عقاراتهم ، واما ان يعين اهل القاتل مايرغبون بأخذه من دية . واذا تقرر الامر الاخير يبتديء الشخص القابض على طرف عقال قريب القاتل هكذا : هل تدفع لي البنت الفلانية من عائلتكم (غرة) لدية فلان ، وهل تدفع العقار الفلاني (طلبة) ، وهل تدفع كذا من الدراهم وكذا من الخيول وكذا من الابل وكذا من الاغنام والابقار وغير ذلك ، الى ان يذكر عدداً ضخماً من المال والمواشي ، ونائب القاتل يعلن رضاه واستعداده لدفع جميع ماطلب منه . وعندما ينتهي الطالب من سرد طلباته يعلن بانه يعفيه من دفع النوع الذي يختاره من انواع الاموال التي يشترط دفعها عليه ، فيقف هذا ويعلن بانني اخترت ان اقوم وانا معفي من دفع الخيول مثلاً ، وعندما يعود الى محل جلوسه يسأل قريب المقتول وبماذا تجلسني اعني ماذا تعفي عني من انواع الاموال التي طلبتها حتى اتمكن من الجلوس فيجيبه الطالب اجلس ، معفى من الابل مثلاً او اي نوع من الاموال المطلوبة التي يختار المتنازل عنها . وبعد ان يجلس يتولى رئيس الحضور من المشايخ اكمال المفاوضة فيخاطب اقارب القتول انني بلسان الحاضرين اشكركم لانكم احترمتمونا وتنازلتم عن دمكم وقبلتم عنه الدية ولذلك اسألكم عما تسمحون به من الاموال التي طلبتوها اكراماً لله ، فيعلن متقدم عائلة المقتول انني اتنازل عن هكذا مقدار من النوع الفلاني من الاموال التي طلبتها اكراماً لوجه الله ، ثم يخاطبه رئيس الجلوس وماذا تسمح لرسول

الله فيجيبه أيضاً بالتنازل عن مقدار معين ، ثم يخاطبه ايضاً وماذا تسمح لخاطري ، وهكذا يتكلم كل واحد من المشايخ الحاضرين ويطلب السماح عن شيء من الاموال المطلوبة اكراماً لخاطره فيسمح هذا لكل واحد من المشايخ بمقدار من الاموال المطلوبة . وعند ختام ذلك يعلنون انه قد تم الصلح ، فيطلب القاتل كفالة احد الزعماء لتنفيذ احكام الصلح بعدم المعارضة لهم فيما بعد . ويسمونه (كفيل الدفا) واقارب المقتول يطلبون من اولئك كفيلاً لتأدية بدل الصلح ويسمونه (كفيل الوفا) وبالحال يقوم الشخص المتقدم من اقارب القاتل ويرفع راية بيضاء ويعلن بها شكره لاهل الدم ويقدم هذه الراية ويسلمها لكفيل الدفا وبعد ان يستلمها هذا ويعلن حمايته لجميع عائلة القاتل يسلمها لكفيل الوفا الذي يعلن استعداده لتأدية جميع ماتم عليه الصلح . وحينئذ يأمر شيخ المجلس بتقديم القهوة التي تكون اعدت من قبل اقارب القاتل ، ولما يتناول كل شيخ فنجانه يطلبون من اقارب المقتول ان يسمحوا بمقدار من الدية اكراماً للقهوة فيسمحوا لهم بما يشأونه . وعقيب شرب القهوة يأتي اقارب القاتل بالثياب الجديدة التي احضروها ويلبسوها اقارب المقتول ويباشرون الذبايح وطبخ الطعام وتقديمه لجميع الحاضرين . وبعد ان ينتهوا من الطعام ويهموا بالانصراف تقف متقدمة النساء وتسأل من اقارب المقتول وبماذا تصرفونا وما الذي تتنازلون عنه من الاموال المطلوبة اكراماً لنا فيتنازل ذوو المقتول عن جانب من الدية اكراماً لخاطر النساء . ثم عند قلع بيت الشعر يتكلم احد الحضور مخاطباً أحد أقارب المقتول وبماذا تودعون هذا البيت وصاحبه صاحب البخت وحسن الحظ فيجيبونه بالتنازل عن مقدار معلوم ، ويكون الباقي هو صافي الحساب للدية ، ويعلنوا ان مابقي من الاموال المطلوبة هو الواجب التأدية بكفالة كفيل الوفا كما يعلنون انه لايجوز التنازل او السماح عن الطلبة والغرة من الدية . ثم ينصرف الجموع شاكرين كرم اقارب المقتول برفع الراية البيضاء التي يحكزونها في كل عشيرة

يمرون بها برجوعهم .

تقسيم دفع الدية واستيفاؤها :

ان الدية تترتب على جميع انواع عشيرة القاتل بالنسبة لعدد الذكور الذين كانوا احياء بعد وقوع القتل . واذا كان سبق انفصال اداري بين العشيرة فالدية تدفع من قبل اقارب القاتل حتى الدرجة الخامسة من القرابة . وكيفية دفع الدية وتوزيعها يتم على الوجه التالي : يدفع القاتل مستقلاً الطلبة والغرة وثلث الدية ويدفع باقي افراد العائلة من الذكور الاحياء والذين وجدوا عقب تاريخ القتل حتى تاريخ عقد الصلح بما فيهم شخص القاتل الثلثين الباقيين من الدية وتوزع عليهم بالتساوي . وعلى اساس هذه القاعدة يقسم اقارب المقتول الدية بينهم اي ان ورثة المقتول يأخذون الطلبة والغرة وثلث الدية باجمعه ويختصون به انفسهم وثلثي الدية الباقية يقسم على الذكور من الاقارب لحد الدرجة الخامسة بما فيهم ورثة المقتول ، وتعتبر الابنة التي تعطى غرة للمصالحة من المشئومات حيث لا يمكنها ترك زوجها الذي يكون من اقارب القتيل ولا بوجه من الوجوه ، ومهما جار عليها زوجها لا يمكن لاهلها الانتصار لها الا اذا ولدت اولاداً ذكوراً وبلغوا درجة الرجال فعندها يزود اولادها عنها .

جريمة المرأة :

ان جريمة المرأة تعود مسؤوليتها على ذويها بحسب درجة القرابة الخمسة ، ولا يسأل زوجها او اولادها عما اوقعته من الجرائم ولا يضمنون عنها اي بدل ، فلو قتلت الامرأة شخصاً عمداً او خطأ او جرحت او اتلفت مالاً لاحد الناس يدفع ذووها الدية او التضمينات التي

يتوجب دفعها ويكون موقف زوج المرأة واولادها كموقف احد الجيران ليس الا . والمرأة اذا قتلت تؤدى بدية ٤ ـ ٨ اشخاص بالنسبة الى وصف الجريمة ، فان كان مقتلها وقع تسهيلاً للتعرض لشرفها يحكم القاضي باقصى درجات الغرامة .

الجرح وتعطيل العضو :

اذا نشأ من الجرح تعطيل عضو او عاهة دائمية يتوجب على الجارح ان يرسل من يأخذ له عطوة اي هدنة من المجروح واهله لمدة مناسبة . واذا لم يرسل ويطلب عطوة يعد مستهيناً بالمجروح . وفي اثناء العطوة عليه ان يبادر الى استصحاب بعض الوجوه ويذهب الى منزل المجروح ويصالحه اما بعفو المجروح بدون عوض او بمقابل شيء من النقود او العروض يقدر بمعرفة هيئة المصالحة واتفاق الطرفين ، واذا رفض المجروح او تغالى في بدل المصالحة يستجير الجارح باحد الزعماء وهذا يرغم المجروح على المحاكمة او يبعث بهما رأساً الى القصاص ذي الاختصاص بتقدير التضمينات التي تجب على الجارح مراعياً قيمة المعالجة ومدة العطل عن العمل . واما اذا استهان الجارح بالمجروح ولم يرسل له من يأخذ منه عطوة ولم يسرع للمصالحة فالمجروح ان ينتقم لنفسه باي طريقة كانت ولايعد مسئولاً . ومن عوائد البدو اذا كان الجرح مشوهاً او معطلاً لعضو ان تؤخذ نصف الدية فما دون . وفي المحاكمة يحال المجروح الى القصاص الخبير فيقف المجروح على مقربة منه بحيث يتمكن القصاص من رؤية كافة اطراف الجرح بعد شفائه ومن ثم يبتدىء بالتباعد عن المجروح شيئاً فشيئاً الى ان يبلغ نقطة لايمكن منها ان يتبين التشويه الذي تركه الجرح في وجه المصاب ويتخذ من المسافة التي بينه وبين الجرح قاعدة لتقدير قيمة الجرح ، وذلك

بان يقيس هذه المسافة بالخطوات ويحكم بتقدير الغرامة والتضمينات بالنسبة لكل خطوة من البعد .

الرحالة :

اذا وقع شخص في ظلامة وخوف وايقن انه سوف يدرك اذا هرب ولايتمكن من النجاة يلتجيء الى احد المشايخ ويقول له (انا دخيلك) فيصبح بهذا ذلك الشيخ مكلفاً بحمايته ودفع الطالبين عنه ، ويسمى ذلك الشخص (دخيلاً) . فاذا تجاوز احد هؤلاء على اموال الدخيل ونفسه يحق لذلك الشيخ ان يستدعي المتجاوز الى المحاكمة وان يطلب منه تضمينات شخصية بنسبة مالحق دخيله من اضرار وتضمينات معنوية تناسب مع شرف الشيخ . وكثيراً مايقع احد البدو في جناية قتل او جرح ويركن الى الفرار من وجه ذوي المقتول او المجروح فيدخل الى اقرب بيت حتى ولو كان صاحب البيت من اقرباء القتيل فيكون صاحب البيت مجبوراً حمية وعادة على حماية هذا الملتجي ويحذر على المطاردين اللحوق بالجاني بعد ان يدخل ضمن البيت حتى ولو كان بيت ارملة فقيرة لاتعتز بشيء من القوة .

الصلح بين العشائر :

مهما بلغت درجة العداوة والخصومة بين عشيرتين لايكون الامل بالصلح بعيداً بل هو يحتمل المبادهة والشروع في كل وقت . فاذا ضغطت الحوادث الخارجية السياسية او الاقتصادية او حدثت مفاجأة اثرت في الفريقين المتنازعين او فرضت الحكومات والسلطات رغبتها واكرهت . . . في مثل هذه الحالات يعرض الصلح ثم يدرس ويبحث فيه ثم يقبل . وها نحن ذاكرون امثلة على ذلك : في شتاء ١٩٢٤

- ١٩٢٥ كاب البرد واشتد المحل بما لم يسبق له نظير ، وضاق ذرع البدو ورأت العشائر ضرورة قصوى لتجاوز مناطقها المعتادة خوف الجوع والتلف ، فاجتمع الرؤساء وقتئذ وتفاهموا وهيأوا لعشائرهم ميادين للنجعة دون ان يحدث بينها نزاع ما ، ثانياً : في سنة ١٩٢٤ شعرت عشائر عنزة بخطر عشائر نجد وقرب هجومها على بادية الشام فتصالح نوري الشعلان ومن ورائه عشائر (ضنا مسلم) كلها مع ابن هذال شيخ عمارات العراق وتأهبوا للقاء الخطر المداهم ، ثالثاً في حزيران سنة ١٩٣١ تصالح الخصمان اللدودان الموالي والحديديون في مؤتمر عقد في سلمية باكراه السلطات الفرنسية ومداخلتها وانتهى الحرب الذي كان مزمناً بينها على ماسنذكره في بحثها .

والمصالحات يعقد لها مجالس ومؤتمرات ، وهي اعمال طويلة جداً ومملة تؤدي الى مناقشات ومداورات لاتعد ولاتحصى ، وقد تنقطع هذه المجالس او المؤتمرات ثم تستأنف ، يعاد الحديث مراراً . ومن اراد الحصول على نتيجة صالحة في هذه المصالحات ينبغي ان يكون طويل البال الى ابعد مدى صابراً حازماً . لان طول البال والصبر والحزم صفات توءدى الى تعب الفريقين المتخاصمين وسئمها واضطرارها الى المسامحة والمصالحة . وعند شيوخ البدو القائمين باعمال المصالحة قدر وافر من هذه الصفات .

اما كيفية وقوع الصلح فهي انه حينما تنهك قوى احدى العشيرتين المتخاصمتين سواء أكان ذلك من خسائر في الانفس او الماشية او من الاضطراب الذي يعتريها من جراء ترك مناهلها ومراعيها المعتادة تتقدم بواسطة شيخها الى شخص ثالث من الشيوخ المحايدين ذوي الكلمة النافذة . فيفتح هذا ابواب المفاوضة سراً وبلباقة الى ان يوفق لعقد هدنة بين الفريقين تعرف عندهم بالعطوة ، وتبقى لمدة معلومة يمتنع

في خلالها تجاوز احد الفريقين على الآخر وذلك بكفالة ذلك الشيخ المحايد او امثاله ، ثم ينتخب كل فريق محكميه من الشيوخ البعيدين عن الفريقين وعن المعروفين بحكمتهم وحولهم وطولهم . على ان يقبل كل فريق محكمي الآخر بالتقابل وقد يحتاج الامر لانتخاب حكم مرجح . ثم ان مكان اجتماع لجنة التحكيم يجب تعيينه والاتفاق عليه . وهذا ايضاً يؤدي للنقاش . لانه وان كان ذلك من حق السلطات واللجنة نفسها ، الا ان اخذ موافقة ذوي العلاقة فيه امر مرغوب . وحينما تجتمع لجنة التحكيم في الوقت المعين يدرس اعضاؤها الاختلاقات وعواملها وتأثيرها ويبحثون عن البادىء بالتعدي ويستنطقون شيوخ العشيرتين المتخاصمتين على انفراد ، وهم يحاطون اذذاك بكل التأمينات الممكنة ، ثم ينظم المحكمون قائمة مفصلة بالخسائر الواقعة لدى كل عشيرة ويقدرون قيمها ويقررون . ومن النادر ان لاتقبل العشائر مقررات هذه اللجنة . وهم يعلمون نتيجة قرارهم للفريقين ويصغون بكل تؤدة الى الاعتراضات المقدمة من هذا وذاك ، وبعد ان يعيدوا المفاوضات والاستشارات ويقلبونها مراراً يتوصلون في الآخرة الى حل نهائي يرضى به الجميع . فاذا تم ذلك يطلبون شيوخ العشيرتين المتخاصمتين واعيانها ويجمعونهم في بيت الشعر الذي استقر فيه المحكمون ، وبعد تنزيل قسم من التضمينات المفروضة على النحو الذي ذكرناه في (بحث اصول الصلح عن دم او هتك عرض) يتم الصلح نهائياً ورسمياً . وحينئذ تتصافح الايدي وتتعانق الوجوه وتقبل اللحى ويتناول الجميع الطعام سوية . ولابد من ان يكون هذا الصلح حقيقياً ومادياً وموئداً بكفالات قوية ، والا لا يكون طويل المدى والنفوذ ، لاسيما اذا كان نتيجة الضغط والاكراه .

هذا وكلما كانت الخصومات قديمة طالت المفاوضات والمساومات ، ومثل ذلك كلما كانت اسباب الخصام اسماء الفاعلين غير معينة قليلاً ام كثيراً وكذا كلما كانت الاضرار والخسائر عند الفريقين فادحة . ومما يلحظ

أيضاً ان المصالحات التي تجري تحت ضغط الحادثات يمكن ان تنفسخ حينما تزول الحادثات التي اوجبت عقدها . وها نحن الآن نذكر الاسس التي يعقد عليها الصلح ، فهذه ذات شكلين : (١) التعويض المتقابل (٢) الحفر والدفن .

أ ـ فالمصالحة على اساس التعويض المتقابل لا يمكن ان تتم مالم يكن العداء حديثاً والاضرار التي اوقعها المتخاصمان طفيفة . واذا حدث عداء بين عشيرتين على اثر حادث ما كقتل او خطف فتاة او سرقة وما الى ذلك ، واذا كان هذا العداء اوقف في حينه بتوسط اشخاص آخرين او بحوادث فجائية ، يمكن ان يتم الصلح بسهولة . وكل عشيرة تحسب دية الرجال الذين قتلوا بما يعادل ٣٣٣٣٣ قرشاً ذهبياً للرجل المقتول ونصف هذا المبلغ للفرس اي ان كل فرسين برجل ، وتحصى الابل والغنم والحمير . . . الخ المسروقة حساباً دقيقاً ، ويقسم ممثلو الفريقين على صحة الارقام التي يدلون بها . فقوائم الحساب تعرض على المحكمين ، وهؤلاء يقومون بعملية الجمع والطرح ويسمون العشيرة المكلفة بدفع الفرق الزائد على قاعدة (هفا من وفى) . وفي الغالب تعاد الاغنام المسروقة عيناً لاسيما وان كلا من البدو يعرف وسم فرقته . فاذا اعيدت الاموال ودفعت ديات القتلى تجري حفلة الصلح الرسمي . هذا وكل مايقع من القتل والتلف خلال مدة (فورة الدم) وقدرها ثلاثة ايام وثلث اليوم لايدخل في حساب الصلح ، بل يدخل مايهدر ويتلف منذ اليوم الرابع .

٢ ـ اما (الحفر والدفن) فمعناه السماح العام او يسمونه (حفار ودفان عن كل ماغبي وبان) ومعناه تناسي كل ما وقع بين الفريقين المتخاصمين ودفن المطالبات والسماح بها . وهذا النوع من الصلح يقبل في الغالب حينما تكون الضغائن قديمة العهد والمخاصمات امتدت زماناً طويلاً واصبح الصلح على اساس التعويض المتقابل غير ممكن الاجراء

. واذا كان ميزان القتلى مائلاً كل الميل الى جانب واحد ، واهمية المنهوبات و كمياتها التي نهبها هذا الفريق او ذاك بلغت حداً لا يمكن تعويضه او حسابه . وعلى كل حال تربط شروط الصلح بكفالة ، اذ يقدم كل من الفريقين كفيلاً من زعماء العشائر الاخرى يضمن تنفيذ شروط الصلح بحق عشيرته ، وبعد ذلك يتبادلون الزيارات والمعاملات دون خشية بعضهم بعضاً . والبدو الرحل ليس من عاداتهم ان ينظموا وثائق خطية بل يكتفون بشهادة الشهود الشفهية . أما البدو نصف الرحل والحضر فهم بالعكس يطالبون بوثيقة تبقى حجة لمدعياتهم فيما اذا اخل احد بشروط الاتفاق والصلح . وطريقة انشاء هذا العقد او الوثيقة تفتح مجالاً لمباحثات عديدة ، واحياناً توجب كلمة اوجملة واحدة الرجوع الى المناقشة والمماحكة في الموضوع من اوله .

السرقة :

السرقة سواء سميت سرقة او غصب ليست عملاً خجلاً كما يتصوره الحضر ويتلقونه بل تعد من ضروب البطولة . والسارق الذي يقبض عليه ويده في الجيب ويعرف عقيب وقوع الجرم ليس عليه الا ان يؤدي ما سرقه ويعوضه على صاحبه كما سوف نذكره ، وبعد تأدية ذلك يظل شرف السارق سالماً من كل تعرض . وفي السرقة يسترد المتضرر ماله بادي بدء بطريقة الوسمة التي تقدم ذكرها ، وعند الحاكم يحكم على السارق اذا كان قد سرق من الاقارب او من النزيل باعادة المسروق وتعويض ما يترتب على هذه السرقة باربعة اضعافها اذا كانت من الحيوانات اي على عدد قوائمها . واذا سرق شخص حيوانات واموالاً تعود الى شخص من عشيرة اخرى صديقة او حليفة لايكون التعويض الا بالمثل الواحد (بعير لقاء بعير) ، ويأخذ الوسيط في هذه الحالة لقاء اتعابه رأساً واحداً

عن كل خمسة رؤوس. ولا حاجة للقول ان السرقة التي تقع ضد عشيرة عدوة لاتتحمل اي تعويض . ومن عادتهم اذا سرقت ناقة او فرس او نعجة اي كل انثى عشار وردت الى صاحبها الاصلي بعناية شخص ثالث يكون لهذا الشخص حق الحصول على الحوار الرالمهر او الطي المولود .

التجاوز على رفيق الطريق :

من الحقوق التي يجب على ابناء العشيرة رعايتها حماية رفيق الطريق الذي لا ينتمي الى تلك العشيرة من كل اذى يصيبه من افراد تلك العشيرة اثناء وجوده بصحبة رفيقه والى ان يبلغ المحل الذي يكون اميناً فيه على نفسه وماله ، فاذا ما تجاوز احد افراد تلك العشيرة على ذلك الغريب كان لرفيقه حق الدفاع عنه بجميع الوسائل والحق بان يستدعي المتجاوز للمحاكمة ، وللقاضي ان يحكم عليه بتضمينات الغرامة الشخصية وبتضمينات رفيقه المعنوية .

تقاطع الوجه :

من القواعد عند عقد الصلح بين الفريقين المتخاصمين ان ربط شروط المصالحة بكفالة احد المشايخ البارزين لكل من الفريقين لقوم هذا الشيخ بتنفيذ شروط الصلح المتوجبة على ذلك الفريق . فاذا كان المصالح عليه اموالاً منقولة او غير منقولة فعلى الكفيل ان يطلب من المكفول تأدية بدل الكفالة فاذا تقاعس وجب على الكفيل دفع هذا البدل او ما يماثله بشرط ان يعلن ذلك المكفول ويشهد شهوداً . ويحق للكفيل ان يطالب المكفول بان يعيد له اربعة امثال ذلك المال الذي دفعه عن بدل الكفالة . واذا كانت المصالحة على اساس جزائي فتكون الكفالة عبارة عن تأمين الطرفين المتعاديين من اعتداء احدهم على الآخر . مثال ذلك

لو قتل احد الفاين شخصاً آخر وجرت المصالحة على الاصول فلا بد من ربطها بكفالة شخصين احدهما (كفيل دفا) والآخر (كفيل وفا) ، فاولياء القتيل يختارون شخصاً ويطلبون كفالته لتأمين استيفائهم الدية ، والقاتل يختار كفيلاً يحميه من تعدي اقارب المقتول . ولكل منهما اجرة ، فكفيل الوفا له ان يستوفي واحد من تسعة من مجموع بدل ما كفل عند التحصيل ، واما كفيل الدفا فله ان يأخذ من الشخص الذي كفل حمايته جذعاً من الابل او ما يعادل ثمنه من الدراهم . (والجذع البعير عند اول تحميله) .

فاذا أخل اقارب المقتول او المجروح بالكفالة وتعدوا على القاتل او الجارح او على احد اقاربه ولو باطالة اللسان او بما يستشم منه رائحة التهديد يعتبر ذلك تقطيعاً لوجه الكفيل . وعندئذ يحق لهذا ان يستدعيهم للمحاكمة ، والقاضي يحكم عليهم بتضمينات شخصية للمتجاوز عليه وبتضمينات معنوية للكفيل . كما انه عند عقد هدنة (عطوة) بين فريقين متحاربين او متخاصمين فعلى وسطاء الهدنة ان يربطوها بكفالة كفلاء يختارهم الوسطاء ويرضى بهم الفريقان ، وبعدئذ اذا اخل احدهم بشروط الهدنة يعتبر انه قطع وجه الكفيل واصبح عرضة للحكم بالتضمينات الباهظة .

التجاوز على الضيف :

ان الضيف يبقى بحماية المعزب (المضيف) الى ان ينقض الملح ويراد بقولهم ينقض الملح الى ان يأكل طعام ضيف آخر ، وكل تعد يقع على الضيف اثناء ضيافته او بعد ذهابه والى ان ينقض الملح يكون المضيف ملزماً بتلافيه اما بضمان الضرر من نفسه او بتحصيله من المعتدي عن طريق الطلب الى المحاكمة . هذا وان وجود شخص في

بيب احد الاعراب يجعله في حماية صاحب البيت ولو كان مرتكباً لاكبر الجنايات ، وتكون حماية الضيف اوجب اذا تمكن من ان يذوق قليلاً من طعام المضيف . وهذا ما يهيب بالكثير من الاعداء للدخول الى بيت احد افراد عشيرة معادية بقصد الاجرام حتى اذا انتبه اليه رجال تلك العشيرة وقبضوا عليه وايقن ان ليس امامه الا الموت بذل كل ما في براعته وجهده ليرمي بنفسه الى الخدر حيث النساء وسارع بالتقاط ما تبلغه يده من طعام والتهمه وحينئذ يصبح في نجوة من الموت ، ويجب على صاحب الطعام الذي ذاقه ذلك المقبوض عليه ان يبذل اقصى جهده لانقاذه وايصاله الى اقرب مكان يأمن فيه على حياته ، واذا كان صاحب الطعام غائباً فعلى مطاردي ذلك الشخص ان يكفوا عن مطاردته وان يفسحوا له المجال ليفلت سالماً ، والا حق لصاحب الطعام ان يسوق من تجاوز على ذلك الذي ذاق من طعامه الى المحاكمة وان يطالبه بتضمينات مادية ومعنوية باهظة .

حقوق الطنيب :

الطنيب هو الشخص الذي ينزح من بلاد نائية تقضي عليه الظروف بان ينزل في عشيرة ليس لها ارتباط ما مع عشيرته ، فينصب الطنيب بيته وراء بيت شيخ العشيرة فيكون هو وعياله وعرضه بحماية تلك العشيرة التي ينزلها فاذا وقع عليه او على ماله او عرضه تعدي من احدى العشائر التي بينها ارتباط فلشيخ العشيرة التي هو طنيبها ولكل فرد من افرادها ان يطلب المتجاوز الى المحاكمة بالطرق التي سبق بيانها . واذا تمرد المعتدي عن الحضور يلجأ المدعي الى طريقة الوساقة لاخضاع المعتدي للرضوخ للمحاكمة . وكثيراً ما سبب التجاوز على الطنيب اعلان الحرب بين العشائر فالتهمت نارها الاخضر واليابس . ويعتبر التجاوز على الطنيب من اكبر الجرائم

الجنائية في عرف البداوة ، ومحاكمة هكذا جريمة تجري امام احد قضاة المنامي ويحكم بغرامة وتضمينات باهظة للطنيب ولشيخ العشيرة ، وقد تتناهز هذه التضمينات دية المقتول . ولا يؤاخذ الطنيب على ي خلل ارتكبه او جرم اقترفه في اثناء نزوله طنيباً ، ولا ينادى للمحاكمة بل يقوم مقامه شيخ العشيرة التي يكون طنيباً عليها ويدفع ما يلحقه من تضمينات ، وجملة القول ان للطنيب عند البدو مكانة كبيرة جداً يحوطونه بمنتهى الشهامة والمروءة .

التجاوز على الناصي :

الناصي هو الشخص الذي يقدم من ديار بعيدة قاصداً احد المشايخ او الزعماء لامر يرتجيه منه او يؤمل فيه ويشترط لاعتباره ناصياً ان يعلن حين عزمه على السفر بانه يقصد العشيرة الفلانية او البلدة الفلانية او الشيخ او الزعيم الفلاني فيصبح بذلك من ذلك التاريخ بحماية الشيخ المنصي . واذا حصل له ادنى تعدي في اثناء قدومه من احد افراد العشائر ذات الارتباط مع العشيرة التي ينتسب اليها الشيخ المنصي كان مكلفاً بتلافي اضرار ناصيه وله ان يطلب المعتدي الى المحاكمة ، ويتقاضاه الغرامة والتضمينات الادبية والمادية . والحكم بذلك يتوقف على ثبوت علم المعتدي بان ذلك القادم كان ناصياً للشيخ او الزعيم المدعي . وعند انتهاء المحاكمة يعود الناصي الى اهله شاكراً عناية المنصي ورافعاً له راية بيضاء لدى كل عشيرة يمر بها .

احكام الزنا الجبري :

اذا تعرض احد الناس لامرأة فافترسها نهاراً وغصباً بينما كانت سارة في الطريق وحدها او ذاهبة للاستقاء او الاحتطاب كما هي عادة نساء

البدو ورجعت تصرخ وتستثير حمية عشيرتها وكانت دلائل الغصب متوفرة عليها اصبح لعشيرتها ولاقاربها الحق بتخريب اموال الجاني خلال ثلاثة ايام وثلث اليوم وبقتله او قتل احد اقاربه حتى الجد الخامس انتقاماً لعرضهم . واذا وجد هناك ما يستدعي الصلح او مراجعة القضاء يحكم القاضي بدفع غرامة تكون غالباً اكثر قيمة من دية القتل . ويعتمد القاضي في مثل هذا الموضوع على تغريم الجاني بما يكون لونه ابيض من الاموال والحيوانات ، لان الجاني سود العرض . اما اذا كان التعدي قد وقع خارج منزل العشيرة وبعد المساء فلا يعتد بصراخ المرأة بل يحق لاوليائها ان يقتصوا منها باعتبارها زانية بالرضا وانها خرجت للقاء معشوقها وما كان صراخها الا ستراً لعيبها الذي يحتمل ان يكون قد اكتشفه بعض الناس . ويسمون المرأة من هذا القبيل (عاقبة السرح) اي التي تأخرت عن الرجوع لبيتها بعد رجوع الماشية ، وتطبق عليها احكام الزنا بالرضا . والسبب في ذلك انه يمتنع على النساء الخروج من المنزل بعد مجيء الماشية من المرعى ، وتغدو الامرأة التي خرجت قد اقدمت على ذلك بقصد الزنا . اما اذا وقع التعرض على امرأة نهاراً ولم يستطع الفاعل افتراسها لاسباب مانعة حالت دون اتمام فعلته فيحكم القاضي بغرامة تتناسب مع شرف الامرأة ومركز اسرتها .

الزنا بالرضا :

ان الزنا بالرضا يجعل الزاني غير مسؤول عن فعلته مالم يقتص اولياء المرأة من الزانية التي يتحتم عليهم بعد التحقق من زناها بالرضا ان يقتلوها جهاراً ، والا ظلت وصمة عار لا يمحى للعشيرة ، يعيرهم به جميع الناس بقولهم لكل واحد من عشيرتها (انت الخابر وانت الصابر) اي انك خبرت عيب من انت من اوليائها وصبرك عليها دليل رضاك على فعلتها ،

ولذلك لايسعهم الا قتلها . وقد يقتلون البريئة لشدة الحماسة التي لاتجعل لديهم مجالاً للتحقق عن صحة جرمها من عدمه . وعلى ذوي الزانية ان يقتلوها وان ينذروا عشيرة الزاني بها ليقتلوا صاحبهم بايديهم او يعلنو للملأ انهم خلعوه عن عشيرتهم وغير مسؤولين عنه فلا يطالبون به . وعندئذ تتولى عشيرة المرأة الانتقام من الزاني بنفسها . اما اذا لم تخلع الزاني عشيرته فالمعنى انها تؤيده ويصبح عندئذ الحق لعشيرة الامرأة ان تطارد كل واحد من افراد عشيرة الزاني الى الجد الخامس ، وخلا ذلك يحكم لهم القاضي بغرامة قدرها دية اربعة رجال . فاذا انتقموا وقتلوا شخصاً من اقارب الزاني يكون لهم الحق باستيفاء ثلاثة مقادير الدية المقدرة للرجال فضلاً عن الشخص الذي قتلوه ، وذلك جزاءً لعشيرة الزاني التي لم تخلعه وتتنصل منه

خطف النساء والبنات

هذا امر كثير الوقوع بين البدو والبلاد العربية التي لاتزال متأثرة بعوائدهم كحوران وشرقي الاردن . واكثر الخطف يكون برضاء الطرفين وكثيراً مايخطفون ذات الزوج وام البنين . والخطف اما جبري او بالرضاء ، وقد ذكرناهما بالتفصيل في (الصحيفة ٢٤٢ — ٢٤٦) .

جرائم الجنح في عرف البدو

١ . = الجرح الذي لم ينشأ عنه تعطيل عضو ٢ . = اطلاق الرصاص ولو لم يصب جرحا ٣ . = الضرب العادي سواء أكان بعصا ام بحجر او باليد او بمادة اخرى لم تسبب جرحا ٤ . — نتف شعر الذقن او الشارب ٥ . = الطعن بالعرض ٦ . = القدح بنسبة احدى النقائص المخجلة عادة

بين البدو الى المقدوح فيه . ٧ ـ الشتم بانواعه او شتم الوالدين . ٨ ـ العداية . ٩ ـ التعدي على شخص آخر يكون حاضراً في بيت آخر . ١٠ ـ قتل الحيوان . واليك شرح هذه المواد :

١ ـ الجرح الذي ينشأ عنه تعطيل او عاهة دائمة . ـ يتوجب على الجارح ان يرسل من يأخذ له عطوة او هدنة من المجروح واهله لمدة مناسبة ، واذا لم يرسل ويطلب عطوة يعد مستهيناً بالمجروح . وفي اثناء مدة العطوة عليه ان يبادر لاستحصاب بعض الوجوه ويذهب الى منزل المجروح ويصالحه اما بعفو المجروح بدون عوض او بمقابل شيء من النقود او العروض يقدر بمعرفة هيأة المصالحة واتفاق الطرفين . واذا رفض المجروح او تعالى في بدل المصالحة يستجير الجارح باحد الزعماء وهذا يرغم المجروح على المحاكمة او يبعث بهما رأساً الى القصاص حيث يقدر التضمينات التي تجب على الجارح مراعياً بدوره قيمة المعالجة ومدة العطل عن العمل .

واما اذا استهان الجارح بالمجروح ولم يرسل له من يأخذ منه عطوة ولم يسرع للمصالحة فللمجروح ان ينتقم لنفسه منه ولو بطرق خارجة عن اصول العشائر ولا يكون بذلك مسؤولا .

٢ ـ اطلاق الرصاص ـ . ينظر القاضي غالباً الى اطلاق الرصاص نظره الى جريمة كبرى ويعتبر الجرم من نوع الجناية ويحكم على مطلق الرصاص بتضمينات كبيرة تناهز احياناً نصف الدية . واذا ثبت ان اطلاق الرصاص لم يكن بقصد القتل بل كان بقصد الاخافة فيعتبر القاضي ذلك من قبيل الاهانة ويحكم على الفاعل بتضمينات تتناسب مع مركز المتجاوز عليه ويجبر الفاعل على الذهاب الى بيت المعتدى عليه وتقديم الاعتذار له .

٣ ـ الضرب العادي ـ . يفصل فيه غالباً بالمصالحة وبالاعتذار ، واذا

لم تنجح هذه الوسائل يقدر القاضي للمضروب تضمينات بسيطة جداً .

٤ — نتف شعر الذقن — . ان نتف شعر الذقن او الشارب من اهم المسائل عند البدو ، اذ انه يسع المتشاجرين ان يستعملوا انواع الضرب والملاكمة والمشادة على ان لا يمد احدهم يده الى ذقن الآخر ، واذا مد يده ونتف ولو قليلاً من ذقن خصمه او شاربه كان للمتضرر ان يطلب الفاعل الى المحاكمة وكان للقاضي ان يحكم له بتضمينات باهظة تقدر بنسبة عدد الشعر المنتوف . ومن المتعارف عليه بين العشائر ان قيمة كل شعرة منتوفة من الذقن خمسماية قرش وكل شعرة منتوفة من الشارب الف قرش . وذلك لان للذقن والشارب حرمة ممتازة . ومن عوائدهم ان يحلف الواحد بذقنه او بشاربه .

٥ — الطعن بالعرض — . الطعن بالعرض كقول احدهم انت الخابر انت الصابر (١) او كقوله لخصمه انت ابن العائبة او اخ العائبة او امثال ذلك من العبارات التي تشين سمعة العرض من غير ان يذكر الطاعن مادة يعينها من الجرائم التي المتجاوز عليه معها ان يدعي المتجاوز الى المحاكمة وان يحكم عليه بتضمينات كبيرة وان يجبره على تقديم الاعتذار علناً (٢) وكثيراً ما تجر هكذا حقارة الى عدة جرائم ان لم يتمكن القضاء من تنفيذ احكامه .

٦ — نسبة احدى النقائص — . اذا وصم احد الناس الاخر بعيب علناً وبمواجهته كما لو قال لاخر انت شرود اي انت هربت من وجه خصمك في ميدان القتال او قال له انت سارق وسادنك اي سرقت مضيفك او انت بائق اي غدرت بمن يأتمن جانبك او قذف بحقه بهكذا عبارات تثلم الشرف كان للمعتدى عليه ان يطلب المعتدي للمحاكمة

(١) راجع فصل الزنا بالرضا (٢) يرفع راية بيضاء

حيث يطلب القاضي من المعتدي ان يثبت ما نسبه للمدعي من الطعون فاذا اثبت ذلك تخلص من المسؤولية ، واذا عجز عن اثباتها حكم عليه بتضمينات باهظة مع اكراهه على الاعتذار العاني للمقذوف بحقه برفع راية بيضاء بين الجمهور .

٧ — الشتم العادي — . ليس للشتم العادي اهمية اذا لم ينشأ عن ذلك شجار يؤدي الى الضرب او الجرح واذا بقي الامر مقصوراً على الشتم او التحقير البسيط ينتهي عادة بالصلح والاعتذار .

٨ — العداية — العداية مشتقة من عدا يعدو عدوا اي وثب لاخذ شيء ما ، فكلمة عداية المصطلح عليها بين البدو تعني خطف شاة من غنم الآخر علناً وذبحها . غير ان لها شروطاً تبرر عمل الفاعل وتجعله غير مسؤل ادبياً ، وذلك اذا ضاف العادي اناس لا مندوحة له من اكرامهم يذبح رأس من الغنم ، اذ من المعروف بين العشائر بانه لا يكفى لاكرام الضيف تقديم ما يكفيه من الطعام بل لا بد من ذبح عدد من رؤوس الغنم بنسبة مكانة الضيف وكرامته وكثيراً ما يذبحون له جزوراً [١] وعليه عندما يكون احدهم في موقف اضطراري كهذا لابد له فيه من اكرام ضيفه وليس في وسعه ان يأتي بذبيحة من مواشيه لبعدها عنه او كان ضيق الوقت غير مساعد على مشترى الذبيحة من اناس آخرين وكان لغيره اغنام على مقربة منه كان له ان يأخذ منها رأساً او اكثر بقدر ما يكفي لقرى [٢] ضيفه شرط الا يستعمل الجبر والشدة مع الراعي لانه عندما يكون الراعي ممن يدركون هذه الواجبات يقدم ما يلزم من الذبائح عن طيبة خاطر للعادي الذي عليه ان يعيد الى صاحب الاغنام مثلها عند اول فرصة تسنح . واذا لم تتوفر هذه الشروط اي اذا اخذ العادي من غنم الغير دون ان يكن عنده ضيوف يستحقون

(١) جمل كبير وسمين او سبعة رؤوس غنم (٢) لوليمة ضيفه .

الذبيحة او كان عنده هكذا ضيوف الا ان اغنامه كانت قريبة منه ويمكنه ان يأتي منها بذبيحة وان يجهز الطعام ويقدمه الى الضيف باوانه او كان هناك اغنام لآخرين هي اقرب اليه من الاغنام التي اخذ منها حاجته كان لصاحب هذه الاغنام ان يطالبه للمحاكمة وللقاضي ان يحكم عليه بتضمينات قد تبلغ اربعة اضعاف ما اخذ .

٩ ـ التعدي على شخص وهو في محل آخر ـ اذا تجاوز احد الناس على آخر وهو في بيت شخص ثالث ولو كان وجوده فيه من قبيل الصدف وليس من قبيل الدخالة فضربه او جرحه او اهانه او سلب منه شيئاً كان لصاحب البيت ان يطلب محاكمة المعتدي وللقاضي ان يحكم عليه بتضمينات تتناسب مع كرامة صاحب المحل مع اجباره على ارضاء المعتدي عليه ارضاء يعلن معه شكره لصاحب المحل برفع راية بيضاء بين الجمهور .

١٠ ـ قتل الحيوان ـ . اذا قتل شخص حيوان آخر عمداً وبدون ضرورة ملجئة لا يمكن دفعها الا بقتل ذلك الحيوان فيضمن قاتله اربعة امثال قيمته . واذا كان المقتول كلباً يحرس الغنم او البيت فيكون الضمان اكثر من ضمان قيمة احدى الحيوانات الباقية ويعود تقدير ذلك لحكمة القاضي ، وقد سبق ان حكم احد القضاة بتضمينات عن كلب مقتول بشكل غريب جداً وهو ان يربط الكلب من ذنبه ويدلى من نافذة حتى يصل الارض ويكلف قاتله بان يأتي بحنطة ويهيلها عليه من تلك النافذة حتى يغيب الكلب بتمامه عن الانظار . وهذه الحبوب تعطى لصاحبه ضماناً عنه ولذا كان هذا العقاب الشديد خير رادع للكف عن التعدي على الكلاب .

* * *

قطع الجيرة :

من الجنايات التي فاتنا الحاقها بالصحيفة ٣٢٨ (قطع الجيرة) والجيرة لغة الحماية يقال اجار فلان فلاناً اي حماه وجعله في جواره وقطع الجيرة في العرف البدوي هو التجاوز على الجوار والاخلال بحقوق الحماية التي ضمنها احد الزعماء او الكبلاء لآخر احتمي به ، مثاله : اذا وقع اختلاف بين فريقين من الناس على مال منقول او غير منقول يحتمل معه المحذور ، ففي مثل هذه الحالة يحق لاحد الفريقين المتنازعين او لشخص اخر ان يضع المال او الشيء الذي هو موضوع الخلاف تحت حماية احد الزعماء او المتنفذين فيعلن قائلاً : (انني اجير هذا المال بالشيخ الفلاني) وهذا يعني انه يضعه تحت حماية هذا الشيخ وفي جواره الى ان يفصل في الامر قضائياً . ويترتب على الفريقين المتنازعين بمجرد اطلاعهما على اعلان الجيرة ان يرفعا ايديهما عن الشيء المنازع عليه وان يكفا عن معارضته ويعملا على المناهضة في الحجة والمقاضاة او المراضاة لحل الخلاف بينهما بموضوع المال او الشيء المجار . فاعلان الجيرة هو قريب الشبه بحجز احتياطي لصيانة المنازع عليه الى نتيجة المحاكمة ، ويمكننا ان نعتبره ايضاً عملاً ادارياً يراد منه الحيلولة دون وقوع ما يمكن وقوعه من المحاذير ما لو ظل المنازع عليه محلاً للتشادد بين الفريقين المتنازعين يتعاوره كل منهما بما تطوله يده من الاسباب والوسائل .

ان هذا النوع من الحجز يكون نافذ المفعول حتى ولو كان المجير (وهو الشخص الذي وضع الشيء المختلف عليه تحت حمايته) غائباً ، فاذا تجاوز احد الطرفين على الشيء المحجوز ووضع يده عليه او تصرف به باي وجه كان عد ذلك منه اساءة للمجير يعبرون عنها بقولهم : (ان فلاناً قطع جيرة فلان) ويصبح الطرف المتجاوز على الشيء المجار مجرماً بحق المجير جريمة جنائية يحق معها للمجير ان يستدعي المتجاوز

على ما هو في جواره للمقاضاة وان يعمد الى اسلوب البداة او الوساطة اللتين سبق تعريفها لاحضار خصمه لدى قاضٍ من قضاة المناهي ينتخب حسب الاصول التي جئنا على ذكرها ، فيحكم القاضي على المعتدي اي الذي تجاوز على جوار المعتدى عليه بغرامة وتضمينات باهظة تتناسب مع مركز الشيخ الذي انتهكت حمايته ، ويحكم فوق ذلك بالزام المعتدي بارضاء المعتدى عليه الى حد ان يعلن بين الناس بياضه ، وذلك بان يرفع راية بيضاء ينادي فيها بالشكر والامتنان لذلك الشيخ الذي اوصله حقه . وليس بخاف ما يكلفه مثل هذا التجاوز على الشيء المحمي من غرامة وتضمينات قد تعادل دية قتيل احياناً . كما ان استرضاء الطرف الآخر حتى يعلن البياض ربما يكلف ذلك الطرف التنازل عن حقوقه على الاقل ، ولذلك كانت الجيرة قاعدة محترمة ولها فوائد جمة للادارة والمحافظة على الامن .

الخوة (الجزية ، حق الاخاء) .

هو حق يتناوله الاقوى من الاضعف لقاء تحمله كلفة حمايته ، وهذا الحق تجبيه العشائر الكبيرة من الفرق الصغيرة او من سكان القرى والحواضر او من القوافل والقطعان والماشية . ففي (الحالة الاولى) تدفع الخوة في الغالب من الابل او الغنم او نتاج الارض ، ودفعها يكون لشيخ العشيرة الكبيرة لقاء تعهده صيانة اموال الفرقة الصغيرة واعراضها وارواح افرادها وحمايتهم من بقية العشائر . واذا حدث تعدي من هؤلاء يذهب ذلك الشيخ بنفسه او يرسل من ينوب عنه لمراجعة المتعدي واسترداد المنهوب منه . ويعرف من يقوم برد الاعتداء واسترداد المنهوب (بالحسيب) ، اما المفسدي (فبالكسيب) ، ويعرف المقدار الذي يتسلمه الشيخ من الفرقة او العشيرة المحتمية (بالخوة)

وهذه في الغالب سنوية وتدفع بانتظام . وفي حالة رفض الدفع يأخذها المطالب بالتهديد والقسر . وحينما تؤدي الخوة يبقى الخوي (الاخ) مكلفاً بحماية المحمي ، ويكفل كل الاهانات والغزوات والسرقات التي قد تصيبه ويتداخل للدفاع عنه كأخ حقيقي . وفي [الحالة الثانية] تدفع الخوة بعضها من الغلات وبعضها نقداً . وهذا النوع من الخوة على القرى ليس له في الغالب مدى سوى للدفاع عنها ضد النهب والسلب اللذين قد تأتيها العشيرة القابضة لهذا الحق دون ان تتضمن اي حماية اخرى ، وهذا ما كانت تدفعه قرى المناظر كتدمر والسخنة والقريتين وغيرها مما هو في وسط البادية الى ان ازالته قوى الحكومة فاتسع المجال لعمران هذه القرى واستغلال اراضيها .

ومن دواعي الاسف ان بعض القرى المتطرفة في شرقي بلاد الشام لا تزال تؤدي هذه الخوة لملاحظة ضعف الدرك وتراخيه احياناً او حدوث انقلابات فجائية يتضاءل فيها نفوذ الحكومة . ويبلغ هذا واحد عن كل مئة رأس ، وفي [الحالة الثالثة] تؤخذ الخوة من القوافل وتدعى [خفارة] كما قدمنا . وهذه زالت الآن بفضل انتشار السيارات واستتباب الامن في البوادي . وكان مقدارها في عهد المجيديات مجيديان عن كل بعير . وهذا ما كان يتقاضاه ابن هذال شيخ العمارات عن كل بعير ذاهب الى العراق لاكتيال التمر ، وما كان يتقاضاه الامير نوري الشعلان شيخ الاروله عن الاباعر القادمة الى الشام من العراق . وقطعان الغنم تدفع ايضاً خوة يختلف مبلغها حسب المساومة ، لكنها ما كانت تتجاوز البرغوث الكبير عن الرأس . وكان فيما مضى السياح الافرنج المجتازون مناطق بعض العشائر يدفعون الخوة ، ومقدارها كان ليرة ذهبية عن كل شخص ، وكان كبار التجار في عهد القوافل التي تجتاز الصحراء يدفعون لكل العشائر خوة سنوية تختلف مقاديرها حسب مكانة العشيرة وحسب القوافل العائدة لذلك

التاجر ، ومنهم الحاج محمد البسام المتوفي في سنة ١٣٥٣ ، فقد كان يدفع الخوة لجل عشائر الجزيرة العربية .

هذا والعشائر الصغيرة او الضعيفة تحتمي باكبر منها وتتبعه تبعية حماية (قوي يحمي ضعيفاً) لا تبعية قرابة او عصبية . الا ان هذه الحماية تخلق واجبات اقرها العرف يمكن تحديدها بان الغنم بالغرم . فالتابع يدفع للمتبوع (الخوة) ويساهم في الدفاع عن منطقة النفوذ فيما اذا هددت هذه باجتياح . وقد اصبحت هذه الصلة (الخوة) في عصرنا بغيضة الى كل مخوى لانها تعبر عن ضعفه وذله وهي سائرة الى الزوال ، لانها تتضاءل مع قوة الدولة وهيبتها طرداً وعكساً . والعشائر الصغيرة تكره ان تكون خاضعة لسلطتين في آن واحد ، سلطة الحكومة وسلطة المشيخة ، لذلك فهي تتبع القوي منهما .

النجدة .

من اكبر العار عند البدو ان يفر الرجل من القتال او يجبن عن نجدة رفيقه او يسرق مطمورة جاره او يغض على قذى امرأته او بنته ، فمن فعل هذه الجرائم او واحدة منها احتقر ورزل ورفضت البنات زواجه ، قالوا واذا دخل مجلساً ووزعت القهوة على الجلوس مد الساقي يده بالفنجان موهماً انه يقدم له القهوة حتى اذا مد يده لتناول الفنجان كبه الساقي في الارض استخفافاً به واحتقاراً لشأنه فينصرف الرجل من المجلس من غير ان يبنس ببنة شفة فاما ان يذهب ويغسل عاره بالدم ، واما ان يقوض بيته ويرحل الى بلاد لا يعرف احد فيها بجنايته ، والادلة على ذلك كثيرة .

* * *

المعارف عند البدو

ليس عند عامة البدو ولا خاصتهم شيء من (المعارف) يا للاسف، فالقراءة والكتابة مجهولتان في البادية الا نادر عند بعض ابناء الشيوخ . لكن البدو اذكياء يدركون امورا كثيرة بالسليقة ، واذا القيت عليهم مسئلة تعلموها وفهموها حالا . وبعض الشيوخ النبهاء الذين عرفوا فضل العلم على الجهل يستقدم من المدن معلمين لتعليم اولاده تعليماً وان لم يزد عن قراءة القرآن وكتابة رساله بسيطة ، لكنه نافع على كل حال ومن ختم من اولادهم القرآن الكريم فرح اهله وأدبوا له مأدبة واحتفلوا به كاحتفال الزفاف .

وقد شرعت الحكومات العربية في العراق والشام ففتحت مدارس اولية سيارة لدى بعض العشائر الكبيرة يتنقل المعلم معها في تجوالها ويعلم صغارها . لكن عدد هذه المدارس لا يزال اقل من الحاجة ، وكفاءة بعض معلميها لعيشة البادية ومخالطة اهلها لا تزال سبب التردد والتلكوء وشكوى (ادارات المعارف) من عسرة ايجاد المعلمين المستعدين لتعليم العشائر والاقامة بينهم ، ومن الموانع الواقفة في هذا المشروع تفرق بيوت العشيرة وراء المراعي وعسرة اجتماع عدد كاف من الاولاد لدى المعلم ، واذا اجتمعوا لا يداومون بانتظام ، وكثيراً ما يزيدون وينقصون بين يوم وآخر ، فلا يتأتى للمعلم ان يسير على وتيرة واحدة مع الكل ، وكثيراً ما يبقى بدون تلامذة ، او مختصاً بأبناء الشيخ فقط ، فيقعد في الربعة كخطيب او كاتب او ضيف بعد الايام وينتظر الراتب . واذا لم يسعفه الشيخ بنفوذه ويضغط على آباء التلامذة ويحضهم على ارسال اولادهم تضيع الفائدة من وجوده .

وعلى افتراض وجود المعلمين والتلامذة ومثابرتهم على الدوام

والاجتهاد يجب ان لا يقتصر التعليم على القراءة والكتابة فقط ، بل على مباديء العلوم الضرورية ايضاً كالحساب والديانة والتاريخ العربي والاسلامي والجغرافيا ودروس الاشياء والزراعة ... كل ذلك على ابسط وجوهه وبالطرق العملية الجذابة التي تقبلها أذهان ابناء البادية ، وهو ما يكفيهم وليسوا في حاجة الى اكثر من ذلك .

ولاجل هذا ارى ان يكون المعلمون المكلفون بتعليم ابناء العشائر من ابناء القرى ومن بيئة معتادة على حياة البادية وعشرة البدو ومن خريجي دور المعلمين الريفية وامثالها . وان يكون وقت التعليم في فصل الصيف ابتداءً من شهر حزيران اي حينما ترجع العشائر من نجعتها في البادية اي الى مقايظها داخل المعمورة او على مقربة من المعمورة . لانها تكون وقتئذ متكتلة الى حد يسمح باجتماع عدد كافي من ابنائها لدى المعلم ويسمح ايضاً بايجاد المعلمين الذين قد يفضلون خدمة الصيف قرب ديارهم على خدمة الشتاء في اقاصي البادية . ومدة تقيظ العشائر في المعمورة لا تقل عن ستة أشهر ، وهي كافية لتعليم اولادهم لو كان العمل متقناً من الجهتين والدوام مؤمناً .

وحبذا لو سلكت الحكومات العربية سبيل السلطان عبد الحميد العثماني فقد رأى بثاقب حنكته ان من جملة السبل لتحضير العشائر واصلاح حالها هو (العلم) فتتح في الاستانة مدرسة خاصة اسماها : « مدرسة العشائر » جمع فيها نخبة من ابناء شيوخهم ورؤسائهم فعلمهم وثقفهم حتى اذا أكملوها كان يدخل بعضهم في الكلية الحربية فيخرجون منها ضباطاً برتبة رئيس ويمنحهم لقب « مرافق فخري » لجلالته ، وبذلك كان يحبب اليهم التمدن والتنور وخدمة الدولة من جهة وخدمة انفسهم وعشيرتهم من جهة اخرى ، وكان يدخل بعضهم في « الكلية الملكية » فيخرجون موظفين اداريين وقوام مقام . وقد تثقف في تلك المدرسة العشائرية رجال كثيرون سمعنا بخبر بعضهم وادركنا آخرين فمنهم

تركي النجيرس ورمضان الشلاش والمرحوم عبد المحسن الهفل ، وهؤلاء الثلاثة من رؤساء عشيرة العقيدات الفراتية ، وعيسى الفحل من السبخة الابي شعبان ، والمرحوم برجس بن هديب شيخ الاسبعة الأعبدة ونواف الصالح شيخ الحديديين وفايز الغصين شيخ سلوط اللجا الشماليين ، وقد صار هذا بعد قاضياً ومحامياً . ومن جبل الدروز علي الاطرش ومحمد عز الدين الحلبي وغيرهم ممن ترأسوا عشائرهم بعدما كبروا ونفعوها كل النفع بدرايتهم وثقافتهم .

ومن هذا الرعيل المثقف نعد المرحوم طراد الملحم شيخ عشيرة الاحسنة ، فهو وان لم ينشأ من مدرسة العشائر ، لكن اباه الشيخ فندي الملحم كان علمه في احدى مدارس حمص الاهلية ، فشحذ بذلك ذكاءه الفطري وصار طراد من بعد خطيباً لسناً ومحامياً منطيقاً في مجلس النواب السوري كلما طرحت قضايا العشائر ومطالبها لبساط البحث . وعندنا ان احسن عمل تقوم به « الجمهورية السورية » فوق المدارس الاولية التي تقدم ذكرها هو فتح مدرسة في تدمر ، بحكم ان تدمر عاصمة الصحراء وقطب دائرة منتجعات العشائر وممر اكثرها في رحلتي الشتاء والصيف ، على ان تكون هذه المدرسة الخاصة داخلية مجانية مستوفية الشروط يتعلم فيها ابناء شيوخ العشائر وكبراءهم تنشيطاً لهم وجذباً لقلوبهم . لان هؤلاء الابناء الذين سيخلفون يوما ما آباءهم اذا تعلموا وتثقفوا او نالوا على الاقل (الشهادة الابتدائية) يرجى ان يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ودعاة التحضير والاستقرار والتهذيب لعشيرتهم .

واحسن عمل يقوم به شيوخ العشائر ورؤساءها الميسورون ان يبعثوا بابنائهم الى العواصم والحواضر ويضعونهم في المدارس الداخلية الراقية ويعنوا بتعليمهم وتثقيفهم كما فعل بعضهم من الذين عرفناهم كالمرحوم الشيخ عجيل الياور شيخ شمر العراق الذي علم ابنه وخليفته صفوق في جامعة بيروت الاميركية ، وخليل بك ابراهيم باشا رئيس عشيرة

الملية الذي علم ابنه محمد علي في مدارس حلب وانابه عنه في رئاسة العشيرة والحاج مصطفى شويطية شيخ عشيرة الابوليل الذي علم ابنه وخليفته نوري في تجهيز حلب .

وليت يكثر عدد المقتدين بهؤلاء والمدركين بان عصرنا الحالي هو عصر المعرفة والثقافة وان من لا المام له بمبادئ العلوم على الاقل ـ ناهيك باللغات والقوانين ـ ومن ليس له لسان يحسن الافصاح وجنان يجيد الدفاع عن مطالب عشيرته وحقوقها تجاه الحكومات والسلطات وقضاة الحاجات .. لا تسمع كلمته ولا تحفظ حرمته كما ينبغي مهما كرمت نبعته وكثرت شيعته وكبرت ثروته ، ورحم الله من قال :

العلم يرفع بيوتاً لاعماد لها والجهل يخفض بيوت العز والكرم

* * *

الدين عند البدو

قال الاستاذ عز الدين التنوخي في هذا الصدد : الانسان ابن البيئة والمربى ، والبدوي لخشونته وعنجهيته في اخلاقه شراسة وقسوة فهو لا يشعر بما يشعر به القروي المتحضر من عواطف الرحمة والحنان او ما تحمل به من محاسن الحضارة كاللين واللطف ورقة الطبع وخفة الظل الا قليلاً . ومما حفظته كتب الآداب لنا ان رجالاً من وفد تميم نادوا النبي (ص) باسمه من وراء الحجرات فقال الله تعالى « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون » فالبدو لخشونتهم وتوحش بواديهم جفاة الطباع قساة القلوب واشد الناس حاجة الى ما يشذب من اخلاقهم ويثقف من اميالهم وينبط ماء الحنان والشفقة من قلوبهم. والبدو لفقد الوازع بين ظهرانيهم وفقد انتشار العلم بين قبائلهم بحاجة كبيرة الى الدين البسيط الخالي من الخرافات وهم اشد الناس خضوعاً للدين اذا عرفوه وله في نفوسهم تأثير شديد جداً .

في القرون الاخيرة عم الجهل بالدين جزيرة العرب اللهم الا بعض جهاتها كعمان واليمن ، ولم يستفق العرب من سباتهم ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهالة الا بعد قيام محمد بن عبد الوهاب وآل السعود بثورتهم الدينية والسياسية القوميه . فترى اليوم ان عربان نجد والقصيم اقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شروراً وجهلاً بامور الدين فعربان شمر مثلاً يصلون واما الاروله فلا يعرفون اقامة الصلاة ومثلهم بنو صخر والسرحان واكثر عربان بادية الشام .

وقال المطران بولس سلمان يصف بدو شرقي الاردن : البدوي له دين ويعتقد بوحدانية الله عز وجل ويسلم برسالة نبي الاسلام فيقول دائماً في كل خطوة من خطواته (الله ومحمد رسول الله) . وأما باقي

الفرائض الدينية كالصلاة والزكاة والحج والصيام فلا يقر لها وزناً ولا اعتباراً . قال : وهم يأنسون الى المعتقدات الطبيعية ويكرمون الاحجار المقدسة والاشجار المورقة والمياه الرقيقة التي يعزون اليها شفاء الامراض ويقدمون اليها ذبائح شكر .. وقال : وكثير من أهل البادية لا يعتبرون ما هو مسطر من الصلوات بل يعرفون غيرها فيوردونها قائلين « يا رب فرشت عباتي اقبل صلاتي » .

وقال الاستاذ عباس العزاوي : العقيدة عند البدو قليلة الكلفة بسيطة واساسها قبول ما كان قريباً من أذهانهم واحق بالاخذ .. ومن حين دخلهم الاسلام زالت منهم عبادة الاصنام والاشخاص وحل التوحيد فلا يميلون الى الرسوم والاوضاع الزائدة . ومن المعلوم ان الاسلام اعلن عقائده بأوجز عبارة وهي ايمان وعمل صالح واستقامة . والبدوي لا يريد ان يعرف غير ذلك ولا يشغل ذهنه باكثر ، والبدو اقرب الى التوحيد الخالص وتراهم في نفرة من مراقد الصلحاء ، وغالبهم على مذهب السلف بسبب المجاورة لنجد او هم قريبون منها . وقال : ومن حاول اصلاح هؤلاء وجب عليه ان يلقنهم العقيدة من ناحية تفكيرهم دون ان يدخل فيها ما لا تقبله افهامهم ، بان تلخص له اساسات العقيدة بلا توغل في تفرعات زائدة وان لا يعرف باصحاب المذاهب الا انهم علماء معروفون لا اكثر ... وارى ان يكثر له من تدريس القرآن الكريم وان لا يعدل عنه وان يسترشد باحكامه ... وهم في الغالب مالكية او حنابلة ويجب ان يلقنوا العبادات على مذاهبهم بما لا تصح بدونها ، وان يلاحظ تقليل التكليفات قدر الامكان والدين يسر .. وارى من الضروري تدريسهم مجملا التاريخ الاسلامي وذكر الغزوات والملاحم الاسلامية بحيث يتجلى لهم النشاط وصفاء الاخلاق والتفاني في سبيل هذا المبدأ الجليل وان لا تنسى العلاقة وان يحل هذا التاريخ محل القصص الخرافية والحكايات التي لا يؤمل منها نفع تهذيبي .

قلت ، وبعض شيوخ العشائر العاقلين المتدينين يستقدم من المدن

رجالاً من منتسبي العلوم الشرعية ويجعله في العشيرة اماماً لاقامة الصلاة وتلاوة الاوراد والاذكار وربما كلفه تعليم الاولاد القرآن والقيام بعقود النكاح . ويدعون هؤلاء في براري الشامية خطباء جمع خطيب وفي براري الجزيرة ملالى جمع ملا وهي كلمة تركية بمعنى فقيه . ويكون لهؤلاء قدر واحترام في العشيرة وبيتهم منصوب قرب بيت الشيخ . واذا كانوا من ذوي الورع والعرفان نفعوا نفعاً جزيلاً في بث روح التقى والصلاح بين البدو

وحبذا لو يكثر عدد هؤلاء الخطباء والملالي في كل عشيرة وفي معية كل شيخ ، على شريطة ان يكونوا من ذوي المبادئ والمعلومات الدينية الصحيحة المؤدية لاشراب البدو اسس الدين وحب البر والتقوى واجتناب الاثم والعدوان وعلى ان لا يكونوا من المتزمتين او الحشويين لئلا يفسدوا ويضروا بدل النفع .

وليت (دوائر الافتاء) و (الجمعيات الدينية الاسلامية) في عواصمنا وحواضرنا تنتبه لهذا الامر وتهيئ خطباء ووعاظاً من خريجي المدارس الشرعية تدربهم وتضع لهم تعليمات وبرامج وتنشرهم بين العشائر ليعظوا ويرشدوا ويبثوا روح الفضيلة والعبادات الاسلامية الصحيحة .

ومن المؤلم ان يكون في اوربا وامريكا (جمعيات دينية) تجد شبيباً وشباناً من الرهبان والراهبات تقذف بهم الى اي مكان في الاقطار البعيدة عن الامان والعمران في مجاهل افريقية وصحاري آسية حتى بين البرابرة والمتوحشين ، فيذهب هؤلاء ويعيشوا في غاية من الضنك والحرمان وخطر الامراض والثورات وراء الدعاية لدينهم ومذهبهم ، بينما لا يكون عند المسلمين دوائر شرعية رسمية ولا جمعيات او طرق دينية تقوم بهذا العمل الضروري نزولاً عند امر الآية القائلة (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ولا فتيان من منتسبي العلوم الشرعية او العصرية يضحون بنعيم المدن ويقبلون على ارشاد ابناء قومهم ودينهم من العشائر . وقد تكون العشيرة التي يرافقونها غير مقصرة في تسهيل مقامهم وتوفير غذائهم . فهل من مجيب ؟

الشعر عند البدو

ان هذا البحث يضطرنا الى ان نأتي باديء ذي بدء ببضع كلمات عن الشعر البدوي الجاهلي ثم عن الشعر البدوي العصري ونقارن بينهما ما وسعنا الجهد والاحاطة ـ وان لم نكن من فرسان هذا الميدان ـ فنقول :

الشعر عند بدو الجاهلية :

للبدو في كل زمان ومكان عواطف كالتي لكل الناس . والعواطف كما هو معلوم هي مبعث (الشعر) ومصدر العلم والنظم ، تتكون حسب البيئة التي ينشأ فيها الانسان وتتشكل بشكل المعيشة التي يعتادها . والبدو في الجاهلية كان لهم شعر من ابدع الشعر خضع لناموس النشوء والارتقاء وما زال يتدرج حتى بلغ الى ما بلغه شعراء المعلقات السبع وامثالهم من نظم منسجم ونفس طويل ووحدة في القافية . ويقال ان هذا الشعر بدأ في وزنه بالرجز مناغمة لسير الابل ووقع اقدامها او نحو ذلك ثم تدرج بعد في اوزانه من البسيط الى المركب ، وهكذا .

وكان في الجاهلية لكل عشيرة شاعرها او شعراؤها هم من اكثرهم شعوراً واحدهم عاطفة واقدرهم على تصوير عواطفهم القومية واحاسيسهم الشخصية ، وكانوا كذلك من اعلم قومهم بما تتطلبه هذه المعيشة من معرفة بالانساب والاخبار وفضائل العشيرة ومثالبها ونحو ذلك . وفي كل ما يجول بنفسهم وما يحدث لهم ولعشيرتهم قالوا شعرهم مشتقاً من بيئتهم التي نشأوا فيها وتنوع شعرهم بتنوع العواطف التي تحسسوا بها .

وشعراء البدو في الجاهلية ما كانت تقع اعينهم الا على البراري والقفار الشاسعة والوحوش والغزلان السارحة وظواهر الجو العابسة وعوارض الارض اليابسة ، ناهيك الطعن والضرب والخيل والنوق والنساء . فاذا سار احدهم وحده وراح يطوي البيد الخالية خاطب مهرته او ناقته وناجاها بشعر موزون على وقع اقدامها فتجاوبه بهمهمتها وأنتها كانها واعية والهة وتنشط وتغذ السير .

واذ كانت باديتهم محدودة المناظر مطردة المشاهد قد كفوا مشاغل المدنية فاكثروا من وصف مطاياهم ، وهي (الابل) اذ هي صديقتهم في رحيلهم ومادتهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم فاكثروا القول فيها من كل نواحيها ، وكما وصفوا الابل وصفوا الخيل والطير والظباء وغيرها من حيوانهم ووصفوا الصحراء الجدباء والخضراء اي ان شعرهم كان صورة صادقة لحياتهم ومناظرهم وعواطفهم .

وامثلة هذا الشعر البدوي القديم كثيرة لا تحصى ، تجدها في كتب الآداب والدواوين يضيق مجال كتابنا عن اتيانها .

ثم ما اكثر ما كانت المرأة تعبث بعواطفهم لكثرة فراغهم واتصال حياتهم بحياة النساء يشاركنهم في الحل والترحال ، فاذا رحل احدهم فلا يعدم في الطريق (بيت شعر) يضيفه يرى فيه نساءه ويحدثهن ويحدثنه فتهيج عواطفه بالحب والذكرى كل هذا ونحوه ملأ حياته بالمرأة ، يشعر فيها اذا حل معها ويشعر فيها المسا لفراقها ويستفتح بذكرها قصيدته ولو لم تكن موضوعها ، وربما خطرت في ذهنه في احرج مواقف القتال او اذا هبت الريح من جانبها او ناحت حمامة بجانبه ، فكل شيء يذكره بها فيأتي من الشعر بقول لا تعمل فيه ولا كلفة يلائم امزجتهم وطباعهم ويناسب بيئتهم وسذاجتهم . وقد يكون لهم مع ذلك النكتة البارعة والكلمة الجميلة مما يصيب الطرب

والاعجاب ، وكل هذا من الوحي والالهام الذين تنزلها الفطرة القوية لا من نتاج العلم والتعلم .

قال الجاحظ في البيان والتبيان : وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هنالك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة . وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى وجز يوم الخصام او حين يفتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حراب فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه قصد فتأتيه المعاني ارسالاً وتنثال عليه الالفاظ انثالاً » اه .

والشاعر الجاهلي كان اكثر ما ينظم الشعر لحاجة في نفسه من حماس او غرام او افتخار وما اشبه ، تهيج فيه قوة التصوير فينشد ويتغنى بشعره فيحفظه بعض الاعراب عرضاً او عمداً فيسير من حي الى حي ومن ماء الى ماء حتى اذا ما اشتهر اسمه انت وفود العشائر تهنيء عشيرته وتطرب معها وتفرح . وكان الشاعر الجاهلي دليل قومه والمدافع عنهم يفتخر بنفسه وقومه احياناً فيقول :

انا نعف فلا نريب حليفنا ونكف شح نفوسنا في المطمع
ونقي - بآمن مالنا - اجسامنا ونجر في الهيجا الرماح وندعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهة تردي النفوس وغنمها للاشجع
ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا زمناً ويظعن غيرنا للامرع

وقد يجعل الشاعر من المعايب محاسن كما فعل الحطيئة ببني أنف الناقة حينما قال :

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

ولم يفت ساسة العرب الانتفاع من هذا المولود العجيب . فكانوا يدفعون به بين العشائر لتهيئة افكار الجمهور لانقلاب مفاجيء او لاعداد صلح او لاشهار حرب او لنشر مأثرة . فكان الشاعر كثير النفوذ

شديد التأثير حتى شبهه بعض الباحثين المتاخرين بقوله « هو صحافي تلك الايام » ولكن صحافي تلك الايام لم يكن ليتزلف فيخدم رأياً لا يراه ومبدأ لا يسلم به ، ولم يكن ليناً الا بالعاطفة والرغبة .

الشعر عند بدو زماننا :

اما بدو زماننا فهم يشبهون اسلافهم الجاهليين بقرض الشعر وحفظه وسماعه . ولهم في صفاء جوهم وخلو بالهم اكبر عون على ذلك . ولا يزال ينظم بينهم شعراء يقولون (القصيد) الذي هو من صنف الشعر الغنائي ويتفننون به ، فيتغزلون ويفخرون ويتحمسون ويشببون ويمدحون ويهجون ويرثون . وهم يستخدمون التشابيه والمناظر كما كان يراها اسلافهم في البادية ، ويستعملون المعاني والاستعارات التي كان الجاهليون يأتون بها في عصرهم ، لكنهم لا ينطقون مثلهم ولا يبلغون شأوهم يا للاسف في امتلاك ناصية اللغة الفصحى واجادة التصوير وسمو المعاني وبلاغة الالفاظ والمباني .

فالشعر عند بدو زماننا ليس فيه على الجملة مزايا ما سلف ولا وضاحة ما مضى وانصرف ، لانه يقال بلهجة مشوهة بالحوشي والغريب من الكلام طافحة باللحن محرومة من الاعراب بعيدة بعداً كبيراً عن الصورة الناصعة ورقة اللفظ وحلاوة الجرس التي للشعر البدوي القديم كما تشهد على ذلك المنتخبات التي سردناها في خاتمة هذا البحث . واكثر شعراء الماضي كانوا من علية القوم والبارزين ، فهم كانوا لا يقولون الشعر للتكسب بل لحاجة في انفسهم او لدافع فطري او لمنظر حماسي او غرامي ، بينما اكثر شعراء البدو في زماننا اناس مرتزقة فقراء في الغالب يتجولون بين الاحياء ويتكسبون من شعرهم . وجل هؤلاء من عشيرة الصليب ، وهم مقبولون اكثر لغلبة البداوة الصرحاء

على أخيلتهم وألسنتهم فتجدهم عند البدو الاقحاح من شمر وعنزة . وبعضهم من طائفة النور ، وتجد هؤلاء عند البدو المتحضرين (اعراب الديرة) . ولكل عشيرة الآن شاعر خاص يتبعها في حلها وترحالها يمدح الشيوخ والرؤساء ويثني على كرمهم وجودهم ويصف الغزوات وافعال الابطال الكماة ويشهر قدرهم ويعلي ذكرهم .

على ان الاستاذ الشاعر خير الدين الزركلي الذي خبر شعر البادية في الحجاز يعذر بدو زماننا في مارجونا ان لا يكون . فقد قال في كتابه (ما رأيت وما سمعت) تحت عنوان (ادب البداة) ما يلي :

ليس من الخطأ في شيء ان يقول قائل ان عرب الجاهلية وصدر الاسلام وما بعد هذين العصرين الذين اينعت فيهما ثمار الادب والشعر واتت قرائح ابنائهما بالمعجب والمطرب لم يبرحوا يراهم من يرى عرب هذا الجيل في الكثير من عاداتهم اواخلاقهم وآدابهم الا ما فقدوه وهو الخسارة الكبرى اعني (الاعراب) في لغتهم والاحتفاظ بفصيح البيان في منثورهم ومنظومهم ، فهذا لا مجال للمقابلة بينه وبين العهدين .

اما الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنه اللسان فانه لم يزل مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالابداع فيه عن الحواضر دع ما بين سكان المدن وسكان الخيام من الفرق في قدرة الاول على الاختراع وقوة الثاني في الرصف والصنعة . يقف الشاعر البدوي اليوم فيسامر الآثار ويصف السحاب وينعت الجبال او يحن الى حبيب او يبكي لفراقه او يرثي كريماً او يمدح عظيما فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوي الذي كان يقصد عكاظاً قبل اربعة عشر قرناً حاملاً في صدره ما قال من وصف او حنين او رثاء او مديح .

وبالجملة فان الشاعرية الفطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم . ولا ارى ما قد يراه سواي من انتقاص هؤلاء او بخسهم ادبهم لشيوع العامية فيهم او لاعتمادهم عليها في شعرهم ، فما كان الشاعر

الجاهلي لينطق بغير اللغة الشائعة المتداولة في ايامه ، وما كان ـ ولن يكون ـ من الانصاف ان نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره بلغة غير لغته التي تلقاها عن امه وابيه وعشيرته واهله . فالبدوي الجاهلي قبل الاسلام والبدوي المعاصر من ابناء هذا العهد سواء من حيث الافصاح والابانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة فما كان ذلك بالمتكلف اعراباً غير اعرابه ، فتكلف هذا وما كان ذلك بمتلق عروض الخليل او نحو سيبويه فنعيب على هذا اجتنابهما .

على ان من يكثر من سماع شعر البادية في عصرنا الحاضر وينعم النظر فيه لايعدم العثور على كثير من مبتكر المعاني والتشابيه مما لو اعرب ونسج على منوال ما الفناه من الاوزان لرأينا فيه حسنات غير يسيرة . ولئن عد من اعظم خصائص الشعر في الجاهلة تأثيره في النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لا غير . ذلك لان شعر البدوي اليوم يؤثر في عقول البداة كما كان يؤثر الشعر الجاهلي في الجاهليين ، وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلدها شعر ابن تلك العصور الخالية ، ولو اقبل اهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلاً على تدوين شعر البداة لحفظ لهم تاريخ هؤلاء كما حفظ تاريخ اولئك ولما ذهب ضياعاً ما لمجاورينا في صحرائهم من خبر او اثر او معنى مبتكر .

بل لو ولع العربي في هذا الزمن باخبار بداة العرب في الازمنة المتأخرة بعض ما كان له من الولوع باخبارهم قبل العصر الاسلامي وبعده بقليل لاضطر الى رواية شعر هؤلاء كما يروي شعر اولئك ولاضيف الى الادب العربي اسلوب جديد اختارته هذه البداوة كما اختارت ذلك تلك ، ومعاذ الله ان اقول باحلال هذا منزلة ذاك او بالرضى عن قبول هذا الادب المشوه بالعجمة واللحن ، يتغلغل بين حنايا الادب الصحيح

ادب العرب الخالد ، فان في ذلك لجناية على لغة القرآن وسيما في كبد البيان .

وان المختلط اليوم بالبداة ليعجب مما لبضاعة شعرهم فيهم من الرواج ويراهم في تعلقهم بها واقبالهم عليها يفوقون الحضر في عنايتهم بشعرهم الصحيح وادبهم القويم . ينظم الشاعر المبدع من اهل مصر او الشام او العراق القصيدة وينشرها في احدى الصحف مشكولة كلماتها مفسرة الفاظها موضحة معانيها ثم ينظر اليها عن بعد يترقب ما يكون لها من الاثر في نفوس القوم فاذا قارئوها ثلاثون في المئة من قراء الصحيفة وفاهموها عشرة في المئة منهم ولا يحفظها واحد في الالف . ويرتجل الشاعر البدوي القصيدة ارتجالاً لا يتعمل فيها ولا يتكلف ولا يرجع الى قاموس — فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل يتناشدونها ويتغنون بها . ولا اغالي اذا قلت انها تعيش في ادمغة هؤلاء قبل ان تكتب اكثر مما تعيش تلك في ادمغة اولئك وقد نشرت وكتبت ،، اه

وقال الاستاذ طه حسين في رسالته « الحياة الادبية في جزيرة العرب » طبع دمشق سنة ١٣٥٤ : ان في جزيرة العرب أدبين مختلفين احدهما شعبي يتخذ لغة الشعب اداة للتعبير لافي جزيرة العرب وحدها بل في البوادي العربية كلها في الشام ومصر وافريقيا الشمالية . وهذا الادب — وان فسدت لغته — حي قوي له قيمته الممتازة من حيث انه مرآة صافية لحياة الاعراب في باديتهم ، وهو في موضوعاته ومعانيه واساليبه يشبه كل الشبه للادب العربي القديم الذي كان ينشأ في العصر الجاهلي وفي القرون الاولى للتاريخ الاسلامي . ذلك لان حياة العرب في البادية لم تتغير بحال من الاحوال . فحياة القبيلة الاجتماعية والسياسية والمادية الآن كما كانت منذ ثلاثة عشر قرناً . فطبيعي اذن ان يكون الشعر المصور لهذه الحياة كالشعر الذي يصور الحياة القديمة وان يكون

موضوعه ما يقع بين القبائل من حروب ومخاصمات تدعو الى الفخر والمدح والهجاء والرثاء وما يثور في نفس الافراد من انواع الآلام واللذات التي تدعو الى الغناء والشكوى حيناً والحب حيناً آخر والعتاب مرة ثالثة . والقصيدة العربية الشعبية الآن كالقصيدة العربية القديمة تبدأ بالغزل القليل البسيط المؤثر ثم تنتقل الى وصف الابل والصحراء فتطيل في ذلك ثم تطل الى غرضها من مدح أو فخر او غيرها من فنون الشعر . ومثل ذلك يقال في الخطابة ، فالبدوي الآن فصيح كالبدوي القديم حلو الحديث محب للسمر والقصص اذا اطمأن واستراح ، خطيب بليغ اذا كان بينه وبين غيره خصومة او جدال. وهذا الادب الشعبي العربي يرويه في البادية جماعة من الرواة يتوارثونه عن آبائهم ويورثونه لابنائهم ويكسبون بروايته حياتهم المادية ومكانتهم الممتازة احياناً . ولسوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الادب الشعبي عناية ما . لان لغته بعيدة عن لغة القرآن ، وادباء المسلمين لم يستطيعوا بعد ان ينظروا الى الادب على انه غاية تطلب لنفسها وانما الادب عندهم وسيلة الى الدين اهـ .

قلت : ان بين البدو اناساً كثيرين واسعو الحفظ يستظهرون على صفحات قلوبهم ما يسمعونه مرات او مرة واحدة وهم اميون لا يعرفون من القراءة والكتابة حرفاً فيحفظون قصائد سمعوها من دهر بعيد لا يخلون بكلمة واحدة منها .

وقد قدمنا ان اكثر شعراء البدو في زماننا من المرتزقة . ومن مزايا الشاعر عند البدو فوق اتساع الخيال وكثرة الحفظ ان يكون نقاداً لاحوال العشائر عارفاً بأذواق الاعراب وطبائعهم وما يحل في صدورهم محل الرضى والاستحسان بارعاً في وصف المواقع والحروب ومن مزاياه ايضاً ان يكون ذا صوت رخيم واضح لان الشعر عند البدو مغنى ، والاصوات الرخيمة عندهم هي القوية المرتفعة ،

والاصوات الناعمة المائعة التي يحبها اهل الحواضر لا تنال عندهم استحساناً بل ربما استهجنوها وكرهوها . وهم يعدون انغام المرنمين والمطربين في المدن الحاناً شاذة مملة لا يجدون بها لذة ولا تبعث في اعطافهم هزة ، وكذلك اهل الحواضر اذا سمعوا غناء البدو لا يدركون له معنى ولا يفهمون اكثره . ذلك لان البدو كما قدمنا لا يراعون في اشعارهم قواعد العربية . فعندهم الفاظ كثيرة شذت عن منقول العربية الفصحى فانزلت في غير منزلها ، وعندهم اغلاط كثيرة صرفية ونحوية ولغوية تحتاج لمعجم او ترجمان يفسر الغامض منها ويأتي بما يقابلها من العربية المعروفة في الكتب او المألوفه في الحضر . فهم يكسرون اواخر الافعال المضارعة للقافية ، ويضعون نون المضارعة على الافعال الماضية ، وينصبون المبتدأ في كثير من الاحوال كما ينصبون الفاعل كنصبهم للمنادى المفرد وللمبتدأ او يجرونها كما يجروا المفعول به ويسكنون اواخر الكلمة للوزن ويدغمون الاسماء . وشعراء البدو يستعملون الكلام الحوشي الذي قل ان يفهمه اهل الحواضر ويستسيغونه خاصةً اولئك الذين لم يألفوا معاشرة البدو ومطارحتهم . وعلة هذا الاستعمال ذوقهم الخشن وما اعتادوه وألفوه . وشعرهم اليوم خص كالشعر الجاهلي بالبداهة والسداجة وفقدان التكلف مع المغالاه احياناً في الوصف .

هذا ويكون الشاعر عند البدو مجيداً اذا ضرب على الرباب واتقن الضرب فتأتي الرباب تارةً بصوت حزين وتحن وتئن انات الاسى عند انشاد مرثية محزنة وتارة تهب بصوت عاصف كصوت الابطال في الحروب فتترنح اعطاف الحاضرين طرباً واستحساناً ، وتارةً تجري كسيل هادئ في مدح الشيوخ وأهل الكرم ، وتارةً تمثل سير النياق والظعون وهكذا . والشيوخ يعلقون الرباب وسط مضاربهم يعدونها للشعراء في اوقات الافراح كمولد او عرس

او ختان او عيد . والشعراء يكرمون ويعززون مهما كانوا اذلاء او فقراء ، وتخشى العشائر لسانهم وهجائهم ولو كانوا من طائفة الدور او من عشيرة الصليب المعدودين من الخشارة في المجتمع البدوي والمحترفين حرفة الشعر والتكسب منه .

وكما كان للعرب في جاهليتهم اسواق كسوق عكاظ لانشاد القصائد الغراء والتفاخر بها على مسامع الجماهير المجتمعة ، كذلك لهم الآن ما يشبهها في بيوت الشيوخ ، فترد الشعراء من اطراف البادية الى بيت الشيخ ويأخذون الرباب المعلق في العمود ثم يضربون عليها وينشدون واذا انت حضرت هذه المجالس ترى السامعين قد ترنحوا نشاوى حينما يغنيهم احد المنشدين شعراً جميلاً على نغمات الرباب . فاذا كان حماسياً قلقت بهم المقاعد واقشعت ، واذا كان تشبيباً تمايلت الرؤوس وتسارعت الانفاس ، واذا كان في التوجيع والشكوى سكبت الدموع وهطلت الزفرات .

ومن راقت اشعاره حكموا له بالفضل وعلو القدر فتتناقلها الالسن وتحفظها الصدور وتنشرها العشائر ويتغنى بها البدو دهراً طويلاً وتبقى اثراً جليلاً ، ويأمر الشيخ للشاعر المجيد بالجوائز السنية . والبدو اهل بصيرة نقادة يميزون بين جيد الشعر ورديئه .

وقد كنا ذكرنا في المقدمة ان المستشرق المسيو مونتاني الفرنسي احد اساتذة معهد الدراسات الشرقية في دمشق كان من المولعين بادب البدو وشعرهم حريص على التقاطه وتدوينه قبل ان تعبث به دواعي التحضير وعوادي الزمان فتضيعه وتغيره ، فذهب الى مضارب عشيرة شمر في الجزيرة وتجول بضعة اسابيع واشهر من فريق الى فريق واستنطق المعمرين والمدركين وتسقط منهم قصصاً وقصائد حربية وحماسية وغرامية وغيرها مما يتداولونه ويترنم به شعراؤهم ، وقد كتبها بنصها وفصها وترجم كلماتها وجملها بالفرنسية ترجمة دقيقة وشرحها . وبعد

هذا التعب خرج بمقالة ضافية غاية في الجودة والمتعة درجها في « مجلة الدراسات الشرقية » للمعهد المذكور (ج ٥ سنة ١٩٣٥) تشبه ما عمله ابو الفرج الاصبهاني في كتابه (الاغاني) ، نتمنى لو ان احداً من الناطقين بالضاد والمولعين بالادب والشعر يقرأها وينسج على منوالها ويأتي بمثالها .

هذا وانواع القصيد عند البدو متعددة ، فمنها « السرحي » الباحث عن السرح اى عن السفر الى الغزو والحرب و « الهجيني » الذي يرافق سير الهجن ويحثها على السير و « الحدو » او « الحداء » وهو غناء الراعي حينما يسوق الابل والغنم ويغني لها كما هو غناء الفرسان وهم يغذون السير . والامثلة على ذلك كثيرة درجنا بعض المختارات مما عثرنا عليه ، وغرضنا من ذلك الفات النظر والا فلا حد للاستقصاء والاختيار . ومجال كتابنا لا يتسع لاكثر من ذلك .

ان شعراء البدو في زماننا اما ان يستهلوا قصائدهم بذكر المولى عز وجل وصفاته الكريمة وبالاستغفار اليه والاستغاثة بلطفه كقول « ادكيس » وهي امرأة من الصليب اشتهرت بقرض الشعر والظرف :

يا الله يا عايد على كل ذيرة يا رب يا منشي منزن مصادير
يا الله عسى ما تكره النفس خيرة يا والي الدنيا عليك التدابير

وكقول احد شعرائهم :

ابدي بذكر الي على الكل منان يا رب يا خلاق عرشاً بسمايا
نطلبك يا رب يا رافع الهان ترفع عبيدك من جميع الدهايا

واما ان يستهلونها بنداء (يا راكباً او يا راجباً) فيخاطبون راكبي النوق والخيل المغيرات الذلولة السباقة ويصفون هذه النوق او الخيل وهي سائرة براكبها نحو مضرب الشيخ الذي وجهت اليه الرسالة كقول شاعر من عشيرة الاحسنة يعاتب (الموالي) واميرهم ويفتخر

بقومه لما ردوا الموالي في احدى غزواتهم ، وقد حملوا فيها البنادق اول طلوعها وجروا معهم بعض الحديديين ، ولعل الامير المقصود هو احمد بك الذي قدمنا ذكره في بحث التاريخ (ص ١٠٩) ، ولعل هذه الغزوة حدثت قبل الاخيرة التي قتله الاحسنة فيها . وقد سمعنا هذه القصيدة من المرحوم الشيخ طراد الملحم :

يا راكباً من فوق موعا العلوكي ... عليه من ياخذ خنيف الرسالة (١)
تلفي لذباح الغنم والفروكي ... وسلم عليه وسايله كيف حاله (٢)
يا مير ليه الشاة رايد تبوكي ... وفرشت وجهك لحديدي عتاله (٣)
انتم عليكم البوك والرب فوكي ... واحنا علينا ردهم بالجمالة (٤)
ركبوا عليكم مخضبين العروكي ... عيال الحسيني كل ابوهم جهالة (٥)
من يوم بطلتو اشيلكم للعروكي ... بارود كم سوى عليكم رزالة
بارود كم بخشوم ربعي نشوكي ... عطر البنية اللي تنثر جدالة

وكقول احد شعرائهم في وصف الناقة التي حملت قصيدته الى المرسل اليه ، وهم يسمون هذا المطلع (مشد القصيدة) . والناقة كما تعلم صديقتهم في الحل والترحال ومادتهم في المأكل والمشرب والملبس ، فمن حقها ان توصف وتمدح :

يا راجب اللي سولع الذيب ... رمله ولا عمر الحوير غذى به
تجرى بذرعان سوات الدواليب ... وحده تقلطها ووحده جنيبه
شذب عليها مظلم الليل تشذيب ... يوم الثريا دوبحت والجنيبه
جأن الشجر عنها عداله جناديب ... عن السهل لجه عشاش الذنيبه
العين حمرلون ضوء المشاهيب ... والا خلاصة نار من مبتلى به

---

(١) العلوكي : العلائق المربوطة بشداد البعير (٢) الفروكي : الجزور (٣) تبوكي او تبوق : تسرق (٤) بالجمالة : بالحسنى (٥) العروكي الرماح المخضبة بالدم

ريحة عرقها عنبر من هلو جيب　　او زعفران بالخدود العجيبه
لو درهمت شدة ملاوي العصاليب　　حسيس ربدا وماج عنها لعيبه
ابوها منفلها على الفطر الشيب　　وامها عفان الجيش ما ينجنيبه
سبيبها يكسي متان العراقيب　　ويلوك للعز والمعطش ذويبه ...

ومثلها قصيدة مدحية قالها كنعان الطيار من رؤساء عشيرة الولد علي في حق مطلق الجربا وشيوخ شمر :

يا راجباً هجيناً اليا شوملن　　جن السفن والا نعام الهوارب
سلم على نزل (السيافة) تحية　　ملفاك (اخو جوزة) عفيف الشوارب
يشدا هداج ليا كثر وردو　　سوى بزاد البيت مثل النهايب
قاصين الرجل عن بيت جارهم　　ما يدخنوا قاصين اليا غائب
ادهان اذ كان مايلحق الضد جيلهم　　عيان الى لوا مقلقين الطلايب
يا ما نقضو من حجي مخفي عداوه　　وما ذبحوا من شايشن بالحرايب
قهارة المظهور بوجه ضدهم　　وان هلهلن بالكون حمر الاشايب
يغطن برغام العجاج وينثنن　　ويطاعن معجلات الجنايب
محمل ركاب الصبايا لوجه ضدهم　　غاجين الهوا بي مجل الترايب .. الخ

تفسير هذه الابيات — يا راكبها هجينا سبوقا اذا عدا تحسبه سفينة في البحر او نعامة هاربة سلم على من هم في منزل السيافة [يعني الخرصة ورؤسائها] الملقبين بالسيافة تلفي اخو جوزة ذا الشفاه العفيفة [اخو جوزة نخوة مطلق الجربا] — وهو يماثل بئر هداج [بئر في تيماء مشهور بغزارة مائه] حينما يكثر الوراد حوله وتخال ان في بيته نهباً وسلباً حينما يسوي الزاد لضيوفه — وآل الجربا يقصون ارجل كل من يحاول الدخول لبيوت جيرانهم حتى ولو كان هؤلاء الجيران غائبين — وهم ذوو دهاء وذكاء يعجز عدوهم عن احباط خططهم الحربية ، ويعارضون في كل شكوى ومطاليب ترفع اليهم — كم فرقوا جمل الكلام الذي يخفي عداوة وكم ذبحوا من الابطال المغاوير — وهم قهارو الظعون

في وجه اعدائهم ولا سيما حينما تهلهل لهم نسائهم اللابسات العصائب الحمر وخيولهم تخوض رغام العجاج وتثنى فتعود بالجنائب المسلوبة - وهم يرخون اعنتهم امام اضدادهم ويطعنون بالرماح ظهور هؤلاء الاضداد الهاربين .

مثال التشبيب : قصيدة لشمري يصف بها ما جرى بينه وبين محبوبته دون ان يصرح بالاسم وهي لا تعدو التصوير وتشبه قصائد عمر بن ابي ربيعة ، وقد اقتبسناها من كتاب عشائر العراق لعباس العزاوي قال :

غاب الخليل وشفت بالترف ميلاح ... وجيت اتخطى جن اهلها نسابه
كالت تكلع لازهج النزل بصياح ... ما لى من اللي بالردى ينهكي به «١»
كمت انبطح له واديره بالمزاح ... لان الحبيب وكام يضحك بنابه
ثار الحبيب وطبك البيب بسياح ... وكشفت عن نابي الردايف ثيابه
غطيت بالثوب الحر زين الملاح ... لما تعاع الصبح بين سرابه «٢»
كالت تنكل هذا الصبح باح ... وداعتك عرضنا والحزابه «٣»
كلت مانى ولد عفن على السرنباح ... اللي ليا كفي رفيجه حجابه «٤»

وأراد ان يبعد المرمى ويزيل الشبهة فقال :

علمي بهم يا غنيم يوم المطر طاح ... واليوم مدري وين ربي دوابه «٥»
مدري مع اللي سندوا يم السياح ... والا وياللي فيضوا يم طابه «٦»

مثال الحدو عند بعض العشائر :

يارب تخلي مهيرتي ... تكبر واصير خيالها
واشري لها برشم ذهب ... تكبر واصير خيالها

. . .

يابنت يا للي عالمصيف ... طلي وشوفي خيولنا

«١» ينهكى به : يؤمل به ٢ لما : لما ان ٣ احزب على نفسك : تأهب ٤ اللي : الذي ، اليا : اذا ٥ دوابه : رمى به ٦ ويا : مع ، يم : عند .

وانت تغاوي بشعرك وحنا نغاوي بفعالنا

مثال آخر :

ياللي تمنا حربنا غويت يا فادي الدليل
كم واحد من ضربنا دمو على الشلفي يسيل

. . .

من شاعر جينا صايلين تسمع رزيز مهارنا (١)
وان ساعف الله الكريم بالميزر ناخذ ثارنا (٢)

وقد يخاطب شعراء البدو قلمهم الذي يكتبون به ويأمرونه بان يحسن تنميق الكلام وتغليف الخطاب وايداعه لرسول امين كما قال جابر بن الصباح من منفاه في الاناضول يخاطب محبوبته :

سر يا قلم واكتب لنا مانريده ان كنت بزين التواصيف قصاد
بمزوف القرطاس ضمه وزيده واستغفر الرحمن خلاق العباد
وله رسلته مع برق الرعيده لا تأمن عليه من الرطوبة والوقاد
ياهيه يا برقاً تلمع [٣] وقيده بلغ سلامي من لذيذات الانشاد
سلاماً مقطوع لديار بعيدة الذ من تمر العراقاً وبغداد
سلاماً من وريد [٤] لوريده على عدد ما زوملن [٥] كل غالياً مطراد
مني لمظنون عيني وريده يرسل جوابه بالذي كيف ماراد
المصيحب اللي عذبني بقصيدة زين الحلايا يامنية القلب ومراد
ابو عيون تقول عين الفريذة عين الفهود اللي على القاع وراد
اللي ياحمرت تنشدوين نجم السعيدة تلقاه في برج الحمل بان ماحاد ... الخ

ومن وصايا البدو التي تدل على اخلاقهم :

احفظ وصاتي يا ولد يوم بوصيك وان شلتها تصبح كثير الربوح
اوصيك عن جارك وضيفك واللي بعانيك تدر عليهم در حمرا مسوح

---

(١) شاعر اسم جبل في غربي تدمر وشرقي البلعاس ٢ الميزر بنادق معمل ماوزر الالمانية ٣ تلمع ـ تشعل ٤ وريد ـ محب ٥ زوملن ـ اسرعن

اوصيك عن بنت اللاش لو كان تهنيك ... يطلع ولدها مثل طير شنوح
اوصيك خذ بنت سبع لو كان يعاديك ... يطلع ولدها مثل صقر اللوح
ان غلقت البيبان يفتح ويعطيك ... وان قضيته حسب ما يروح

ومن اقوالهم في تكريم النسب

انسب وليدك انسبه ... والنار من مقباسها
والغز في اوراك النسا ... اللي بعيد ساسها
والجري في ربع النضا الابل ... والخيل في اسداسها

ومن اقوالهم في وصف النجعة (التشاريق) وهو يشبه ما قلناه في الصحيفة ٢٦٣

وتبيشرن بيبان قلبي بالفراح ... على عريب تحطحطوا بالنزيلي
يا ما حلا المشراق يوم البرق لاح ... ويوم العرب تقضت من المكيلي
يا ما حلا المسلاف برياض شياح ... ويوم الركائب عند وجه الرحيلي
يا ما حلا زهوة العشاير بالمراح ... ولبينهن عالريق يشفي الغليل
يا ما حلا ريحة عبسن لا فاح ... وعشرة مع عشرين رحلة تشيلي

* * *

تحضير البدو

ذكرنا في الصحيفة ١٢٨ ان اقسام البدو ثلاثة رحل ونصف حضر وحضر . وقد بسطنا هناك اوصاف كل من هؤلاء وما بينهم من فروق .

فالتحضير هو سوق القسم الاول والثاني وحضهما على التطور والتمدن والاقلال من الظعون والاسفار ومغادرة بيوت الشعر المتنقلة وسكنى بيوت الطين والحجر المستقرة وامتلاك الارضين وتفجير الينابيع والقنوات والتوفر على الحرث والزرع والعيش بكد اليمين وعرق الجبين وما الى ذلك مما فيه خبز حلال وماء زلال . ونحن وكل محب لهم وغيور على مصالحهم نود لو ان الزمان يفعل فعله بهؤلاء البدو ويكرههم رويداً رويداً على قبول هذا التطور والانتقال . وهو امر طبيعي ، نفذ في كل الشعوب التي كانت قبلهم على فطرتها وبداوتها ودفعها شاءت ام ابت . والبراهين على ذلك كثيرة في تاريخ البشر عامة والعرب خاصة . وقد بسطنا في بحث تاريخ البدو ص ٧٠ ما فيه الكفاءة من ذلك

والبدو كانوا في الماضي القريب يعتمدون على (الغزو) و (السلب والنهب) ويعدونه بعد (الرعي) مرتزقهم الطبيعي ، ويهتبلون الغرر من فوضى الاحكام وضعف السلطان ليستبيحوا حمى المعمور ويمعنوا في اذى الغير . الا ان هذه الفرص لم تعد توآتيهم كالاول ويجب ان لا توآتيهم ، فسبيل (الغزو) قد انقطع او كاد بفضل دوريات الهجانة وحراس البادية داخل الحدود العراقية والاردنية والشامية والسعودية وسيارات الركب والتحميل ضربت الخيل والابل وسدت ابواب الرزق منها الى حد بعيد . ومن اجل ذلك اصبح البدو في حاجة كلية الى

(التطور) اي الى ايجاد مورد عيش جديد ثابت في المعمورة او في قربها والى الانصراف نحو الحراثة والزراعة واستثمار خيرات الارض ، وهو « التحضير » الذي نرومه لهم .

لكن البدو قوم حائرون بائرون لا يحبون الحراثة والزراعة ، لانها فيما يزعمونه متعبة لاجسامهم ، مقيدة لحريتهم ، مانعة لعبثهم ، حائلة دون استنشاقهم الهواء الطلق وانسياحهم في البر الفسيح . وهم يكرهون خاصة الاعمال اليدوية والاتعاب الجسمية والملاحظة والملاحقة اللتين يقوم بهما الفلاح الريفي ، وقصارى احدهم ان يضطجع طول نهاره يشرب قهوته وينعم بخموله وبطالته ، ما زالت امرأته ساعية كادحة لاجله وماشيته مكتفية برعائها مطمئنة في فضائها ، وماذا بعد ؟

فالبدو لا ينصرفون للحراثة والزراعة ولا يرضخون للتطور الطبيعي ما لم يفرض عليهم فرضاً ويضطروا الى اعتناقه قسراً . وهم لا يجنحون للسكون والاستقرار والارتباط بالارض واستثمار خيراتها الا متى عرفوا ان (الحق سيف قاطع) ومتى وجدوا فوق رؤوسهم حكومات قوية وقوانيناً صارمة تردعهم عن اظهار نزوات انفسهم المتحفزة للوثوب .

والبادية لا تفهم لغة الرفق واطاله البال . فهي بعد ان توارى ظل الفرنسيين صارت تتمخض بالمطامح والنزوات بعضها على بعض كما جرى في سنة ١٩٤٥ بين عشيري الاحسنة والنعيم في براري حمص وادى الى قتل عدد من الفريقين اجلهم قدراً الشيخ طراد الملحم واخوه بدر ، وكما جرى بين عشيرتي شمر والبقارة في شمالي الجزيرة وادى الى قتل عشرات الرجال والاطفال والنساء وخراب عشرات القرى .

ولا حافز لهذه الوقائع الا العوامل النفسية التي بيناها آنفاً ، فيعمل المحافظون في الالوية على قمع هذه الحركات بوسائلهم الضئيلة ويحلون الخلافات بتدابير موقتة واهنة . ثم لا تعتم هذه الغارات

والخلافات حتى تتجدد متأثرة بالمؤثرات ذاتها . لان الذين قاموا بها لم يعاقبوا عقاباً شديداً يكفي لزجرهم عن الاعتداء ثانية ، ولم تعالج الخلافات معالجة عملية صحيحة تزيل الاسباب وتجتث الاحقاد .

قلنا في بحث سابق (ص ١٢٨) ان مناطق النجعة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة ، واذا جاءت عشيرة اخرى وهمت بان تتبدي في منتجعات غيرها تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة . وكما اختصت كل عشيرة بمنطقة للنجعة في البادية اختصت ايضاً في المعمورة بمنطقة نفوذ واستقرار او بما يدعى (المدى الحيوي) ، وهذه المنطقة تكبر وتصغر لقاعدة (التوازن العشائري) او (توازن القوى العشائرية) وعملاً بهذه القاعدة لا تكون حياة الاستقرار الكلي او الجزئي دائمة عند البدو ، وان هي دامت فدوامها لا يكون الا لبعض الوقت ، ما لم تشرف عليها « الصرامة » و« السرعة »

تختلف العشائر على ملكية بئر او مرعى تعده كل منها داخلاً ضمن مداها الحيوي فتمنع الاخرى عن ازتياده وينشب النزاع بسببه ، ثم قد يكون هناك بعض الاراضي الموات يقوم باحيائها بعض العشائر فتحدو المطامع البعض الآخر لمزاحمتها واستخلاص الارض منها او لمشاركتها فيه فتندلع نار الفتنة بين الفريقين ، ثم قد تكون هنالك ثارات متأصلة في بعض النفوس تتحين الفرص للاخذ بها فتهاجمها ، وتهاجم وتسلب المواشي وتهرق دماء من يقاومها وتعود الى مضاربها بعد ان تكون قد عاثت في الارض فساداً .

وهنالك الخلافات بين بعض عشائر القسم الاول « الرحل » والثاني « نصف الرحل » ، ومرد هذه الخلافات جميعها يكاد يكون منحصراً بالتطور . فقد كانت العشائر الرحل الكبيرة تفرض على العشائر المتحضرة اتاوة « خوة » لقاء حمايتها من غزو الآخرين وحماية مواشيها وزروعها ، غير ان هذه العشائر بعد ان تطورت وتحضرت ودخلت

تحت حماية الحكومة والقانون امسكت عن تأدية هذه الاتاوة وخلعت عنها نير استعبادها فساء ذلك العشائر الكبيرة التي ما فتئت تحن الى استعادة سلطانها عليها متى وجدت الغرة ، وهو نزاع تطوري بين «التحضر» و « الدخول » في حمى القانون » وبين البقاء تحت رعاية الاتاوة والسيطرة البدوية القديمة .

ولا يمكن القضاء على هذه الخلافات الا باحقاق الحق وتنفيذ مواد القرارات المتعلقة بمنع الغزو والعدوان وعقاب المعتدين عقاباً صارماً سريعاً والعدول عن قاعدة (الحفر والدفن) وتبديلها بقاعدة قانونية تنقع غليل المظلومين وتقطع ايدي الظالمين . لان قاعدة الحفر والدفن ليس فيها قصاص زجري يكفي لاجتثاث الحزازات ومنع تكرر العداوات . وينبغي على العشائر المعتدى عليها في حقوق مرعى او بئر او ملكية ارض ان تلجأ الى الحكومة لا ان تستحصل حقها بقوة السلاح ، وعلى الحكومة ان تسرع بحل الخلاف في غير تردد او اطالة بال ودون ان تتأثر بالعوامل الكثيرة التي يتذرع بها بعضهم لتبرير مواقفهم . ولا يتم ذلك الا حينما يكون لدى الحكومة جنود كافية من حرس البادية واسلحة آلية وسيارات ومدمفحات وحتى طائرات تقطع نياط كل من تحدثه نفسه بالشذوذ والخروج على اوامر الحكومة والمصلحة العامة . كما عملته كل الدول التي تعاورت الحكم على البادية من اقدم عهود التاريخ حتى يومنا هذا وقد بيناه في بحث التاريخ في الجزء الاول .

ومن المستحسن ان تحدد لكل عشيرة منازلها في رحلتي الصيف والشتاء وتعين الآبار والمناهل التي تستقي منها ويثبت ذلك على خريطة اصولية لا تتعداها عشيرة من العشائر الا لاسباب قاهرة كوقوع جدب في المراعي او شح في مياه المناهل ، وعندئذ تفصل الحكومة في الامر وتعين لها منطقة ترتادها مع العشيرة التي تقع تلك المنطقة ضمن مداها الحيوي

ان تنفيذ التدابير الصارمة السريعة هو من صالح البدو الذين يعمي

الجهل والطيش بعضهم احياناً فيبعدهم عن محجة الصواب . ومن ثم كانت هيبة الحكم وصرامة العقاب في البوادي ضرورة حيوية للبدو اكثر منها للحضر - كما يقول بذلك كل عاقل منهم ويطلبه - ليرتدع جهلتهم عن العدوان والاذى ، وينصرفوا نحو الاستقرار و (التحضر) انصرافاً كافياً ، وليفعل الزمان وتطوره الطبيعي فعله فيهم فيخضعهم الى ما جرى على اسلافهم الذين تركوا البداوة والجفوة واستقروا واطمأنوا وعنوا بالرزق الحلال فصار قسمهم الاول ثانياً وقسمهم الثاني ثالثاً على ما بسطناه في الصحيفة ١٢٨ ،

ومما يبعث السرور ان انقطاع الغزو وظهور سيارات الركب والنقل وبوار سوق الابل والخيل منذ ربع قرن وجه البدو اهل القسم الاول فضلاً عن الثاني الى الغاية التي نشدناها لهم ، وظهرت من ذلك الحين بادرة جديدة عندهم .

فشيوخ العشائر الكبيرة بعد ان كانوا ينظرون الى الزراعة وارتيادها بازدراء انصرفوا منذ ١٥ - ٢٠ سنة الى اقتناء الضياع والارضين من املاك الدولة وغيرها وصاروا يزاحمون بعضهم بعضاً على امتلاكها ويختلفون ويتناحرون على حدودها ، وقد توفروا على احياء الخرب الدائرة في براري حمص وحماة والجزيرة وعلى تفجير القنوات الغائرة وشرعوا يهتمون بالزراعة ويجنون ثمراتها ويتجهون الى سكنى المدن والقرى وبناء الدور وغشيان المجتمعات والمنتديات ، ولا سيما ان جل هؤلاء الشيوخ عضو في المجلس النيابي يسمع خطبه ويشترك احياناً في نقاشه فيكتسب اخباراً وعلوماً جديدة تنوره وتثقفه . والمأمول ان تنتقل عدوى هذه البادرة من الكبار الى من بعدهم ومن هؤلاء الى عامتهم ، مازال الناس على دين ملوكهم .

ولو اتيح لهؤلاء الشيوخ ان يعلموا اولادهم في المدارس الراقية كما عمل بعضهم او لو فتحت لاولاد هؤلاء ومن يليهم مدارس خاصة

على طراز مدرسة العشائر التي كان السلطان عبد الحميد فتحها ، ولو زيدت مدارس المعارف المخصصة لعامتهم ايضاً واتقنت ادارتها . . . قلت لو تم هذا وسير فيه بترتيب واستمرار لتعجلت حضارة البدو وحسنت اطوارهم ومعيشتهم وعمرت براريها العامرة وصاروا اعضاء نافعين في جسم الامة العربية .

وبمناسبة البحث عن بادرة التملك واقتناء الارضين والانصراف نحو الحرث والزرع نقول ان هذه البادرة يجب استغلالها بشكل واسع والدعوة لها لينفتح باب « التحضر » و « الاستقرار » لهؤلاء البدو جلهم ان لم يكن كلهم . على ان يكون الاستملاك والاستثمار للجميع بالعدل والمساواة وبشكل ملكيات صغيرة ، وليس على شكل ملكيات كبيرة يختص بها الشيوخ والرؤساء ويحرم غيرهم فيمتلك الواحد منهم الوف الهكتارات ويحرم الالوف من مساحة اشبار . هذا على ان يعمد الى اقرار الاراضي الصالحة من التي ليس فيها حق او سبق وضع يد لاحد من البدو والحضر ، فتقسم هذه الاراضي على فرق العشيرة وافخاذها تقسيماً عادلاً تقوى فيه الملكية الصغيرة المذكورة وبهذا نجتاز بهم خطوة مباركة نحو الحضارة والسعادة اللتين ننتمناها لهم .

ولرب قائل يقول : اين تضع هؤلاء ، وهل في ديار الشام متسع فنجيبه ان براريها الصالحة للحرث والزرع كافية وزائدة . فامامنا سهول الجزيرة الفراتية وضفاف البليخ والجغجغ والخابور ذات التربة الذكية والمساحات الواسعة والانهار والسدود والترع العديدة التي تقدم الكلام عنها في بحث الجزيرة (ص ١٩ ـ ٢٢) تندب مجدها الدائر حينما كانت تطعم اضعاف سكانها الحاضرين وتستغيث طالبة سواعد قوية وهمم علية لاستثمار خيراتها الدفينة ، وهي لو انصرفت اليها العشائر الحاضرة برمتها واستعمرتها بجملتها لما كفتها ولقالت (هل من مزيد ؟) ومثل ذلك يقال عن اراضي املاك الدولة في مشارق الاندرين والحمراء

وسعن وسعين وعقيربات وجب الجراح والفركاس وجبل البلعاس والجبل الابيض وحول القريتين وتدمر والرصافة وغيرها مما اكثره الآن خواء قواء ناهيك وادي الفرات من حدود جرابلس الى ابي كمال غير المستثمر كما يجب ، لو اتيحت له وسائل الري الميكانيكية المستعملة في العراق ومصر لاروى من المساحات اضعاف ما تستغله عشائره الحاضرة ولاحتاج لمئات الآلاف من الانفس او الايدي العاملة فوقها . ومن عرف جغرافية بلاد الشام ودرس استعدادها يقر بان المجال لايزال رحباً لاعالة جميع عشائرنا الحاضرة بل لاكثر منها لو صارت الزراعة (زراعة حقيقية) تجيد الحرث والعزق والري والزرع والغرس كما ينبغي .

هذا ونحن في حضنا على (التحضير) والتعلق بالارض والحرث والزرع لا نرمي الى ترك (البداوة) بتاتاً ، ولا نوصي باهمال هذه البادية الشاسعة التي فيها مراعينا ، ما زلنا في حاجة لاعشابها وحتى اشواكها لتتحول عن طريق الابل والغنم الى الدفء والمنافع التي نوه بها الكتاب الكريم .

وبهذه المناسبة لا بد من كلمة نصحح بها فكرة من يظنون ان البداوة زائدة عن حاجة الانسان ينبغي القضاء عليها بتاتاً او الاصح على خصيصتها الكبرى وهي (الابل) ، وحجتهم في هذا الظن ان البدوي لا يتحضر ولا يستقر ما دام وراء ابله . ويبرهنون على امكان الاستغناء هذا بان اوربا وامريكا ذات المواشي الوفيرة ليس فيها بدو ولا من يرحل وينتقل .. وهم ينظرون الى (التحضير) الذي ننشده بانه توجيه البدو نحو القرى كلياً واخلاء البادية بتاتاً .

وجوابنا على ذلك ان قياس بلادنا باوربا وامريكا قياس مع الفارق ، فسماؤنا صاحية وصيفنا طويل الامد وهواؤنا جاف الا في الاقل وامطارنا قليلة ومراعينا واعشابنا غثة ضئيلة في النسبة . كل ذلك على خلاف اوربا وامريكا اللتين تهطل الامطار في اكثر اقطارهما حتى في فصل الصيف

وتظل سهولها وهضابها خضرة نضرة في اكثر الفصول . وهي تقيت قطعانهم الوفيرة دونما حاجة للارتياد والابتعاد . فاين نحن منهم ، واين هذه المنحة السماوية من سني المحل وشح الامطار التي تتوالى عندنا ؟

لهذا لا بد لنا من (البداوة) ولا بد من (بدو) و (بيوت شعر) شريطة ان تكون هذه البداوة هادئة وديعة منصرفة الى الخير بعيدة عن الشر على النحو الذى نسمع بوجوده في المملكة السعودية . ولا بد لهذه البداوة من (الابل) التي توصف بانها سفائن البر وقوام الحياة والحركة في البر . ويخطيء من يحكم عليها ويتمنى زوالها ما زالت لا تعبث بزرع الحضر وغرائسهم ومنشآتهم ويخطيء اكثر من لا يفكر بعمران [البادية] وتوفير اسباب العمل والنهل للانعام السارحة فيها ودرء شدائد العطش والجوع عنها في السنين الشديدة ، بحكم انها من اجل ثروات البلاد وارزاق العباد .

فالابل وان دالت دولتها الى حد بعيد منذ ان شاعت سيارات الركب والنقل ، الا ان لحمها لا يزال من ارخص اللحوم التي تأكلها الطبقة الفقيرة في المدن العربية كما انها من ارخص وسائل النقل في الاسفار وتحميل الاثقال ولا سيما في رجاد الزروع من الحقول الى البيادر في بلاد مثل بلادنا ذات اوعار واحجار ومسالك متشعثة ومجاري مياه او مروج ومستنقعات لا يستطيع الحركة والتجوال فيها الا (الابل). واهمال الابل التي هي ثروة البدوي دون عناية بامرها او التفكير بمحوها من عالم الوجود بحجة ان الابل والتحضير لا يلتئمان غير صحيح .

فالابل ترعى عشب البادية البعيدة (الحماد) كما ترعى الغنم عشب البادية القريبة الى (المعمورة) ، وينقلب هذا العشب الى لحم وجلد ووبر من الابل ولحم وسمن وصوف وجلد من الغنم ، فهل يجوز الاعراض عن هذه الثروة المنتزعة من البوادي الشاسعة وهل يسوغ اهمالها وعدم الاستفادة منها ؟ وهل خلا عصر من اقدم عصور التاريخ

من بدو متنقلين وراء ابلهم وغنمهم حتى يخلو عصرنا ؟ واذا حدث بادية الشام يوماً على افتراض تحضر البدو الذين يضربون في ارجائها ألا تأتي موجة جديدة من اواسط الجزيرة العربية وتحتل هذا الخلاء كما جرى مراراً من اقدم عصور التاريخ الى يومنا هذا ، وقد قدمنا شرحه في بحث التاريخ .

اذا تقرر هذا وتقرر معه ان البداوة لازمة للحضارة والضرع لا غنى عنه للانسان كما لا غنى له عن الزرع تكون العناية بالابل ضرورة لا مناص منها ، وافساح المجال للسرح بها في براري (الجزيرة) و (الشامية) وفيافي (الحماد) التي لا يستفاد منها للزرع بل لرعي الماشية من غنم وابل فحسب — امر نافع لا مناص منه . وفي تلك العناية يحصل توزيع مناطق للعيش وتفريق اعمال بين اناس اختاروا هذا النوع من العيش على صعوبته وشظفه .

هذا مع العناية بتحضير من يقبل التحضير التام منهم ويتهيأ له . ولندع الزمان يفعل فعله فانه آخذ بتلابيبهم نحو الحضارة . وقصارانا ان نستعجل هذا الزمان بان ندعوهم الى الرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة دعوة الآباء الناصحين للابناء الجامحين مع (الصرامة) المانعة للنزاع والعدوان ومع التدريب والتثقيف جهد الامكان ، والله الهادي الى سواء السبيل .

اصلاح حال العشائر

١ — لما كان للبادية والعشائر حالات شاذة وحاجات خاصة تختلف عما في المدن والقرى وجب ان يكون في العاصمة (مديرية عشائر) وفي المحافظات فروع لها ملحقة بالمحافظين . من واجبها الاختصاص بشؤون البادية ونفسية البدو ودرس حالاتهم وحاجاتهم وحركاتهم والعمل على ما فيه خيرهم وصلاحهم وابداء مشورتها بذلك الى المراجع ذات الحل والربط . ومنه العناية بتحضير العشائر وتهيئة سبل هذا التحضير من تقسيم مناطق وتوزيع اراضي وايجاد قرى ومساكن والحض على الاستقرار والزراعة والتعليم والتربية والصحة وما الى ذلك مما هو مذكور في المواد التالية .

٢ — توطيد الامن في البادية ومنع الغزوات والغارات منعاً باتاً ، بحيث يطمأن النازلون فيها والعابرون على ارواحهم واموالهم اطمئناناً تاماً . ووسيلة هذا الامن اتخاذ (الصرامة) اساساً في معاملة اهل البادية وقصاص المعتدين قصاصاً عاجلاً حاسماً ومنع اعتداء الكبير على الصغير والقوي على الضعيف منهم . ولا يتم ذلك الا بتقوية سرايا الهجانة وتكثير السيارات المصفحة والمخافر المحصنة في البادية وربط نقاط البادية ومفارق طرقها ومناهلها بالدوريات المتجولة وتحميل رؤساء العشائر تبعة ما يحدث في مناطقهم ومن اتباعهم .

٣ — تصغير حدود البادية وتكبير حدود المعمورة التي وضعها الفرنسيون في القرار رقم ١٣٢ وايعادها الى اقصى مدى في الشرق والجنوب كي تحصل طمأنينة في نفوس القاطنين في القرى النائية والراغبين

باعمار الخرب الدائرة والاراضي البائرة .

٤ = تجريد البدو الرحل من السلاح حين رجوعهم من نجعة الشتاء ودخولهم المعمورة . لان بقاء الاسلحة لدى هؤلاء يحفزهم الى التنازع بعضهم مع بعض او مع الحضريين وايقاد نار الفتن لادنى سبب

٥ = تغيير القرار رقم ١٣٢ المذكور بما هو انسب للروح القومية وتخفيف وطأة (القضاء البدوي) او (الاصول العشائري) وعدم اللجوء اليه ما لم يكن ثمة ضرورة قصوى ورفع الفوارق الموجودة فيه او تخفيفها الى ادنى حد .

٦ = حمل (المحاكم النظامية) و (الدوائر الادارية) التي تعرض اليها قضايا البدو على الاسراع في رؤية هذه القضايا واجتناب الاطالة والتأجيل في الجلسات والاستعجال باصدار الاحكام وتنفيذها لا سيما في المسائل التي فيها وميض يخشى ضرامه .

٧ = تسجيل افراد العشائر في سجلات النفوس وتحميلهم تذكرة النفوس او (ورقة الهوية) ليشعروا انهم جزء من ابناء الوطن لهم ما لابنائه وعليهم ما عليهم ، ويمكن تسهيلاً للامر ان يمنحوا التذاكر بلا بدل في باديء الامر .

٨ = حض البدو على الاستقرار والتحضر وحثهم على بناء القرى والمساكن والعمل في الزراعة وارشادهم الى منافعها وتعليمهم ما يجهلونه من اساليبها وتعويدهم على مزاولتها .

٩ = تفويض الاراضي البائرة والخرب الدائرة من املاك الدولة وتقسيمها على افرادهم بالعدل لا على مجموعهم كي لا يستبد اناس بها دون اناس ، على شريطة ان لا يتركوها مراعي وفيافي او يسلموها الى شركاء او اجراء من ابناء الحواضر بل يبنوا فيها ويستقروا وينصرفوا بانفسهم وايديهم نحو الحرث والزرع والرزق الحلال .

١٠ - منح المحتاجين منهم اعانات لشراء الادوات الزراعية والبذور

ودواب العمل وفتح قنوات الري ، واقراضهم لاجل ذلك رؤوس اموال بشروط خفيفة ، على ان تربط هذه الاعانات والقروض بكفالات قوية تؤمن انفاقها في سبيلها لا في سبيل البذخ والترف .

١١ - تزييد عدد الآبار الحديثة التي حفرتها (مصلحة الري) وتنظيف الآبار القديمة وترميم جدرانها وتسهيل سبل الانتياح منها .

١٢ - ايجاد الملاجيء الصالحة لايواء الماشية في فصل الشتاء وحفظها من الصقيع والثلج عند حدوثها ، وذلك وقاية لثروة البدو وشركائهم في الحواضر ، ومن وراء ذلك وقاية مورد كبير لخزينة الدولة .

١٣ - تأسيس مستوصفات نقالة محمولة على سيارات كبيرة يذهب بها اطباء وممرضون ويلحقون البدو الى اماكن نجعتهم في الحمادي داوونهم ويلقحونهم ، ويعالجون البجل والجدري والتراخوما وامثالها من الامراض التي تفتك بهم وبذراريهم ، ويخشى ان تنتقل بالعدوى الى الحواضر ايضاً

١٤ - تجفيف المستنقعات في الاماكن التي يقطنون فيها في المعمورة وتخليصهم من حمى الملاريا التي تصيبهم دائماً .

١٥ - ايفاد معلمين يتنقلون مع العشائر ضمن الشروط التي ذكرناها في بحث (المعارف في البادية)

١٦ - فتح مدرسة داخلية في تدمر لابناء رؤساء العشائر ووجهائها للاسباب والمنافع التي ذكرناها في بحث المعارف .

١٧ - ايفاد وعاظ وخطباء من اهل الحمية الدينية والعقيدة الصحيحة لارشاد البدو الى ما يجهلونه من العبادات والمعاملات ويدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

القرار رقم ١٣٢ ل ٠ ر

الصادر في شأن ادارة العشائر ومحاكمتهم

كانت المفوضية الفرنسية العليا في بلاد الشام اصدرت في سنين مختلفة عدة قرارات بشأن ادارة البدو ومحاكمتهم وعقوبات الغزو والغزاة ، ثم بدلتها كلها ودمجتها في قرار واحد رقمه ١٣٢ وتاريخه ـ ٤ حزيران ١٩٤٠ رأينا درجه هنا اتماماً لموضوعات كتابنا وتأريخاً لشكل الحكم ومبلغ الاهتمام اللذين كانت تقوم بهما المفوضية المذكورة في حق اهل البادية وقد انتقلت في العهد الوطني صلاحيات المفوضية المذكورة المندرجة في هذا القرار الى (وزارة الداخلية السورية) وصلاحيات (دائرة مراقبة البدو الفرنسية) الى (مديرية العشائر) ، ونرجو ان يصدر في هذا العهد الوطني قرار في هذا الموضوع اكمل وادعى لدرء المفسدة وجلب المنفعة وحفظ الكرامة القومية .

ـ الفصل الاول ـ احكام عامة ـ

المادة ١ ـ يتألف قانون العشائر الرحل في سوريا من احكام هذا القرار .

المادة ٢ ـ يعتبر رحلاً في سوريا بالمعنى المقصود من هذا القرار .

١) الافراد التابعون للعشائر المعينة في الملحق رقم ١ من هذا القرار .

٢) الافراد التابعون لعناصر جميع العشائر التي لم تذكر في هذه القائمة ، وذلك في كل مدة اقامتها في منطقة الرحل كما هي محددة في المادة ٣ ادناه .

المادة ٣ ـ تتألف منطقة الرحل بمقتضى احكام هذا القرار من الاراضي الواقعة شرقي منطقة « المعمورة » ، يعين الخط الفاصل بين

منطقة الرحل والمعمورة بالتخوم المحدودة في الملحق رقم ٢ من هذا القرار ، يدخل في منطقة المعمورة المزروعات القائمة في مختلف الاماكن المذكورة كتخوم لهذه المنطقة .

المادة ٤ ـ يعتبر نصف حضر بالمعنى المقصود في هذا القرار العشائر المذكورة في الملحق ٣ من هذا القرار .

المادة ٥ ـ ان مجرد قيد احد الافراد التابعين لعشيرة من عشائر الرحل او نصف الحضر في سجل الاحوال الشخصية لا يفقده مطلقاً صفة الرحل ولا صفة نصف الحضري .

المادة ٦ ـ يخضع الرحل مبدئياً لقواعد العرف من حيث علاقاتهم فيما بينهم ولقواعد الحق العادي من حيث علاقاتهم مع الحضريين او نصف الحضريين . يطبق المبدأ المذكور اعلاه ضمن الشروط والتحفظات الناتجة عن احكام هذا القرار .

المادة ٧ ـ ان القضايا المتعلقة بالرحل التي لا تطبق عليها احكام الحق العادي يبت فيها كما يلي حسب نوع كل قضية منها : اولا ـ اذا كانت خاضعة للعرف فصل فيها رؤساء العشائر تحت اشراف ضباط مراقبة البدو ، ثانيا ـ اذا كانت خاضعة لاحكام خاصة فصل فيها المفوض السامي ومندوبوه او المندوبون المعاونون عاملين عند الاقتضاء بمعاونة الحكومة السورية والسلطات الادارية الصلحية ، يؤازر المفوض السامي في تطبيق هذا القرار لجنة تدعى لجنة الرحل ويعين المفوض السامي كل سنة اعضاء هذه اللجنة .

المادة ٨ ـ ان القضايا التي لا تطبق عليها احكام الحق العادي بمقتضى هذا القرار لانها خاضعة للعرف او لانها من صلاحية السلطة العليا او لجنة تحكيم لا يجوز في اي حال من الاحوال احالتها الى المحاكم العادية . اذا رفعت الى المحاكم العادية دعوى من هذه الدعاوي وجب على هذه المحاكم ان تقرر في الحال عدم صلاحيتها . وحالا

بعد صدور القرار بعدم الصلاحية تحول اضبارة الدعوى الى السلطة ذات الصلاحية ، تسترجع في الحال مذكرات التوقيف الصادرة بحق المتهم او الظنين اذا لم تكن قد نفذت عند صدور القرار بعدم الصلاحية. اذا كان المتهم او الظنين موقوفاً نقل بهمة الدرك الى مركز ضابط مراقبة وسلم اليه

(الفصل الثاني ـ في القضايا العائدة للرحل)

ـ القسم الاول ـ في قضايا الرحل بعضهم مع بعض ـ

المادة ٩ ـ ان الجنايات او الجنح التي تقع بين الرحل يفصل فيها حسب قواعد العرف تحت سلطة الشيوخ واشراف ضباط مراقبة البدو. اما الاعتراضات على الاحكام الصادرة فينظر فيها مندوب المفوض السامي وهو يبت فيها في الدرجة الاخيرة وبدون مراجعة .

المادة ١٠ ـ يمكن الحكم على مرتكبي الجنايات المقترفة بحق الافراد وعلى شركائهم او المتداخلين فيها بالسجن من سنة الى خمس سنوات عدا العقوبات التي قد تفرض بمقتضى العرف . يصدر الحكم من المفوض السامي بناء على اقتراح مندوبه لدى الحكومة السورية . يحق للمفوض السامي ان يمنح عفواً عن كامل العقوبة او عن جزء منها .

ـ القسم الثاني ـ في القضايا بين الرحل والحضر ـ

المادة ١١ ـ تخضع الجنايات او الجنح المرتكبة بين الرحل والحضر او نصف الحضر للحق العادي

المادة ١٢ على انه يجوز بناء على طلب من المقدور البت في الجنايات او الجنح المرتكبة بين الرحل ونصف الحضر وفقاً للعرف ضمن الشروط المنصوص عليها في المادة التاسعة اعلاه . يبلغ المندوب او المندوب المعاون هذا الطلب الى مدعي عام المنطقة ذات الشأن ، وهذا المدعي العام يتخذ بلا امهال التدابير اللازمة لاستصدار قرار من المحكمة العادية بعدم صلاحيتها وفقاً للمادة ٨ اعلاه .

القسم الثالث ـ في بعض الجنح الخاصة

المادة ١٢ ـ ما عدا الجنح المنصوص عليها في العرف تعتبر جنحاً بمقتضى نص هذا القرار :

١ ـ التزوير واستعمال التزوير في الاستدعاآت الاجمالية ، ٢ ـ التقاضي بالقوة من الرحل او نصف الحضر او الحضر « الخوة » او « المنحة » او اية فريضة اخرى مزعومة قديمة من اي نوع كانت ٣ ـ تقاضي رسوم عن الورد من الآبار العائدة للدولة .

المادة ١٤ ـ تعاقب الجنح المذكورة في المادة السابقة بالعقوبات التالية :

١ ـ فيما يتعلق بالفقرة الاولى تعاقب بجزاء نقدي من ٥٠ الى ١٠٠ ليرة سورية وبالسجن من خمسة عشر يوما الى ثلاثة اشهر او باحدى هاتين العقوبتين فقط . ٢ ـ فيما يتعلق بالفقرة الثانية والفقرة الثالثة تعاقب بجزاء نقدي من ٥٠ الى ٢٠٠ ليرة سورية مع استرداد المبالغ المستوفاة بغير الحق . يصدر الحكم من المفوض السامي بناءً على اقتراح مندوبه لدى الحكومة السورية وبعد اخذ رأي لجنة الرحل .

القسم الرابع ـ في الغزو

المادة ١٥ ـ يعد غزواً ويعاقب كغزو كل سرقة او نهب يقوم به في الصحراء عدة اشخاص مسلحين مجتمعين تابعين لعشائر رحل ضد عشائر اخرى رحل او نصف حضر .

المادة ١٦ ـ ان الجنايات او الجنح التي يرتكبها الرحل في اثناء الغزو تظل خاضعة للقواعد العامة المعينة في هذا القرار .

المادة ١٧ ـ ان التابعين للقبائل نصف الحضر اذا اشتركوا في الغزو بصفة شركاء او متداخلين يعتبرون رحلاً من حيث قمع الغزو ويقعون بهذه الصفة تحت طائلة عقوبات العرف وكذلك تحت طائلة العقوبات الخاصة المفروضة في هذا القرار .

المادة ١٨ ـ ان الاشخاص الحضريين الذين يشتركون في غزو بصفة شركاء او متداخلين يطلون تحت طائلة عقوبات الحق العادي ، يحق للسلطة التي ترفع اليها لدعوى في باديء الامر ـ اي ضابط مراقبة البدو او مدعي عام المنطقه ـ ان تقرر التمييز بين المتهمين الرحل والمتهمين الحضر وان تلاحق القضية في الامر الذي يتعلق بصلاحيتها وان تحولها للسلطة ذات الصلاحية لملاحقتها فيما زاد عن ذلك .

المادة ١٩ ـ ان المرتكبين او شركاءهم او المتداخلين في الغزو التابعين لقبائل رحل او نصف حضر يقعون تحت طائلة العقوبات التالية او تحت طائلة عقوبة او اكثر من هذه العقوبات ولا يمنع ذلك تطبيق عقوبات العرف ، وكذلك تطبيق العقوبات التي يتعرضون لها بسبب الجنايات او الجنح التي ترتكب بمناسبة الغزو :

١ ـ رد المسلوبات ٢ ـ مصادرة الاسلحة والذخائر والمطايا وبصورة عامة جميع المعدات التي استعملت في اثناء الغزو ٣ ـ غرامة نقدية او غرامة من اسلحة حربية او غرامة من دراهم واسلحة حربية معاً واقصى غرامة تطبق تكون ضعفي المسلوبات المسترجعة . ٤ ـ السجن من شهرين الى سنتين .

المادة ٢٠ ـ يصدر المفوض السامي الحكم بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية وبعد اخذ رأي لجنة الرحل ، يجب على اللجنة في كل مرة ان ترسل رأيها معللاً وان تتخذ الآراء باكثرية الاصوات يحق للمفوض السامي ان يمنح العفو عن جزء من العقوبة او عنها بكاملها

المادة ٢١ ـ المطايا والسيارات والمعدات المصادرة بمقتضى المدة ١١ اعلاه تباع بالمزاد العلني ويدفع حاصل البيع بجملته لصندوق الغرامات ، لصاحب الشيء المصادر او لمؤجره الحق التام في ان يقيم اية دعوى قضائية كانت على رئيس العشيرة المتهمة بالغزو .

المادة ٢٢ ـ اذا لم يتم التنفيذ في المهل المعينة في الحكم الصادر يحق

لمندوب المفوض السامي بعد مصادقة المفوض السامي ان يقرر حجز القطعان وان يشرع ببيعها ضمن الشروط المنصوص عليها في الفقرة الاولى من المادة السابقة .

- القسم الخامس - في لجان التحكيم -

المادة ٢٣ - جميع النزاعات التي تتولد بين ارحل والحضر او نصف الحضر بشأن اعمال السلب والنهب التي يرتكبها احد هذين الفريقين تكون من صلاحية المحاكم العادية .

يجب بصورة اجبارية ان يؤخذ رأي ضابط من ضباط مراقبة البدو او ضابط الدوائر الخاصة في المنطقة في جميع المسائل سواء كان الامر يتعلق بتسوية حبية او بتحكيم وسواء اكان ذلك في اثناء التخمينات التي يقوم بها الفريقان نفسهما او محكموهم او خبراء معينون من قبل السلطة القضائية .

المادة ٢٤ - بالرغم من احكام المادة السابقة يحق للمغدور سواء اكان الامر يتعلق بسرقة او نهب او تخريب مهما كان ان يرفع طلبه المتعلق باسترداد الاموال المسروقة او باصلاح الضرر المسبب الى لجنة تحكيم

المادة ٢٥ - يرسل الطلب اما الى المدير او قائمقام المنطقة واما الى ضابط الدوائر الخاصة اوضابط مراقبة البدو ، وفي هذين الحالين الاخيرين يحول الضابط الذي ترفع اليه القضية الطلب بدون امهال الى القائمقام ليجمع لجنة التحكيم في الحال .

المادة ٢٦ - يجب ان يشتمل حكماً طلب التحكيم الاعتراف بصلاحية اللجنة دون سواها وبقرارها النهائي . يجب على القائمقام في الوقت نفسه الذي يدعو فيه اللجنة للاجتماع ان يبلغ الطلب الى مدعي عام المنطقة ذات الشأن . وهذا المدعي العام يتخذ بدون امهال التدابير اللازمة لاستصدار قرار من المحكمة العادية بعدم صلاحيتها وفقاً للمادة ١٨ اعلاه .

المادة ٢٧ - تؤلف لجنة التحكيم كما يلي :

قائممقام المنطقة التي ارتكب الضرر فيها رئيساً ، ورئيس عشيرة من عشائر الرحل او فخذ من عشيرة رحل غير العشيرة التي ينتمي اليها المدعون او المدعي عليهم . ويجب ان تكون العشيرة او الفخذ من اقرب العشائر الى القرية الاقرب الى المحل الذي ارتكب فيه الضرر ، مختار القرية الاقرب الى محل الضرر . يشترك عدا ذلك في مذاكرات اللجنة ويكون لها صوت استشاري : ضابط الدوائر الخاصة وضابط مراقبة البدو او احد هذين الضابطين ، وجيه ينتخب بالاتفاق بين الفريقين او في عدم الاتفاق ينتخبه رئيس اللجنه بصفة خبير .

المادة ٢٨ ـ يعين في الدعوات المرسلة الى المتداعيين مهلة كافية ليتمكنوا من الحضور امام اللجنه او ارسال من يمثلهم امامها في الوقت المناسب

اذا لم يحضر المدعي امام اللجنة او لم يرسل من يمثله في اليوم المعين في الدعوى فمجرد ذلك يعني حكماً تركه كل حق في التعويض ما لم يبرر عدم حضوره او تمثيله بظروف قاهرة .

المادة ٢٩ ـ تصدر اللجنة حكمها باكثرية الاصوات وتبت باصلاح الضرر وبالاستردادات والتعويضات المقدم بها الطلب . ولها ايضاً ان تقترح اذا رأت ذلك مفيداً عقوبات اضافية وان تقترح انما اقتضى الامر سجن المجرمين ، وفي هذه الحالة الاخيرة يعين مدة السجن المفوض السامي بعد اخذ رأي لجنة الرحل اذا كان الامر يتعلق باحد الرحل وبعد اخذ رأي مندوب المفوض السامي اذا كان الامر يتعلق بحضري او نصف حضري .

تكون عقوبة السجن من شهر الى ثلاث سنوات .

المادة ٣٠ ـ تعين في حكم اللجنة شروط تنفيذه ويوقعه من صوت له من اعضائها . يكون الحكم غير قابل المراجعة ويصبح نافذاً حالاً بعد مصادقة المحافظ عليه ويكون له قوة الحكم الصادر عن محكمة عادية .

ـ القسم السادس ـ في العلاقات مع الدول المجاورة ـ

المادة ٣١ ـ يبت في النزاعات التي تقع بين عشائر رحل سورية وعشائر رحل موضوعة تحت مراقبة الدول المجاورة وفقاً لاتفاقات معقودة او تعقد بين سورية والدولة ذات الشأن .

المادة ٣٢ ـ كل شخص تابع لبلد عقدت معه سورية بهذا الشأن اتفاقاً على قاعدة التعامل بالمثل لحقه ضرر ما في الاراضي السورية يحق له ان يطالب بتطبيق احكام المادة ٢٤ والمواد التي تليها فيما يتعلق بالبت بطريقة التحكيم في النزاعات بين الرحل والحضر او نصف الحضر وتتبع القاعدة نفسها بشأن الرحل الذين يلحق بهم ضرراً في الاراضي السورية حضريون او نصف حضريين او رحل تابعون لدولة مجاورة عقدت معها سورية بهذا الشأن اتفاقاً على التعامل بالمثل .

المادة ٣٣ ـ كل تابع من الرحل للحكومة السورية يرتكب في خارج الاراضي السورية جناية يعاقب عليها القانون السوري يمكن ملاحقته ومحاكمته في سورية . كل تابع من الرحل للحكومة السورية يرتكب في خارج الاراضي السورية امراً يعتبر جنحة في القانون السوري يمكن ملاحقته ومحاكمته في سورية اذا كانت قوانين البلد الذي ارتكب فيها ذلك تعاقب عليه . ويكون الامر كذلك اذا كان المتهم قد حصل على التبعة السورية بحق الجوار والتجائه الى قبيلة سورية (دخيل) بعد ارتكابه الجناية او الجنحة .

على انه سواء أكان الامر يتعلق بجناية أو جنحة فلا تجري اية ملاحقة بحق المتهم اذا اثبت انه حوكم محاكمة نهائية او عفي عنه في الخارج . واذا كان قد حكم عليه فعليه ان يثبت ان العقوبة قد نفذت فيه او انها اسقطت بمرور الزمن او انه نال عفواً عنها . اذا ارتكبت جنحة بحق احد السوريين او الاجانب فلا تجري الملاحقة الا بناء على شكوى من الفريق المتضرر او على شكوى رسمية تقدمها الى السلطة السوريه سلطة البلد الذي ارتكبت فيه الجنحة . لا تجري اية

ملاحقة قبل رجوع المتهم الى سورية .

الفصل الثالث — في احكام تتعلق بتنظيم العشائر ونظام مراقبة السلاح وبعض تدخلات السلطات العمومية بشأن الرحل

القسم ـ الاول في رؤساء العشائر

المادة ٣٤ ـ يعين رئيس كل عشيرة من عشائر الرحل بقرار من المفوض السامي .

يمكن عزل رئيس العشيرة لاحد الاسباب التالية :

١ ـ الاعمال التي شأنها الاخلال بالامن العام

٢ ـ رفض الخضوع الاختياري وبصورة مكررة للقوانين والانظمة النافذة .

٣ ـ اعمال العسف المتكررة التي تؤدي الى طلب عزله من قبل جميع اعضاء العشيرة .

يقرر المفوض السامي عزل رئيس العشيرة بعد تحقيق دقيق بناء على اقتراح معلل من مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية . كل طلب يقصد منه الحصول على عزل رئيس عشيرة مستند الى ادعاآت غير صحيحة او الى اعمال ليست هي من الخطورة بمكان يقع صاحبه تحت طائلة جزاء نقدي من ٢٥ الى ١٠٠ ليرة سورية والسجن من ٥ ايام الى شهر او احدى هاتين العقوبتين فقط . يصدر المفوض السامي قراراً بهذا الشأن بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السوريه .

القسم الثاني ـ في حيازة الاسلحة وحملها

المادة ٣٥ ـ ان الرحل الذين يتنقلون منفردين او عشائر في منطقة من مناطق الرحل يرخص لهم في ان يظلوا مسلحين بدون ان يجبروا على الحصول على رخصة لحمل السلاح . وعند وصولهم الى المعمورة يجب عليهم ان يحضروا لنزع سلاحهم عند ضابط مراقبة البدو او

معاونيه المرخص لهم ترخيصاً رسمياً بذلك . لا يجوز للرحل ان يقيموا في المعمورة الا بشرط خضوعهم للقوانين والانظمة النافذة بشأن حيازة الاسلحة وحملها . يرخص مبدئياً للرحل المقيمين في الاراضي المزروعة الداخلة في منطقة الرحل في ان يظلوا مسلحين . على انه يجب عليهم ان يعملوا بمقتضى الاحكام الخاصة التي يمكن تقريرها بأمر اداري من مندوب المفوض السامي او مندوبيه المعاونين . ولا يجوز لهم بأي حال ما عدا في حال حصولهم على رخصة معطاة بصورة قانونية لهذه الغاية ان يظلوا مسلحين في الاماكن الآهلة التي هي مراكز لمنطقة ادارية (المحافظات والاقضية والنواحي) وان تكن هذه الاماكن في منطقة الرحل . اذا كان من بلدية في هذه الاماكن الآهلة فتكون حدودها حدود منطقة بلديتها .

القسم الثالث ـ في الاوراق القضائية العائدة للرحل

الماده ٣٦ ـ تبلغ للرحل بواسطة الدرك الاوراق القضائية العائدة لهم . فاذا لم يكن بوسع الدرك ان يؤمن تبليغها حولها الى ضابط مراقبة البدو المكلف بالاشراف على القبيلة التي ينتمي اليها الشخص المبلغ . وعندئذ يقوم ضابط مراقبة البدو بالتبليغ اما بهمته واما بهمة رئيس العشيرة ويرسل وصل التبليغ بالتاريخ نفسه الى السلطة المبلغة . يلفت ضباط مراقبة البدو نظر قواد وحدات الدرك الى الاحوال التي يطلب منهم بصورة غير قانونية مساعدتهم لتأمين ايصال التبليغات .

المادة ٣٧ ـ يجب في الاوراق القضائية المتعلقة بالرحل ان يذكر بصورة جلية وباكثر ما يمكن من الدقة جميع المعلومات عن اسم المرسلة اليه والقبيلة المنتمي اليها . يجب ان تصل مذكرات الجلب او الحضور الى مخفر الدرك المكلف تبليغها الى ضابط مراقبة البدو قبل شهر على الاقل من التاريخ المعين للدعوة او الحضور .

المادة ٣٨ ـ يجوز ان يدعى ضابط مراقبة البدو ضمن الشروط

نفسها المذكورة اعلاه لتقديم مساعدتهم في سبيل تنفيذ مختلف المذكرات او القرارات القضائية التي يقصد منها القاء القبض على شخص تابع لعشيرة من عشائر الرحل . فاذا اوقف شخص مطلوب سلمه ضابط مراقبة البدو مع المذكرة او قرار المحكمة لاول مخفر درك او شرطة .

المادة ٣٩ ـ يمكن بصورة استثنائية تماماً ان يدعى ضباط مراقبة البدو لتقديم مساعدتهم في تبليغ الاوراق القضائية او تنفيذ المذكرات القضائية العائدة لحضريين او نصف حضريين مقيمين في منطقة الرحل .

يجب ان يرسل لهم الطلب كتابة وان يذكر فيه بصورة صريحة ان الشخص المبلغ المذكورة ليس من عادته ان يأتي بصورة منتظمة الى منطقة الحضر وانه لا يمكن مادياً تأمين التبليغ او التنفيذ بالرسائل العادية .

القسم الرابع ـ في الاوامر بالسجن .

المادة ٤٠ ـ يكون للاحكام الصادرة من المفوض السامي تطبيقاً لهذا القرار جميع مفاعيل الاحكام القضائية وتكون قابلة التنفيذ في الحال . يترتب على ضباط مراقبة البدو القيام بالبحث والتحقيق في الدعاوى وتنفيذ الاحكام . للمندوبين والمندوبين المعاونين الصفة اللازمة لتوقيف المتهمين الموقت او سجن المحكمين . وهم انفسهم يعطون الاوامر بالسجن او يفوضون لهذه الغاية ضباط الدوائر الخاصة او ضباط مراقبة البدو .

القسم الخامس ـ في الضرائب والتهريب .

المادة الرابعة ـ يخضع الرحل فيما يتعلق بالضرائب الاميرية للقوانين والانظمة النافذة .

اما الاحكام الخاصة المتعلقة باستيفاء ضريبة الاغنام فتقررها قبل ابتداء كل موسم ادارة الواردات بعد الاتفاق مع دائرة مراقبة البدو . يجوز لدائرة مراقبة البدو ان تتداخل في سبيل جباية الرسم بناء على طلب صريح من مديرية المالية .

المادة ٤٢ ـ يخضع الرحل فيما يتعلق بالتهريب ولا سيما بتهريب

الملح للقوانين والانظمة النافذة . يعطى علم بالحجوز التي تجري الى دائرة مراقبة البدو ويجب ان يؤخذ رأي هذه الدائرة قبل اتخاذ كل قرار بشأن تعيين العقوبات وكذلك بشأن تعيين طرق تنفيذ هذه العقوبات .

القسم السادس ـ في الاعانات

المادة ٤٣ ـ يجوز اعطاء اعانات لرؤساء العشائر الرحل المعينين بقرار من المفوض السامي . تعين مبلغ هذه الاعانات كل سنة الحكومة السورية بعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية وتدفع هذه الاعانات مشاهرة .

المادة ٤٤ ـ يمكن اجراء محسومات من الاعانات لاستيفاء ديون للخزينة او للافراد .

لا يجوز ان تتجاوز المحسومات لاستيفاء الديون المعدلات التالية :

الخمس من القسم الاول البالغ ٣٣٠ ليرة سورية من الاعانة السنوية ومن جميع المبالغ التي دونه ، الربع من القسم الثاني الكائن بين ٣٣٠ ليرة سورية و ١٠٠٠ ل . س

الثلث من القسم الثالث الذي يزيد عن ١٠٠٠ ليرة سورية مهما بلغ ،

يحق بصورة استثنائية للمندوب لدى الحكومة السورية ان يرخص في حسم مبالغ تزيد عن المعدلات السابقة . يحق دائماً للمديون ان يدفع ما عليه من الدين بصورة اسرع اذا فصل ذلك .

المادة ٤٥ ـ يجب حتماً ان تحسم من الاعانة الديون العائدة للخزينة . على الآمر بصرف الاعانات ان يمسك سجلاً خاصاً للاعانات الممنوحة لرؤساء العشائر ويفتح في هذا السجل حساباً خاصاً للمحسومات الواجب اجراؤها في كل حساب مع ذكر نوع المحسومات وبيان الحوالات والاوامر بالدفع العائدة لها . اذا كان ثمة نزاع على مبدأ الدين او مبلغه فلا يجوز اجراء الحسم الا بعد موافقة مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية .

الماده ٤٦ ـ يجرى الحسم لاستيفاء ديون الافراد بناء على اعتراض او حجز احتياطي . تجري الاعتراضات او الحجوز الاحتياطية بين يدي مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية ، وهذا المندوب يرى اذا كان من الواجب تحويلها الى الدائرة التي تأمر بصرف الاعانات

المادة ٤٧ ـ يجوز ان يؤخذ من الاعانات محسومات موقتة او نهائية كلية او جزئية بصفة عقوبة عن اعمال من شأنها الاخلال بالامن. يفرض المفوض السامي هذه المحسومات بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية او المندوبين المعاونين .

المادة ٤٨ ـ يجوز وقف الاعانات بجملتها او وقف جزء منها عن رئيس عشيرة لا يقوم بمساعدة كافية في تحقيق ضريبة الاغنام وجبايتها عن قطعان عشيرته . يتخذ هذا القرار مجلس الوزراء بعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية ويذكر فيه صريحاً المبلغ الواجب دفعه . تلغى الاعانة عن كل رئيس عشيرة يجعل محل اقامته في اراض اجنبية مع جملة عشيرته او مع قسم منها في اثناء التعداد وجباية ضريبة الاغنام ، في هذه الحالة تلغى الاعانات ابتداء من يوم رحيله بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء وبعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي وعند رجوعه يتخذ مرسوم جديد ضمن الشكل نفسه يقر فيه اما اعادة الاعانة بكاملها او اعادة جزء منها واما الغاؤها نهائياً

القسم السابع

في الاراضي الممنوحة للرحل من املاك الدولة

المادة ٤٩ تعين في نظام خاص المناطق التي يجوز ان يمنح فيها اراض من املاك الدولة خارج المعمورة وكذلك زيادة الاراضي الممنوحة الموجودة الآن خارج المعمورة . لا تمنح اية ارض من املاك الدولة للرحل بدون ان يستشار في الامر مسبقاً ضباط مراقبة الرحل

وهؤلاء الضباط يعطون رأيهم عن ملاءمة منح الاراضي واذا كان رأيهم بالايجاب اعطوا رأيهم ايضاً بشأن عدد الاشخاص الذين يستفيدون من الاراضي الممنوحة وعن مواردهم وعن المساحة التي يمكنهم احيائها. يجب في تقدير موارد الاشخاص الذين يستمنحون الاراضي ان تحسب المبالغ النقدية التي يثبتون وجودها لديهم والادوات الزراعية والبذار وكذلك الضمانات التي يمكنهم تقديمها للحصول على قرض من المصرف الزراعي .

المادة ٥٠ ـ اذا منحت الارض قامت دائرة املاك الدولة بتحديدها تحديداً موقتاً . وبعد انقضاء مدة سنتين من هذا التحديد الاولي تحدد ثانية تحديداً نهائياً يقتصر على الاراضي التي احياها بالفعل الاشخاص الممنوحة لهم .

المادة ٥١ ـ لا يمكن منح ارض بصورة نهائية الا ضمن الشروط التالية :

١ ـ لا تمنح الارض الا في منطقة جولان العشيرة التي يكون الطالبون منتمين اليها ٢ ـ لا يمكن ان تشتمل الاراضي الممنوحة على قطع جرى من قبل استملاكها بصورة قانونية ٣ ـ يجب ان يجري احياء الارض الممنوحة بواسطة عملة اكثرهم من البدو .
٤ ـ نقط المياه سواء أكانت آباراً او « خبرات » او اقنية قديمة او غير ذلك لا يجوز منحها مهما كانت الحاجة المتذرع بها بل يجب ان ان تبقى لاستعمال اي كان . اذا كانت الارض الممنوحة قريبة من ماء وجب ان تحفظ بمنطقة قياس نصف قطرها كيلومتران حول الماء وكذلك يحتفظ بممنفذ الى الماء بعرض كيلومترين . يحدد موقع هذا الممر بهمة دائرة مراقبة البدو بناء على طلب من دائرة املاك الدولة اما الآبار التي يفتحها ذوو الشأن نفسهم فيمكن ادخالها رغم الاحكام

السابقة في الارض الممنوحة بدون اي قيد يتعلق بمنطقة المياه المذكورة اعلاه والمنفذ اليها .

المادة ٥٢ ـ تبت لجنة مؤلفة كما يلي في كل نزاع يتولد من اضرار سببتها القطعان في غير المعمورة في مزروعات الاراضي الممنوحة:

ضابط مراقبة البدو رئيساً ، رئيسان من رؤساء عشائر او افخاذ عشائر غير العشائر او الافخاذ التي يكون المدعون والمدعى عليهم منتمين اليها .

المادة ٥٣ ـ يوضع هذا القرار موضع التنفيذ بتاريخ ٤ حزيران سنة ١٩٤٠

المادة ٥٤ ـ تلغى جميع الاحكام السابقة المخالفة لهذا القرار .

المادة ٥٥ ـ امين السر العام في المفوضية العليا مكلف بتنفيذ هذا القرار .

بيروت في ٤ حزيران سنة ١٩٤٠ المفوض السامي

الامضاء : بيو

« ملحق رقم ١ »

ـ قائمة العشائر الرحل ـ

الروالة وتوابعها ، الاشاجعة ، السوالمة ، العبد الله ، الولد علي ، البدور ، الاحسنة ، السبعة البطينات ، الاسبعة الاعبدة ، الفدعان الولد ، الفدعان الخرصة وولد سليمان ، شمر الزور ، شمر خرصة ، بني خالد ، الفواعرة ، الحديديون (الكومة ، الغناطسة ، الجلان ، البوحسن) الموالي (الشماليين والقبليين) العمور ، البوخميس ، اللهيب ، الكيار ، الوهب ما عدا فخذ السياد ، الغياث ، النعير ، النجاد ، الصليب ، الحسن ، المساعيد ، الشرقات ، العضيمات ، الشنابله ، السردية

• • •

« ملحق رقم ٢ »

الخط الفاصل بين المنطقة المعمورة ومنطقة الرحل

١ ـ من الحدود التركية الى مسكنة القديمة

ـ نقطة الابتداء : كول تبه (٦٠ كيلو متراً شرقي جرابلس على الحدود)

ـ خط الآبار المشتمل على : بير حبش ، مرتي كوي ، يدى كوي

ـ نهر الكيبو ، بير كوله كيتي ووادي تل تورلا ، قنطرة

ـ طريق كبيرد الى حيالة ، سرج ـ ماراً بالنقطة ٨٨٢)

ـ طريق سرج الى عبدا ، جفيان ، بوجاك ، الفرات

ـ مجرى الفرات (الضفة اليسرى حتى مسكنة القديمة)

٢ ـ مسكنة القديمة ، خناصر ، اندرين ، سعن وسعين

ـ مسكنة القديمة ، الطريق الشرقية الغربية التي تمر على مسافة

كيلو مترين جنوبي تل فضه حتى التقائها بالوادي الذي يصب في جبل الغول على بعد ٤ كيلو مترات شرقي الحمرا .

ـ من هذه النقطة : الوادي الشمالي القبلي حتى التقائه مع الوادي الآتي من عين زبيد

ـ طريق عين زبيد الى خناصر مارا بتل الزبيد وعازو كاروميتوتس

ـ طريق خناصر الى رمله وعيطه

ـ عيطه الى بو خرايج

ـ طريق ابو خرايج الى الافدرين (على مسافة ١٠ كيلومترات) الى قصر ابن وردان

ـ قصر ابن وردان الى سروجه عند افتراقه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي حتى سعن وسعين

٣ ـ من سعن وسعين الى عقيربات

ـ طريق المركبات التي تمر بقرى العمياء وماش العلباوي وجنا العلباوي وتل علباوي وفايا وعقيربات .

٤ ـ من عقيربات الى جب الجراح

ـ طريق المركبات من عقيربات الى سوحة ، طريق الابل التي تاتي من سوحة الى جب الجراح مارة في زغيلة تونة ومسعدة وجب الجراح .

٥ ـ من جب الجراح الى فرقلس

ـ طريق المركبات التي تتخللها قرى جب الجراح ومكسر الحصان وام الصهريج وهبرة الشرقية وهبرة الغربية .

ـ طريق الابل حتى مرتفعات جبل الشومرية الجنوبية مارة بعلامة جبل الشومرية والمهاشم وام الطيور والصوانية والحمرات ومرتفعات جبل الشومرية الجنوبية وفرقلس .

٦ ـ من فرقلس الى الغنثر وحوارين ومهين

ـ طريق المركبات التي تمر في هذه النقاط ،

٧ ـ من مهين الى عدرا بملاحات جيرود عدرا
ـ طريق الابل من مهين مارة شرقي مهين الى علامة خان الابيض ـ خان الجلاجل ـ
ـ الحدود الشرقية لملاحات جيرود . الرأس الجنوبي لملاحات جيرود
ـ وادي ضمير حد التقائه بطريق عدرا ، ضمير على بعد ٥ كيلومترات غربي ضمير ، طريق عدرا .
٨ ـ من عدرا الى حدود جبل الدروز عن طريق المسمية
ـ طريق عدرا ، ميدعة حتى قبالة الضفة الشمالية لبحيرة العتيبة
ـ ضفتا بحيرة العتيبة الشرقية والجنوبية الى الكفرين
ـ طريق الكفرين ، جديدة الخاص ، بيطارية .
ـ طريق الابل من البيطارية الى بلاى ـ بويضان ـ المسمية والحدود السورية الدرزية .
٩ ـ حدود سورية ـ شرقي الاردن
الحد الفاصل بين منطقة الرجل والمعمورة هو خط الحدود .

• • •

« ملحق رقم ٣ »
قائمة العشائر نصف الحضر

منطقة دمشق : حرب ، الصياد ، الجملان ، النعيم ، الفضل ، السلوط .
منطقة حلبية : نعيم حمص وحماه ، البشاكم ، الخراشين ، التركي العقيدات (ابو سيف ، ابو هرموش ، ابو حساف ، الدهامشه ، بو سرايا ، بو سلامة) طوقان رعية ، مشارفة رعية ، ابي عز رعية

منطقة حلب : النعيم ، البوليل ، السماطية ، فرقة السياد من عشيرة الوهب ، العقيدات البوشيخ ، المشاهدة ، الولدة ، البقارة

منطقة دير الزور : العقيدات والبوسرايا ، بقارة الزور ، البوشعبان العفادلة ، السيخة ، اليوعساف ، البوسبيع ، الولده .)

منطقة الحسجه: بقارة بومعيش ، ملى ، محمود بك ، طي ، الجبور ، الشرابين .

. . .

« ملحق رقم (٤) »

ـ قائمة ضباط مراقبة البدو مع ذكر العشائر الموضوعة تحت اشراف كل منهم ـ

منطقة دمشق : ضابط مقيم في تدمر

عشيرة الرولة وتوابعها : الاشاجعة ، السوالمة ، العبد الله ، ولد علي البدور ، السبعة بطينات ، الحسنة ، العمور (الجرباء ، الملحم ، الخرسان ، ابو حربة ، سعد الديره ، الغيات ، النعير ، النجاد) الصليب

منطقة الدير : ضابط مقيم في الدير

الفدعان ولد ، الفدعان الخرصة وولد سليمان ، عمور الجراح ـ السبعة عيذة ،

منطقة الحسجة : ضابط مقيم في الحسجة

شمر الزور ، شمر الخرصة

منطقة حلب : ضابط مقيم في معرة النعمان

الحديديين (الكومة ، الفناطسة ، الجملان ، البوحسن) الموالي (الشماليين ، القبليين) البو خميس ، اللهيب ، الغيبار ، الوهب ما عدا فخذ السياد ، العمور المهارشة

منطقة سلمية : ضابط من الدوائر الخاصة مقيم في سلمية

الفواعرة ، بني خالد

وتعود اليه مراقبة العشائر النصف حضر التالية :

العقيدات (الدغامشة ، البوسف ، البوسلامية ، البوهرموش ، البوعساف ، البوسرايا ، البوشعبان ، البوبكير) التركي ، الخراشين ، بني عز الرعية ، البشاكم ، المشارفة الرعية ، نعيم حمص وحماة ، السماطية ، طوقان الرعية

منطقة جبل الدروز : ضابط مراقبة البدو مقيم في السويداء

الحسن ، الشرافات ، العضيمات ، المساعيد ، الشنابلة ، السردية

* * *

* * *

الفهرست

رقم الصفحة

٣ التمهيد

١١ مكتبة البدو : ما ألف عن البدو

١٦ جغرافية ديار البدو : الشامية ٢٢ الزور ٢٣ المناظر ٢٤ الشنبغل ٢٥ الدو ٢٦ الوديان ٢٦ القعرة ٢٦ الحماد ٢٧ حرة الراجل ٢٧ وادي السرحان ٢٨ الاقليم ٣٠ النجعة ٣٣ قصيدة الامير عبد القادر الجزائري ٣٥ الحيوان والنبات ٣٨ التضاريس والجبال ٤٣ المياه في البادية ٤٨ منطقة الآبار ٤٨ اسماء الآبار ٤٩ منطقة الحماد والخبرات ٥١ منطقة الوديان ٥٦ الارصفة والقصور والحصون والسدود ٥٩ الطرق المعبدة وانابيب النفط ٦٦

٦٩ تاريخ البدو : اقسام القبائل القحطانية والعدنانية ٧٢ هجرات العرب ٧٨ بدو الجزيرة الاولون ٨١ بدو الشامية الاولون ٨٣.

القبائل في صدر الاسلام ٨٥ احداث البدو في العهد الاموي ٨٦ احداث البدو في العهد العباسي ٨٨ في عهد سيف الدولة بن حمدان ٩٠ في عهد المماليك ٩٢ اصل امراء الموالى ٩٢ تاريخ الامير عيسى بن مهنا ١٠٠ تاريخ الامير مهنا الثاني بن عيسى ١٠٢ الحياريون ١٠٤ تاريخ امراء الموالي الاخير ١٠٨ قصة الامير عساف مع والي حلب ١١٢ قصة الامير ملحم ١١٤ حفظة الطرق من الاسر الاقطاعية ١١٦ مجيء عنزة ١١٧ اسكان العشائر ١٢٠ اصلان باشا ١٢١ عهد الملك فيصل ١٢٢ عهد الفرنسيين ١٢٣

١٢٥ اوصاف البدو . — اوصافهم البدنية والروحية ١٢٥ النجعة وانواعها ١٢٧ اقسام البدو ، اهل الابل ١٢٨ اهل الغنم ١٣٢ اهل الفلاحة ١٣٥

١٣٦ الحالات الاجتماعية عند البدو . — وفود العرب على كسرى ١٣٦ الرجل في أهله ١٣٨ اسباب التنافر بين البدو ١٤١ تأثير المناخ في البدو ١٤٥ العصبية العربية قبل الاسلام ١٤٩ مناقب العرب في الجاهلية ١٥٤ الثأر عند العرب وصفته الدينية ١٥٦ قول ابن خلدون في حق البدو ١٦٢ قول كلوت بك ١٦٤ قول عباس العزاوي ١٦٨ قول انستاس الكرملي ١٧٠ قول أديب وهبة ١٧٣ قول حافظ وهبة ١٧٤ قول خير الدين الزركلي ١٧٦.

١٩٣ رأي الفرنسيين في البدو : قول المقدم مولر ١٧٨ قول كاتب افرنسي آخر ١٧٩ قول الرئيس رينو والطبيب مارتين ١٨٠.

التقاليد والعادات عند البدو : التكوين الاجتماعي عند البدو ١٩٣ النسب عند العرب ١٩٥ العشيرة وتأليفها ٢٠٠ العصبية العشائرية ٢٠٢ الطبقات في العشيرة ٢٤٠ المشيخة وشروطها ٢٠٥ الانفصال أو تبديل التابعية ٢١٣ الصداقة بين العشائر ٢١٤ الحرب بين العشائر ٢١٥ بيوت البدو ٢١٧ داخل البيت ٢٢٣ حلال البدو أو منازلهم ٢٢٤ لباس رجال البدو ٢٢٦ لباس النساء ٢٢٩ حالة المرأة في البادية ٢٣٠ صحة البدو ٢٣٥ الزواج ٢٣٨ الطلاق ٢٤٠ الخطف ٢٤٢ الخطف الجبري ٢٤٣ الخطف بالرضا ٢٤٣ العرس ٢٤٧.

٢٤٨ قضاء الوقت واللهو عند البدو ٢٤٨ شرب القهوة عند البدو ٢٥٠ طعام البدو ٢٥٢ قري الضيف ٢٥٩ اسلحة البدو ١٦١ الرحيل ٢٦١

٢٦٥ اعمال البدو : الصناعة ، الزراعة ٢٦٥ الرعي ٢٦٦ الغنم ٢٦٦ الخيل ٢٦٧ الابل ٢٧٠ الصيد ٢٧٥ التجارة ٢٧٧ الغزو ٢٧٧ حقوق الغزاة ٢٨٦ التضامن البدوي ٢٨٧.

٢٨٩ القضاء عند البدو ، التشريع البدوي ٢٨٩ المحاكمات الحقوقية لدى البدو ٢٩٣ انتخاب القاضي ٢٩٥ القضوة ٢٩٦ الرزقة ٢٩٦ اسماء

العوارف المشهورين ٢٩٧ الكفلاء ٢٩٨ الشهود في الدعوى ٢٩٩ الحكم ٢٩٩ الحلف والقسم ٣٠٠ البيع ٣٠٢ الشفعة ٣٠٣ الميراث ٣٠٤ الوثاقة ٣٠٥ الحشم ٣٠٦ البشعة ٣٠٦ .

٣٠٧ الحقوق الجزائية لدى البدو : الانتقام في البادية ٣٠٧ الرزقة ٣٠٨ انواع الجنايات؛ القتل ٣٠٩ الصلح بين الافراد ٣١٢ تقسيم دفع الدية واستيفاؤها ٣١٦ جريمة المرأة ٣١٦ الجرح وتعطيل العضو ٣١٧ الدخالة ٣١٨ الصلح بين العشائر ٣١٨ التعويض والحفر والدفن ٣٢١ السرقة ٣٢٢ التجاوز على رفيـــق الطريق ٣٢٣ التجاوز على الضيف ٣٢٤ حقوق الطنيب ٣٢٥ التجاوز على الناصي ٣٢٦ احكام الزنا الجبري ٣٢٦ الزنا بالرضاء ٣٢٧ خطف النساء والبنات ٣٢٨ قطع الجيرة ٣٣٣

٣٢٨ جرائم الجنح عند البدو

٣٣٤ الخوة

٣٣٧ المعارف عند البدو

٣٤١ الدين عند البدو

٣٤٤ الشعر عند البدو

٣٦٠ تحضير البدو

٣٦٩ اصلاح حال العشائر القرار رقم ١٣٢

المصادر التي روجعت بالاضافة الى المذكور منها في بحث « مكتبة البدو » المندرج في الصحيفة ١١ من هذا الجزء

معجم البلدان لياقوت الحموي
كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي
المخصص لابن سيده
مجلة لغة العرب للاب انستاس الكرملي
مجلة المقتطف
المجلة القضائية الاردنية
مجلة المشرق
المعلمة (دائرة المعارف) الاسلامية
جولة أثرية في بعض البلاد الشامية
المنهل الصافي لابن تغري بردى
البداية والنهاية لاسماعيل بن كثير الدمشقي
خطط المقريزي
تاريخ حيدر الشهابي
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر للمحبي
تاريخ حلب لكامل الغزي
سالنامة ولاية حلب لعام ١٢٨٧
سالنامة ولاية دمشق لعام ١٢٩٨
تاريخ الامم الاسلامية لمحمد الخضري
تاريخ الادب العربي لحسن الزيات
تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
كتاب لمحة عامة الى مصر لكلوت بك
تعريب محمد مسعود
رحلة في البادية لاسكندر يوسف الحايك اللبناني
قصص العرب لمحمد ابي الفضل ابراهيم
ايام العرب في الجاهلية لمحمد جاد المولى ورفيقيه
العرب وأطوارهم لمحمد عبد الجواد الاصمعي
الحياة الادبية في جزيرة العرب لطه حسين
(كتب تركية)
قاموس الاعلام لشمس الدين سامي
جهان نما لكاتب چلبي
(كتب افرنسية)
مجلة الدراسات الشرقية الفرنسية
وصف بلاد العرب لنيبوهر الدانيماركي

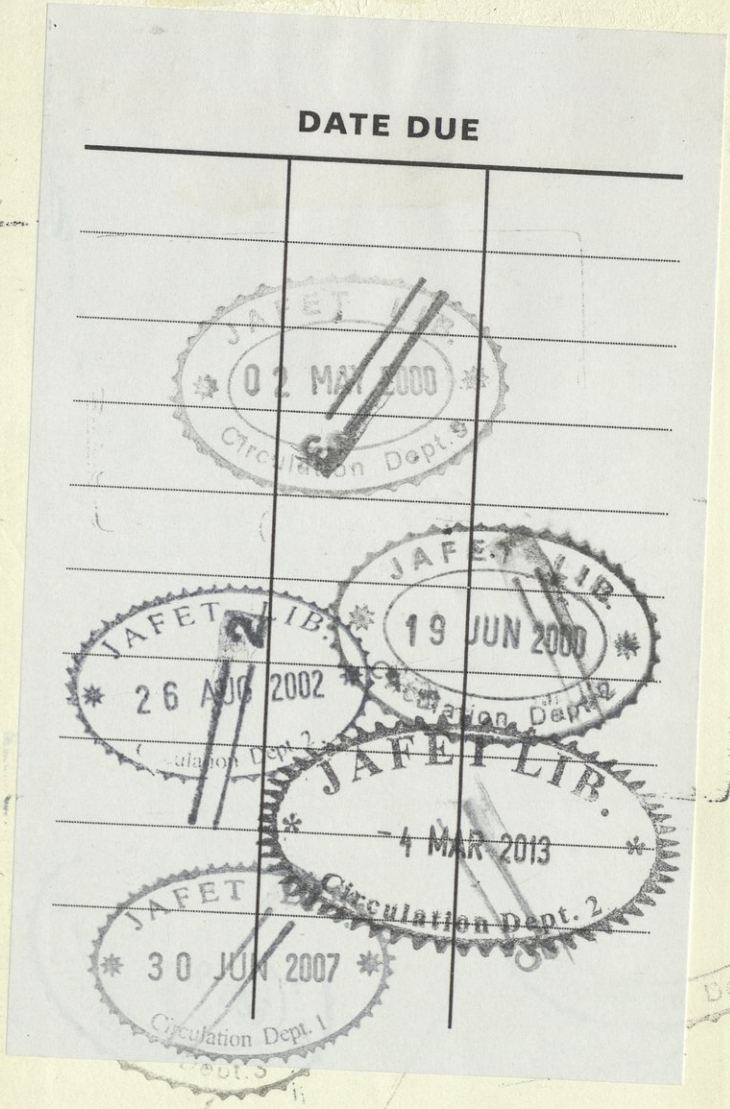
جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٥٤	٥و٨	البرغو	البرقع
٧٦	١٩	تميم	تيم
٨٥	١١	وأباي	وأبدى
٩١	١٦	وأمراها	وامراءها
٩٢	٤	والقيو	والقيود
٩٤	١	النقا	النكا
٩٤	١٥	يرهقونها	يهرقونها
١٠١	٧	اعقابه	اعقابهم
١١٠	١٦	المذكورون	المذكورين
١١١	٦	الورع	الوازع
١٢٠	٥	١١١٢	١١٢٢
١٢٤	١١	بتاتاً	باتاً
١٤٧	٩	تأبيم	تأييم

الصفحة	السطر	خطا	صواب
١٥٦	١	تعظيمو	تعظيم الجوارو
١٨٧	٧	يركبوها	يركبونها
١٩٠	١	تزينياً	تزيينياً
٢٠١	٢٢	الى	في
٢٠٥	١٣	اقعس	اقعنس
٢٥٧	٥	فاليفتها	فالفيتها
٢٧٠	•	يبقي	يبق
٢٧٢	٢٢	نصنعون	يصنعون
٢٧٢	٢٤	غيرهما	غيرها
٢٩٠	١٤	تحعكم	تحكم
٣٤٧	١٥	مشوهة	مشوبة
٣٩١	٤	البوسف	البوسيف
٣٩١	٤	البوسلامية	البوسلامة

انتهي الجزء الاول ويليه الجزء الثاني الباحث عن انساب
كل من العشائر المتبدية والمتحضرة وأوصافها
وأخبارها في كل محافظة وقضاء
من بلاد الشام الشمالية

JAFET LIB.


DATE DUE
JAFET LIB.
02 MAR 2000
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
19 JUN 2000
JAFET LIB.
26 AUG 2002
JAFET LIB.
4 MAR 2013
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
30 JUN 2007
Circulation Dept. 1

956.9:Z21aA:v.1:c.1
زكريا ،احمد وصفى
عشائر الشام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01055701

956.9
Z21aA
V.1